عصر المأمون

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

الجزء الأول

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

[الطبعة الرابعة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

فهرس

المجلد الأول من عصر المأمون

صفحة

الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

صفحة

الكتاب الثالث — عصر المأمون

صفحة

الفصل الثالث — النزاع بين الامين والمأمون :

الفصل الرابع — الخليفة المأمون :

الفصل الخامس — الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون، تاريخ الوزارات المأمونية :

صفحة

الفصل الثامن — الحياة العلمية فى عصر المأمون :

الفصل التاسع — الحياة الأدبية فى عصر المأمون :

الفصل العاشر — نماذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى :

« إنى رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلّا قال »
« فى غَدِه : لو غُيّرِ هــذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان »
« يُستحسن ، ولو قُدِّم هـذا لكان أفضل ، ولو تُرِك هذا لكان »
« أجمل . وهـذا من أعظم العِبَر ، وهو دليـل على اسـتيلاء »
« النقص على جملة البشر » .

العماد الاصفهانى

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مـــولاى

لله على نعـمةُ التوفيـق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتـك، والاستظلال بظلك، فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهدهم فضلُك، وثقفهم نصحُك، وهـذبهم أدبُك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌ، ومثقِف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنتُ قد أخذتُ نفسى بأن أقِفَ على خدمتك ما أملك من وقتٍ وجَهْـد، ولكن الإنسان طُلَعَةٌ بطَبْعه، فاذا اتصل بك فلا حدّ لرغبته فى البحث، وحرصـه على الجدّ، وطُمُوحه الى الكمال . وكذلك أراد اللهُ أن أقتطعَ من هــذا الوقت الذى وهبتُه لك خالصًا ما امكنني من وَضْع هذا الكتاب .

فهـل تأذن لى يا مولاى أن أرفع اليك "عصر المأمون" على أنه أثر يُهْدَى الى مُنْشئه، وحقٌ يُرَدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من رجلٍ مَهْمَا يَفْعل ومهما يَقُلْ فلن يوفِّيَكَ بعضَ ما يَدِينُ به ضميرُه لك من حبٍّ وإجلال .

مـدّ اللهُ فى حياة مولاى، وجعل مستقبلَها كماضيها حافلًا بالجدّ والتوفيق فى خدمة أمته وعصره ومليكه ؟

أحمد فريد رفاعى

أوّل يونيه سنة ١٩٢٧

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله . وبعد فإنى أتقدم بهذا الأثر الضئيل من "عصر المأمون" الى أمتى، والى الناطقين بالضاد من أبناء لغتى . وآمُلُ بفضل إرشاد العلماء والنقّاد أن يوفقنى الله الى إكمال النقص، وإصلاح الخطأ، وتلافى التقصير فى الطَّبَعات القادمة . معترفًا، فى صدق وإخلاص، بأن طَبْعتى هذه لا تَعْدو أن تكون "مُحاولةً" لكتابة التاريخ العربى على النُّظُم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربى لا يزال، بلا مبالغة ولا إغراق، تُعْوِزُه شتَّى المصادر كما يُعْوِزُه التنظيمُ والترتيب والتحقيق والاستقراء . وإنى أسأله تعالى أن يجعلنى ممَّن يُذْعِنُ لكلمة الحق . فيرْعَى حُرْمتها، ويهتدى بهَدْيها، غيرَ مفتونٍ بمدح المادح، ولا مُبْتئسٍ بقدح القادح . كما أسأله أن يُرْشِدَنى الى المُضِىّ موفَّقًا مسدَّدًا فيما أخذتُ به نفسى من البحث عن عصور "معاوية" و"المنصور" و"الرشيد" و"عبد الرحمن الأندلسى" . وآمُلُ بمعونته تعالى، وبإرشاد العلماء والأدباء، ومَعُونة المستشرقين والباحثين، وبما يَهَبُ لى الله من صبر وجلد، ومُواظبةٍ ومثابرة، ومتابعةٍ للدرس والاستقراء، وبما أوفَّق اليه من مصادر ونصوص، ومراجعَ ومظانّ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنتُ به، لو كان فى العمر بقية — قد وفِّقتُ الى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيما جزئيا، يتفق ووسائلى ومَقْدُورى، ويتمشَّى — الى حدّ ما — والطريقة التحليلية الحديثة فى كتابة التاريخ، وأن يكون عملى حين ذاك مما يسمح لى أن أقول، فى ثقة وإيمان، إنى قد قمت

حقا "محاولة" ذات أثر نافع تمكن غيرى من اتخاذها أساسًا لكتابة تاريخ المدنيّات العربية الواسعة المَدَى ، البليغة الأثرِ فى الثقافات الإنسانية عامة ، كتابةً تاريخية صحيحة .

٢ — وقد وقع "عصر المأمون" فى مجلدات ثلاثة، خصصت أولها بالتاريخ وماالى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما الى الأدب . واعتمدت فى تلخيصى للشعراء فيهما على أمهات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأغانى، وأعترف — فى صدقٍ و إخلاص — أنّ مهمتى فى المجلدين الأخيرين لم تخرج عن مهمة المتخيِّر لِما فى تلك العصور الزاهية من غُررٍ ودُررٍ، المنقِّب عما فيها من طُرَفٍ ومِلَحٍ ، الملخص لحياة أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول الى كتب ثلاثة . عالجتُ فيها البحثَ عن عصور بنى أمية و بنى العباس والمأمون . وقد توخَّيت الإيجاز فى فذلكتى التاريخية عن عَصْرَىْ الأمويين والعباسيين لأنهما بمثابة تُكأةٍ وأساس لموضوعنا، كما لاحظتُ الاستمساكَ بالحَيْدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرخين والرُّواة الذين تأثَّروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكَبَتْ بهم عن محجّة الصواب مغالاتُهم فى الانتصار لفكرتهم الحِزْبيّة . وقسمتُ المجلدين الثانى والثالث الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وَسِعه المقامُ من المنثور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنيت عنايةً خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعرٍ خاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عبدالحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة نموذجًا أمويًا، ومن أبى الربيع محمد بن اللَّيْث و بَشّار بن بُرْد مثالا عباسيًا، ومن عمرو ابن مَسْعَدة وأبى نُوَاس نموذجًا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، فجاء المجلدان الثانى والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقادًا راسخًا أنه لن يعترض علىّ معترض لعنايتى بالعصر العباسى من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يَعْدُ "عصر المأمون" عن كونه شطرا يُحْفَلُ به من العصر العباسى ، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لتفهم العصر العباسى أن نصوّر لك العصر الذى قبله

بما يسعه المقام . وهذا ما عالجناه لك فى كتابنا بصورةٍ متواضعةٍ نأمل أن تكون فيها الغُنية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كنتُ ذهبتُ اليـه من بيان المصادر والمراجع فى نهاية كل صفحة، رغبة فى ألّا أشغلَ نظر القارئ بما لا يُجدى عليه، وحرصا على توحيد مجهوده فى استيعاب الموضوع وتفهُّم شتَّى مَنَاحِيـه ، مُلحِقًا فى الوقت نفســه نهايةَ المجلد الثالث بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسّعا فتَراجع ثَمَّةَ .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابى هذا فى عصر النهضة الاستقلالية المصرية التى ازدانت برعاية مولانا المليك "فــؤاد الأوّل" حفظه الله . كما ازدانت بناصعة خدم أقطابنا وزعمائنا ، ذوى الصُّحُف البيْضاء، والآثار الخالدات الباقيات، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلّاء، فقيدُنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقُطْبان الخطيران "عدلى يكن باشا" و"عبد الخالق ثروت باشا". فهؤلاء الثلاثة، قد وهب الله لهم أَصَالةَ الرأى، ونَبَالةَ القَصْد، وثروةَ الذهن، وغِنَى العقل، وحباهم سدادا فى سياسة، وتواضعا مع رِياسة، وحكمةً فى كياسة، ونبوغًا مع ثقافة، وحزمًا فى حَصَافة . وأمتعهــم بثُقُوب النظر، ورَجَاحة الفكر، وأفاض على أشخاصهم لِينًا ودَمَاثة، وسمــاحة ووَدَاعة، حتى أجمـع القومُ على حبهم إجماعَهــم على الاعتراف بوافر فضــلهم، والإشادة بعَطِر ذكرهم، وتسابقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهــم، وحكيم صنعهم، ونَزِيه أعمالهم، استفادتَهم من أفَاوِيقِ عِرْفانهم، وفَيْض بيانهم، ومُقْنِـع برهانهم. وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا فى تكوينِ الأمة من الوجهة السياسية، نجاحَهم فى تكوينها من الوجهة القومية. فاللهمّ رحمةً واسعة لزعيمنا الراحل الكريم، وعوِّضْنا اللهمّ من خسارتنا الفادحة فى فقــده، أحوَج ما كنّا الى عظيم جُهُوده، وهب اللهم حياة طويلة لقُطْبَيْنا مَحَطّ الآمال ومَعْقِد الرجاء .

وأحمده تعالى على أن دخلت البلاد عهدًا جديدًا من حياتها العلمية، بزَعَامة وزير معارفنا الهمام، مُرْهَف العَزَمات، مسدَّد الوَثَبات، صاحب المعالى "على الشمسى باشا" ومدير

جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رجالات العلم والأدب فى هـذا الجيل .

٤ — وإنى أنتهز هذه الفرصة لأشيد بما للرحوم الأستاذ محمد الخضرى بك من فضل عظيم . ومعترفا بمـا لصديق الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من معونة قيمة فى غير موضع من الكتاب ، كما أنتهزها لأشكر لسادتى العلماء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسنَ استقبالهم لكتابى . كما أحمـد لحضرات النقاد الأجلاء جميلَ تشـجيعهم وحكيمَ أخذهم الأمور بهوادة ورفق . معترفًا بصادق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قـدر روحهم العالية فيما دبجوه فأجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعـلم النقد عندنا عمـا وُصم به أخيرا من التطاحُن والرِّماء ، والجلاد والشَّحناء ، والعمل على الهـدم لا على البناء ، كما أشكر لسادتى الأستاذين الجليلين محمد عبدالوهاب النجار وعبدالخالق عمر والكاتبين الأديبين محمد الهياوى ومحمـد صادق عنبر ، حُسْن صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما اللغوى أحسن الله جزاءهم .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشمّاء . وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افنـدى ومحمد عبد الجواد الأصمعى افنـدى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم الفاضل، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسوداته . كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حَدَبِه وكبير عنايته بدُورِ الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره، بأن وفّق دار الحكمة فى مصر، فى هذا العصر، الى رعاية عصره، بهمة وإخلاص، وتدقيق وتحقيق م

أحمد فريد رفاعى

٩ نوفبر سنة ١٩٢٧

الكتاب الأول

عصر بنى أمية

الفصل الأول

تحول المدنية الاسلامية

توطئة — نظام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية اليها .

(١) توطئة :

حمل الفتحُ الإسلاميّ الذى فتحه الخلفاء الراشدون فى سبيل الدعوة الدينيّة من العناصر المادّية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائجُه وآثارُه ؛ فبعد أن كانت الأموالُ فى أيام النبيّ صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفا بين إبلٍ وخيلٍ ، وبعد أن كان عمرُ بنُ الخطاب دَهِشًا مُرتابًا حينما أبلغه أبو هريرةَ عند قدومه من البَحْرين أنه أتى بخمسمائةِ ألفِ درهم فاستكثرها عمرُ وقال : أتدرى ماتقول ؟ قال : نعم ، مائةُ ألفٍ خمسَ مراتٍ . فصَعِدَ عمرُ المنبرَ وقال : «أيها الناسُ ، قد جاءنا مالٌ كثيرٌ ، فإن شئتُم كِلْنَا لكم كيلا ، وإن شئتم عَدَدْنا لكم عدًا» — بعد أن كان دَهِشًا من هذه الثروةِ أصبحنا نرى ، بعد عهده بقليل ، جسامةَ الهباتِ مما لا تُعدُّ هذه الأموالُ فى جانبه شيئا مذكورا .

ونحن لا نَعرِض الآن للقول فيما وصَلَتْ اليه الثروةُ الإسلاميّةُ فى أيام المأمون ، ولانَعرِض لفنون المدنيّات العديدة التى سادتْ فى عهده ، لأننا رسَمنا لأنفسنا خُطَّةَ مَنْ لا يريد

استباقَ الحوادث وآثارَها، ولا التاريخَ ونتائجه. وإنا نجترئُ الآن بكلامنا عن عصرٍ قريبٍ من عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم، القريبِ العهدِ بتأثر الأذهان بالمُثُل العُليا: من أبى بكر الذى مات ولم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينارا واحدا سقط من غِرارةٍ، والذى أوصى حينما دنا أجلُه بأن تُباع أرضٌ كانت له ويُدْفَع ثمنُها بدلا مما أخذه من مال المسلمين، ومن عمرَ بنِ الخطاب الذى حرّمَ على المسلمين اقتناءَ الضِّياع والزراعةَ، لأن أرزاقَهم وأرزاقَ عيالهم وما يملكون من عبيد وموالٍ، كلّ ذلك يدفعُه لهم من بيت المـال، فما بهم الى اقتناء المـال من حاجةٍ، وليس للمـال فى نفوسهم من إغراءٍ ولا الى ضمائرهم من إفسادٍ.

هذه حالُ المسلمين الماديةُ والمعنويةُ فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وصاحبَيْه، نظّر بينها وبين ماجدّ بعد ذلك من كثرةٍ فى المال وإسرافٍ فى الترَف مما كان له أعمقُ الأثرِ فى تغيّر أحوال المسلمين الاجتماعيّةِ والمعيشيّةِ والخُلُقية. يحدّثنا ابنُ خلدون عن عامل أُموى، ليس بملِكٍ ولا خليفةٍ، يحدّثنا عن خالدٍ القَسْرىّ أميرِ العراق فى أيام هشامٍ فيقول: إنّ غلّته بلغَتْ ثلاثةَ عشرألف ألف درهم. ويثبت لنا ابنُ الأثير دليلا ليس بأقلّ مما ذهب اليه ابن خلدون قيمةً وخطرًا، إذ يقول ما نصه: «إن طارقا خليفةَ خالد على الكوفة لمـا ختَنَ ولَدَه أهدى اليه خالدٌ ألفَ وصيفٍ ووصيفةٍ سوى الأموال والثياب». وذكر اليعقوبىّ: أنّ خالدا فرّق أموالا عظاما مبلغُها ستة وثلاثون ألف ألف درهم.

أجَلْ! لقـد تحولت الاعتباراتُ الاجتماعيةُ وِفاقا للتغيرات المـاديةِ؛ فبعد أيام الورع وغلبةِ سلطان الدين والعدل فى أعطيات المسلمين، بعد أيام عمر وصَحابة عمرَ التى نعلم الشىء الكثير من وجهة نظر عُمُدِ الدّين الاسلامىّ فيها الى المـال — وهو عُنصرٌ حيوىّ شـديدُ الأثر فى تحوّل النُّظم المعيشيّةِ والاجتماعية والسياسية أيضا — والى ضَرر اختزانه، فقد قال قائلٌ لعمرَ بن الخطاب: «ياأميرَ المؤمنين، لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عُدّةً لحادثٍ اذا حدَث»! فزجره عمرُ وقال له: «تلك كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فيكَ وقانى اللهُ شرَّها! وهى فتنةٌ لمن بعدى. إنّى لا أُعدُّ للحادث الذى يحدُثُ سوى طاعةِ الله ورسـوله، وهى

عُدّتُنا التى بلَغنا بها ما بلَغنا» — بعد هذه النظَراتِ التقشّفية البريئة، نظراتِ الورع والزهد، سَرْعَانَ ما حملت الفتوحُ معها ومع تلك الثروات الطائلة التى أتت بها ما غيّر عناصرَ عدّةً، فاختُرِنَ المالُ، وكانت الفتنةُ كما تنبأتْ نظراتُ عمرَ الصائبةُ الى المال واختزانه، وذهبتْ فى آثارها الى ما هو أعمقُ وأخطرُ، ذهبت الى الكِيَانِ الخلقىّ للعرب، فبدّلتْ من سيرة قادَتهم وسيرة شَعْبهم : كانت سيرةُ قادتهم عدلاً و إنصافا، وسيرةُ شَعبهم أنفةً وانتصافا، فتبدّل الحالُ غيرَ الحال، حتى أُتيحَ لمصعَب بن الزبير مثلا، وهو من بيت يُناوئ بنى أمية وينافسهم فى الملكَ، أن يبذُلَ ألفَ ألفِ درهمٍ فى زواجه من سُكَينةَ بنت الحسين، ومثلَها فى زواج عائشةَ بنتِ طلحةَ، فى حين كان جندُ المسلمين يتضوّرونَ مسغبةً وجوعا، حتى كتب عبدُ الله ابن مُصْعبٍ الى عبد الله بنِ الزبير لمناسبة ما يعانيه الجندُ وترَفِ شقيقه زعيم الجند :

بَلّغ أميرَ المؤمنين رسالةً * من ناصحٍ لك لا يريدُ خِداعا

بُضْعُ الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ * وتبيتُ ساداتُ الجنودِ جياعا

لو لأبى حفصٍ أقول مقالتى (١) * وأبث ما أبثكم لارتاعا

صدق الشاعرُ فى قوله، إنّ تلك الحالَ ليرتاع منها عمرُ حقًّا، وليَفْرَقُ من ذكرها أبو بكر، ويلتاعُ من سماعها علىّ . ولكن الحال تغيّرتْ الى مدًى بعيد، حتى أصبح المالُ غرَضا تشرئبُّ لحيازته الأعناقُ، وتنزع نحوَ تملكه النفوسُ، الى أن رأينا فيما بعدُ أن الحجاجَ بنَ يوسفَ لما حاصر الكعبةَ، وفيها ابنُ الزبير، وتردّد جندُه فى ضربها بالمنجَنيق جاء بكرسىّ وجلس عليه وقال : «يا أهلَ الشأم، قاتلوا على أعطياتِ عبدِ الملك» ؛ ففعلوا .

ذلك هو أثرُ المالِ فى الأخلاق والأحوال والنفوس طبقا للتغيرات الاجتماعية .

---

(١) هذه الأبيات من عروض الكامل وتفاعيله :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

مرتين

وفى قوله : "لو لأبى" زحاف يقال له : الخزل، وهو سكون التاء، وسقوط الألف من متفاعلن كما هو ظاهر فى "لو لأبى" فيبق متفعلن وهذا البناء غير مقول فيصرف الى بناء مقول وهو مفتعلن ؛ والخزل فى الكامل قبيح .

ولنحاول فيما سنعقده من الفصول الآتية تبيانَ حال الدولة العربيـة أيامَ عثمانَ، وكيف وصـل الأمرُ الى معاوية، وكيف خرج الملكُ من بنى أميـةَ حتى وصـل الى بنى العباس . ولنحاول بعد هـذه التقدمةِ دراسةَ الحياةِ الأدبيّة الى جانب دراستنا السياسيّة الاجتماعية ، فإنّ ذلك ينفعنا كثيرا فيما نرومه من التكلّم ببسـطةٍ فى القول وتصويرٍ صحيح لعصر المأمون الذهبيّ ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيـه ، ملاحظينَ فى ذلك كلّه جانب القصـدِ والإيجازِ، مارّين سِراعا على جُلّ الحوادث الكبار فى ذاتها، والتى لا تعنينا كثيرا فى موضوعنا، مثلَ عصر معاوية، مما نرجو أن نُوفّقَ فى المستقبل القريب فنكتبَ عنـه وعما فيه من أسرارٍ وثوراتٍ .

(ب) نظام الحكم فى عهد الصحابة :

الناس من حيث مُيولهم ومعتقداتهم ، دينيةً كانت أو سياسـيةً ، لا يكادون يَعْـدُونَ طبقةً من ثلاثٍ : محافظين، ومُعتدلين، ومُتطرّفين . ولسـنا آخذينَ بسبيلٍ من التوضيح لأحكامِ هـذه الجماعاتِ أو الأحزابِ فى حياة عثمانَ ، ولا نَظَرِ كل فئةٍ منهم الى سـياسة حكومته، وإنما يكفينا أن نقولَ : إنّ هذه الفئاتِ التى تكوّن دائما قوةَ الرأى العامّ الذى كان له فى حكومات الصحابة صوتٌ يُؤْبَهُ له وإرادةٌ تُحترَم ، مع مراعاة طبيعة النفسـيّة العربية البدوية الشديدة الإباء والأنفة — هذه الفئاتُ لم يكن شبابُها ولا كهولُها، زُهّادُها ولا النفعيّونَ فيها، براضينَ عن حكومة عثمانَ .

كان نظامُ الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيعُ السّلطاتِ نظاما تيُوقراطيا — اذا صحّ لنا هذا التعبيرُ، وهو صحيحٌ لا محالة — ذلك لأنهم بإيمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم، جعلوا الله تعالى مصـدرَ السلطاتِ الدينيـة والدنيوية، فكلّ شىءٍ لله : المـالُ مال الله، والجندُ جندُ الله . ومن هذه الناحيةِ توافرتِ الشُّورَى وتوافرتِ الكرامةُ الدينيةُ . وربمـا كان المحافظون من رجال الدين يتبرمون من هذه الناحية أيضا بمنهج حكومةِ عثمانَ ، التى لا نشك أن حزبَها أيام عثمان لم يكن بذى خَطرٍ، اللهم فى ماضيه من حيثُ الزعامة والسيادة

وما إلى ذلك فى العصر الجاهلىّ . ولكنه فاز أخيرا، ولَعِبتِ الجماعةُ العثمانيةُ ومنهم الأُمويُّونَ دَورَهُمُ المعروفَ ذا الأثرِ الكبيرِ فى العقلية العربية والمدنية الإسلامية .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها :

وبعد، فماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخُ من حكومةِ عثمانَ ؟

أما نحن فلا يُطلَبُ منا أن نُبْدِى رأينا فى عثمانَ ، فهو صحابىّ جليل، وله أثره الخالدُ فى جمع القرآن وغيرِ القرآن، وله دينُه السَّمْحُ الذى لا تشوبه شائبةٌ . وما كان الدينُ ليُحتّمَ على الناس جميعا أن يكونَ نظرُهم الى الحياة الدنيا نظرَ التقشُّفِ والزهد . ولا يُطلَبُ منا أن نُثْبِتَ ضَعفَ الحكومة العثمانية، وإنما يُطلَبُ منّا أن نسرُدَ الحوادثَ بإيجازٍ ؛ ولنا فى تسلسل هذه الحوادثِ ودراستها وتقييدِ آثارها ما قد يسمحُ لنا بالتعرُّض له حين معالجتنا الكلامَ عن عصرنا فيما بعدُ .

نعودُ فنتساءلُ : ماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخ من حكومة عثمانَ ؟

يقول اليعقوبىّ : « إن عثمان آثرَ القرباء ، وحَمى الحمى ، وبنى الدارَ، واتخذ الضِّياعَ والأموالَ بمال الله والمسلمين ، ونَفَى أبا ذرّ صاحبَ رسول الله وعبدَ الرحمن بن حنبل ، وآوى الحكَم بن أبى العاص وعبدَ الله بن سعد بن أبى سرح طَرِيدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وأهدَر دَمَ الهُرمُزان ولم يَقتُلْ عُبيد الله بنَ عمرَ به، وولى الوليدَ بنَ عُقبةَ الكوفةَ، فأحدث فى الصلاة ما أحدثَ ولم يمنعه ذلكَ من إعاذته إياه » .

ويذكر اليعقوبىّ فى مكان آخر ما كان من إغضاب عثمانَ لعائشةَ أمّ المؤمنين، ومكانةُ عائشة مكانتُها، وأنه نقص ما كان يعطيها عمرُ بنُ الخطاب، وأنها تربّصتْ بعثمانَ حتى رأته يخطبُ الناس فدلّتْ قميصَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونادَتْ : « يا معشرَ المسلمين، هذا جلبابُ رسولِ الله لم يَبْلَ وقد أبلى عثمانُ سنّته» . وليس أدلّ على شدّة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقومَ بالصلح بينه وبين الخارجينَ عليه حين اشتدّ عليه الأمرُ وصار اليها

مروانُ فقال لها : يا أمّ المؤمنين ، لو قُمْتِ فأصلحتِ بين هذا الرجلِ و بين الناسِ ! قالت : قد فرغتُ من جهازى وأنا أريد الحج ، قال : فيدفعُ اليكِ بكلّ درهم أنفقتِه درهمين ، قالت : «لعلك ترى أنى فى شك من صاحبك ! أمَا والله لوددتُ أنه مُقطّعٌ فى غِرارةٍ من غرائرى ، وأنى أُطيق حمله فأطرحه فى البحر » .

قلنا : إن نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيع السُّلطات كان نظاما تيوقراطيا فى إرجاعه كلَّ شيءٍ الى الله تعالى ، وأن المـالَ مالُ الله ، والجندَ جندُ الله ، وأن الحكم لله لا للنـاس . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وخازن بيت المـال فى عهده مُشادةٌ ومنافرةٌ ، وأن جُلّ النُّقّادِ اتخذوا من هذه المشادّةِ مَطعنًا فى سياسته المـالية ، وثُلّمةً يتهجّمُونَ منها عليه . وكانت هذه المشادّةُ بينه وبين خازن بيت المـال فى أمر عطائه ، حتى قال له عثمان : « إنمـا أنت خازنٌ لنا إذا أعطيناك نخذ ، واذا سكتنا عنك فاسكتْ » . فقال : « كذبْتَ والله ! ما أنا لك بخازنٍ ولا لأهل بيتك إنمـا أنا خازنُ المسلمين» . وجاء بالمفتاح يومَ الجمعة وعثمانُ يخطب فقال : « أيها الناس ، زعم عثمانُ أنى خازنٌ له ولأهل بيته ، وإنما كنتُ خازنا للمسلمين ، وهذه مفاتيحُ بيت مالكم » ورمى بهـا . فأخذها عثمانُ ودفعها الى زيد بن ثابت .

وليس من شكٍّ فى أن شبابَ العرب عامةً وقريش خاصّةً لهم آمالُهم ولهم مطامعُهم وهم فى مُقتبَل عمرهم حين يكون الطموحُ الى اعتلاء المراتب الرفيعة مُصطَدِمًا بالوازع الدينى ، وأنهم تأملوا أن ينال عبـدُ الله بنُ خالد بن أسيد خمسين ألف درهم ، ومروانُ بن الحكم خمسةَ عشر ألفا مع أنَّ عثمان استردّها منهما لمـا عُوتب ونُوقش ، وتأمّلوا أن يذهب آل عثمان بمناصبِ الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب ، ومن الحسب والنسب ما لا يقلّ عما لهؤلاء .

* * *

وما لنا نذهب بعيدا فى الاستدلال على نظريتنا هذه والنفسُ الإنسانيةُ هى هى الطُّمُوحُ الى زينة العاجلة وزُخرفها . وقد جاء فى الأغانى فى معرِض كلامه عن أبى قَطيفة الشاعر :

"أن ابن الزبير مضى الى صفيّة بنت أبى عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أنّ خروجه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وآبنه وأهله بالفىء، وسألها مسألتــه أن يُبايعَه . فلمـا قدمت لزوجها عَشاءه ذكرتْ له أمرَ آبنِ الزبير واجتهـادَه وأثنَتْ عليــه وقالت : ما يدعو إلّا الى طاعة الله جلّ وعزّ، وأكثرت القولَ فى ذلك، فقال لهـا : أما رأيتِ بَغَلاتِ معاوية اللواتى كان يحجّ عليهنّ الشُّهْبَ! فإنّ ابن الزبير ما يريد غيرهنّ" .

هذا رأى كبير من رجال العصر فى خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالج نفوسَ الشباب من طُمُوحٍ الى السلطان ولذّاته . مع أنّ ابنَ الزبير كان خارجا على أهل بيت يرى جُلُّ الناس فى ذلك العصرِ أنهم اغتصبوا الملكَ من أهله اغتصابا. ويظهر أنّ معاوية نفسه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجنّبُ مناجزةَ علىّ الحربَ والعِداءَ حين ذكره علىّ بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، لولا مقالَةٌ ولده له : «كلا! ولـكنك رأيتَ سيوفَ بنى هاشم حِدادا تحملها شدادٌ»، فثارت ثائرتُه وقال : «ويلك! ومثلى يُعيَّرُ بِالجُبْن! هلم إلىّ الرمحَ!» وأخذ الرمحَ وحمل على أصحاب علىّ .

فمعقولٌ أن يغضبَ هؤلاء الشبابُ وأمثالُهم من حكومة عثمانَ وهم يرون الغنائمَ والثروات تكتسِحُ بلادَهم ، وللمـال حكمُهُ وسلطانُهُ . ومعقول أيضا أن يغضبَ منها أمثالُ عمرو بن العاص الذى قال له عثمان، يوم ندبه ليُعْذِرَه عند الناس فما كان منه إلا أن أضرمَ جَذْوة الحقد عليه : «يآبنَ النابغة، والله ما زدتَ أن حرّضتَ الناس علىّ... يآبنَ النابغة، قمِلَ دِرعُكَ مذ عزلْتُك عن مصرَ» .

هذا من ناحية النفعيينَ وفيهم المتطرّفون . وهناك المعتدلون، وهؤلاء قد نأوا بجانبهم عن الفتنــة واعتزلوا الناسَ من شرّها وآثارها، وهم لهـا كارهون ومنها ناقمون . وهنـاك المحافظون الأنقياءُ حقا أمثـالُ أبى ذرّ ورافع بن خَديج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهدهم ومن حبّهم للآخرة وإعلاء كلمة الدين الشىءَ الكثيرَ، والذين

يقول فيهم الجاحظ فى رسالته عن بنى أمية[١] : « إنهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض» . ولنوضح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين فى عقيدتهم الدينية صدقا، ولنضرب مثلا بأبى ذرّ الغفارىّ ولننظر ما يحكيه لنا ابنُ الأثير فى هذا السبيل، فهو معتدل مُسْتَقر لحقيقة أكثرَ من سواه . يقول ابنُ الأثير : إن أبا ذر كان يذهب الى أنّ المسلم لاينبغى له أن يكونَ فى مِلكه أكثرُ من قوت يومه وليلته أو شىء ينفعه فى سبيل الله أو يعدّهُ لكريم، وكان يأخذ بظاهر القرآن : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فكان يقوم بالشام ويقول : "يا معشرَ الأغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار تُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم" فما زال حتى وَلِعَ الفقراءُ بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياءُ ما يَلْقَوْنه منهم ؛ فأرسل معاويةُ اليه بألف دينار فى جُنح الليل فأنفقها، فلما صلّى معاويةُ الصبحَ دعا رسولَه الذى أرسله اليه ، فقال : اذهب الى أبى ذرّ فقل له : أنقذ جسدى من عذاب معاويةَ فإنه أرسلنى الى غيرِكَ وإنى أخطأتُ بك؛ ففعل ذلك . فقال أبو ذر : يابُنىّ ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينارٌ ولكن أخّرنا ثلاثةَ أيام حتى نجمعها . فلما رأى معاويةُ أنّ فعلَه يُصدِّقُ قولَه كتبَ الى عثمانَ : إن أبا ذرّ قد ضيّق علىّ . وقد كان كذا وكذا؛ للذى يقوله الفقراء . فكتب اليه عثمان : "إن الفتنة قد أخرجت خَطْمَها[٢] وعينيها ولم يبق إلا أن تثِبَ، فلا تنكأ القُرْحَ وجهِّزْ أبا ذرّ الىّ وابعثْ معه دليلا وكَفْكِف الناسَ ونفسَك ما استطعتَ" . وبعث اليه معاويةُ بأبى ذرّ، فلما قدِم المدينةَ ورأى المجالسَ فى أصل جبل سَلْع قال : بَشِّر أهلَ المدينة بغارة شعواءَ وحربٍ مِذكارٍ . ودخل على عثمانَ ؛ فقال له : ما لأهل الشام يشكون ذَرَبَ[٣] لسانك ؛ فأخبره؛ فقال : يا أبا ذرّ، علىّ أن أقضىَ ما علىّ وأن أدعو الرعيّةَ إلى الاجتهاد

(١) راجع رسالة الجاحظ فى بنى أمية فى باب المنثور من ملحق الكتاب الثالث فى المجلد الثانى .

(٢) الخطم : الأنف . (٣) ذرب اللسان : حدّته .

والاقتصاد، وما عليّ أن أجبرهم على الزهد؛ ثم انتهت المُحاجَّةُ الى أن خرج أبو ذر من المدينة ونزل الرَّبذةَ (١) .

فهذا النوعُ من التقشُّفِ المتبرّم بحكومة عثمان، وذلك النوعُ من الشباب الطامح بعينيه الى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعةُ المعتزلةُ التاركةُ الحبلَ على الغاربِ — كلّ هذه العواملِ تجعلنا نقتنع بنجاح الفتنة ضد حكومة عثمان وانتهائها بتلك المأساة المروعة التى كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : من قتل عثمان رضى الله عنه، وما انتُهِك منه، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبَعج بطنه بالحراب، وفَرْى أوداجه بالمشاقِص (٢)، وشَدخ هامته بالعَمَد، مع ضرب نسائه بحضرته وإقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلةَ بنتِ الفَرافِصَةِ (٣) عنه بيدها حتى أَطَنُّوا (٤) أصبعين من أصابعها .

كانت تلك المأساة المروعة التى تُفتِّتُ القلوبَ الجلامدَ، وتفجّر لها العيونُ الجوامدُ، فلنقف عند ذكراها والهين آسفين .

---

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبها قبر أبي ذر الغفارى .

(٢) المشاقص : جمع مشقص وهو نصل عريض وقيل سهم . (٣) الفرافصة بفتح الفاء لا غير . وليس فى العرب ما يسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره كما أن أبا على القالى ذكر أن كل ما فى العرب فرافصة بضم الفاء إلا الفرافصة هذا أبا نائلة امرأة عثمان رضى الله عنه . (٤) أطنوا : قطعوا .

الفصل الثانى

الجهـاد بين الخـلافة والملك

توطئة — كلمتنا عن على رضى الله عنه — تحول الرأى العام — معاوية — سياسة معاوية — مميزات معاوية — معاوية والسياسة المكيافلية .

(أ) توطئـــة :

نحن الآن مُقبلون على فترة جهادٍ عنيف بين الخـلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبرَ الجهادَ فيها جهادا بين علىٍّ ومعاوية ، أو بين علىٍّ وغيرِ معاوية من مُنافسيه فى الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإنما يخلُق بنا أن نعتبرها بمثابة جهاد عنيف بين وِجْهات النظر العربيّة فى الحياة ؛ فإن موتَ عثمان رضى الله عنـه لم يُمِت الفتنةَ بل أذكاها وزادها ضِرَاما واشتعالا .

وإنه لمن الميسور للناقد أن يلتمسَ العلـةَ فى أن الأحزاب العربيةَ حين ذاكَ لم تُجْمِع على سيدنا علىٍّ ؛ ذلك بأن الجماعة الراغبة فى الوظائف والأموال لم تجد فيه طَلِبتَها وسُؤْلَها ، ولم تعثرُ فيه على أُنشودتها ورَجُلِها ، بل على النقيض قد لقيتْ منه حاكما صُلْبًا لا تلينُ قناتُه ، سار فيهم سَـيرةَ الحق لا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، وكانت حركاتُه وسكناتُه رضى الله عنـه جميعها لله وفى الله لا يَغمِط بها حقَّ أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أخاه عَقِيلًا ، وهو ابنُ أبيـه وأمه ، طلب من بيت المـال شيئا لم يكن له بحقٍّ ؛ فمنعه رضى الله عنه وقال : يا أخى ، ليس لك فى هذا المـال غيرُ ما أعطيتُك ، ولكن اصبر حتى يجىء مالى وأعطيك منه ما تريد فلم يُرضِ عقيلًا هـذا الجواب وفارقه وقصد معاويةَ بالشأم . وكان لا يعطى ولديه الحسنَ والحسينَ أكثرَ من حقهما . فانظر الى رجل حمله ورَعُه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من أبويه ! فلما سار فيهم هذه السِّيرةَ ثَقُلَ على بعض الناس فعلُه وكرهوا مكانَه .

هـذه خُطَّةُ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فمنهم مَنْ آثر العُزلةَ وترك حبلَ الأمة على غاربها، تتطاحنُ أحزابُها بين طُلَّاب الخلافة ، ومنهم الخوارج الذين غضبوا على علىّ كما غضبوا على معاوية، وندبوا من بينهم عبدَ الرحمن بن مُلْجِم ليقتلَ عليا ، والبركَ بنَ عامر ليُخلِّصَهم من معاويةَ، وعبدَ الله بن مالك الصيداوى لِيُرِيحَهم من حليف معاويةَ عمرِو بن العاص . هؤلاء الخوارجُ كانت كلمتهم : « الحكمُ لله لا للناس » فنقموا من علىّ خضوعَه للتحكيم ، وما خضع إلا مُكرَها مُعنَّتًا .

(ب) كلمتنا عن علىّ رضى الله عنه :

كان علىّ إماما دينيا، كان مَوْئِلا للشريعة ومثالا للورع والاستمساك بأحكام الكتاب، كان مَصـدرًا خَصيبا من مصادر الفقه والتشريع ، وكان فى حكومته وحروبه على السواء مُؤْثِرًا رضا الله ومُغْضِبًا شهوات النـاس وقادعًا أطماعها ؛ وكان عنوانا كاملا لأسمى صفات الخُلُقِ الإسلامىّ من حيثُ النجدة والشجاعة لا الحذق والسياسة ؛ كان مُصْلِحًا دينيا على أتمّ ما يكون عليـه مصلح دينىّ ، يتفانى فى هذا الإصـلاح ويؤثر الآخرة على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا إرضاء النـاس ، وكان كما وصـفه عَدِىُّ بنُ حاتم لمعاويةَ : « يقول عدلا ويحكم فصـلا ، تتفجّر الحكمةُ من جوانبه والعلم من نواحيـه ، يستوحش من الدنيا وزَهرتها ، ويأنس بالليـل ووحشته ، وكان والله غزيرَ الدمعـة ، طويلَ الفكرة ، يحاسب نفسـه اذا خلا ، ويُقَلِّبُ كفيه على ما مضى ، يُعجبه من اللباس القصـيرُ ، ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا ... ... كان يعظم أهل الدين ويتحبَّبُ الى المساكين ، لا يخاف القوىُّ ظلمَه ولا ييأس الضعيفُ مِنْ عدله ؛ فأُقسِمُ لقد رأيتُه ليلةً وقد مَثَلَ فى محرابه وأرخى الليلُ سرباله وغارت نجومُه ، ودموعُه تتحادَرُ على لحيته وهو يتململُ تململَ السليم ويبكى بكاءَ الحزين ، فكأنى الان أسمعُـه وهو يقول : يا دنيا أإلىّ تعرّضتِ أم إلىّ أقبلت ! غُرِّى غيرى لا حانَ حينُكِ ، قد طلقتُكِ ثلاثا لا رجعةَ فيها » .

هذا هو علىّ حقا ، علىّ الذى بالغ فى التدقيق فى محاسبة عُمَّاله حتى أغضبَ أكثرَهم وحتى خسر نصرتَهم ، وفى جملتهم مَصقلةُ بن هبيرة الشيبانىّ وابن عمه عبـد الله بن عباس

بعـد أن كان أكبرَ نصيرٍ له، والذى أغضبَ الزبير وطلحةَ وكان فى مقدوره أن يضمَّهما اليه، والذى لم يكتسب الى جانبه عمرو بن العاص، ولم يقبل نصيحةَ ابن العباس ولا المغيرة ابن شعبة فى إقرار معاوية وابن عامر وعُمّال عثمان على أعمالهم حتى تأتيـه بيعتُهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء، وقال «لا أداهِن فى دينى ولا أُعطى الدنيَّةَ فى أمرى»؛ فقيل له : انزع مَنْ شئت واترك معاويةَ، فإنّ فى معاوية جُرأةً وهو فى أهل الشام يُستمَعُ منـه وله حجـةٌ فى إثباته بمـا كان من عمرَ بن الخطاب إذ قد ولاه الشامَ؛ فأبى وقال : لا والله لا أستعمِل معاويةَ يومين . فلم تكن الحِيَلُ والخدَعُ من مذهبه، ولم يكن عنده غيرُ مُرِّ الحقّ؛ والذى يقول لأصحابه بعد أن أثخنوا فى أعدائه : «لا تتبعوا مُوَلِّيًا، ولا تُجهِزُوا على جريح، ولا تنهبُوا مالا» فجعلوا يمرُّون بالذهب والفضة فى مُعَسْكَرِهم فلا يَعرِض له أحد، إلا ما كان من السلاح الذى قاتلوا به والدوابّ التى حاربوا عليها . فقال بعضُ أصحابه : يا أميرَ المؤمنين، كيف حلّ لنا قتالُهم ولم يحلّ لنا سبيُهم وأموالُهم ! فقال علىّ رضى الله عنه : «ليس على الموحدين سبىٌ ولا يُغنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه، فدَعُوا ما لا تعرِفُون والزمُوا ما تُؤمَرُونَ» .

أجل ! هـذا هو علىّ حقا، الذى أبتْ رأفتُه وأبى دينُه أن يمنعَ أهل الشام من المـاء كما منعوه أثناء مُنازَلتهم حتى كاد يهلكُ جنـدُه عطشا، والذى منع شيعتَه وأنصارَه من شتم معاوية ، ضاربًا صفحًا عن آثار استغلال ذلك فى الدعوة السياسية لتأييد خلافته والحطّ من ملك مُنافِسـه ؛ فإنه لمـا بلغـه أن حُجْرَ بن عدى وعمرو بن الحَمِق يُظْهِرانِ شتمَ معاويةَ ولعنَ أهل الشام أرسل اليهما : أنْ كُفّا عما بلغنى عنكما، فأتياه فقالا : «يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحقّ وهم على البـاطل ! قال : كرهتُ لكم أن تكونوا شتّامينَ لعّانينَ ، ولكن قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم، وأصْلِحْ ذاتَ بيننا و بينهم ، واهدهم من ضـلالتهم حتى يعرفَ الحقَّ مَنْ جهله و يرعَوِى عن الغىّ مَنْ لَهِجَ به» .

هذا هو علىّ حقا، الشديد فى محاسبة نفسـه وعمّاله . أما محاسبة نفسه فظاهرةٌ خُلقيةٌ واضحةُ الوضوح كلّه . وأما محاسبته عُمّـاله فإن تاريخه مُفعَمٌ بمئات الأدلة والشواهد ممـا

أفاد منه مُعاويةُ أيّما فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مَصقلَةَ بن هبيرةَ الشيبانيّ من عليّ وانضمامه الى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجبة التيمى الذى كان قد ٱستعمله عليّ على الريّ فكسر من خراجها ثلاثين ألفا، فكتب اليه عليّ يستدعيه فحضر، فسأله عن المال قال : أينَ ما غلته من المال؟ قال : ما أخذتُ شيئا، فخفقه بالدِّرَّة خَفَقات وحبسه . ووكل به سعدًا مولاه، فهربَ منه يزيدُ الى الشام، فسوّغه معاويةُ المالَ، فكان ينال من عليّ، وبقى بالشام الى أن اجتمع الأمر لمعاوية، فسار معه الى العراق فولّاه العراقَ .

فهذه الشواهدُ وأمثالُها فيها أقطعُ الدلالات على شدّة محاسبته لعماله و إغضابه آلَ بيته تدينا وورعا، وعملا للآخرة، لا لبناء ملك فى الدار الأولى .

فَلنَحفَظْ هذه الصورة جيّدا، ولنذكر أنها لم يُتَح لها الفوزُ والنجاحُ فى ذلك الجهادِ السياسيّ، وأن الكِفّةَ الراجحةَ فى سياستنا الدنيوية كانتْ لمنازله الذى يجدُر بنا أن نَدرُسَه بإيجازٍ وٱقتضاب .

(ج) تحوّل الرأى العام :

صوّر الشاعرُ العبقريّ "شكسبير" فى روايته "يوليوس قيصر" تأثُّرَ الرأى العام ببلاغة زعمائه التى يستغلّون بها سذاجةَ موقفه، و يملكون بها عقولَ قومهم التى بها يفكرون، و يسحرون بها عيونَهم التى بها يُبصرون، فلا يَصدُرون إلا عن إرادتهم، ولا يُفكّرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيّما إبداع فى موقفَى "بروتس" قاتل قيصر ومنقذ الرومان، و"أنطونيوس" مؤبّنه وراثيه ، وأظهر الى أيّ مدًى ٱفتتَن بهما الجمهورُ، والى أيّ مدًى تناقض فى حبّه و بغضه و إكباره وتأليه .

شكر الرومان "بروتس" قاتل قيصر لأجل الرومان وفى سبيل الرومان، فأسلس له قيادهم وطلبوا منه أن يتبوأ العرش مكانَه، وحُمِلَ على الأعناق بعد أن تبوأ منهم حبّات القلوب، ثم استمعوا الى "أنطونيوس" يرثى قيصرَ، وما استمعوا له لأن "بروتس" طلب منهم أن

ينصتُوا لأن قيصرا الطاغيةَ غيرُ قيصرِ الراحلِ ؛ فأنصتُوا وتكلم «أنطونيوس» فحرّك من شؤونهم وأشاهم أنفسَهم ، وآستغلّ فى موقفه ما بثياب قيصر من دماء وثقوب ، وما بجسمه من طعنات وجروح ، حتى اضطرمت الفتنةُ ، وكان نصيبُ «بروتس» ما تعلم بعد حمله على الأعناق !

هكذا فعل معاويةُ فى جهاده وجلاده عليًّا ؛ فقد صدع بما أشار به عليه عَمْرو ابن العاص إذ طلب اليه إظهارَ قميص الدم الذى قُتِلَ فيه عثمانُ وأصابع زوجته وأن يُعلّق ذلك على المنبر ثم يجمعَ الناسَ ويبكى عليه عازيا قتلَ عثمان الى علىّ مطالبا بدمه مستميلا بذلك أهل الشام وغيرهم من عامة المسلمين . أخرج معاويةُ القميصَ والأصابع وعلّقه على المنبر وبكى واستبكى الناسَ وذكّرهم بمُصَاب عثمانَ ، فانتدبَ أهلُ الشام من كل جانب وأيدهم الأشرافُ وذوو النفوذ كشُرَحْبِيلَ بن السِّمطِ وسواه ، وبذلوا له الطلبَ بدم عثمان والقتال معه على كل من آوى قَتَلَتَه . ثم خلقَ لعلىّ مُعْضِلةً سياسة لا يهون على السياسىّ حلُّها ، ذلك بأن بعثَ برسالة الى جماعة علىّ ، وهذه الرسالة تحتوى على أُسُسِ المبادئ العثمانية وتقول : « أما بعد ، فإنكم دعوتم الى الطاعة والجماعة ، أما الجماعة التى دعوتم اليها فمعنا ؛ وأما الطاعة لصاحبكم فلا نراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرّق جماعتنا وآوى ثأرنا[1] وقتلتنا ؛ وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نردّ ذلك عليه ؛ أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا ؛ ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؛ فليَدْفَعهم الينا فلنقتلْهم به ، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة » . وكيف يستطيع علىّ أن يدفعَ الى معاوية قتلةَ عثمان ! وماذا يكون موقفُه أمامَ ذلك الحزب القوىّ الناقم على الخليفة المقتول ! فلذلك كان من المعقول أن يقف ردّه أمامَ هذه المشكلة السياسية عند قوله : « أما ما سألتَ من دفعى اليك قَتَلَتَه فإنى لا أرى ذلك ، لعلمى بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة الى ما تأمله ومرقاةً الى ما ترجوه ، وما الطلب بدمه تريد » .

---

(١) ثأره : قاتل حميمه .

(د) معاوية :

لسنا نتعرض للحكم على دين معاوية ومبلغ تمشيه فى تصرفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع ؛ فقد تكلم فى ذلك فيه الشافعىّ والحسن البصرىّ ، وإنما نريد أن نُمَثِّل معاويةَ مؤسِّس الملكية فى الإسلام ، وواضعَ أُسُس السياسة الدنيوية ، والذى قال فيه عمرُ بن الخطاب لجلسائه : "تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاويةُ ! " .

(ه) سياسة معاوية :

كان معاويةُ ذا مواهبَ سياسيةٍ كبيرةٍ ، وكان داهيةً ، ذَهِنا ، بعيدَ مدَى العقل ، مالكا قِيادَ أهوائه ، كان "ذا مكر وذا رأى وحزم فى أمر دنياه ، اذا رأى الفُرصةَ لم يُبْقِ ولم يتوقَّف ، واذا خاف الأمرَ توارى عنه ، واذا خُوصِمَ فى مقال ناضل عنه وقطعَ الكلامَ على مُناظِره" .

كان يعمل جُهدَه ليشترى ضمائر القبائل العربية ، وكان كثيرَ البذل فى العطاء . وقد ذكر الطبرىّ حادثة نستطيع أن نستنبطَ منها نظرَ معاويةَ الى المال والى مبلغ استعماله إياه ليملك به ضمائر أهل المكانة والنفوذ من مُعاصريه : ذكر أن أبا مُنَازِل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينما أعطى جماعةً من الزعماء ممن فى مرتبته مائةَ ألف : فضحتنى فى بنى تميم ، أمَا حَسَبى فصحيح ! أوَلَسْتُ ذا سِنّ ! أو لستُ مطاعا فى عشيرتى ! فقال معاوية : بلى ، قال : فما بالك خَسَسْتَ بى دونَ القوم ! فقال : إنى اشتريتُ من القوم دينَهم ووَكَلْتُكَ الى دينك ورأيك فى عثمانَ بن عفان — وكان عثمانيا — فقال : وأنا فاشترِ منّى دينى ؛ فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته ، مِعْطَاءً وَهُوبًا بسجيته ؛ وقد صدق فى صفته أبو الجهم الشاعرُ إذ قال :

نميل على جوانبه كأنا * نميلُ ولا نميل على أبينا
نُقَلِّبُه لنخبُرَ حالتَيْه * فنخبُرُ منهما كَرَمًا ولِينَا

وإنا نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورةُ معاويةَ لقتل عثمانَ ثورةً مصدَرُها إخلاصُهُ العميقُ فى العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجرِىَ حكمَ الشَّرع فى قتلة عثمان، أم ثورةً مصدَرُها طُمُوحُه الى الملك ليغتصبَه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان، فانّ التاريخَ يحدثنا أن معاويةَ لما قدم المدينة دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أبتاه ! وبكَتْ، فقال معاويةُ : «يابنة أخى، إن الناس أعطَوْنا وأعطيناهُم أمانا، وأظهرنا لهم حِلما تحته غَضَبٌ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حِقْدٌ، ومع كلّ إنسانٍ سيفُه وهو يرى مكانَ أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكونى بنتَ عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكونى امرأةً من عُرْضِ المسلمين» .

وقد لا نجد تصويرا أدقَّ لسياسة معاويةَ وطريقة حكمه من قوله : "لا أضع سيفى حيث يكفينى سَوطى، ولا أضعُ سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أنّ بينى وبين الناس شعرةً ما انقطعتْ . قيل : وكيف ذاك؟ قال : كنت اذا مدّوها خلّيتها واذا خلّوها مددتها".

فهذا القول يبيِّن حلمَه وطولَ باعه فى السياسة، وهدوءَ أعصابه اذا جابهته المشكلاتُ، أو نزلَتْ بساحته الكوارثُ والمعضلاتُ، ويُظْهِرُ سعةَ عطنه وحزمه . ولقد قال له يزيد يوم بويع له على عهده بجعل الناسُ يمدحونه ويقرّظونه : «يا أميرَ المؤمنين، والله ما ندرى أنخدعُ الناس أم يخدعوننا !» فقال معاويةُ : «كلّ مَنْ أردتَ خديعتَه فتخادعَ لك حتى تبلغَ منه حاجتَكَ فقد خدعته» .

ثم آنظر الى مختلِف تصرّفات معاويةَ فى حياته السياسية وغيرها، فإنك لتقتنعُ بصدق حكم الشعبيّ الذى قال فيه : «كان معاويةُ كالجمل الطبّ اذا سُكِت عنه تقدّم، واذا رُدّ تأخّر» .

(و) مميزات معاوية :

ولقد آمتاز معاويةُ الى جانب إلمامه التامّ بميول كلّ من له به علاقةٌ من الناس، وصادِقِ تقديره مع ثقوب بصيرته بما فيهم من نواح للضعف يستطيع التسرّبَ اليهم منها —

امتاز الى جانب هذا كلّه بصفات ثلاث لها مكانتها السامية فى تكوين الدُّهاة من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاثُ هى : أولا إيقاعُ أعدائه فى مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمةٌ، بأفانين طريقة طالما عَمَدَ اليها الكثيرُ من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقته فى إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام، وذلك بهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقيّة هى حلمُه ، وهناك مِئاتُ الأمثال أُتْرِعَتْ بها كتبُنا الأدبيةُ والتاريخيةُ ، مُشيدةً بحلمه مُطنِبةً فى فضائل سَعَة صدره . على أنا نجتزئ هنا بمثَل عادىّ ، ذلك أنه لما ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبدُ الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأُموى ، فقال له : يامعاوية لو لم تجد إلا الزَّنجَ لاَستكثرتَ بهم علينا قِلّةً وذِلّةً، فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليعَ، فقال مروان : والله إنه لخليعٌ ما يطاق، فقال معاوية : والله لولا حلمى وتجاوزى لعلمتَ أنه يطاقُ ! ألم يبلغنى شعره فىّ وفى زيادٍ ! ثم قال لمروان : أَسْمِعنِيه، فقال :

ألا أبلِــغْ معاويةَ بنَ صخر * لقد ضاقَتْ بما تأتى اليدانِ
أتغضَبُ أن يقالَ أبوك عَفٌّ * وترضى أن يقالَ أبوكَ زانِى

الصفة الثـالثة هى نعومته السياسية، وهى غير الحلم، وقد تُعتَبرُ الى حدٍّ ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبينَ الحسن بن علىّ فى شأن نزوله عن الخلافة له ، إذ كتب اليه معاويةُ كتابا قيما جاء فيـه : «أما بعد، فأنت أولى بهـذا الأمر وأحقّ به لقرابتك، ولو علمتُ أنكَ أضبطُ له وأحوطُ على حريم هذه الأمة وأكيدُ لبايعتُكَ، فسل ما شئتَ» . وبعث اليه بصحيفة بيضاء مختومة فى أسفلها : أن اكتب فيها ما شئتَ . فكتب الحسنُ أموالا وضياعًا وأمانًا لشيعة علىّ .

أضف الى هـذه الصفات ماكُتِبَ لمعاوية من توفيقٍ وسَدادٍ فى اختيار أكبرِ دُهاة الولاة كعمرو بن العاص وزيادِ بن أبيه والمغيرةِ بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا ، الى حدّ غير قليل ، خطوات زعيمهم السياسى فى شراء الضمائر وسَعة العَطَن ورُجوح حَصَاة العقل . وهـذا زياد المعروف بشـدّة الوطأة بلغه عن رجل يُكنَى أبا الخير من أهل البأس والنّجدة أنه يرى رأىَ الخوارج ، فدعاه فولّاه جُنْـدَيْسَابور[1] وما يليها ورزقه أربعـةَ آلاف درهم كلّ شهر ، وجعل عِمَـالته فى كلّ سـنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : «ما رأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة ، والتقلّب بين أظهرِ الجماعة» . كذلك فعل المغـيرةُ بن شعبة حين حَصَبه حُجْرُ بنُ عِدىّ وهو على المنبر فى خطبة الجمعـة ، فإنه نزل مُسرعًا ودخل قصرَ الإمارة وبعث الى حجـرٍ بخمسة آلاف درهم ترضّاه بها . فقيل للمغيرة : لم فعلتَ هذا وفيه عليكَ وَهْنٌ وغَضَاضةٌ ؟ فقال : «قد قتلتُه بها» ! !

الى جانب هـذه العناصر المكوّنة لتلك الشخصيّة البارزة التى اعتمدَتْ فى تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه مِنْ ترضّى الأحزاب بالمـال وعامةِ الناس بالطعام ، واستغلال العصبيات العربية ، والتساهل فى إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعةُ الأحوال السياسية ، فإنّ معاويةَ يصف بنفسه سببَ نجاحه على علىّ بقـوله : «أُعِنْتُ على علىّ بن أبى طالب بأربع خصال : كان رجلا ظُهَرَةً عُلَنَـةً لا يكتم سرًّا ، وكنتُ كَتُومًا لسرّى ؛ وكان لا يسعى حتى يُفاجئَه الأمرُ مفاجأةً ، وكنتُ أُبادرُ الى ذلك ؛ وكان فى أخبثِ جنـد وأشدّهم خلافا ، وكنتُ أحبَّ الى قريش منه ، فنلتُ ما شئتُ ؛ فلله مِن جامعٍ الىّ ومُفرّق عنـه ! » .

(ز) معـاوية والسياسة المكيافلية :

وبعد ، فإن السياسة الحديثة قد أباحت لرجالاتها فى سبيل تحقيق غاياتهم أن ينتهجوا من الوسائل ما يكفُلُ لهم نُجحَهُم السياسىّ . ويجب علينا أن نُثبت أن جُلّهم ، ولو أنهم يتظاهرون بنفورهم من مدرسة «ماكيافلى» التى تُضَحّى بكل شىء ، تسويغا للوصول الى الغاية السياسية ، يأخذون فى الواقع بتعاليمها ويعملون على برنامجها . هذه السياسة الإيجابية فى نجاحها العملىّ ، السلبية فى إرضائهـا المناحى الخلقيّة ، هى التى أخرجتْ لنـا

(١) مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت اليه وأسكنها سبى الروم وطائفة من جنده . أنظر معجم ياقوت .

«ماترنيخ» و «كافور» و «دزرائلى» و «بسمرك» و «بت» ، وهى التى كان من أبطالها « جلادستون » ذو المواقف الغريبة فى الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تمحّل من الشواهد واختلق من السابقاتِ ما ليس له من وجودٍ !

كذلك كان معاوية، فى جُلّ تصرفاته ، يحفل كثيرا بتحقيق غاياته فى تشييد الملكِ ، فهو يُدبِّر أمورَ الناس لهذه الوِجهة، وهو ينتهج من الوسائل السياسية ما يكفُل نجاحَه فى هذه الوجهة. وإنه لخليق بنا وبسوانا ألّا نعدوَ بعيدا عن هذه الوجهة حين نَظرِنا الى معاوية فى كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حدّه شاعرَه الكبير ابن سيحان ، وحين حكم لابن الزبير بثمن داره المحترقة، وحين أرضى عَقِيلًا ، واحتملَ من الأحنف بن قيس ما احتملَ، وحين تخلّص من الاشتر النخعى ومن عبد الرحمن بن خالد، وحين فصل فى منازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكاية الأرض التى قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدَهما، وحين كان يبذُل المالَ طبقا لمناهجه السياسية . وإنا نُبيح لأنفسنا حين ننظر الى قول زين العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاويةُ بذهبه » أن نقول : « إن معاويةَ كان يقاتل عليا بذهبه وذهنه » .

وإنا لنظنّ أنا قد صوّرنا معاويةَ بما هو أهلُه ، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصيةُ الفذّة فى مسايرة الناس واحتمال الأذى منهم، والتى يقول صاحبها : "ما من شيء عندى ألذ من غيظ أتجرّعه" . «وإنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكِنا» .

والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومميزاته ، أن نفهم قيمةَ قول علىّ رضى الله عنه فى كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما نختتم به كلمتنا فيه : " إنى وليّتُك ما وليّتك وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبى سفيان فلتةُ من أمانى الباطل وكذبِ النفس ، لا تُوجبُ لك ميراثا ولا تحِلّ له نسبا . وإن معاويةَ يأتى الإنسانَ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذرْ ثم احذرْ . والسلام " .

الفصل الثالث

سياســة معاوية وخلفائه

توطئة — اصطناع الأحزاب بالمال — العمال — الوجهة الدينية — العسف المذهبي .

(أ) توطئـــة :

إنّ معاويةَ الذى مَرَنَ على السياسة بنشأته وحَذَقَها بسجيّته وأتقنها لمختلِف أدوارها التى تقلّب فيها، فطُبِـعَ عليها وطُبِعَتْ عليه، وأصبح منها وأصبحت منه، لم يكن فى مقدوره إلا أن يكون سياسيا فذًّا موفّقا ، بل مصدر سياسات عبقرية طالما نَشَدها عصرُه وزمانُه حتى بُعِثَ بها وبُعِثَتْ له ، وخُلِقَ منها وخُلِقَتْ منه ؛ وكانت فى نفسها وجوهرها خليقةً للإجلال والإكبار ، كما كان صاحبُها قمِينًا بالنجاح جديرا بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن فى وسعه ، بطبيعته واستعداده ومواهبه واستمامه لأداة الحكم والسلطان ، إلا أن يُوفَّقَ مظفَّرًا فى مختلِف خُطَطِه التى ارتسمها سديدةً ناجحةً، لأنها قطعةٌ من نفسه ؛ وكلُّ ما كان من نفس معاوية فهو بمثابة أصول السياسة فى تشييد الملك بمنجاةٍ من الأعاصير التى تقتلع كلَّ مُلْكٍ قائم على غير طبيعة السنن الملكية الضرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوّة بيوتاتها .

إنّ معاويةَ ومن ضُرِبَ على قالَبه وغِراره علموا الخفيّاتِ من أهواء النفوس ، فتم لهم تملّكُها وقيادتُها ، وانتهجوا بها من المسالك ما أشبع نَهمتَهم ونهمتها ، وحقّق بُغيَتَهم وبغيتَها ، ووحّدوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومُختلِف رغباتها ومُصطَدم منازِعها ، وفَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استخدام كلّ ما فيه القوّةُ والحياةُ لمُلكِهم من شتّى العناصر : فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبِهِمْ .

أما فى نفوسهم فبأخذها ، مكرهةً أو طائعةً ، بالتزام ما فيـه النُّجحُ والتوفيقُ مع قصدٍ واعتدال ، فتختار من الولاة والزعماء والقوّاد والبطانة مَنْ فيهم الغُنيةُ والكفايةُ وحسنُ

البَلاء، يبحث عنهم أنى وُجِدُوا، مهما كانت عصبياتُهم وخفّـةُ ظِلّهم أو كثافةُ نفوسهم، ويُجَعَلون فى مراكزهم بمعزِلٍ عن التغيير والتبديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملكِ .

وأما فى ولاتهم فبِبعدهم عن جور الرعية وإنصافهم الناسَ جميعا، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسىّ أو مذهبهم الدينىّ عَسفٌ ولا ظلمٌ .

ولقد سأل الوليد عامله الحجاجَ المعروفَ بعَسفه وجَبروته أن يكتب اليه بسيرته، فكتب ما نثبته هنا، وكنا نودّ أن يكون نِبراسًا حقًا للحجاج وغير الحجاج، قال :

" إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى، فأدنيتُ السيدَ المطاع فى قومه، ووليتُ الحربَ الحازمَ فى أمره، وقلدتُ الخراجَ الموفرَ لأمانته، وقسّمت لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عنايتى، وصرفتُ السيفَ الى النَّطِف المسىء، والثوابَ الى المحسن البرىء، فخاف المريبُ صولةَ العقاب، وتمسّكَ المحسنُ بحظه من الثواب " .

وأما فى سائر شَعْبهم فبأن يستمتعوا بكل ما يُرضى العدلَ والحقَّ مع طُمَأنينتهم على مالهم وأنفسهم، وأن تكون أبوابُ الولاة لشَكاتهم مفتوحةً، وآذانُهم لمطالبهم مُصْغِية، وعيونُهم لخيرهم ناظرةً . وكم تُفيد تلك الصفاتُ مع حزم فى الولاة !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدّته لا يحتجب عن طالب حاجةٍ وإن أتاه طارقًا بليل . وهو الذى كانت عقوبته القتلَ للدلج، وأخذ المقبل بالمدبر والمقيم بالظاعن . وقد وُفّق زيادٌ الى استتباب الأمن فى ربوعه حتى قال المدائنىّ : « قَدِمَ قادم على معاويةَ بن أبى سفيان فقال له معاوية : هل من مُغَرِّبَةِ خَبَرٍ ؟ قال : نعم، نزلت بماء من مياه الأعراب فبينا أنا عليه أورد أعرابىّ إبلَه، فلما شربَتْ ضرب على جُنوبها وقال : عليكِ زيادًا، فقلتُ له : ما أردتَ بهذا ؟ قال : هى سُدًى ما قام لى فيها راع منذ ولى زياد . فسرَّ ذلك معاويةَ وكتب به الى زياد » .

قلنا : إن معاوية ومن ضُرِبَ على قالبه وغِراره فَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استعمال كلّ ما فيه القوة والحياة لملكهم من شتّى العناصر فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبهم ، والآن نريد أن نَدْرُس بإيجاز الأُسُس التى باتباعها تمّ النجاحُ فى تشييد البيت الأُمَوِىّ ، والتى باضطرابها والتنكّب عن سنتها وطبيعتها كان ضَيَاعُه وفناؤه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمالْ :

قال ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : «إن أحمدَ بن يوسفَ الكاتبَ قال لأبى يعقوب الخُرَيمى : مدائحُكَ لمحمد بن منصور بن زياد — يعنى كاتب البرامكة — أشعرُ من مراثيك فيــه وأجودُ ، فقال : كنا يومئذ نعمــل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمــل على الوفاء وبينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ابن قتيبــة فقال : « وهذه عندى قصــةُ الكُمَيْت فى مدحه بنى أميــة وآل أبى طالب فإنه كان يتشيّع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أمية أجودُ منه فى الطالبيين ، ولا أرى عِلّةَ ذلك إلا قوةَ أسباب الطمع وإيثارَ النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » .

صدقَ ابنُ قتيبة فيما ذهبَ اليه ، فإن أثر المال فى النفس الإنسانية غيرُ قليل ، وإن أثره فى اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى تدليل ، وقد جُبِلَتِ النفوسُ على حُبِّ مَنْ أحسنَ اليها وبغض مَنْ أساء اليها .

ولقد كان معاوية كيّساً فذًّا فى استعمال المال واكتساب رضا الجمهور ، وكذلك كان كل من ائتم بهديه وسنته ، فى البذل والعطاء ، وفى التوسعة على من آزرهم ، وعَمِلَ على نصرتهم ، ومدّ ظلهم وتثبيتِ عرشهم ؛ فقد زاد معاوية فى العطاء لمن شهد مواقعَه ، كما فرضَ الأعطيةَ للشعراء ، غاضًّا طرفَه عما فى ذلك من إغضاب المحافظين من رجال الدين ، إذ كان همه أن يملك الأبواق المدّاحة ويسترضيها بهباته ونواله ، لِتَنْشُرَ فى الآفاق ذكرَه وترفع الى السماكين فضلَه ، حتى قصده الشعراءُ وانتجعوه ، وناصروه وظاهروه ، وحتى علم الخاصّ

والعامّ أنه إن مدحه أثراه، وإن استرفده أغناه، وإن ناصره راشه وأعلى مكانه، فأضحى نُجعةَ الروّادِ ومقصدَهم، وموئلَ القُصّاد ومنهلَهم. وكانت الزوجة تستحث عزَمات زوجها أن يهرعَ اليه ليُصيبَ من نوافله، وليعُودَ اليها بنوائله، كما كانت ترغّبُ بعلَها أن يبيعَ إبلَه وأن يفترضَ فى العطاء بشعره.

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهانى شيئا من ذلك فى أخبار جبيهاء الأشجعى[1] فى خبر طويل انتهى بأن قال جبيهاء الأشجعى قصيدته التى فيها:

قالت أُنيسةُ دعْ بلادَكَ والتمِسْ * دارا بطَيْبَةَ ربّةِ الآطامِ
تُكْتَبْ عيالُكَ فى العطاء وتُفترَضْ * وكذاك يفعلُ حازمُ الأقوامِ

وهنالك مسألة مهمة من سياستهم فى اصطناع الأحزاب، وإلجام الأفواه بالمال، وفرض العطاء للشعراء الذى ظل معمولا به إلا فى أيام عمر بن عبد العزيز، ذلك أنهم كانوا يتملكون رقابَ المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة ويكتبون صَكًّا عليهم. ونحن نعلم أن الدَّينَ همٌّ بالليل ومذلّةٌ بالنهار.

ويذكر لنا الأغانى فى باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرضه له سليمان بن عبد الملك إذ أمر له بألف دينار فى دينه، وألف دينار معونةً على عياله، وبرقيق من البيض والسودان، وبكثيرٍ من طعام الجارى، وأن يُدانَ من الصدقة بألفى دينار.

على أنه قد يُعترَضُ علينا بأن الحادثة التى قدمناها حادثةٌ فرديةٌ لا يصح أن تُتخذَ قاعدةً عامة أو أن يُستنبطَ منها وقوعُ مَثيلاتها وذيوع نظيراتها.

بيدَ أن الأغانى يُجهِزُ على هذا الاعتراض، إذ يُثبتُ ما نصه: «كان السلطان بالمدينة اذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قريش منه، وكتب صَكًّا عليه يستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه، فاذا غَضب على أحد منهم استخرج ذلك منه، حتى كان هارونُ الرشيدُ،

(١) قال شارح القاموس فى مادة «جبه»: جبيهاء الأشجعى كحميراء: شاعر معروف كما فى الصحاح. وقال ابن دريد: هو جبهاء الأشجعى بالتكبير.

فكلمه عبدُ الله بن مُصْعَب فى صكوك بقيت من ذلك على غير واحد من قريش فأمر بها فأحرقت » .

فمثلُ هذا التصرّف فى استرضاءِ الناس واستعبادِهم وفى إقراضِهم المالَ ليكونوا أولياء وتعجيزِهم وإرهاقِهم ان جنحوا لمناوأة ولاة الأمور أو منافستهم، له آثارُه من خيرٍ وشرٍّ فى المصلحة الحزبية لبيت بنى أمية، طبقا لما بيديه الزعماء من حُنْكَةٍ وحزمٍ، وإصابةٍ لمواقع الصـــواب .

وبعد، فإنّ هذا السلاحَ الماضىَ فى يد الأقوياء لهو أشدّ مَضَاءً فى القضاء على الضعفاء اذا أساءوا استعماله، لأنه قد يُبْذَلُ لشراء مثل «الدّلفاء» وغيرها من القيانِ، ولأنه قد يبذله الشبابُ من الخلفاء فى ضروب الخلاعة والاستهتار، فيكون معولَ هَدْم ودمارٍ، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سنورده عليك .

وإنا لنرى فى أخريات هذا البيت ذى الأثرِ الكبيرِ فى تحوّل المدنية العربية أن بعض الخلفاء نقصَ الناسَ العطاءَ فعانوا ضيقا بعد سَعةٍ، وشظفًا بعد رفاهيةٍ . وشرّ السياسات أن تُصيبَ صاحبَ عيش رغيدٍ بإضاقةٍ وحرمانٍ، وأن تُنْزِلَ به غَضاضةَ التقتير والعسر .

ولننظر ما يقوله اليعقوبىّ عن خليفة من هذا الطراز: طراز الإضاقة فى أرزاق الناس وعنوانِ اضمحلال الدولة اذا آذن نجمُها بالأفول، وآل أمرُها الى الإفلاس .

يقول اليعقوبىّ عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمّى يزيدَ الناقصَ لأنه نقصَ الناسَ من أعطياتهم واضطربَتْ عليه البُلدانُ، وكان ممن خرج عليه العباسُ بن الوليد بحِمْص وشايعه أهلُ حمص، وبشرُ بن الوليد بقِنّسْرِينَ، وعمرُ بن الوليد بالأُردنّ، ويزيدُ بن سليمان بفلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام .

يريد اليعقوبىّ أن يقول من غير شك : إن هؤلاء الامراء انتهزوا غضب الجند لنقصان الأعطية فثاروا .

ليس هذا فحسب ، بل إن سياسة بعض الخلفاء دفعتهم الى حرمان مُدُنٍ بحذافيرها من عطائها، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حُرِمُوا سنةً كاملة، فى حين نرى معاويةَ قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى السنة فضاعفها مائتى مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يجدُر بنا بعد ما أسلفناه أن نقتنعَ بأن المالَ كان سببا قويا لبناء بيت معاوية، وأن المال نفسه كان، الى حدٍّ غيرِ قليل، سببا له خطرُه وقيمته فى انهيار هذا البناء ! .

(ج) العمال :

قال زياد : ما غلبنى أميرُ المؤمنين معاويةُ قط إلا فى أمرٍ واحد: طلبتُ اليه رجلا من عمالى كسر علىَّ الخراجَ فلجأ اليه، فكتبت اليه : "إن هذا فسادُ عملى وعملك". فكتب إلىَّ : "إنه لا ينبغى أن نسوسَ الناسَ سياسةً واحدة ؛ لا نَلين جميعا فيمرح الناسُ فى المعصية، ولا نشتدّ فنحمِل الناسَ على المهالك، ولكن تكون أنتَ للشدّة والفَظاظة والغِلظَة، وأكون أنا للرأفة والرحمة" .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج حين استأذنه فى أخذ تلك الصُّبابةِ من المال التى تُتركُ لأصحاب الأراضى يتعلّلون بها ولتكونَ لهم ردءا وظهيرًا اذا نزلت بساحتهم النوائبُ والجوائحُ، قال : "لا تكُنْ على درهمك المأخوذِ أحرصَ منك على درهمك المتروكِ، وأبقِ لهم لحومًا يعقدون بها شحومًا" .

بمثل هذه السياسة بين العمال والخلفاء، وبمثل اختيار معاوية وغير معاوية، كهشام وعبد الملك، لعمال ذوى كفايةٍ ودهاء، وحذق وحسن بلاء، كزياد ومن على شاكلته، أُتيحَ لمعاويةَ وخلفاء معاوية تبوّؤ عرش المملكةِ العربية قوىَّ الأركان لا تهتَصره العواصفُ والأعاصيرُ، ثابتا لا تُزعزعه ثوَرَاتُ الخوارج ولا حروبُ المنافسين .

كانت الدولةُ أيامَ معاوية، أيام بنائها وتشييدها ، أيام تلك المصاعب الكأداء التى اعتورت سبيلَهم، وتلك الشدائد التى تُشيبُ وتُفزِع، وتقضُّ المضاجعَ، وتجتثُّ من النفوس

آمالها، ومن العزمات مَضاءها: ومن القلوب بأسها — كانت الدولة يومئذ غنيةً بالكفايات، خِصْبَةً بمهرةِ العمّال وحذّاق الوُلاة . ولعلها سنة طبعية أن يكون دَور بناء العروش والممالك خِصباً برجاله الكفاة، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيما فى كل شىء، وإن كانت الأمم، وهى تتقطع أنفاسُها، قد لا تخلو ممن لا يالو جهدا فى سبيل إقالتها من عثرتها، وإنهاضها من سَقْطتها .

ألم يكن الى جانب معاوية فى عصر البناء أصحابُ الكفايات النادرةِ من العمال والولاة أمثال عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الذين يقول فيهم بعضُ النقّاد : «ما رأيت أثقلَ حِلما ولا أطول أناة من معاوية، ولا رأيتُ أغلبَ للرجال ولا أبذَّ لهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبهَ سرًّا بعلانيةٍ من زياد ، ولو كان المغيرة فى مدينة لها ثمانيةُ أبواب لا يُخْرَجُ من باب منها إلا بالمكر لخرج من أبوابها كلِّها» .

على أنه يجدُرُ بنا أن نصوّر حالةَ الولاة الكُفاةِ أيامَ القوة، وما آل اليه أمرُهم بعد ذلك حتى أضحَوْا يتقربون الى الخلفاء بالهدايا والألطاف والرُّشا مع عَسْفِ الرعية والكيدِ لها . ولنترك لليعقوبيّ التكلمَ عن الحالة الأولى، ولابن الأثير بيانَ الثانية، ثم نُردِفُ ذلك ببعض الحقائق التاريخية لكى يُتاحَ لنا بعدئذ أن نطمئنَّ الى تقدير هـذا العنصر — عنصرِ العمال — وأنه لا يقلّ عن المال قوة وأثرا، سواء أكان ذلك فى البناء أم فى الهدم، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم، وأما الهدم فبعسف الولاة وخُرْقِهم، وسوء اختيارهم وقلة بضاعتهم فى تدبير الممالك وسياسة الناس .

قال اليعقوبيّ فى معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ماله من دهاء وحيلة وصولة : «كان زياد يقول : مِلاكُ السلطان أربعُ خلال : العفافُ عن المـال، والقُرب من المحسن، والشدّةُ على المسيء، وصدقُ اللسان . وكان زياد أوّلَ من بسط الأرزاقَ على عمّاله ألفَ درهم ألفَ درهم ولنفسه خمسـة وعشرين ألف درهم . وكان يقول : ينبغى للوالى أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم» . وبعد أن ضرب اليعقوبيّ الأمثالَ

على معـرفة زياد بدخائل رعيته قال مصوراً رأى زياد فيما يتطلبه بعض الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولاه : كان زياد يقول : «أربعةُ أعمال لا يليها إلا المسنُّ الذى قد عضّ على ناجذه : الثغرُ، والصائفـة، والشُّرَط، والقضاء . وينبغى أن يكون صاحبُ الشُّرَط شديدَ الصولة قليلَ الغفلة، وينبغى أن يكون صاحبُ الحرس مُسِنًّا عفيفا مأمونا لا يُطْعَنُ عليه . وينبغى أن يكون فى الكاتب خمسُ خلال : بُعْدُ غورٍ، وحسنُ مداراة، وإحكامٌ للعمل، وألا يؤخرَ عملَ اليوم لغدٍ، والنصيحةُ لصاحبه . وينبغى للحاجب أن يكون عاقلا فَطِنا قد خدم الملوكَ قبل أن يتولى حجابتهم» .

ثم انظر ما آل اليه الأمرُ أيام الوليد بن يزيد الذى رغب فى اكتساب قلوب الناس بعد نفورها، وإرضائها بعد تبرمها، وإيناسها بعد وحشتها، بأن يزيد فى أعطياتهم ويضاعف أرزاقهم . بيـد أن مَعِينَ المـال قد نضَب أوكاد، والخزانةَ قد استنزفتها الملاذُّ وحروبُ الخوارج وإخماد الفتن، فعمد الى بيـع الولايات . وإن ابنَ الأثير ليخبرنا، فى حوادث سنة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولّى نصرَ بنَ سَيَّارٍ خراسانَ كلَّها وأفرده بهـا، ثم وفَدَ يوسفُ بنُ عمرَ على الوليد فاشترى منه نصرا وعُمَّالَه، فردّ اليـه الوليدُ ولايةَ خراسان، وكتب يوسفُ الى نصرٍ يأمره بالقدوم ويحملُ معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يَقدم معه عمّاله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد الى نصر يأمره أن يتخذَ له برابطَ وطنابيرَ وأباريقَ ذهبٍ وفضةٍ، وأن يجمع له كلّ صُنَّاجَةٍ بخُراسانَ، وكلَّ بازٍ وبِرذَونٍ فارهٍ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه فى وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغانى من عاملٍ لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية ابن عبـد الملك الذى كتب اليه يقول : «إنّ خَرَاجَ خراسان لا يفى بمطبخى»، وما أثبته القاضى ابن خلّكان فى تاريخه عن أبى خالد يزيد بن أبى المثنى عمرَ بن هبيرة والى مروان ابن محمد على العراق : من أن رِزقَه كان ستَّمائة ألف درهم .

هذا الى ما نزل بأهل الذمة وغيرهم من العَسْفِ وزيادةِ الضرائب، وما كان من تَخْلِيةِ أصحاب الأراضى لهـا بغير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العمال فى إهـداء الخلفاء،

ونزوعهم الى جمع الثروة واختزان المـال ، فإنك بعد كلّ هذا تطمئنّ معى الى الاقتناع بأن العمال الكفاةَ مصدرُ قوة فى بناء الممالك وعُنصرٌ يُحفَلُ به فى مادّة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها وصولتهـا ، وأن الولاةَ الظلمةَ الضعافَ مصـدرُ ويلٍ وثبـورٍ ، وأداة هـدمٍ وتخريبٍ وانتثارٍ وفناءٍ .

وإنا نسوق هنا كلمةً لبعض بنى أميـة حين سُئل عن سبب زوال ملكهم لا تخلو من عظة واعتبار، قال : « ... قِلّةُ التيقظ ، وشُغلنا بلذاتنا عن التفرغ لمهمّاتنا، ووثِقنا بكُفاتنا فآثروا مرافِقَهم علينا ، وظَلَم عُمّالُنا رعيتَنا ففسدتْ نيّاتُهم لنا ، وحُمِلَ على أهل خراجنا فقلَّ دَخْلُنا ، وبطلَ عطاءُ جندنا فزالت طاعتُهم لنا ، واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم علينا، وقَصَدَنا بُغَاتُنا فعجزنا عن دفعهم لقـلة أنصارنا ، وكان أوّلُ زوال ملكنا اسـتتارَ الأخبار عنا ، فزال ملكنا عنا بنا» .

(د) الوجهــة الدينيــة :

إنّ سُنةَ معاوية فى بناء دولته لم تكن ، مع ما نعلمه من ترخصه فى إقامة الحـدود فى بعض الأحوال لضرورات سياسية ، سنّةَ استهانةٍ بالدين ولا إمعانٍ فى ازدرائه أو الخروج عن جُلّ مظاهر الاحتشام الدينى ، الخليقةِ بمن يسوس أمورَ الدين والدنيا ، هذه سُنةُ معاوية وطريقتُـه فى سياسة الملك . أما خلفاؤه فقد تنكّبَ جُلُّهم سـنّته الحكيمةِ ، وأطلقوا لشهواتهـم العِنانَ فيما ينبغى أن يكون خلفاءُ المسلمين وأئمتُهم بنجوةٍ منه . وقد كان لذلك آثاره فى الدولة من حيثُ تأثر أخلاقها القوميـة ، وما أصابهـا من انحلالٍ وضعفٍ ، ومن تفكُّكٍ وفتور . وسنعالج تصوير هذه العواملِ بإيجازٍ واقتضابٍ فى كلمتنا هذه ، فلا نُفرِدُ لكل منها بابا ، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحنا لهذه الأصول فائدةٌ جُلّى ، بيد أن اتساع نواحى الموضـوع وتشعُّبَ فروعه وتخلِّفَ أبوابه ــ كلّ ذلك يُلزمنا إلزاما اتباعَ ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة ، على ما نظنّ ، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفايةُ من خلفاء معاوية من ناحيـة الدين والخُلقِ العام ، لأن فيما عالجناه من تحليل أخلاق معاوية الغُنية والكفايةُ .

ونريد الآن أن نَدرُسَ تلكَ الناحيـةَ العكسيةَ ، ناحيةَ أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التقاليد الدينية فازدروا طقوسها، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من خُرْقٍ .

إنّ أمامنا يزيدَ بنَ معاوية، ويزيدَ بنَ عبد الملك، والوليد بنَ يزيد . أما ٱبنُ معاوية فقد أصاب اليعقوبيّ سِدْرة الصواب حين وصفه بأنه حِلْفُ نسوةٍ وصاحبُ مَلاهٍ . ويكفى أن نَدرُسَ حياتَه — مع أن الدولةَ كانت فى إبّانِ قوّتها ومَيعة شبابها — لنقتنِعَ بأنها كانت بمثابة مَعَاوِلِ هدمٍ وتخريبٍ، وإن فى إلمامنا بما كان من مسلمِ بن عقبة الذى انتهكَ المدينة لمقنعًا بما نقول . لقد كان جندُ يزيد بعد واقعة الحرّة وغيرها يطلبون الى الرجل القرشىّ أن يبايع ليزيدَ، لامن ناحيةِ ٱقتناعه الدينىّ طبعا، ولا بدافع الترغيب والمال، ولا بسياسة الرقة واللطف التى قد يُنَالُ بها أكثر مما يُنَالُ بالشدّةِ والعنفِ، بل من ناحية السيفِ والإرهاب، يجب أن يبايعَ وأنفُه راغمٌ، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت جنـدُ يزيد تقول للقرشىّ : بايع على أنك عبـدٌ قِنٌّ ليزيدَ، فإن أبى ضُرِبَ عنقُه، فكانت مقتلةٌ ذريعةٌ . ثم انظر ما كان من حصارهم مكةَ التى إذا قال قائلُها : «يا أهل الشام، هذا حرمُ الله الذى كان مأمنًا فى الجاهلية يأمن فيه الطيرُ والصيدُ فاتقوا الله يا أهلَ الشام »، صاح الشاميّون «الطاعةَ الطاعةَ » .

لنترك يزيدَ جانبا ، محيلين القارئَ الى ما فى الأغانى وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولنردّد الطرفَ فى حياة يزيد بن عبد الملك، فنجد أبا الفرج الأصفهانىّ يذكر لنا، فى غير موضع من حياة سَلَّامَةَ القَسّ، وحَبَابة وغيرهما، شيئا لا يُستهان به عن إسرافه فى تهتكه، فينقل لنا عن المدائنىّ قوله : قَدِمَ يزيدُ بن عبدالملك المدينةَ فى خلافة سليمانَ، فتزوج سُعدةَ بنتَ عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبيحةَ بنتَ محمد بن على بن عبيد الله ابن جعفر على مثـل ذلك، واشترى الغاليـةَ بألف دينار . وفى رواية محمد بن سـلّام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول فى موضع آخر : إن رُسُلَ يزيدَ بنِ عبد الملك قدمتِ المدينةَ فاشتروا سَلّامةَ المغنيةَ من آل رُمّانة بعشرين ألف دينار .

ولعلك تميل الى مقابلة هذه الروايات مع تعدد رواتها بتحفظ المؤرخ العلمى الذى لا يقنعه إلا الوسائلُ التحليليةُ المؤيدةُ لصدقِ الرواية . على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبى مثلا عن طريقة جباية المال، وعلى ما كتبه يزيدُ بن عبد الملك الى عمر ابن هبيرة، وهو عامله على العراق، يأمره: أن يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ ولم يُمسح السوادُ منذ مسحهُ عثمانُ بن حنيف فى زمن عمرَ بن الخطاب حتى مسحه عمرُ بن هبيرة فوضع على النخل والشجر وأضرّ بأهل الخراج ووضع على التانئة (١) وأعاد السُّخَرَ والهدايا وما كان يؤخذ فى النيروزِ والمِهْرجانِ . ليس هذا فحسبُ بل انظر الى تعلله فى فرض الغرامات المالية على كبار رجال الدولة لا لجُرْمٍ إلا أن نفوسهم حدَّثتهم أن يتزوجوا بعض آل البيت؛ فإن عبد الله بن الضحاك بن قيس الفهرى عامله على المدينة كان قد خطب لنفسه فاطمةَ بنتَ الحسين بطريقة جافة، فعزله يزيد عن المدينة وولاها عبد الواحد بن عبدَ الله النصرى، وكتب اليه أن يأخذه بأربعينَ ألفِ دينار ويعذِّبه، ففعل ذلك. ويقول المؤرخ الذى نقلنا عنه : إن عبدَ الله بنَ الضحاك قد رُئى وفى عنقه خرقةُ صوفٍ يسأل الناسَ .

ولم يكتفِ يزيدُ بن عبد الملك بهذا ، بل عزلَ عمّالَ عمرَ بن عبد العزيز جميعا . ونحن نعلم مَنْ هو عمر وما عدلُه وما رقابته عمّالَه . ويكفينا أن نذكر ما كان منه مع يزيد ابن المهلب عاملِه على خراسانَ، فقد قال له عمر : «إنى وجدت لك كتابا الى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قِبلَك ألفُ ألفٍ، فأين هى ؟ فأنكرها ثم قال : دعنى أجمعها؛ قال : أين؟ قال : أسعى الى الناس؛ قال : تأخذها منهم مرّةً أخرى !» . ثم ولّى خراسانَ الجرّاحَ بنَ الحكمى . وإنه لمن الممتع حقا تلكَ المناقشةُ الورعةُ الهادئةُ التى دارت بين عمرَ ويزيدَ، وبين عمر ومخلد بن يزيد، وتلك الصرامةُ التى لا تعرفُ فى سبيل المحافظة على مال المسلمين لِيناً ولا هَوادةً، وقد أثبتها ابنُ الأثير فى كامله ولا حاجة بنا هنا الى الاستطراد بذكرها .

---

(١) التانئة : الجماعة المقيمون فى البلاد الذين لا ينفرون مع الغزاة . أنظر اللسان مادة «تنأ» .

⁂

فمن أمثال ما قدمناه نستطيعُ أن نقتنعَ بأن روايات صاحب الأغانى عن إسرافه قريبةٌ من الواقع ، إن لم تكن صحيحةً لا مبالغةَ فيها ولا غبارَ عليها . ثم لننظُر الآنَ الى أىّ مدًى كان هـذا الصنفُ من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القِيَانِ والمغنيّـات ، وما كان لهنّ من سلطانٍ فى أمور الدولة وتوليـةِ العمال وعزلهم ، فإن ذلك يفيدنا فى تفهّمنا دَوْرَ الانتقال الذى نحن فيه تفهُّمًا هو فى نظرنا أشـدُّ اعتبارا من الاعتماد على رأى المؤرِّخين وسَرْدِهم للحوادث بغير عنايةٍ ولا استقراء للنفسية العربيـة وخاصةً فى أبهاء الخليفة . وحبذا العناية بها ، سواء أكانت فى بيت الخليفة أم فى بيت العامل أم عند الرعية ، فإن لدراستها ومراقبةِ تحوّلها نفعا وكبيرَ جَدْوَى .

ينقل لنا أبو الفرج الأصفهانىّ عن المدائنىّ أن حَبَابَةَ ، وهى عاليةُ القَيْنةُ ، «غلبت على يزيد وتبنّى بها عمرُ بن هبيرة ، فعلت منزلتُـه حتى كان يدخل على يزيد فى أىّ وقت شاء . وحسدَ ناسٌ من بنى أمية مسلمةَ بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عندَ يزيد ، وقالوا : إن مسلمةَ إن اقتطعَ الخراجَ لم يحسن يا أميرَ المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شىء لسِنّه وخِفّته ، وقد علمتَ أن أميرَ المؤمنين لم يُدْخِلْ أحدا من أهل بيته فى الخراج ، فوقر ذلك فى قلب يزيد وعزم على عزله . وعمـل ابن هبيرة فى ولاية العراق من قبـل حَبَابَةَ فعملت له فى ذلك . وكان بين ابن هبـيرة والقعقاع بن خالد عداوةٌ ، وكانا يتنازعان ويتحاسدان ، فقيـل للقعقاع : لقد نزل ابنُ هبيره من أمير المؤمنين منزلةً ، إنه لصاحب العراق غدا ، فقال : ومن يُطيقُ ٱبنَ هبيرة؟ حَبَابَةُ بالليل وهداياه بالنهار! مع إنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكينٍ . فلم تزل حبابة تعمل له فى العراق حتى وليها » .

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية فى تعرّف حالِ الدولة العربية فى ذلك الحينِ . ولو جاز لنـا أن نحلّق لنظرنا طويلا فى قول القعقاع بن خالد : «ومن يُطيق ٱبنَ هبيرة ، حبابةُ بالليل وهداياه بالنهار مع أنه وإنْ كان بلغ فانه رجل من بنى سُكين» فانه لا يفيـدنا

فى تفهم وقوع الخليفة تحت سـلطان عشيقته ، ولا فى قبوله للرُّشا فحسب بل يفيدنا فهم تحوّل العصبيات العربية الأخيرة ومبلغ نظر العربىّ الى سواه .

أما استخفاف الوليد بن يزيد بالدين، وخمرياته التى فاقت خمريات يزيد بن معاوية، والتى نرى أن لها أثرا كبيرا فى أبى نواس وحسين بن الضحاك ، وبركة الخمر التى احتواها قصره، فان أمهات كتب الأدب العربىّ ومظانّ التاريخ مُفعَمَةٌ من ذلك بما لا نتعرّض له فى هذه العُجالة بأكثَر من إحالة القارئ على ما قاله الوليد فى القرآن، وما أحصاه بعضُهم له من عدد الأقداح التى شربها فى ليلةٍ من ليـالى شرابه، إذ أثبت صاحبُ الأغانى أنها سبعون قدحا وان كنا نفترض فى مثل هذه الأحوال جنوح الرواة الى المبالغة والإغراق . ثم لتنظر معنا فيما يقوله ابن الأثير عنه حين ولّاه هشام الحج، فانه يخبرنا : أنه لمـا أراد هشام أن يقطَع عنه ندماءه ولّاه الحَج سنة ستّ عشرة ومائة ، فحمل معه كلابا فى صناديقَ وعمل قبّـةً على قدر الكعبة ليضعَها على الكعبة ، وحمل معه الخمرَ وأراد أن تُنصبَ القُبّـةُ على الكعبة وتشربَ فيها الخمرُ . وقد أيد المؤرّخون هذه الحادثةَ . ويقول اليعقوبىّ : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم أنظر الى بيعـه خالدا القَسْرىَّ الى يوسف بن عمرَ بخمسـين ألف ألف، وما رواه المؤرّخون من إرساله الى خالد قائلا له : «انّ يوسفَ يشـتريك بخمسين ألف ألف، فان كنت تضمنها وإلا دفعتك اليـه » فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : ما عهـدت العـربَ تُباعُ، والله لو سألتنى أن أضمن عودا ما ضمنته » ومع ذلك فقد دفعه الى يوسف فعذبه وقتله !

ثم لتنظر الى نظر الرأى العام اليه والى تصرّفاته . وأمامنا من ذلك شعرُ حمزة بن بيض فيه إذ يقول :

يا وليدَ الخنا تركتَ الطريقا ٭ واضحا وارتكبتَ فجًّا عميقا

وتماديتَ واعتديتَ وأسرفـ ... ـتَ وأغويتَ وانبعثتَ فسوقا
أبدا هاتِ ثم هاتِ وهاتِ ... ثم هاتِ حتى تخــرَّ صَعيقا
أنتَ سكرانُ ما تُفيقُ فما تر ... تُقُ فتقا وقد فتقتَ فُتُـوقا

وإنا نثبت هنا أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصر فى قصره ويزيد بن عنبسة السكسكى، فقد قال له الوليد: «يا أخا السكاسك، ألم أزد فى أعطياتكم! ألم أرفع المؤنَ عنكم! ألم أعط فقراءكم! ألم أخدم زمناكم!» قال: «إنا ما ننقم عليك فى أنفسنا، وإنما ننقم عليك فى انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله!».

ولننظر معى أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطاباً لهـذه الدولة، والى ما كان من جبروته وضعف الوازع الدينىّ عنده، حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر: «مَنْ قال لى بعد مَقامى هذا اتّقِ الله ضربتُ عنقَه».

وبعد، فإنه ليخيَّل إلينا أن فيما قدمناه بعضَ المقنع، بما كان من استهانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم فى التهتك والخروج عليه. ونريد الآن أن ندرُسَ تأثرَ الخُلُقِ العربىّ بمـا كان للخلفاء من تنكُّبٍ عن سَنَنِ الدين وإمعانٍ فى التهتك والاستهتار. والناسُ على دين ملوكهم، والملوكُ على سنة رعيتهم، أوكما يقول عبد الملك بن مروان: «تطلبون منا أن نسيرَ فيكم بسيرة الشيخين أبى بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة النـاس أيامَ أبى بكر وعمر!». على أنا نُرغِمُ أنفسنا إرغاما على أن نكتفىَ فى هذا الفصل، الذى كادت تتشعَّبُ علينا فروعُه ونواحيه، وكدنا نَضِلُّ فى مهامِهه وبواديه، بمَثَلينِ قد لا يخلوان من النفع. وعُمْدَتُنا فى ذلك الأغانى، وعيونُ الأخبار لابن قتيبة، وإن كان المثل الأخير هو الى الأدب والعظة، أقرب منه الى التاريخ والتحليل العلمىّ. بيد أنا آثرنا إيرادَه لأنه حسنٌ فى نفسه، ومصيبٌ مَحَجّةَ الصواب فى جملتـــه.

يقول أبو الفرج: إنه لمـّا قدم عثمانُ بن حيّان المرّى والى يزيد بن عبـد الملك المدينـة قال له قوم من وجوه الناس: إنك وُلِّيتَ على كثرةٍ من الفساد، فإن كنت تريد

أن تُصلحُ فطهِّرها من الغِناء والزنا الخ . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يفز فى مهمّته بطائل ولم يُوفَّق الى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويه لنا ٱبنُ قتيبة فى عيون أخباره فها هو ذا بنصه وعبارته ، وهو ختام هـذا الفصل بعد أن كدنا نطيل .

قال : «سَمَرَ المنصور ذات ليـلة فذكر خلفاء بنى أمية وسِيَرهم ، وأنهـم لم يزالوا على استقامةٍ حتى أفضى أمرُهم الى أبنائهم المترَفين ، فكانت همَمُهم من عِظَم شأن الملك وجلالةِ قدره قصـدَ الشهوات وإيثارَ اللذات والدخولَ فى معاصى الله ومَساخطه ، جهلا منهم باستدراج الله وأمنا لمكره ، فسلبهم الله العزَّ ونقلَ عنهم النعمةَ . فقال له صالح بن علىّ : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لمـا دخل أرضَ النوبة هاربا فيمن معه سأل ملكُ النُّوبةِ عنهم فأُخْبِرَ ، فركب الى عبـد الله فكلمه بكلام عجيب فى هـذا النحو لا أحفظه ، وأزعجـه عن بلده ، فإن رأى أميرَ المؤمنين أن يدعوَ به من الحبس بحضرتنا فى هذه الليـلةِ ويسألَه عن ذلك ! فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرضَ النوبة بأثاثٍ سَلِمَ لى فافترشتُ بهـا وأقمتُ ثلاثا ، فأتانى ملكُ النوبة ، وقد خبر أمرَنا ، فدخل علىّ رجل أقنى طُوالٌ حَسَن الوجه ، فقعد على الأرض ولم يَقرب الثيابَ ، فقلتُ له : ما يمنعك أن تقعدَ على ثيابنا ؟ قال : لأنى مَلكٌ ، وحقٌّ على كلّ ملكٍ أن يتواضعَ لعظمة الله إذ رفعه ! ثم قال لى : لِمَ تشربون الخمر وهى محرَّمةٌ عليكم ؟ قلتُ : اجترأ على ذلك عبيدُنا وأتبـاعُنا لأن الملك زال عنّا ، قال : فلم تطؤون الزروع بدوابكم والفسادُ محرّمٌ عليكم فى كتابكم ؟ قلتُ : يفـعل ذلك عبيدُنا وأتباعنا بجهلهم ، قال : فلم تلبسون الديباجَ والحـريرَ ، وتستعملون الذهبَ والفضةَ ، وذلك محرّم عليكم ؟ قلت : ذهبَ الملك منّا وقلّ أنصارُنا ، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا ، فلبِسوا ذلك على الكُرْه منّا ، قال : فأطرقَ مليًّا وجعل يُقلّبُ يديه وينكتُ فى الأرض ويقول : عبيدُنا وأتباعنا ! دخلوا فى ديننا ! وزال الملك عنـا ! يردّده مرارا ، ثم قال : ليس ذلك كما ذكرتَ ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم الله

عليكم وركبتم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزَّ وألبسكم الذلَّ بذنوبكم، ولله فيكم نقمةٌ لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحلَّ بكم العـذابُ وأنتم ببلدى فيصيبنى معكم وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(هـ) التعسّف المذهبيّ :

نريد أن ننظر الآن نظرةً عَجْلَى فى أمر التعسّف المذهبيّ . ونحن نعلم ما أصاب جماعة علىٍّ أيامَ معاوية وهو هو فى حكمه وحلمه ومرونته، نعلم ما أصاب حُجْرَ بنَ عدىّ الكندىّ وجماعتَه، كما نعـلم ما أصابها أيامَ يزيد من قتل هانئ بن عُروة ومسلم بن عَقيل والحسين ابن على وزيد بن على الذى صُلِبَ على شاطئ الفـرات وذُرّى رَمَادُه فى المـاء . ولننظر نظرة خاصة الى حياة بُسْرِ بن أبى أرطاةَ وقتلِه الأطفالَ والرجالَ والنساءَ، ولنترك معاوية هنا يصوّر لنا مبلغَ تأثر نفوس بنى هاشم من خُطّة التعسّف المذهبيّ هـذه؛ فإن أبا الفرج الأصفهانىّ يقول فى كتابه : لمـا كانت الجماعة واستقرّ الأمر لمعاوية، دخل عليه عُبيدُ الله ابنُ العباس وعنده بُسْرُ بن أبى أرطاةَ، فقال له عُبيد الله : أأنت قاتلُ الصبيين أيها الشيخُ؟ قال بُسرٌ : نعم أنا قاتلهما، فقال عبيـد الله : أما والله لوددْتُ أن الأرض كانت أنبتتنى عندك! فقال بسر : فقد أنبتتك الآن عندى، فقال عبيد الله : ألا سيف؟ فقال له بسرٌ : هاك سيفى، فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناولَه أخذه معاويةُ ثم قال لبسرٍ «أخزاك الله شيخا! قد كبِرتَ وذهب عقلُكَ! وذلك رجل من بنى هاشم قد وتَرْتَه وقتلتَ ابنيه، تدفع اليه سيفك! إنك لغافلٌ عن قلوب بنى هاشم! ولو تمكّنَ منه لبدأ بى قبلكَ» . قال عُبيدُ الله : «أجَلْ! وكنتُ أُثَنّى به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصـل به حتى وثقَ به، ثم احتال لقتل ابنيه فخرج بهما الى وادى أوطاس[1] فقتلهما وهرب .

(١) أوطاس : واد فى ديار هوازن فيه كانت واقعة حنين و يومئذ قال النبى صلى الله عليه وسلم : «حمى الوطيس» وهو أوّل من قال ذلك . انظر معجم ياقوت فى أوطاس .

على أنه يجدر بنا أن نصوّرَ الى أىّ مدًى بلغت نتائجُ خطط الأُمَويين السياسيةِ ، من حيث بَثِّهم البغضاءَ فى النفوس لعلىّ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكرهم ، وما كان من لعنهم على المنابر من تأثيرٍ خليقٍ بعنايتنا . ومراجعنا فى هـذه الناحيةِ عدّةُ مصادرَ، بيد أنّا نجترئُ اجتزاء ، ونُحيل القارئَ الى ما رواه ٱبن عائشة عن شعور رجل من الشأم نحوَ حفيد علىّ وقد نقل ذلك المبرّدُ فى الكامل .

ولننظر كذلك الى مدَى الأحزاب الدينية وأضدادها التى كانت نتيجةً لازمةً لآثار التعسف المذهبىّ والتحزّب الدينىّ ، وقد ذكر البيرونى فى «الآثار الباقيةِ» طرفًا من ذلك . ونجتزئُ هنا بشىء مما جاء فى «المواهب الفتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله قال : ما أحسنَ قولَ أبى الحسين الجزار خصوصا فى بيتيه الثالث والخامس :

ويعود عاشوراء يذكرنى ◦ رزء الحسين فليت لم يَعُـدِ
أم ليت عينا فيه قد كُحِلَتْ ◦ بإثمِدٍ لم تَخْلُ من رمدِ
ويدا به لشماتة خُضِبَتْ ◦ مقطوعة من زندها بيدى
يوم سبيلى حين أذكره ◦ ألا يدورَ الصبرُ فى خَلَدى
أمّا وقد قُتِـلَ الحسينُ به ◦ فأبو الحسين أحقّ بالكمد

ولبعض الهاشميين معتذرا من الكحل يوم عاشوراء :

لم أكتحل فى صباح يومٍ ◦ أُهرِيقَ فيه دمُ الحسينِ
إلا لحـــزنى وذاك أنى ◦ سوّدتُ حتى بياضَ عينى

الى غير ذلك ممـا أثبته المؤلف لعمارة اليمنى والإمام ابن الجـوزىّ ممـا لا سـبيل الى الاستطراد فيه ههنا .

ولننظر الى حادثة رواها المسعودىّ فى «مروج الذهب» قال : «لما طاب عبدُ الله ابن علىّ مروانَ ونزل بالشأم، وجه الى أبى العباس أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبى العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ولا أهلَ بيت يرثونه غيرَ بنى أمية حتى وليتم الخلافةَ ! فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناسُ اسمعوا اخبرَكمُ ۞ عجبا زاد على كلّ العجَب
عجبا من عبد شمس إنهم ۞ فتحوا للناس أبوابَ الكذب
ورثوا أحمدَ فيما زعموا ۞ دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه ۞ يُحرِزُ الميراثَ إلا مَنْ قَرُب

ولنُلمّ الآن إلمامةً تجلى بما كان للتعسّف المذهبيّ من الأثر فى نفوس الخوارج، مُحيلين الى الكامل للمبرّد مَن أراد توسعا وتبصّرا، ونكتفى هنا بنقل مَثَلٍ من الطبرىّ يُظهِرُ لنا مقدارَ استماتتهم فى سبيل نُصْرةِ مذهبهم مَهما نالهم من تقتيلٍ . وأمامنا حوادث سنة خمسين التى يقول فيها الطبرى : إن عُبيدَ الله بن زياد اشتدّ فيها على الخوارج فقتل منهم صبرًا جماعةً كثيرة وفى الحرب جماعةً أخرى . ويقول عنهم فى موضع آخر : خرج مرداسُ أبو بلال، وهو من بنى ربيعة بن حنظلة، فى أربعين رجلا الى الأهواز فبعث اليهم ابنُ زياد جيشا عليهم ابنُ حصن التميمىّ فقتلوا فى أصحابه وهزموه، فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة :

أألفا مؤمن منكم زعمتم ۞ ويقتلهم بآسكَ(١) أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ۞ ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم ۞ على الفئة الكثيرة يُنْصَرونا

(١) آسك : بلد من نواحى الأهواز قرب أرّجان بين أرّجان ورامهرمز، بينها وبين أرّجان يومان وهى بلدة ذات نخيل ومياه . أنظر ياقوت فى آسك وكامل المبرد (ص ٥٨٧ طبعة أوربا) .

الفصل الرابع

ولايـــة العهـــد

نظام ولاية العهد وابن خلدون — خطر نظام ولاية العهد الثانى وأثر البطانات — نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبية العربية .

(أ) نظام ولاية العهد وابن خلدون :

قال ابن خلدون فى مقدّمته : "إن معاويةَ عَهِد الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر الى سواهم . فلو قد عَهِدَ الى غيره اختلفوا عليه" ثم زاد هذا توضيحا فى مكان آخر من مقدّمته فقال : "إن الذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيدَ بالعهد دون سواه، إنما هو مراعاةُ المصلحةِ فى اجتماع الناس واتفاقِ أهوائهم، باتفاقِ أهل الحلّ والعقد عليه حينئذ من بنى أمية، اذ بنو أمية يومئذ لا يرضَونَ سواهم، وهم عصابةُ قريش وأهلُ الملة أجمع وأهلُ الغلب منهم، فآثره بذلك دونَ غيره ممن يُظَنُّ أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل الى المفضول، حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء" .

لسنا هنا فى موقف الراغب فى تحليل أقوال مؤرّخنا الكبير، وهل أصاب محجَّةَ الصواب فى تعليله ما دفع معاوية الى عَقد البيعة ليزيدَ، ولكنا صدّرنا هذا الباب بكلمة ابن خلدون لنصوّر سرّ قبول العرب، لأوّل عهدهم، نظام ولاية العهد عامة والوِراثىّ خاصة. وما قبولهم إياه إلا لأن شوكةَ يزيدَ يومئذ مستمدّة من عصابة بنى أمية كلها، وجمهور أهل الحلّ والعقد من قريش، وبذلك تستتبع عصبيةَ مضرَ أجمع، وعصبيتهم أعظم من كلّ شوكة إذ لا تطاق مقاومتُهم، ومن هنا أقصى العرب عن يزيدَ وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه. ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين بن على وابن الزبير فى مطالبتهما بالخلافة، كما بين ذلك ابنُ خلدون مما لا حاجة بنا للتعرّض له الآن .

على أن التاريخ يقنعنا أن نظام ولاية العهد لم تقبله العقلية العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب اليه ابن خلدون من سبب انتصرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتمادها على العصبية. وربما جاز لنا أن نعزو سقوطها من بعض النواحى الى هذه العصبية أيضا مما لا نعرض له هنا الآن .

أجل ، يخبرنا التاريخ بتلك الأدوار العدة، التى مرت بها مسألة البيعة ليزيد ، وأن السياسة نهضت بنصيب غير قليل فى سبيل تذليل الصعوبات التى قامت بادئ ذى بدء دون أن تجعل البيعة ليزيد سهلة ميسورة، تؤتى ثمرها بغير عناء كبير .

يخبرنا التاريخ بما فعله المغيرة بن شعبة وغير المغيرة بن شعبة، و إيفادهم الوفود الى معاوية. ويخبرنا بمبلغ ما أنفق معاوية من المال وما أبداه من احتمال وحزم، وما بذله ابنه يزيد من شدة وعسف؛ وكل هذه العوامل تستدعى دراسة دقيقة لا نعرض لها لأنها لا تعنينا فى هذه المقدمة كثيرا .

نريد أن نقول شيئا واحدا ميسورا فهمه؛ ذلك أن نظام ولاية العهد — الذى ربما كان ضروريا لا مندوحة عنه فى أول عهد الدولة، لما بينه لنا ابن خلدون — كان فى نفسه سببا يعتد به من أسباب سقوط الدولة الأموية، أو على أقل تقدير كان لنظام ولاية العهد أخيرا أثره الكبير فى ضعف سلطان بنى أمية وذهاب ريحهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لننظر نظرة عجلى فى تاريخ هذا النظام لنقنع بما وصلت اليه بحوثنا، فنرى مثلا أن مروان بن الحكم جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك بن مروان ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعث لمروان على أن يجعل ولاية العهد لولدين من أولاده، فإن جل خلفاء بنى أمية من بعده اتخذوا صنيعه سنة متبعة. سنرى فى كلامنا عن العصر العباسى الى أى مدى كان خطر هذا النظام على حياة الدولة، أو على الأقل؛ مبلغ ما فيه من ضعف لها، و إيذان باضمحلالها، واضطراب حبلها .

لم يكن هذا النظام شرّا مستطيرا وعاملا كبيرا من عوامل الضعف ، إلا لما يستلزمه من نَكْثِ العهد، ثم من انشقاق البيتِ المالكِ على نفسه، وترك المجال واسعا لوشايات تسعى بها بطانات السوء ممّن نرجو أن نصور مَثَلَهم ومَثَلَ صنيعهم السيء ومَثَلَ خطرهم على الدولة حين نَعرِضُ للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ما أذكته البطانةُ بينهما من خلافٍ — هـذه البطانة تَرَقَّب دائما انشقاق البيت المالك أو ما هو مركَّبٌ في الطبيعـة البشرية وولاة العهد من ترقّبٍ لتسلّم مقاليـد الأمور وتعجُّلٍ للذّة الحكم والسلطان — فتستغله لتقضى مآربها وتستمتع بأطماعها . وسَرْعَانَ ماتجد الفرصةَ سانحةً لها ومواتيـةً لأطماعها، اذا صار الأمرُ الى ولىّ العهد الأول الذى حاول ماهو طبعىّ مِنْ خَلْع من أُشرِكَ معه فى ولاية العهد، إما كراهيةً له ، أو إيثارًا لغيره عليه ، ممن هم أمسُّ منه رَحما وأقربُ مودّةً .

نعم قد يجد ولى العهد كثيرين من الناصحين الذين يستنكرون الخلع ، بَيْدَ أنه لا يعدَمُ أيضا كثيرين ممن هواهم مع غير هذا الذى يراد خلعُه يُزيّنون له مايحاول، حتى اذا صار الأمرُ الى من أريد خَلعُه كافأ كلا من الفريقين بما يستحق . وكانا أحيانا يُفتَكُ بكثير من ذوى البلاء الحسن فى تشييد الملك . وهـذا الفتك على مافيه من خسارة قومٍ من ذوى الرأى والتجارب ، قد كان يَبذُرُ فى قلوب أنصارهم وعشائرهم بذورَ الحقد وحبِّ الانتقام. وبذلك صار بنو أمية يفقدُون العشائر عشيرة بعد عشيرة، وأخذ ظلُّ سـلطانهم على النفوس يخسر شيئا فشيئا ، حتى اذا قام لهم مُنافسٌ عظيمٌ لم يجدوا لديهم من القوة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلُّبَ عليه .

قد تطلبُ الىّ توضيحَ ما قدمتُه لك من المقدمات من حوادث التاريخ ، لأنك تعتبر الوشائجَ والصّلات التى بين مانحن بصدده وبين عصرنا المأمونىّ قويةً من حيث ماوقع فيه الرشيـد وغيره من خطأ فى نظام ولاية العهد . وقد تطلب منى أن أمرّ مسرعا بجسام الحوادث التى لها آثارها ونتائجها، وأن أكون مجملا لا مفصّلا ومُوجزًا لا مُسهبا .

على أنى سأترك الأدلة التى أفعم به الطـبرىّ وابن الأثير كلَّ سنة من سنيهما تُحدِّث وحدها بصدق ما ذهبتُ اليه . وأسمح لنفسى بأن أتساءل مليًّا : ماذا فعل عبد الملك لما وصل الحُكْمُ الى يده؟ لقـد حاول ما هو طبعىّ من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده الى الوليـد . ولولا وفاةُ عبد العزيز لوقعت الأزمةُ وشجرَ الخلافُ وعَمَدَ كلّ الى سلاحه وحزبه .

ثم ماذا فعل عبد الملك؟ لقد ولّى الوليد وسليمان . فحاول الوليد ما هو طبعىّ من عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمانُ ؟ لقد ولّى عهدَه عمرَ بن عبد العزيز ثم يزيدَ بن عبد الملك .

ثم ماذا فعل عمرُ بن عبـد العزيز ، وماذا فعـل يزيدُ، وماذا فعل هشام؟ إن التاريخ وختامَ عهد كل ليؤيدان، بقوّة ووضوح، ليس بعدهما من مزيد، صحةَ ما ذهبنا اليه مما يُبيح لنا أن نختصرَ الحوادث والأدلة اختصارا .

على أنه قد يُطلَبُ منا إثباتُ تلك الحال المؤلمة التى تَنتُجُ عن المبايعة لاثنين بولاية العهد ، ومبلغ خسارة الدولة من رجالها المعدودين وأقطابها النادرين فى هـذا السبيل، سبيل اصطدام صاحبىّ ولاية العهد . وسَنُجْمِلُ ذلك إجمالا يستدعيه مقامُنا .

إنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتِبَتْ لهشام ثم للوليد من بعده مثلا . وربمـا فاته أن لكلٍّ حزبًا يناصره ، وبطانةً تنشر دعوتَه . وربمـا تطرّفت فى منهجها السياسىّ، تطرّفا يؤكد العداوةَ فى القلوب ، ويستثير السخائمَ فى النفوس . ولمـاذا نذهب بعيدا وأمامنا ما وقع بين هشـام والوليد، فإنّ هشاما مات قبل أن يُكلَّلَ بالنجاح مسعاه، فسرْعَانَ ما نمّتْ أقوالُ الوليد عن شديد مقته لهشام، فقال مثلا :

هلك الأحوَلُ المشـو ۝ م وقـد أُرسِـلَ المطرْ
وملَكنا من بعد ذا ۝ ك فقد أورَقَ الشجرْ
فاشكر الله إنـــه ۝ زائد كلَّ مَنْ شَـكر

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل، بل اندفع فيما يخبرنا المؤرخون مع تيار بطانتـه ومُشايعيه، وشمّر عن ساعد الانتقام، ممن ناصر عمّه هشاما مثل محمد وابراهيم ابنى هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفى والى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فضربه مائة سوط ومثّل به اذ حلق رأسه ولحيته، كما حبس يزيدَ بنَ هشام والكثيرين من البيت المـالك . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أحرجَ خالدا القسرىَّ، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها، بأن يبايع لأبنه الحكم وعثمانَ بولاية العهد من بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى والى العراق يوسفَ بن عمر الثقفى فنزع ثيـابه وعذّبه عذابا مبرّحا، وهو يحتمل ذلك كلّه بصمت وإباء، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كلَّ لون من ألوان العذاب حتى مات . وما مات إلا بثمن باهظ دفعه الوليد . ذلك أنه كتب على نفســه عداوةَ قضاعةَ واليمن، وجلّ جند الشام من قضاعة واليمن ، وهم هم الذين مثلوا دورَهم الخطيرَ أخيرا مع الوليد، إذ بايعوا يزيدَ وثاروا معه ، فكانت خاتمةُ الوليد ما قد علمناه من احتمائه بقصره وتقحّمهم عليه دارَه، وفعلهم به ما أصاب عثمانَ من مأساة اذ حزّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم نصبوه على رمح وطيفَ به فى دمشقَ .

على أنّا نفترض المبـالغة فيما ينسبه الرواة الى هـذا الخليفة المغلوب على أمره ، ولكنّا نؤمن مع ذلك إيمانًا صادقًا بالنتائج السيئة لنظام ولاية العهد الثانى أو الثلاثى .

وإنا نظنّ أنّ فيما قدّمناه لك غنيةً وكفايةً . وإن أردت منـا مزيدا فانظر ما نال به سليمانُ قادةَ الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفى وقتيبة بن مسلم الباهلى وموسى بن نصير، وما كان يعدّ للحجاج وغيره : ممن قلّ أن يجتمع أمثالهم فى عصر واحد . وإنا نحيل القارئَ الى ابن الأثير ليقدر معنا الأُسس التى بنينا عليها رأينا فيهم، وليقفَ بنفسه على كُبْرَيَات فتوحهـم وجسام أعمالهم التى كانت غُرّةً فى جبين عصرهم ، بل فى جبين تاريخ الدولة الأُموية .

وبعد، أفليس من العدل أن يستنبط القارئُ معنا ما يصيبُ الدولةَ من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسىّ، من جرَّاءِ ذلك النظامِ الممقوت، نظامِ ولاية العهد على هذا النحو فى غير قانون ولا سنة، وأن يَعُدَّه معنا سببا لايستهان به، من أسباب سقوط البيت الأموىّ !

(ج) العصبية العربية :

الذى يهمُّنا الآن هو أن نوجّه النظرَ الى تأثير نظام ولاية العهد فى صورته التى صوّرناها لك من حيث مسَاسه بالعصبية العربية التى كانت، كما تعلم، عنيفةً محتدمةً بين المضرية واليمنية . وأنتَ تعلم أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يُصهرون الى قبائل مضر كما كانوا يصهرون الى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تجد فى تأييد الأمير الذى يتصل بها نسبُه . وهذه الفكرة نفسُها تُعيننا على أن نفهمَ، بنوعٍ خاصٍ، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تُعيننا على أن نفهمَ ما ثار حول هشام والوليد بن يزيد من الخصومات التى قدمنا لك طرفا منها . ولم يكد ينتهى الأمر الى مروان بن محمد حتى كانت الخصومة بين المضرية واليمنية قد انتهت الى أقصاها بحيث عجز هذان الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدةً قويةً تثبتُ للطوارئ، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مُفترقين متخاذلين ، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا . وسنتكلم على العصبية وآثارِها ببسْطةٍ فى القول أكثر مما تكلمنا هنا فى موضعها الطبيعىّ من الكتاب الثانى .

ولما كانت الدولةُ العباسيةُ قد قامت بالموالى وبأستّهم ، ومحاولتهم الانتقامَ لأنفسهم وكرامتهم من بنى أمية الذين ساموهم سوء العذاب وساسوهم شرّ سياسةٍ فإنا نُرجئ كلامَنا عن هذا العنصرِ القوىّ من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطانَ الحكم وأسبابِ سقوطها الى موضعه الطبيعىّ من تنظيم كتابنا ؛ وحين ذاك ، يحِقّ لنا أن نبين تحوّلَ العصبية العربية الى تلك النواحى الشائكةِ الوعرة التى قضت على الدولة الأموية وأقامت دولةَ بنى العباس والتى أدالت منها هى أيضا . وحين ذاك أيضا يحق لنا أن ندرُس نظرَ

العربيّ الى غير العربى فى العصر الأُمَوىّ وفى غير العصر الأموىّ مما كانت له نتائجه الخطيرة فى حياة العرب وفى تحوّل مدنيات العرب .

فَلْنَتريَّثْ اذًا، وخير لنا وللتاريخ أن يكون موضعُ هـذا الباب فى كلامنـا على الدولة العباسية . وخير لنا أيضا أن ننتقلَ الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من نثرٍ وشعرٍ وخَطَابَة، والى تصـوير الحياة العلميـة بضروبها لذلك العصر الأموىّ، الذى كان بحقٍ نواةً طيبـةً للعصر العباسىّ ، مُتَوخِّينَ فى ذلك الإيجازَ والإجمالَ . ولعلنا نُوَفَّقُ الى حسن الإصابة فيما نريد .

الفصل الخامس

الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموى

توطئة — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى — حركة النقل — الخطابة ومميزاتها — الكتابة — حالة الشعر فى العصر الأموى وتحوله — الغزل — الشعر السياسى .

(أ) توطئة :

لسنا نريد أن نُسهِبَ فى بيان الحياة العلمية والأدبيـة فى العصر الأُموىّ ، لأن ذلك يكاد يخرج بنا عن مقصدنا الأساسىّ ، من اقتصار مقدّمتنا هذه على توضيح موجز، من غير إسرافٍ ولا تطويلٍ ، للعصر السابق لعصرنا المأمونىّ الذى كان نتيجةً لازمةً لمـا تقـدّمه واكتنفه من عوامل متعدّدة ، توضيحا معتدلا يجعلنا نطمئنّ ، بعد تفهمنا للآداب العباسية ، الى تبيّن الفروق والمميزات والآثار التى خلفها لتاريخ المدنية الإسلامية ، بل لتاريخ المدنيـة الإنسانية ذلك العصر الذهبىّ وهو عصرُنا المأمونىّ الخالد .

لقد تغيرتْ حالةُ اللغة وآدابها فى العصر الأموى عما كانت عليه فى الدور الجاهلىّ تغيرًا عظيمًا ، إذ رقّتِ الأساليب وقلّ الحُوشِىُّ والمتنافِرُ ، واتسعت الأغراضُ وكثرت باتساع مطالبِ الحياةِ الجديدة ووَفْرتها . وهـذا يتمشى بوجه عام مع تغيير حياةِ العرب الاجتماعية والدينية والسياسـية ، وبعبارة أخرى : تغيرت حياةُ الآدابِ والعلوم فى ذلك العصر طبقا لمـا أفادته العربُ فى فتوحهم ومغازيهم فى غنـائمَ وأموالٍ ، ووقوفهم على آثار المدنيـات لأمم ذات حظ من العلم غيرِ قليلٍ . ولقد كان لكتاب الله ، المعجز بآياته وسحر بلاغته ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أثره فى فَتْقِ أذهانهم وصَقْلِ عباراتهـم وتوحيد لَهَجاتهم ، بل كان الكنز الذى يلجئون الى مافيه من أدب جم وعظةٍ بالغةٍ وأساليبَ رائعة ، ويستمدّون منه ما ينفعهم فى معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه ليجدُر بنا أن نتساءل عن مدى ما أصاب الآدابَ العربيـة من تغير فى العصر الأموى، وهو تغير خطير يستدعى درسُه عنايةً ودقيقَ ملاحظةٍ، وتعرّفاً غيرَ قليل لِما كانت عليه الآدابُ فى العصر الجاهلىّ .

***

إنّ تحوّل الآداب العربية فى ذلك العصر أصاب التراثَ الجاهلىّ القديم، من لغةٍ وخَطابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود، كما أنه أحدث علوما وآدابا اقتضاها الإسلام . وقد كان لكتاب الله وسنة رسوله، وما للأئمة من تأويل فى فهمهما، كان لذلك كله أثره فى خَلْقِ علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظٌّ من قبلُ، فنشأ فى هـذا العصر علم التفسير وروايةُ الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما الى النحو . على أن هذه العلومَ الإسلاميةَ المحدثةَ، التى كانت وليـدةَ العصر الأموى خاصة وعصر صدر الإسـلام عامة، لم تكن مولودَ هـذا العصر الوحيد الذى أصبحت فيه البصرةُ داراً للعـلم والعرفان والمدنية ومسرحا للهو والافتتان، والشأم مقرّ الملك والسـلطان؛ بل كان الى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما، واتخاذ ديوان الخاتم، ونقل الدواوين من لغة الى أخرى . وقد كان هذا المولودُ الآخر نتيجةَ الفتوح الإسلامية وخاصة تلك الأقطار التى كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وبعبارة أدقّ : تلك العلوم التى أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من أعتاق الفرس وأهل الشأم ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام . وقد تستدعى هذه النقطة توضيحا، ونظن أنا اذا ما فسرناها بعضَ التفسير نتعجل بموضوعنا الذى سَنُقْبِلُ عليه أخيرا، وخاصة اذا علمنا أنّ عصرَ المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدبٍ وفنٍّ كان متأثرا بحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هـذا كان الى مدًى كبير يطبعه بطابع المدنية اليونانية والفارسية؛ ولكن هذا لا يمنعنا أن نُلِمَّ به إلماما .

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى

كانت آدابُ الفرس قبلَ الاسـلام آدابا يونانيـة فى جملتها لأن التاريخ يحدّثنا أن آدابَهم الفنيةَ القديمةَ التى كانت مجموعةً طيبةً لنتاج العقل الفارسىّ والهندىّ والأشورىّ —

هـذه الآداب قد نقلها الاسكندرُ الأكبر الى بلاده، ثم تقلبت حياةُ الفرس بين ضعف وقوة وجهـل وعلم ، الى أن تسلَّم كسرى صوبجانَ ملكه ولِعبَ دورَه العظيمَ فى تاريخ بلاده . ولعلّ الأحوال العالمية عهـدئذ ساعدته على مهمته فى النهوض بالعقلية الفارسية وفى تجديد بعثها . ويقول لنا «جبون» : إنّ «يوستنيان» قيصر الروم حين اضطهد الفلسفة الأفلاطونيـة الجـديدة أو الوثنيـة ، أقفل الجنيا كل والمدارس وطارد العلماء المفكرين ، فاضطر جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد الفرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم . ويقول لنا الأستاذ «برون» فى كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرّض لرأى المستشرق (نولدكه Noldeké) فى هـذا الصدد : «إن شغف كسرى بالبحوث الدينيـة والمناظرات الفلسفية وما كان يجـد فى ذلك من لذاذة وإمتاع ليعيد الينا ذكرى المأمون والأمبراطور الأكبر مما نمسك عنه الآن » .

على أنا مع إمساكنا عن التبسط فى القول لا يسعنا إلا أن نذكر فى هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسَّس مدرسـةً للطب والفلسفة فى جُنْدَيْسَابُور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية . وإنه ليجدر بنا هنا أن ننظر هل استفاد العرب حقا من علوم الفرس عند ظهور الإسلام ؟ وهل استفادوا من غزوهم مصرَ وفيها مدرسةُ الإسكندرية ؟ ومن إخضاعهم الشأم المتأثرة بآثار العقلية الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل فى العصر الأمَوىّ؟ لأن فى توضيحنا ذلك بعضَ النفع لنـا فى دراسة التحوّل العلمىّ والأدبىّ فى تاريخ التمدين الإسلامى الذى وصل الى درجة خليقة بالإجلال والإكبار فى عصر المأمون، العصر الذى نضج فيـه مختلف الفنون والآداب . فلْنحاوِلْ توضيحَ شىء من ذلك متوخين حدَّ القصد والإيجاز .

(ج) حركة النقل فى العصر الأموى :

يخبرنا ابنُ أبى أصيبعة فى البـاب الذى أفرده لأطباء العرب فى إبَّانِ الإسـلام : أن «الحارثَ بن كَلَدَة» تعلم الطبَّ بناحية فارس وتمرّن هناك وعرَف الداء والدواء . ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أبجر الكنانى، الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيبا عالما ماهرا، وأنه كان فى أول أمره فى الاسكندرية لأنه كان المتولى التدريس بها من بعد العلماء الاسكندريين؛ وزاد بأن عمر بن عبد العزيز، لما أفضت الخلافة إليه، نقل التدريس الى أنطاكية وحرّان وتفرّق فى البلاد . ثم ذكر ابن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة؛ وذكر أبا الحكم «وتماذوق» طبيب الحجاج. وحسبُنا هذا دلالة على ما أفاد العربُ أو ما يمكن أن يُفيدوا من علم الطبّ.

فلننتقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة . ويكفينا الآن أن ننظر فيما رواه صاحب الفهرست عن ذلك إذ يقول :

«كان خالدُ بن يزيدَ بن معاوية يسمّى حكيمَ آل مروان ، وكان فاضلا فى نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانىّ والقبطىّ الى العربىّ، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة الى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام الحجاج والذى نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم، وكان أبو صالح من سَبْي سِجِسْتَانَ، وكان يكتب لزاد إنفروخ بن بيرى كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية نخف على قلب الحجاج؛ فقال صالح لزاد إنفروخ : إنك أنت سببى الى الأمير، وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يُقَدِّمَنى عليك وأن تسقطَ منزلتُك؛ فقال: لا تظنّ ذلك هو الىّ أحوج منى اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابَه غيري؛ فقال: والله لو شئتُ أن أحولَ الحساب الى العربية لحولته؛ قال : فحَوِّلْ منه أسطرا حتى أرى، ففعل؛ فقال له : تمارَضْ ، فتمارض، فبعث الحجاج اليه تيادروس طبيبه فلم ير به علة ؛ وبلغ زادانفروخ ذلك فأمره أن يظهرَ . واتفق أن قُتِلَ زادانفروخ فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله ، فاستكتب الحجاج صالحا مكانه ،فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين صاحبه فى نقل الديوان ، فعزم الحجاجُ على ذلك وقلّده صالحا، فقال له مردانشاه

ابن زادانفروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع بويد؟ قال : أكتب وأيضا قال : والويد : النيف والزيادة تزاد ؛ فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعتَ أصل الفارسية . وبذلت له الفرس مائةَ ألفِ درهم على أن يُظْهِرَ العجز عن نقل الديوان، فأبى إلاّ نقلَه فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درُّ صالح ! ما أعظم منّته على الكتّاب . وكان الحجاج أجّله أجلا فى نقل الديوان » .

فأما الديوان بالشأم فكان بالرومية، والذى كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبى سفيان، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان فى زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقِلَ فى أيام عبد الملك، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر فتراخى فيه فأحفظَ ذلك عبدَ الملك فاستشارَ سليمانَ؛ فقال له : أنقل الديون وأرتجل منه .

ثم نجده يتكلم فى مكان آخر عن آصطفن القديم وأنه نقلَ لخالد بن يزيد بن معاوية كتبَ الصنعةِ وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيرِه أن اللغةَ العربية أخذت تجرى أشواطا فى حلبة العلوم فى هذا العصر .

⁂

ونريد أن نشرحَ شرحا بسيطا حال الخطَابة والكتابة فى العصر الأموى متوخِّين الاختصار على قدر الطاقة فنقول :

(د) الخطَابةُ ومميزاتها :

لم تزدهر الخطَابةُ فى عصر من عصور الآداب العربية، كما ازدهرَتْ فى هذا العصر، لاعتماد الناس عليها فى السياسة والدين . وقد جعلها الدينُ الاسلامىّ فرضًا من الفروض فى الدعوة اليه، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد كانت الوسيلةَ فى قمع الفتن وردّ البدع ، وكانت لسانَ القائد فى جنده يستنهض بها عزماتهم، والوالى فى رعيته يستفزّبها

حميّتهم، والزعيم فى شَعْبه يجمع بها شتاتَهم، اذ لم يكن غيرُها من وسائل التبليغ ميسورا، لذيوع الأمية وفِقْدان وسائل النشر .

وقد وَجدَتْ بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، بسبب اختلاف المسلمين، وتعدّدِ الفِرَق واختلاف الأحزاب، مجالًا واسعا للرقىّ والسبق ، لاعتماد كل حزب عليها فى نشر نحلته، وتأييد دعوته .

يميز الخطَابَةَ فى هذا العصر ما يميز الآدابَ عامة فيه : من فخامة الألفاظ ومتانة التركيب، والتباعد عن حُوشِىّ الكلام . ويميزها أيضا أنها اقتبسَتْ من القرآن كثيرا، ونهجت نهجه فى الارشاد والاقناع ، وأنها تُبدَأُ بحمد الله والصلاة على رسوله ، حتى قيل لخطبةِ زيادٍ المشهورة التى خطبها فى العراق : "الخطبة البتراء" إذ لم يحمد الله ولم يصل على نبيه فيها . وقد كان هذا العصرُ أحفلَ العصور بالخطباء، فقد كان جلُّ الخلفاء والقوّاد وولاةِ الأمصار وزعماءِ الأحزاب المختلفةِ خطباءَ مَصاقِعَ . وفيما يحفظه تاريخ الآداب من آثار الخلفاء، ولاسيما الإمام علىّ، ومن خطب الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، وطارق ابن زياد، مصداقُ ما نقول .

ولننقلْ هنا خطبة الحجاج فى أهل العراق بعد دير الجماجم فهى خيرُ مثالٍ لنضج الخطابة فى العصر الأموىّ . قال :

« يأهلَ العراق، إنّ الشيطانَ قد استبطنكم فخالط اللحمَ والدمَ، والعصبَ والمسامعَ والأطرافَ والشغافَ، ثم مضى الى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشَّشَ، ثم باض وفرّخ، فحشاكم نِفَاقا وشقاقا، وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه ، ومؤمّرا تستشيرونه ؛ فكيف تنفعكم تجربةٌ أو تعظكم وقعةٌ أو يحجزكم إسلامٌ أو يردّكم إيمانٌ ! ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذلُ دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لِواذا وتنهزمون سراعا . ويومُ الزاويةِ وما يومُ الزاويةِ ! بها كان فشلُكم وتنازعكم، وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ ولّيتم كالإبل الشوارد الى أوطانها،

النوازع الى أعطانها، لا يسأل المرءُ منكم عن أخيه ولا يَلْوِى الشيخُ على بنيه، حتى عَضَّكم السلاحُ وقصَمَتكم الرماحُ . يومُ دير الجماجم، وما دير الجماجم ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ بضربٍ يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله (١) .

«ياأهل العراقِ أهلَ الكفرات والغدرات، والثورة بعد الثورات، إن أبعثكم الى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمِنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم لا تذكرون خشيةً ولا تشكرون نعمةً، هل استخفكم ناكثٌ، واستغواكم غاوٍ، واستنصركم ظالم، واستعضدكم خالع، إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه! . هل شغَبَ شاغبٌ أو نعب ناعبٌ أو نعق ناعقٌ أو زفر زافر إلا كنتم أشياعَه وأنصارَه! ألم تنهكم المواعظُ! ألم تَزْجُركم الوقائعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشام فقال :

«ياأهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الذابّ عن فراخه، ينفى عنها المدرَ ويُبعِدُ عنها الحجرَ، ويكِنُّها من المطر . ياأهل الشام أنتم الجُنّةُ والرداء، وأنتم العُدّةُ والحِذاء» .

وقد يكون من المفيد حقًّا أن ترجع الى "صبح الأعشى" وغيره من المظان الأدبيـة، لتقف بنفسـك على خطب القوم الممتعة أسلوباً، الفخمة لفظًا، الغنية معنى، فى ذلك العصر الزاهر .

(هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت فى تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم فى إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنثور — لاترقى بل لا تكون إلا فى الأمم التى أخذت بقسط من التحضر، فكانت لها حكومةٌ منظّمةٌ، ودواوين معددةٌ، وصناعة متنوعةٌ، وزراعةٌ ناميةٌ، وتجارة رائجة، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربيـة فى الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مقتبستان من قصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التى أنشدها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة فى عمرة القضاء، وأصل البيت :

ضربا يزيل الهام عن مقيلـه ٭ ويذهل الخليـل عن خليله

اهـ من سيرة ابن هشام .

وقد كانت الكتابة معروفةً عند التبابعة جنوبا، والمناذرةِ والغساسنةِ فى الشمال، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحضارة نصيبٌ . أما البدو من سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخطَّ فى أواخر العصر الجاهلىّ . وقد كان حظُّ الكتابة فيهم حظَّها فى أمة بادية قليلة الشؤون ، لذلك لم ينلها فى الرقىّ ما نال أخويها الشعر والخَطَابة . فلما جاء الإسلامُ وصار للعرب حكومةٌ مُنظَّمةٌ وفتح الله عليهم أقطارَ الأرض، اشتدت حاجتهم الى الكتابة، فأخذت سبيلَها الى الرقىّ والكمال، حين صارت حاجةً من حاجات الدولة .

بَيْدَ أن الكتابةَ لم تبلغ كمالَها الممكنَ، فى التنسيقِ وإبلاغ الحاجةِ، وفى اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس ، إلا بعـد أن نُقِلَت الدواوينُ التى كانت بالفارسية فى فارس ، والرومية فى الشام، والقبطية فى مصر، الى العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وإلا بعـد أن ظهر فى العربية كتّابٌ صقَلَهم الاطلاعُ على آداب الفرس وغير الفرس من الأمم التى كانت لها قدمٌ راسخةٌ فى الحضارة : كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب .

على أنا لسنا نرمى بذلك الى أن لا بلاغةَ فى ذلك العَصر بغـير اطلاع على بلاغة الأمم الأخرى، لأن فى بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وتراث الجاهلية، الكنزَ الذى لا ينضُبُ ، والمَعِينَ الذى ينهَلُ من أفاويقه كُتّابُ العصر غيرَ مُنازَع ولا مُدافَع . وإنا لنعثرُ فى مظانّ الأدب العـربىّ على أمثلة ناضجة لمـا نقول . فهذا كلام أمّ الخير والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش، فإنه ممـا يُتخذ خيرَ مثال للنثر فى العصر الأموىّ (١) .

وستُثبت لك فى باب المنثور من الكتاب الأول فى المجلد الثـانى رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنثور العربىّ، إحداهمـا تلك الرسالة المنسوبة لأبى بكر الصـديق والتى قيل إنه كتبها لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فهى تمثل عصرها بلاغة وفخـامة . والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى ، فهى فريدة فى نوعها رشاقة أسلوب وسموّ معنًى .

(١) أنظر باب المنثور من ملحق الكتاب الأول فى المجلد الثـانى .

(و) حالة الشعر فى العصر الأموى وتحوّله :

لكى نلمس بأيدينا صحة قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأموىّ، كان عصرَ تجديد فى الآداب العربيــة، وأنه كان عصرَ تجــديد قوى ظاهر فى اللفظ والمعنى، يلزمنا أن نفهمَ فهما أوليا سذاجةَ الشعر الجاهلىّ وصادقَ تعبيره عن الحياة الجاهلية .

نعلم أن العصر الجاهلىّ للعرب كان فى مجموعه، ككل العصور الأوّلية للعقل البشرىّ، ساذَجًا فطْريا فى علومه ونُظُمِه وعاداته ولكنه لم يكن كذلك فى آدابه، فإنّ عرب الجاهلية بدءوا فى شعرهم وآدابهــم، فى ذلك الطور الأول، بمــا كان عليــه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى فى أطوارها الأولى وعصورها الجــاهلية، مع ملازمتهــم للفطرة، ونفورهم من التكلف، وبعدهم عن الصنعة الكلامية .

إن العربَ فى جاهليتهم نظموا الشعر فى كل حاجاتهــم وأبدعوا فيــه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا فى دَوْرِ فوضاهم فقد نضجت لهم أفانينُ كانت آيةً فى بلاغة اللسان العربىّ . وكان الأدب الجاهلى فِطْرِيا مُمَثِّلاً خُلُقَ العصر مبينًا استقلالَ الفكرة البــدوية؛ وكان فى ضروبه كافَّةً من وصف ومدح ورثاء وهجاء ناطقًا بما يجيش فى نفس قائله حقا، كما كان فى بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آيةً فى بلاغة الفطرة وشاهدا فى مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسَلة عن شعور صاحبها فى النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إنّ المعلقات وغيرَها من آثار العقل العربىّ الجاهلىّ، قد لا تتأثر بها نفوسُ العصر الحاضر، لتغير اللغاتِ والأفكار والمعتقدات، ولتشعّب المدنيات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكم بنبوّ ألفاظها وخشونتها، فكما أن الأدب الانكليزىّ قد لا يستعمل اليوم ألفاظا كان يستعملها شيوخُ العقل الانكليزى «كاكون» و «شكسبير» و «ملتون» من خيرةِ نتاج عصر اليزابث الذهبىّ وقبلهما «شوسر» وشعراء المغانى، و يعتبرها البعض نابيةً جافيةً، وأنها بمثابة ألفاظ مدرسية تاريخية، كما هى الحال فى نظر أدب العصر

الانكليزى أو الفرنسى أو الألمـانى فى تراجمهم عن الكتاب المقدّس، والى شعرائهم وأدبائهم المتقدّمين، كذلك هو الحال فى أحكامنا عن نتاج العصر العربىّ الجاهلىّ .

*
* *

إنّ المدنيّةَ ما ونَتْ ساعة ولا يوما، ولكن عاطفة الانسان تكادُ تكون هى بنفسها فى كل العصور : يحرّك لواعجَه الجمالُ، ويَفطِر قلبَه رَيبُ الزمان، ويُبثّ شكاتَه الى أترابه وإخوانه، ويحاول أن يتبوّأ حبّاتِ الأفئدة بسحر بيانه، فهو يفخَر ويشـدو، وهو يمدح ويهجو، وهو يخطُب وينظِم ويضرِبُ الأمثـالَ . وهو صادق فى ترجمة مشاعره، وتبيان مقاصده ما كان فى دَوْرِ سذاجته بعيـدا عن ضروب المدنيات التى كثيرا ما تُلازِمُها تقاليد خاصـة وتصحبها آدابٌ تُعورِفَ عليهـا تُقلّل صراحته وتَفُلُّ من حدّة شبّاته، وتجعـل له سلطانا على ميوله وأهوائه . واللسان عُتَلَّـةٌ مصفاحٌ إن تركت له عِنانه، كُتَمَةٌ مُضَلَّلٌ إن جعلت العقلَ والتقليدَ ميزانه .

مِنْ هنا نستطيع أن نُفَسّرَ سذاجةَ العربىّ الجاهلىّ وجنوحَه الى صوت الطبيعة، على العكس من حال زميله الاسلامىّ الذى قد صقلته بلاغةُ القرآن وتعاليمُه، وشذّبته سـنّةُ الرسول وصحابتِه، وأفسح المجالَ لخياله ما وقف عليـه أثناء الفتوح العربيـة من تراث المدنيات الفارسية فى العراق وفارس، والرومانيـة فى الشام ومصر، وناهيك بآثار الفرس والروم الى ما خَلّفَ له آباؤه العربُ من حكمةٍ وبيانٍ .

*
* *

كان شـعراءُ الجاهليـةِ يُسَدّدون قولَهم نحو كبِدِ الحقيقة فلا يُخطِئونها، ويقولون الشعرَ عن شعورٍ حىّ، ولا يتخطّوْن الى ما وراء مشهودهم ومعقولهم، فجـاء شعرُهم مثالا صادقا لبداوتهم وحضارتهم ، حتى لو اندثرَتْ جميعُ أخبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شىء من شـعرهم لتيَسّرَ للباحث أن يستخرج منه وصفًا كاملًا لجميع أحوالهم، كما استخرجَ الباحثون كثيرًا من غوامض جاهلية اليونان من شعر «هوميرس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السُّلَّانِ اذ حضرها مع أخيه كليب وفرّ ابن عنق الحية من وجههما :

لوكان ناهٍ لأبن حيّةَ زاجرًا ٭ لنهاه ذا عن وقعة السُّلَّانِ
يومٌ لنا كانت رياسةُ أهله ٭ دون القبائل من بنى عدنان
غضبَتْ مَعَدٌّ غثُّها وسَمِينُها ٭ فيه مُمالأةً على غسَّان
فأزالهم عنّا كُلَيْبُ بطعنةٍ ٭ فى عُمْرِ بابلَ من بنى قحطان
ولقد مضى عنها ابنُ حيّةَ مدبرًا ٭ تحت العَجَاجة والحتوفُ دوانِى
لما رآنا بالكلابِ كأننا ٭ أُسْدٌ مَلَاوِثَةٌ على خَفَّان
رك التى سحبتْ عليه ذيولَها ٭ تحت العجاج بذلّةٍ وهوان
ونجا بمهجته وأسلم قومَه ٭ متسربلين رواعفَ المرّان
يمشون فى حَلَقِ الحديد كأنهم ٭ جُرْبُ الجمال طُلِينَ بالقَطِران
نعم الفوارسُ لافوارسُ مَذْحِجٍ ٭ يوم الهياج ولا بنو هَمْدان
هزموا العُداةَ بكل أسمرَ مارنٍ ٭ ومهنَّدٍ مثل الغدير يمانى

وبعد، فإنا بعد ما قدّمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر فى الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته فى العصر الأُموى، لا نرى مندوحةً من الإشارة هنا الى أنا سنعنى عناية، خاصة، بفرعَيِ الغزَل والشعر السياسى، لأنهما بحالتيهما الأُموية يكادان يكونان ولِيدَي العصر ونتاجَه .

وليس معنى ذلك أنا ننكر تلك المعانىَ الجديدةَ التى دخلت على الوصف والمدح والرثاء والهجاء، ولكنّا نلاحظ أنّ الفرق لا يعدو ملتزماتِ المدنية، مع رقة اكتسبتها العصورُ الاسلامية، القريبةُ العهد من نزول القرآن واشتغالِ الناس بتلاوته وإقبالِهم على دراسته، حتى انطبعوا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المفيد أن نُشيرَ الى شىءٍ جديدٍ أصاب فنّ المديح فى العصر الأموى، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابنُ قتيبةَ فى كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرُّجّازِ نصرَ بن سيار والى خراسانَ لبنى أمية، فمدحه بقصيدة تشبيبُها مائةُ بيتٍ ومديحُها عشرةُ أبيات، فقال نصرٌ : « والله ما بقيت كلمــةٌ عذبةٌ ولا معنى لطيفٌ إلا شَغَلْتَه عن مديحى بتشبيبك، فان أردت مديحى فاقتصد فى النسيب، فأتاه فأنشد :

هل تعرف الدارَ لأم الغمـــر ° دع ذا وحبِّرْ مِــدحةً فى نصر

فقال نصر : لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغـــزل :

كان غَزَلُ الجاهلية من عفو الخاطر وفيض البديهةِ، ناطقًا بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، وتوقّدِ أذهانهم وثائر طباعهم، وكان بريئا من الصنعة والكُلْفة .

ومع أنى ممن يذهبون الى أنّ الشاعر الجاهلىّ، كان يعالج الفنون الشعريةَ كافّة غير مقصور على النسيب بالذات، بيد أنى ممن يقول إن المعانىَ الغزلية وألفاظَها تكاد تكون مُعادةً فيا بعد العصر الجاهلىّ، بتوسع تقتضيه المدنيّةُ، وطَلَاوةٍ اكتسبتها الألفاظُ من بلاغة القرآن، وعذوبةٍ أنتجتها ثروةُ الأذهان من أفاويق العِرفان .

ولقد صدق زهيرٌ إذ يقول :

ما أرانا نقــول إلا مُعَارًا ° أو مُعادا من لفظنا مكرورا

أجل، لقد كان الغَزَلُ الأموىّ غنيا بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنَّا نجد فيه لواعجَ الحبّ ولفحاته، وشكايات الصبّ وأنّاته، وزفرات العاشق وعبراته .

ألسنا نلمسُ التوجعَ والأسى فى قول ابن الدمينة الخثعمىّ :

ألا ياصبا نجدٍ متى هِجتِ من نجدِ ° لقد زادنى مَسرَاك وجدًا على وجدِ

وفى قول الصمّة بن عبد الله بن طفيل :

حَنَنْتَ الى رَيَّا ونفسُك باعدَتْ ° مَزَارَك مِن رَيَّا وشَعْبَاكُما معَا

نريد أن ندرُس حالة الغزل فى العصر الأموى- الذى هو عصر الترف والغنى والثروة، عصرُ القصور والملاذ ، عصرُ الاندماج فى غير العرب واتخاذ السرارى والسبايا ، تخادمات ووصيفات وزوجات .

لقد كثر الترفُ كثرةً حمل معها الاندفاع مع الغزلِ وما يجرّه الغزل ، وخلق أنواعا صريحةً من المناحى الشعرية فى الحب والتشبيب بالنساء ، رغبةً فى الحب من حيث هو ، وفى التشبيب من حيث هو : بمعنى أنا كنا فى العصر الجاهلى- قلما نجد شاعرا وقَفَ حياته الشعريةَ على معالجة فنّ الغزل فحسبُ ، لا يتكلف غيرَه ولا يُعنَى بسواه ، فإذ بنا فى العصر الأموى- نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة وفناً .

وظاهرة أخرى نلاحظها فى الغزل الأموى- تظهر بجَلاء مقدار اختلافه عما كان عليه فى العصر الجاهلى- ، تلك أنواعه المتباينةُ التى يصح لنا أن نقسّمها الى أربعة أبواب : غزل إباحىّ ، ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها ، معانىَ العبث بها والاستمتاع باللذة المادية مما ينفرُ منه الأدب الجاهلى- ومما حَظَره عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمته .

ولقد صدق ابنُ جريج إذ يقول : " مادخل على العواتق فى خدورهنّ شىء أضرّ عليهنّ من شعر ابن أبى ربيعة " . ونحيل القارئَ الى حديث الزبير بن بكار عن عمه مُصْعَب فى صفة هذا الشاعر الكبير، على أن كتاب الأغانى وغيرَه من أمهات كتب الأدب العربى- مُترَعةٌ بشعره وتشبيبه مما لا يدع مجالا للشك فى أنه كان تَبِعَ نساء وجِلْسَ غانياتٍ ، وصّافا لأحاديثهنّ ، واقفا على دخائلهنّ ، مطلعا على هوى نفوسهنّ . ولا حاجة بنا الى التطويل هنا فيما هو مشهور مُتعارَف ، خصوصا أنك ستجد طرفا من شعره ، فى باب المنظوم من الكتاب الأول فى المجلد الثانى ، فراجعه ثمة .

على أنه مع ذلك يذوب رِقّةً وحنانا فى بعض مُقطّعاته ، ولا سيما مع الثريا بنت على- ، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتحْ قلبَه لأحد سواها .

كتب ابن أبى ربيعة الى الثريا وهى باليمن يقول :

كتبتُ إليك من بلدى ✱ كتاب مُولَّه كَمِدِ

ولقد كانت مكةُ والمدينة مَسْرحًا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وسبب ذلك ميسور فهمه، معقول تعليله، ذلك أن الخلفاء تعمّد جلّهم الإغداقَ على أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوقَ ما ورثهم آباؤهم، ليحولوا بينهم و بين ما يطمحُ اليه أمثالهم من منافسة فى الملك، أو مشاكسةٍ للسلطان، وليشغلوهم عن أمور الدولة بإرخاء العِنانِ لهم فى لذاتهم ومناعمهم .

وهناك الغزل العُذْرىُّ البرىء، غَزَلَ الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألمة المعناة، تلك النفسُ التى تجد لذّتها فى الكَلَف بمن تحبّ والتعلّق به والشعور بالسعادة فى الفناء بحبه، حبًّا يملك عليه لبّه و يعذّب رُوحَه و يفنى جسمه كغزل جميل. وليس أدلَّ على صدق حبه مما أثبته صاحب الأغانى فى الجزء السابع، اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمل مُحاجّة، فكان من جميلٍ ما كان مما نجده مفصلا فى موضعه[1] .

وغزل صناعىّ بين هذا وذاك، همه الإجادة فى الشعر مَن حيث هو شعر، لا فى الحبّ من حيث هو حب، ولنا فى كُثير عزةَ زعيم لهذا النوع الثالث[2] .

وغزل قَصَصِىّ، خلقه الرواة لأنهم رأوا ميلَ الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياةَ القصف، فنظموا قصائدَ نحلوها لشعراء لانستطيع أن نحتملَ تَبِعةَ القول بوجودهم فى الحياة أو القول بأنهم أشخاص خياليّون خلقهم الرواةُ أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيما هذا النوع . قيسُ بن الملوح وليلاه[3]، وقيس بن ذَرِيح ولُبناه[4] .

(١) و(٢) و(٣) و(٤) أنظر باب المنظوم من ملحق الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى .

(ح) الشعر السياسى .

بدايةُ عصر بنى أميــة معركةٌ سياسيّةٌ ، لَعِبَ فيهـا معاوية وأنصاره دورا مُمتعًا طريفا فى سبيل آستلاب الخلافة من علىّ ، وتأسيس ملك بنى أميــة ، على قواعدَ وسننٍ تخالف قليلا أو كثيرا ما كانت عليه الحالُ فى عصر الخلفاء الراشدين .

⁂

الإنسانُ فى سبيل تحقيق أطماعه السياسية، هو بعينه فى عصر معاويةَ، وفى عصر يوليوس قيصر، وفى عصر بونابرت، وفريدريك الأكبر أوّل عاهل لألمـانيا ، هو بعينـه إنسانُ اليوم، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها، يستعمل المـالُ فى شراء الضمير الإنسانىّ، ويعمل جهــدَه على إذاعة دعوته، وتبيان فضائله ، وتصويب خُطَّته، باتخاذ الحملات الصُّحَفية والخَطَابية وغيرها من وسائل الدعوة التى وصلت اليها المدنيّةُ الحديثةُ ، والتى كانت فى عصر معاوية وخلفاء معــاوية وفى عصر المأمون وخلفاء المأمون ، تَستخدِمُ ألسنةَ الشعراء، وهى أسرع انتشارًا، وأعمق أثرًا، وأكثر روايةً، وأطول عمرا، مما يكتب اليوم، فلا يَروِيه من الناس إلا قليلٌ .

إنك لتعــلم ما لآستخدام الشعر من أثر فى كثير من الحركات السياسية ، وآستحثاث العزمات وإنهاضِ الهِمَمَ فى الانقلابات الاجتماعية، وما «للرسلين» من أثر فى نفوس الجند الفرنسيين ، اذا حَمِىَ وطيس الحرب واشتدّ أُوَارُها . وأنت جِدُّ عالِم بمـا كان لقصائد « اللورد بيرن » ، الواحدةَ تِلْوَ الأخرى ، فى سبيل استقلال اليونان الحديثــة، وفى سبيل اجتذاب عطف أوروبا وساستها و جماهيرها وملوكها ونوّابها وصحفها ، ليأخذوا بناصر أمةٍ مَهِيضةٍ غُلِبَتْ على أمرها .

أنت جِدُّ عالم بأن قصائد « بيرن » هذه فَعَلَتْ فى المعركة السياسية ما لم تفعله جيوشُ مصرَ وأساطيلُها وذخيرة الترك وآنتصارها، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصارُ لشعره .

⁂

كذلك كان الحالُ فى عصر بنى أميـة، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغَ وأوسعَ نطاقًا . ألم يُوعِزْ معاويةُ، فى رواية يزيد آبنـه، الى مِسْكينٍ الدارمىّ أن يقولَ أبياتا فى معنى المبايعة ليزيدَ ويُنْشِدَها إياه فى مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغانى : إن معاويةَ لما أراد البيعـة ليزيد، تهيّب ذلك وخاف ألا يماليه عليـه الناسُ لحسن التقيّة فيهـم وكثرةِ من يُرَشَّحُ للخلافة، وبلغه فى ذلك ذَرْوُ كلام (١)، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبـد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكينا، وكان يؤثره ويصله ويقوم بحاجاته عند أبيه، أن يقولَ أبياتا وينشدَها معاويةَ فى مجلسه اذا كان حافلا وحضره وجوهُ بنى أميـة، فلما اتفق ذلك دخل مسكين اليـه وهو جالس وآبنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشرافُ الناس فى مجلسه، فمثَلَ بين يديه وأنشأ يقـــول :

إن أُدْعَ مسكينا فإنى آبنُ معشرٍ ۝ من الناس أحمِى عنهمُ وأذودُ
اليـك أميرَ المؤمنين رحَلتُها ۝ تثير القطا ليلا وهن هجودُ
وهاجرة ظلّت كأن ظِبـاءها ۝ اذا ما آتقتهـا بالقـرون سجود
ألا ليتَ شعرى مايقول آبنُ عامرٍ ۝ ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ
بنى خلفـاء الله مهـلا فإنمـا ۝ يبوِّئها الرحمنُ حيث يريد
اذا المنبرُ الغـربىّ خلاه ربه ۝ فإن أمير المؤمنيـن يزيدُ
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ ۝ لكل أناس طائرٌ وجـدودُ
فلازِلتَ أعلى الناس كعبا ولا تزل ۝ وفـودٌ تُساميهـا اليك وفُـودُ
ولا زال بيتُ الملك فوقك عاليا ۝ تُشـيَّدُ أطنـابٌ له وعُمـودُ
قُدورُ آبنِ حربٍ كالجوابى وتحتها ۝ أثاف كأمثـال الرئال رُكودُ

(١) ذرو كلام : طرف منه .

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلتَ يامسكينُ ونستخير الله» . قال: ولم يتكلم أحد من بنى أمية فى ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذى أراده يزيد، ليعلم ماعندهم، ثم وصله يزيدُ ووصله معاوية فأجزلا صلته اه .

وأظنك لا تطلب منا حين مطالعتك لهذه القصيدة تحليلها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا اليه، فيما أسلفناه لك من القول بأن شعرَ العصر الأموىّ عربىّ جاهلىّ فى منحاه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأغراض ومقاصدَ تكاد تكون جديدةً بالنسبة للعصر الجاهلىّ . وذلك لوضوح التحليل وخوفِ الإطالة فيما لا يعنينا كثيرا .

على أنه لِزامٌ فى عنقنا أن نصورَ، الى مدًى أوسعَ، استخدامَ الشعر الأموىّ فى الأغراض السياسية، لأن لهذا النوع الطريف نتائجَه وآثارَه فى هذا العصر والعصور التى تليه، ولأن لهذه الميزة ميزةِ اصطباغ الشعر بالغرض السياسىّ واندفاع صاحبه فى سبيل نُصرةِ دعوته مُعبّدًا ما قد يعترض طريقَه من صِعابٍ، مُذللا ما يعترضه من عِقابٍ، منتهكا حرمةَ التقاليد والأشخاص، بل خارجا الى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، وربما لا يرضى عنه الشرعُ حقا، نزعم أن لهذه الميزة آثارَها ونتائجَها . ولسنا بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكنا بموقف المقيّدِ للحوادث فحسبُ، المثبت لمبدأ وقوعها، ولما مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط مَيدانها ما سيتاحُ لنا تفصيلُه فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصةً، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين .

***

مَثَلٌ آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركة مذهبية سياسية بين نصير معاوية ونصير علىّ، بين كعب بن جُعَيل والنجاشىّ . وهاك قصيدة كل منهما، قال كعبُ بن جُعيل :

أرى الشام تكره مُلك العرا ❊ ق وأهلُ العراق لهم كارهونا
وكلّ لصاحبه مُبغضٌ ❊ يرى كلّ ما كان من ذاك دِينا

وقالــوا علـىّ إمامٌ لنـا • فقلنا رضينا ابنَ هنـد رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنـا • فقلنـا لهم لا نرى أن ندينـا
وكلّ يُسَـرُّ بمـا عنده • يرى غَثَّ ما فى يديه سَمينـا
وما فى علـىّ بمستعتِبٍ • مقال سـوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخـط • ولا فى النهاة ولا الآمرينـا
ولا هو سـاءَ ولا هو سَـرَّ • ولا بدّ من بعـد ذا أن يكونا

فلما قرأه علىّ رضى الله عنه قال للنجاشىّ أجب، فقال:

دعنْ مُعَـاوِىَ ما لن يكونا • فقـد حقَّقَ الله ما تحـذرونا
أتاكم علـىّ بأهـل العـرا • ق وأهلِ الحجـاز فما تصنعونا
يرون الطِّعَـانَ خلالَ العجَا • ج وضربَ القوانِسِ(١) فى النَّقْع دِينا
هم هزموا الجمع جمـعَ الزبير • وطلحـة والمعشرَ الناكثينا
فان يكره القوم مُلكَ العـراق • فقِـدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائلٍ • ومن جعلَ الغثَّ يوماً سمينـا
جعلتـم عليًّا وأشـياعه • نظيرَ ابن هنـد ألا تستحُونا

⁂

وهناك مثلا آخر ذكره صاحب الأغانى فى ترجمة النعمان بن بشير قال: تشبب عبد الرحمن ابن حسان برملة بنت معاوية فقال:

رَمْلَ هَـل تذكرين يومَ غزال • إذ قطعنـا مسـيرَنا بالتمـنّى
إذ تقـولين عمرَكَ اللهَ هل شى • ءٌ وإن جلَّ سوف يُسليكَ عنّى
أم هل أطمعتَ يا بنَ حسان فى ذا • كَ كما قـد أراكَ أطمعتَ منّى

قال: فبلغ ذلك يزيدَ بن معاوية فغضب، ودخل على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الى هذا العلج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويُشبِّب بنسائنا! فقال: ومن هو؟

(١) القوانس: جمع قونس وهو أعلى الرأس، وأعلى بيضة الحديد أو مقدمها.

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال، فقال، يايزيد ليست العقوبةُ من أحد أقبحَ منها بذوى المقدرة، ولكن امهل حتى يقدمَ وفدُ الأنصار ثم ذكّرنى به، فلما قدموا ذكّره به ،فلما دخلوا قال: ياعبد الرحمن، ألم يبلغنى أنك تُشَبّبُ برملةَ بنت أمير المؤمنين! قال: بلى ولو علمتُ أن أحدا أشرفُ بشعرى منها لذكرته، قال: أين أنتَ عن أختها هند! . قال: وإن لها لأختا يقال لها هند؟ قال : نعم! وإنما أراد معاويةَ أن يشببَ بهما جميعا فيكذب نفسه، فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه، فأرسل الى كعب بن جُعَيل فقال له : اهجُ الأنصارَ، فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل، قال فدعاه فقال له، اهجُ الأنصارَ، فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين، قال: لاتخف شيئا أنا لك بذلك، فهجاهم فقال :

وإذا نسبتَ ابنَ الفُريعةِ خلته * كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ

لعنَ الالهُ من المهور عصابةً * بالجزع بين صُلَيصِلٍ وصُدارِ

قوم اذا هدر العصيرُ رأيتَهم * حمرا عيونهمو من المصطار

خلو المكارمَ لستمو من أهلها * وخذوا مساحيكم بنى النجار

إن الفوارس يعرفون ظهورَكم * أولادَ كلّ مقبّحٍ أكّارِ

ذهبت قريشٌ بالمكارم كلها * واللؤمُ تحتَ عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمانَ بنَ بشير، فدخل على معاوية فحسرَ عمامتَه عن رأسه وقال: ياأمير المؤمنين، أترى لؤما؟ قال : لا بل أرى كرما وخيرا، فماذا؟ قال: زعم الأخطلُ أن اللؤمَ تحتَ عمائم الأنصار! قال : أو فعل ذلك؟ قال : نعم، قال: لكَ لسانُه، وكتب فيه أن يؤتى به، فلما أُتِىَ به سأل الرسولَ أن يُدخِلَه الى يزيدَ أولاً، فأدخله عليه، فقال : هذا الذى كنتُ أخاف، قال : لاتخف شيئا، ودخل على معاوية فقال : علامَ أرسل الى هذا الذى يمدحنا ويرمى من وراء حجرتنا؟ قال : هجا الأنصار، قال : ومن زعم ذلك؟ قال : النعمانُ بنُ بشير، قال : لا تقبل قوله وهو المدّعى لنفسه، ولكن تدعوه بالبينة وإن أثبتَ شيئا أخذت له، فدعاه بالبينة فلم يأت بها فخلّاه، فقال الأخطلُ :

وإنى وإن آستعمرت أمُّ مالك * لراضٍ من السلطان أن يتهدّدا
ولولا يزيدُ آبن الملوكِ وسعيُه * تحللتُ جِرباذًا من الشر أنكدا

أما ردّ النعمان على الأخطل فهاكه كما نقله أبو الفرج الأصبهانى عن خالد بن كلثوم :

مُعاوِىَ إلّا تعطنا الحقَّ تعترف * لِحىَ الأزد مشدودا عليها العمائمُ

حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعـد شتاته * فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم * ومنهـم له هادٍ إمامٌ وخاتمُ

وإنّا نُحيل القارئ الى الكتاب الأوّل من المجلد الثانى ليقف على قصيدة النعمان هـذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائيـة الأخرى التى أنشـدها معاويةَ لما ضَربَ مروانُ بن الحكم، عبدَ الرحمن بنَ حسان الحـدَّ ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا . وتحرير الخبر فيها : أنه لما كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبـد الرحمن بن الحكم ابن أبى العاصى وتفاحشا، كتبَ معاويةُ الى سعيد بن العاصى، وهو عاملُه على المدينـة، أن يجلد كلَّ واحد منهـما مائةَ سوط . وكان ابنُ حسان صـديقًا لسعيد وما مدح أحدًا غيرَه قط، فكره أن يضربَ أو يضرب ابن عمه فأمسك عنهما، ثم ولى مروانُ، فلما قدِم أخذ ابنَ حسان فضربه مائةَ سوط ولم يضرب أخاه، فكتبَ ابنُ حسان الى النعمان ابن بشير وهو بالشأم، وكان كبيراً أثيراً مكيناً عند معاوية، قال :

ليتَ شعرى أغائب أنت بالشـ * ـام خليـلى أم راقدٌ نعمانُ
أيّةً ما يكن فقـد يرجع الغـ * ـائب يوما ويوقَظ الوسـنانُ
إن عمرا وعامرا أبوينـا * وحراما قِـدْما على العهد كانوا
أفهُمْ ما نعوك أم قـلة الكـتّـ * ـاب أم أنت عاتبٌ غضبانُ
أم جفاء، أم أعوزتك القراطيـ * ـس أم آمرِى به عليك هوانُ
يوم أُنبِئتَ أن ساقىَ رُضَّتْ * وأتتكم بذلك الركبانُ

ثم قالوا إن ابن عمـك فى بلـ ٭ ـوى أمورٍ أتى بها الحدثانُ
فنسيتَ الأرحام والودَّ والصحـ ٭ ـبة فيما أتت به الأزمانُ
إنما الرمح فاعلمنَّ قناةٌ ٭ أو كبعض العيدان لولا السِّنانُ

وهى قصيدة طويلة . فدخل النعمان بن بشير على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين، إنك أمرت سعيدا بأن يضربَ ابنَ حسان وابنَ الحكم مائةَ سوط فلم يفعل، ثم ولَّيتَ مروانَ فضربَ ابنَ حسانٍ ولم يضرب أخاه ! قال : فتريد ماذا ؟ قال : أريد أن تكتبَ اليه بمثل ما كتبتَ الى سعيد، فكتب اليه معاويةُ يعزمُ عليه أن يضربَ أخاه مائةً، فضربه خمسين وبعث الى ابن حسَّان بحُلَّة وسأله أن يعفوَ عن خمسين، ففعل وقال لأهل المدينة : إنما ضربنى حدَّ الحرّ وضربه حدَّ العبد خمسين، فشاعت الكلمةُ حتى بلغت ابنَ الحكم، فجاء الى أخيه فأخبره وقال : «لا حاجةَ لى فيما عفا عنه ابنُ حسَّان»، فبعث اليه مروان : «لا حاجة لنا فيما تركت، فهلم فاقتصّ من صاحبك» . فحضر فضربه مروانُ خمسين أخرى اه .

⁂

ويجدر بنا الآن، بعد أن أوضحنا ميزةَ استعمال الشعر فى الأغراض السياسية فى الدولة الأموية، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تخلو من نفع فيما سنعالجه، وهى أن تلك الأغراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود . وقد سبق لنا أن أشرنا الى كتاب معاوية الى مروانَ بن الحكم فى صدد حدِّه للشاعر المناصر لسياسة بنى أمية وهو عبد الرحمن بن أرطاة المعروف بأبى سيحان وكان حَدَّه لشُربه الخمرَ. وابنُ سيحانَ هذا هو الذى قال فى صفته أبو الفرج الأصفهانى : « كان عبدُ الرحمن شاعرًا مُقِلًّا إسلاميا، ليس من الفحول المشهورين، ولكنه كان يقول فى الشراب والغَزَل ومدح أحلافه من بنى أمية، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه، وكان مع بنى أمية كواحد منهم، إلا أن اختصاصه بآل أبى سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثرَ، وخُصُوصَه بالوليد ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيدُ من خصوصه بسائرهم، لأنهما كانا يتناوبان على الشراب» .

ونريد الآن أن نفسرَ هذه الحادثةَ تفسيرا معتدلا لنخرج منها بما عساه يمدّنا وينفعنا فيما سنُقْدِمُ عليه من مناقشة العصور التى تلت هذا العصر، تلك العصور التى تغذّت، من غير شـك، بأفاويق العصر الأموى الذى تقـدّمها، فنبتت فيهـا بذورُه حتى كادت تنمو فى حديقته الأُنُف الحسّانة دوحاتٌ خطرة على الاعتبارات الخُلقية التى تُوُوضِعَ عليها .

وإنك اذا رجعت الى كتاب معاوية، ورجعت الى كتاب الأغانى نفسه، ومؤلفه أُموى كما تعلم، وجدته قد أقام الحجة فى غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر . وهاك ما يؤيد ذلك ويعززه :

قال : « كان الوليد بن عثمان، ذا غَلّةٍ فى الحجاز، يخرج اليها فى زمان التمر بنفر من قومه، يجنون له ويعاونونه، فكان اذا حضر خروجهم دفع اليهـم نفقاتٍ لأهليهـم الى رجعتهم، فخرج بهم مرةً كما كان يخرج وفيهم ابنُ سيحانَ، فأتى ابنَ سيحانَ كتابٌ من أهله يسألونه القدومَ لحاجةٍ لا بدّ منها، فاستأذنه فأذن له، فقال له ابنُ سيحان : زوّدونى من شرابكم هذا، فزوّدوه إداوة ملأها له من شرابهم، فكان يشربها فى طريقه حتى قدم على أهله، فألقاها فى جانب بيته فارغة، فمكث زمانا لا يذكرها حتى كنسوا البيت فرآها ملقاةً فى الكُناسة فقال :

لا تَبْـعَدَنَّ إداوةٌ مطروحةٌ * كانت حديثاً للشراب العاتِقِ
إن تُصبِحِى لا شىء فيكِ فربما * أُتْرِعْتِ من كأس تَلَذُّ لذائقِ
بأبى الوليـدَ وأمّ نفسى كلّمـا * بدت النجومُ وذرّ قرنُ الشارقِ
كم عنـده من نائلٍ وسمـاحةٍ * وشمـائلٍ ميمونةٍ وخلائقِ
وكرامةٍ للمعتفين اذا آعتفَوْا * فى ماله حقًا وقولٍ صادقِ
أثوى فأكرَمَ فى الثواء وقُضِّيَتْ * حاجاتُنا من عند أروعَ باسِقِ
لمـا أتيناه أتينـا ماجـد الـ * ـأخلاق سبّاقًا لِقَرْمٍ سابِقِ
قال الوليدُ يدى لكم رهن بمـا * حاولتمو من صامتٍ أو ناطقِ
فإلى الوليـد اليـوم حَنَّتْ ناقتى * تهـوِى بمغبرّ المتون سَمـالِقِ
حنّت الى برق فقلت لهـا قِرى * بعضَ الحنين فإنّ شجوكِ شائقى

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته لخمر . ثم لِنُثْبِتْ هنا قصيدته التى مدح بها معاوية :

إنى آمرؤ أُنمى الى أفضل الورى ٭ عديدًا اذا ارفضّتْ عصا المتخلّفِ
الى نضد من عبد شمس كأنهم ٭ هضاب أجًا أركانُها لم تَقَصَّف
ميامين يرضون الكفاية إن كفوا ٭ ويكفون ما وُلُّوا بغير تكلّفِ
غطارفةٌ ساسوا البلادَ فأحسنوا ٭ سياستَها حتى أقرّتْ لمردِفِ
فمن يكُ منهم موسرا يَغْشَ فضله ٭ ومن يكُ منهمْ معسرا يتعفّفِ
وإن تبسط النعمى لهم بسطوا بها ٭ أكفًّا سِباطا نفعها غيرُ مُقرِفِ
وإن تَزْوَ عنهم لا يضجّوا وتُلْفِهم ٭ قليلى التشكى عندها والتكلّف
اذا انصرفوا للحق يوما تصرّفوا ٭ اذا الجاهل الحيرانُ لم يتصرّفِ
سَمَوْا فعَلَوْا فوق البرية كلّها ٭ ببنيان عالٍ من مُنيف ومُشْرِف

وكان من حظها أن كتب معاوية أن يعطى أربعمائةِ شاة وثلاثينَ لقحةً ، مما يوطن السيالة غير ما أعطاه سواه .

ومهما يكن الواقعُ الذى حدا آبن الحكم الى حدّه فإنّ السياسةَ الحزبيــة ومدائحَ آبن سيحانَ فى معاوية ، واستعمال الأخير الشعراء فى مناصرة بيته — كلّ ذلك دفع بمعاوية الى كتابة ما كتب لآبن الحكم أولا ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اضطره لرفده بخمسمائة دينار مما وصفه صاحب الأغانى ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية ، فلنقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسّع ولا إسهاب .

٭ ٭ ٭

وبعــد ، فلنلخص ما تقدّم عن شــعراء السياسة ، وهم العنصر الهامّ الذى لعب دوراً بارزا فى الأدب العربىّ فى العصر الأموىّ ، والذى كان له أثره ونتائجه فى العصر العباسىّ ، فى كلمة ختاميــة فى هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدورِ أمويين ، فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بنى أمية شعراء آخرين أخذوا بناصرهم ودافعوا عن كِيَانهم مثـل أبى العباس الأعمى هجاء ابن الزبير، وأبى قطيفة طريد ابن الزبير، وأبى صخر الهـذلى المتعصب لآل مروان وهجاء ابن الزبير، وعدىّ بن الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ الهـذلى ، وجبيهاء الأشجعى والحكم بن عبدل الأسدى، والسلولى، وموسى شهوات، وغيرهم .

والشعراء العلويون، وفى طليعتهم النعمان بن بشير الأنصارىّ، والكُمَيت بن زيد، وأيمن ابن خريم . على أن الأخيرين اضطرا الى امتداح بنى أمية ومسايرتهم، فانا نجد الكميت قد مدح هشاما، كما نجد أيمن مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلّب ابن أبى صُـفْرة كزياد الأعجم وثابت قُطْنة وحمـزة بن بيض وكعب الأشـقرى وغيرهم . وأخيرا نجد حزب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدىّ .

وصفوة القول أن المعركة السياسية بين بنى أمية ومنافسيهم فى الملك أو الجاه وما يتبعهما : من إغداق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشـعراء مع من أحسن اليهم، واللُّهَا تَفتحُ اللَّها .

⁂

من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربيـة من مَيدانٍ فسيح فى ضروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنـا أن ننتقل الى الكتاب الثانى من موضوعنا، ونرجو أن نُوفَّق الى إيضاح ما أوجزناه، وبسط ما أجملناه، مبتهلين الى الله ألا نضِلَّ فى شُعَبه ومهامهه ، وبُهمه ومفاوزه، بمنه وكرمه .

الكتاب الثانى

عصر بنى العباس

الفصل الأول

الوجهة السياسية

توطئة — دور الانتقال — الشيعة العلوية .

(ا) توطئة :

رأينا كيف كانت الحياةُ السياسيةُ والعلميةُ والأدبيةُ فى العصر الأمويِّ، وكيف ظهرتْ مواطنُ الضعفِ وعواملُ الانحطاطِ، وكيف وقع بنو أمية بين الساخطين من العرب والثائرين من الموالى، وكيف انحرفَ خلفاءَ معاويةَ عن خُطته السياسيةِ، وكيف عُرِفَ فريقٌ منهم بالدين وشُغِلَ آخرون بالعبثِ والمجونِ . ونريد الآن أن نُلِمَّ إلمامةً قصيرةً بدَوْر الانتقال الى العصر العباسيّ، قبل التكلم عن العصر نفسه، لنرى كيف كان اتجاهُ الأفكارِ فى ذلك الحينِ .

(ب) دور الانتقال :

إن الذى ينظر فى كتب التاريخ الإسلامىّ عامةً، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصةً عن الدولة الفارسيةِ فى دور انحطاطها وضَياع استقلالها وفناء أهلها فى الإسلام، مع رسوخهم فى المدنية وسبقهم الى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب، ليَذْكُرُ حياةَ اليونان وعلماء اليونان، حين دالت دولتُهم وخضعوا للرومان وهم دونهم فى العلوم والفنون .

ولسنا هنا بصدد الإفاضة فى بيان المناحى التى تغلب فيها الموالى على العرب فإن لذلك مكانه الطبعى فى هذا الكتاب . وقصارانا الآن أن نحيل القارئ الى الجزء الأول من كتاب الأستاذ «ادوارد برون» الذى وضعه عن التاريخ الأدبى للفرس ، وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيل .

أذعن الموالى صاغرين لغلبة العرب عامة والأمويين خاصة ، وذاقوا ماذاقوا من الذلة والمسكنة ، وعانوا ماعانوا من ضروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقبوا الفرص لينقضوا على سادتهم العرب ، وأن ينتظروا أول بارقة تلوح فى أفق السياسة ليناصروا الناقمين على المملكة الأموية : فقد كانت دولة بنى أمية مكروهة عند الناس ، ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة ، مستهترة بالمعاصى والقبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون زوال هذه الدولة صباح مساء .

⁂

أضف الى ماتقدم أن الشيعة كانت ، الى جانب قوة الحجة فى أنها أحق بالخلافة ، إذ كان أنصارها يدعون الى بيعة صهر النبى أو أبناء بنت النبى ، تضم الى رجالاتها شخصيات بارزة فى الدين والكفاية والصلاح ، فكان خيار الناس يطيعونها تديناً ، وكان غيرهم يطيعها رغبة أو رهبة . وكان العلويون لايفترون عن بث دعاتهم فى العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد النائية عن مركز الخلافة التى انفصمت عروتها وكان من انحلالها ما وصفناه . وكان الفرس يستخدمون زملاءهم المنتشرين فى البقاع العربية فى الدعوة الى مبايعة خصوم الأمويين ومناصرتهم ، رغبة فى التخلص من ظلم بنى أمية وعسفهم ، وطمعا فى أن يكون لهم من تبدل الحال حظ من العزة والسلطان .

ولنذكر مع هذا ثورة الممالك الإسلامية عامة على الأمويين ، تلك الثورة الهادئة المخيفة ، التى كان من آثارها أن قتل بعض ولاتهم فى الأمصار وأن خرج فريق على الخليفة . ولنذكر كذلك انشقاق البيت الأموى نفسه وتصدع أركانه ، فإن لذلك أثره الفعال فى ثل عرش الأمويين . وقد كانت بداية ذلك الانشقاق ، خروج يزيد بن الوليد على

عمـه الوليد بن يزيد وتشهيره إياه أسوأ تشهيرٍ ووصمَه بأقبح الوصمات ، حتى تمثَّـلَ بعضُ بنى أمية بقول الشاعر :

إنى أعيـذكمو بالله من فتنٍ * مثـل الجبال تَسامَى ثم تنـدفع
إنّ البرية قـد ملّت سياستَكم * فاستمسكوا بعمود الدين وآرتدعوا
لا تُلحِمُنّ ذئابَ الناسِ أنفسَكم * إن الذئاب إذا ما ألحمت رُتَعُ
لا تبقُرُنّ بأيديكم بطـونكمو * فثمّ لا حسرةٌ تُغنى ولا جـزع

ولمـا تمّ ليزيدَ الأمرُ خرج عليه مروانُ بن محمد، وكان أميرَ الجزيرة وأرمينية ، ومعه جيشٌ جرّارٌ يأتمر بأمره ، ومعـه الغمرُ بن يزيدَ للطالبة بدم أخيـه ، فغُلِبَ يزيدُ على أمره وانبسطت فى البيت المـالك يدُ الفُرقة والانشِقاقِ .

(ج) الشـيعة العـلوية :

لم تصـل الخلافةُ الى معاويةَ إلا بدَهائه وسَـعةِ حيلته وبُعْـد نظره وحُسنِ تصريفه للأمور ، و إلا فقد كان هناك حزب قوىُّ الشكيمة عزيزُ المكانة، يرى علىَّ بنَ أبى طالب أحقَّ بالخـلافة : ولولا دَهاءُ معـاويةَ ما نزل الحسنُ بن على ولا أخلى لخصمه المَيـدانَ فى سـنة ٤١ هجرية، وقد كان من نتيجة ذلك أن تحفّظتِ الأحزابُ العلويةُ من تصرّفه ، فجمعوا الجموعَ وجنّدُوا الجنـودَ، وثاروا على أمير الكوفة الأُموىّ وهو زيادُ بن أبيـه — وكان يدَ معاويةَ التى بهـا يصول — ولكنّ زيادا يعرف كيف تُخمَدُ الفتنةُ، وتُطفَأ الثورةُ، فبادر الى استئصال الداء، وقتَـلَ منهم خلقا كثيرا، أشهرُهم حُجْرُ بن عدىّ وأصحـابُ حجرِ ابن عدىّ . بيْدَ أن إراقةَ الدماء تَهيجُ الحماسةَ وتؤجج نارَ العـداوة والبغضاءِ فى قلوب المغلوبين، وكذلك ظلت الفتنة تُنذر بالشرّ المستطير .

رأى الدعاةُ العلويون أنه لا قِبَـلَ لهم بمعاويةَ ولا برجاله ، فتربصوا بهم ريبَ المنونِ وعللوا النفسَ بتقلّبات الحوادث وعَنَتِ الأيام ، راجين أن تعود الخلافة الى بيت النبىّ ،

ولكن شَدَّ ما فزعوا يوم أخذ معاويةُ البيعةَ لابنه يزيد المعروف بالميل الى اللهو والقصف والتلهى بالصيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همّام السلولى :

حُشينا الغيظَ حتى لو شربنا * دماءَ بنى أميـــة ما روينا
لقـد ضاعت رعيتُكم وأنتم * تَصيدون الأرانبَ غافلينا

و إنا لنعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أبى الحسينُ أن يبايعَ له بالخلافة ، بل رأى أكثرُ أهل التقى فى مبايعـة يزيد خرقًا لحرمة الدين . ثم قُتِـل الحسينُ فى كربلاءَ سنة ٦١ هـ . فألفتِ الشيعة «حزب التوابين» بعد وفاة يزيدَ و بيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ ، وأخرجوا والى الكوفةِ الأمويَّ عبيدَ الله بن زياد ، وولوا عليهم رجلا منهم . ثم تألف حزبُ « شُرط الله » بزعامة المختار بن أبى عبيد الله الثقفى . وانقسمت الشيعةُ العلويةُ الى فِرَقٍ عِدّةٍ ، أهمها الفرقةُ الإماميةُ ، وهى التى ترى أن أحقَّ الناس بالخلافة هم ولد على من فاطمةَ بنت النبى ، والأئمة فى نظرهم آثنا عشر إماما ، وهم : علىٌّ ، والحسنُ ، والحسينُ ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد التقى ، وعلى التقى ، وحسن العسكرى ، ومحمد المهـدى . ومنها الفرقة الكيسانيةُ ، وهى التى تقول بتحوّل الخلافة بعـد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية . ومنها الفرقة الزيدية نسـبة الى زيد بن على بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة الى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفرق أخرى أصغر من تلك شأنًا وأقل أثرًا .

⁂

على أنه كان يوجد بجانب أولئـك الولاةِ المخلصين لبنى أميـة والمسرفين فى مطـاردة الحزب العلوى ، فريقٌ آخر ، على رأسه خالد القسرىُّ ، يعمل لمناصرة العلويين سرًّا لا علانيةً ، كما يعمل ، فى العادة ، فريقٌ من موظفى الحكومة لحزب الأقلية المضطهَد طمعًا فى المناصب ، أو نصرًا لعقيدة سياسية ، أو إيثارا للعدل والإنصاف .

على أن الدعوةَ العلويةَ كانت فاترةً ضعيفةً ، اذا قُورنت بالدعوة العباسيةِ التى سنتكلم عليها فى الكلمة الآتية . ولعـلّ من أكبر أسـبابِ ضعفِ الدعوة العـلويةِ[1] مبايعةَ زعماءِ العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصورِ وغَيرُهما من أئمة الحزب العباسىّ .

وكذلك سارت الدعوةُ لآل محمـد شوطا بعيـدا ، وظاهرتْها شخصيّاتٌ بارزةٌ، قويةُ الشوكة، وفيرةُ المـال والجاه : أمثال أبى سلمة الخلال الفارسىّ المعروف .

وسـترى كيف تحوّلت الدعوةُ العلوية الى وجهـة أخرى، وكيف استُغِلّتْ لمصلحة العباسيين .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فيما ذهبنا اليه ويرى : « أن العلويين كانوا يتهافتون على الخروج على الخلفاء، فكثر القتل فيهم فقتلوا بخلاف أولاد على بن عبد الله ، فقد كثروا ولم يتناول القتل منهم أحدا الى ذلك العهد ، عهد القيام بالدعوة» .

الفصل الثانى
العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئـــة — العصبية — الموالى .

(١) توطئـــة :

لقد مرت بك إشارةٌ بسيطةٌ حين تكلمنا عن العصر الأُمَوى الى حَنَقِ الموالى الذين نالهم فى ذلك العصر من الاحتقار والزراية حظٌ غيرُ قليل ، وبينا لك أن هـذه الناحيةَ من المعاملة، التى لا تنطبق على المذهب الحديث « حرية . إخاء . مساواة » كانت عاملا قويا من عوامل الضعف والانحطاط فى دولتهـم ، ووعدناك أن ندرُسَ حالَ العصبيةِ والموالى فى هذا الفصلِ من الكتاب، تمشّياً مع النظام الذى وضعناه له .

والآن نَعرِض عليك حالَ الشعوب التى كانت خاضعةً لسلطان بنى أمية حتى نُبَينَ أحوالها النفسية والأهواء التى كانت غالبةً عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملك من شخص الى شخص أو من بيت الى بيت بثُّ الدعوة وتنظيمُها وحزمُ القائمين بها وإخلاصُ المشيرين وكفاية القواد، بل لابد مع هـذه الأمور أن تصادِفَ الدعوةُ الجديدةُ نفوسًا مستعدّةً لها، راغبةً فيها ، عاملةً على إنمائها، لكى تُزهِرَ وتُؤتِيَ ثمـارَها .

والحق أن الدعوةَ العباسية قامت فى وقت كانت قد توزّعتْ فيه الحواضرَ الإسلامية أهواءٌ مختلفةٌ، وتقسّمَتِ القبائلَ العربيةَ عواملُ العصبية، وأخذتِ الشعوبُ المغلوبةُ على أمرها والتى أصبحت خاضعةً للنفوذ العربى، تستفيقُ من الدهشة التى استولَت عليها من الفورة العربية التى أخضعتها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضرُ الإسلاميةُ فكان قد غلب على كل حاضرةٍ هَوى أُسرةٍ أو شخص معين ، ولم تكن لتخضعَ للسلطان العربىّ الأُمَوى لولا القوةُ القاهرةُ، ولهذا لم يكد يضطربُ أمرُ

بنى أمية فى الأطراف، و يظهرُ الخارجون من الدعاة على ولاتهم، حتى أخذت هذه الحواضرُ تتَســلُّ عن طاعة بنى أمية واحدةً بعد أخرى . وتستطيع أن تلتمسَ هذه الظاهرةَ بيّنــةً واضحــةً من تقاعد الولايات عن نُصْرة آخر خلفاء بنى أمية عنــد ما حَزبه الأمرُ وتعقّبه مُطـارِدوه .

(ب) العصـــبية :

العصبية هى مُناصرةُ من يَمُتُّ اليك بصلةٍ من صِلاتِ الحياة : كأن تجمعكما رحِمٌ قريبة أو بعيدةٌ، أو عقيدةٌ دينيةٌ، أو هوًى سياسىٌّ . فيظهر أنها من طبيعة الوجود، اذ لاتختص بها قبيلةٌ دون قبيلةٍ، ولا أمةٌ دون أمةٍ، ولا جنسٌ دون جنسٍ ، ولا عصرٌ دون عصرٍ . وكما توجد فى الأمم البادية، كذلك توجد فى الأمم الحاضرة . وما الدعواتُ القوميةُ والنعراتُ الجنسية إلا نوعٌ من العصبية بمعنًى أوسعَ .

والعصبيةُ العربيةُ، التى نحن بسبيل القولِ فيها، والتى كانت من الأسباب التى اضمحلّ بها سلطان بنى أمية، قديمةٌ فى القبائل العربية : كانت فى الجاهلية قبلَ الإسلام، وكانت تضيقُ وتتسعُ بحسب الظروف والمناسبات، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية، وهو أوسعُ معانيها من الوِجهة التاريخية العربية، نراها بين ربيعةَ ومضرَ وهى قبائلُ عدنانيــةٌ، ونراها بين بنى أمية و بنى هاشم، وقد يكون هــذا من أضيق ميادينها وكانت هــذه العصبياتُ تشتدّ حينا وتفترُ آخر .

فلما جاء الإسلامُ ودخل الناسُ فيه أفواجا وتمّ له السلطانُ فى جزيرة العرب، ألّف بين القبائل وأزال ما فى صدورهم من أحقادٍ ، وذلك ما يشير اليه قولُ الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . ألف الإســلامُ بين قلوب العرب ، وأزال كلَّ أثرٍ للعصبية القديمة فى نفوسهم ، ولكنه استبدلهــا بعصبيةٍ واســعةٍ شاملةٍ هى عصبيةُ الإسلام، وجعلَ المؤمنينَ جميعا إخوةً .

وبقى أمرُ العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لا محالة الى عواملَ شديدةِ الأثرِ فى نفوسهم، كهيمنةِ الروح الدينيةِ عليهم، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتحَ من غنائم، وكحزم الخلفاءِ وحكمتِهم وشدّة الوُلاة وقسوتهم .

فلما كان العصرُ الأُمَوىّ واستقرّ الناسُ فى الحواضر الإسلاميــة وشُغِلُوا بعضَ الشىء عن الفتوح، راجعتهم الشنشنةُ القــديمةُ، فأخذ بعضُهم يفتخر على بعض بمــا كان لآبائهم من مجــد فى الجاهلية وبلاءٍ فى الإســلام، وما لقبائلهم من قوةٍ وأيد . وقد أدرك بعضُ شعرائهم النتائجَ السيئةَ لذلك ، فقال الحارث بن عبــد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجعــدىّ :

أبيتُ أرعى النجومَ مرتفقًا * اذا استقلّتْ تجــرى أوائلُها
من فتنةٍ أصبحت مجللةً * قد عمّ أهــلَ الصلاةِ شاملُها
من بخراسانَ والعــراق ومن * بالشام كل شجــاه شاغلُهــا
فالناس منها فى لون مظلمــةٍ * دهمــاء ملتجّــة غيــاطلُها
يُمسِى السفيهُ الذى يعنفها بالـ * ـجهل ســواء فيهــا وعاقلُها
والنــاس فى كربةٍ يكاد لهــا * تنبــذُ أولادَها حواملُهــا
يغدون منهــا فى كل مبهمةٍ * عميــاء تمنى لهـــم غوائلُها
لاينظر الناسُ فى عواقبهــا * إلا التى لايبيــن قائلُهــا
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ * ـلى طرقَتْ حولهَــا قوابلُها
جــاء فينا أزرى بوجهته * فيهــا خطوبٌ حمر زلازلُهــا

ولقــد زاد فى إذكاء العصبية بين القبائل العربيــة حُمْقُ بعضِ الولاة، وعدمُ أخذهم الأمورَ التى تقع بين أيديهم بالحزمِ والحكمةِ ، وأيضا استهانةُ بعضِ الخلفاءِ الأمويين ببعض الأمورِ وغرورُهم بمــا لهم من سلطان، فكانوا لايبالون شعورَ الناسِ فى تعيين الولاةِ عليهم، مما كان له أبعد أثر فى صرف النفوسِ عنهم واستجابتها لكل داعٍ الى الخروج عليهم . وحسبك

أن ترى هشامَ بن عبد الملك، مع حزمه و بُعد نظره، يُعيّن نصر بن سيّار واليًا على خراسان، وهو يعلم أن عصبيّته بها ضعيفةٌ، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسانَ بعد أسد بن عبد الله القسرى، كان مستشاره يُسَمّى له أشخاصًا بما لهم من محامدَ ومذامّ؛ فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغتفرتَ له واحدةً فإنه عفيفٌ مجرّبٌ عاقلٌ؛ قال هشام: وما هى؟ فقال المشير: عشيرته بها ضعيفة؛ فقال هشامٌ: «أَوَ تريدُ عشيرةً أقوى منّى! أنا عشيرته!».

على أن كلمةَ هشام قد تُخفّفُ من آثارها السيئةِ متانةُ حكومته، ونفاذُ صولته، وقوّةُ شوكته، ولكنّ الخلفاءَ جميعا ليسوا كهشام حزمًا واقتدارًا، وليست أيامُهم كأيام هشام نجحا وانتصارا.

ومهما يكن من شيء فإنّ تولية نصر بن سيار على خراسان، كانت فى الواقع شؤمًا على بنى أميـــة.

وقد بلغت العصبيةُ بين مُضَرَ واليمن فى خراسان طورًا عنيفًا، جعل التزاوجَ بين الفريقين موضعَ اضطهادٍ وسُخريةٍ وازدراء.

ولقد قالت أُم كثير الضبيةُ لما هدم اليمنيون دُورَ المضرية أثناء الحروب التى كانت بين نصر والكرمانى بسبب العصبية:

لا باركَ اللهُ فى أنثى وعذّبها * تزوّجت مُضَـريًا آخرَ الدهرِ
أبلغ رجالَ تميم قولَ مُوجعـةٍ * أحللتموها بدار الذلّ والفقرِ
إن أنتمُ لم تكرّوا بعـد جولتكم * حتى تُعيدوا رجالَ الأزدِ والظهرِ
إنى استحيتُ لكم من بذل طاعتكم * هــذا المزونى يُجْبيكم على قهرِ

وقال شاعر آخر:

ألا يا نصرُ قـد برِح الخفـاءُ * وقـد طال التمنّى والرجاءُ
وأصبحت المزونُ بأرض مرْوٍ * تُقَضّى فى الحكومةِ ما تشاءُ
يجـوز قضاؤها فى كلّ حُكم * على مُضَرٍ و إن جار القضاءُ

وحِمْيَرُ فى مجالسها قعـــودٌ ۞ تَرَقْرَقُ فى رقابهـــم الدماءُ
فإن مُضَرٌ بذا رضِيَتْ وذلّتْ ۞ فطـال لها المذلّةُ والشقاءُ
وإن هى أعتبَتْ فيهـا وإلا ۞ فحـلّ على عساكرها العفاءُ

ولقد استغلّ الدعاةُ العباسيون العصبيةَ ، التى فتّتْ فى عضدِ الأمويين ومزّقتهم أشتاتا وطرائقَ قِددًا، خيرَ آستغلال، وهو ما كان له أبلغُ أثرٍ فى القضاء على سلطان بنى أميــة . ذلك أن نصر بن سيار، وهو عامل خراسانَ، قد تحامل على اليمن وربيــعة وقدّم المضريةَ فوثب به جديعُ بن علىّ الكرمانى الأزدى، وكان رئيس الأزد يومئــذ ورجُلَهم، وقال له : ندعُكَ وفعلكَ ومالت معه اليمـانيةُ وربيعةُ فأخذه نصرٌ وحبسه؛ فأتت اليمنُ وربيعةُ حتى أخرجوه من مجـرى كنيف ! ثم اجتمعوا . ورامَ نصرٌ أن يخـدعَه فيصـير اليـه ، فلم يفعل . وكان فى نصر بعضُ الخُـرْقِ . فلمـا علم جديعٌ أن اليمنَ وربيعـةَ قد اجتمع رأيُهما معه على نصر وثبَ لحاربه، وكان له العـلوُّ على نصر، فـال أبو مسلم الى الكرمانىّ فقـال : ادعُ الى آل محمد، وجعل يمـايل أصحابَه ويدعوهم الى ذلك، حتى أظهروا دعوةَ بنى هاشم بخراسانَ .

هـذا ما كان من أمر العصبية بين العـرب واسـتغلالهـا فى إظهار الدعوة لبنى العبـاس .

على أنه يجدُر بك، ألّا يعزُبَ عن ذهنك، أن العصبيةَ وإن كانت قد خدَمتِ العباسيينَ أجلَّ الخـدم فكانت معْولَ هَدْمٍ وعاملَ فنـاء فى صَرح الأموية، كان ضِرامُها وأجيجُها وحروبُها وفِتنُها لم تُخمَدْ سراعا، ولم ترجع أمورُ العباد الى نِصَابها من الموادعةِ وحسنِ المصانعة بتيسير حال، بل أخذت دَورَها المحتومَ، وكانت حَسَكًا وقتادا، الفَينة بعد الفَينة، فى بعض الولايات والأمصار، لبنى العباس أنفسهم، كما ستقف عليــه فيما سنسردُه عليك ، من خلاصةِ أخبارِهم، ومجملِ تاريخهم .

(ج) المـــوالى :

لما أفضت الخلافةُ الى الأمويين، كان عددُ الموالى آخذًا فى الازدياد، بسبب ماجلبته الفتوحُ الإسلاميةُ من الأسرى، وما كان يُهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق، فإن الولاةَ كثيرًا ما كانوا يبعثون الى الخليفة بمئاتٍ أو ألوفٍ من الرقيق الأبيضِ أو الأسودِ هديةً أو بدلًا من الخراج أو نحوه .

ومن كان يُحَرَّر من هؤلاء بعتق أو مكاتبةٍ أو تدبيرٍ يصير مولًى، وينسبُ الى أسرة مُعتقِه أو قبيلته، مع ملاحظة عدمِ أهليته للبناء على قرشيةٍ أو عربيةٍ .

كَثُرَ عددُ الموالى جدًا ، فانصرف فريقٌ منهم الى الصناعة، وآخرُ الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة، وانصرف فريقٌ آخر الى العلوم والفنون والآداب، فكان منهم جِلّةُ الفقهاء ورواةُ الحديث، كما كان منهم الشعراءُ والكُتّاب والمغنّون، وتولت طائفةٌ منهم المناصبَ السامية فى الدولة كالقضاء والحجابة وما الى ذلك .

على أنه مع ما كان لكثيرٍ من الموالى من قَدَمٍ راسخةٍ، ومنزلةٍ رفيعةٍ، فى العلم والأدب والفنون، كان العرب ينظرون اليهم دائمًا نظرةَ احتقارٍ وازدراءٍ .

وكان هذا الاحتقارُ والازدراءُ يظهرُ فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهلَ علمٍ وأدبٍ، وينتمى كثيرٌ منهم الى دُوَلٍ كان لها من السلطان ومظاهرِ الحضارة حظٌّ عظيمٌ، بل كان للفرس وجلّ الموالى منهم سيادةٌ ظاهرةٌ على العرب قبل الإسلام — لما كان كلّ هذا عَظُمَ على الموالى أن يحتملوا كلّ هذا الضيم من العرب فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم . ومن هنا نشأت الشُّعُوبيةُ . والشُّعُوبيةُ مذهبُ من يرى تفضيلَ العجم على العرب أو التسويةَ بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارَوْن فى إكبار كلّ لفريقه والحطّ من الفريق الآخر .

وكان نصيبُ الموالى فى حالة تمدّحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مَدْعاةً الى زيادة مَقتهم لهم وزيادةِ السخيمة فى قلوبهم عليهم . وإنا نُثبتُ لك هنا مثلا استشهد به الأستاذ

«برون» فى كتابه عن أدب الفرس نقلا عن الأغانى قال : «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبـد الملك فى خلافته، وهو بالرُّصَافةِ جالسٌ على بركةٍ له فى قصره، فاستنشده وهو يرى أنه يُنشِدُ مديحا له ، فأنشدة قصيدته التى يفتخر فيها بالعجم :

ياربعَ رامـةَ بالعلياءِ من ريم * هـل ترجعَنّ اذا حييتُ تسليمى
ما بال حىّ غدت بُزْلُ المطىّ بهم * تخْـدِى لغربتهـم سـيرا بتقحيم
كأننى يوم ساروا شاربٌ سَلَبتْ * فؤادَه قهوةٌ من خمـر داَرُومِ

حتى انتهى الى قوله :

إنى وجدِّكَ ما عُودِى بذى خَوَرٍ * عند الحِفَاظِ ولا حوضى بمهدومِ
أصـلى كريمٌ ومجدى لا يقاسُ به * ولى لسانٌ كحـدّ السيف مسمومِ
أحمِى به مجدَ أقوام ذوى حسب * من كل قَرْمٍ بتـاج الملك معمومِ
جَحاجِحٍ سادة بُلْـــج مَرازِبة * جُرْد عِتَـاق مسـاميح مطاعـيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا * والهُرمُزان لفخرٍ أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا * وهم أذلّوا ملوكَ الترك والرومِ
يَمشون فى حَلَقِ المـاذى سابغـة * مشىَ الضراغمة الأسـد اللهاميم
هناك إن تسألى تُنْبَىْ بأن لنـا * جرثومةً قهـرَتْ عزّ الجـرائيم

قال : فغضب هشام وقال له : يا عاضّ بَظْرِ أمه، أعلىّ تفخر، و إياى تنشد قصيدةً تمدح بها نفسَكَ وأعلاج قومك ! غُطُّوه فى المـاء، فغطُّوهُ فى البركة، حتى كادت نفسُه تخرجُ، ثم أمر بإخراجه وهو بشرّ، ونفاه من وقته، فأُخرِجَ من الرُّصَافة منفياً الى الحجاز. قال : وكان مبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال محروماً مطروداً .

ولـما كان شأنُ الخلفاء الأمويين شأنَ سائر العرب فى التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم فى الحروب مشاةً ولا يُعطونهم شيئا من الغنائم والفىء، نفرت نفوسُهم منهـم

وأصبح سلطانُهم بغيضًا اليهم، وصاروا عونًا لكل من خلع الطاعة ، أو طلب الخلافةَ من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدرِكونَ هذا الشعورَ فى الموالى، فاستغلُّوه خيرَ استغلالٍ، إذ اتخذوا جِلّة المبشرين بدعوتهم منهم ، واعتمدوا كلَّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاءً لما فى صدورهم من حِقْدٍ على بنى أمية خاصةً وعلى العرب عامةً ، فأخلصوا للدعوة الجديدةِ، وبذلوا فى تحقيقها كلَّ ما يملكون من نفوسٍ وأموالٍ .

على أن لهذا الموضوع نواحىَ متشعبةً، يحول دون التحدث فيها ما رسمناه لأنفسنا من التزام القصد والإيجاز .

الفصل الثالث

الدعـــوة العباســـية

توطئـــة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى .

(ا) توطئـــة :

كانت الدعوةُ العلويةُ تسير جنبا الى جنبٍ مع الدعوة العباسية ، فقـد كان الفريقان مُضطَهَدَينِ مغلوبين على أمرهما، وكان من المعقول والطبعىّ أن ظلم بنى أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمعُ ما تفرّق من أهوائهم ويفُلّ حِدّةَ ما بينهـم من عوامل التنافس والخلاف . وقد كان بنو هاشم أعداء للأُمويين قبـل الإسلام بسبب التزاحم على السيادة فى قريش . ولشدّ ما كان طلبُ السـيادةِ والزعامةِ مَدْعاةً الى العداوة والشحناءِ وسـبباً الى التناحر والتقاتلِ بين بنى الإنسان !

جدّ العباسيون فى دعوتهم السياسـية وهم فى الحُميمةِ من أعمال البلقاء بالشأم، وزادوا حَمِيّةً وحماسةً بتنزل أبى هاشم بن محمد بن الحنفية العلوىّ زعيمِ الحزب الكيسانى لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس حين دسّ اليه سليمان بن عبد الملك مَنْ سَمّه، إذ رأى فيـه من المهابة والوقارِ ما يؤهّله للخـلافة ويقرّبه من قلوب الجماهيرِ . وقد كان فى تنزل أبى هاشم هذا لصاحبِ الدعوةِ العباسيةِ توحيدٌ لحزبينِ قويين: هما الحزب العباسىّ[1] والشّيعةُ الكيسانيةُ. وهذا التوحيد أو التقريبُ بين الحزبين كانت ثمرتُهُ لحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجماعات السرية :

عمـل العباسيون فى تأليف الجماعات السرّية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثنى عشر نقيبا وهم : سليمان بن كثير الخزاعى ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،

(١) هذا رأينا ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «أنه لم يكن لبنى العباس حزب قبل أبى هاشم» .

وعيسى بن أعين، وقحطبة بن شبيب الطائى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وموسى بن كعب ، والقاسم بن مجاشع ، وأبو داود خالد بن ابراهيم الشيبانى ، وأبو على الهروى شبل ابن طهمان الحنفى ، وعمران بن اسماعيل المعيطى .

واختار محمد بن على سبعين رجلا يأتمرون بأمر هؤلاء الدعاة . وكتب اليهم كتابا يُوصيهم فيه بما يرجو أن يُوفقوا الى العمل به وهم يوجّهون الدعوةَ ويحاورون الأحزابَ .

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيمُ العباسى من علم بأحوال الناس فى عصره، وبَصرٍ بأخلاق الشعوب التى كانت خاضعةً للسلطان الاسلامى ، وبما كانت تجيش به النفوسُ فى كل صُقْع وحاضرة . وبمثل هذا الزعيم الداهيةِ ومن اجتباهم للدعوة العباسية ، قد كُتِبَ الفوزُ لهذه الدعوةِ آخر الأمر . ومما قاله هذا الزعيمُ فى كتابه :

« أما الكوفةُ وسوادُها فشيعة علىّ وولده . وأما البصرةُ وسوادها فعثمانيةٌ تدينُ بالكفّ تقول : كن عبد الله المقتول ولاتكن عبدَ الله القاتلَ . وأما الجزيرةُ فحروريةٌ مارقةٌ وأعرابٌ كأعلاجٍ ومسلمون فى أخلاق النصارى . وأما أهلُ الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعةَ بنى مروان، وعداوةً راسخةً وجهلا متراكما . وأما مكةُ والمدينةُ فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسانَ، فإن هناك العددَ الكثيرَ والجَلَدَ الظاهرَ، وهناك صدورٌ سليمةٌ، وقلوبٌ فارغةٌ لم تتقسمها الأهواءُ ولم يتوزّعها الدَّغَلُ، وهم جندٌ لهم أبدانٌ وأجسام ومناكب وكواهل وهاماتٌ ولِحًى وشواربٌ، وأصوات هائلة، ولغاتٌ فخمةٌ تخرج من أجواف منكرة ... وبعد، فإنى أتفاءل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

⁂

(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى :

كان الدعاةُ العباســيون يتنقلون فى مختلف الأمصار، وكانوا فى ظاهر الأمرِ طلّابَ رِزقٍ يزاولون التجارةَ، وكانوا فى الواقع رجالَ سياسةٍ ودهاءٍ يبثون الدعوةَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، ويدعون الناس الى مُناصرتهم بشتَّى الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن تُوفِّى محمد بن علىّ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام. فكاتب هذا مشايخَ خُراسانَ ودهاقينَها ، وبعث اليهم الدعاة ، وأرسل أبا مسلم الخراسانَ لبثّ الدعوةِ هناك، فكانَ يدعو الى آل محمد، يريد أهلَ البيت، من غير أن يُعيِّنَ العباسيين ولا العَلَويينَ .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحربِ والسياسة، شديدَ الإخلاص للعباسيين ، مُسرِفًا فى خدمتهم، كثيرَ الدهاء، واسعَ الحيلة ، خبيرا بمـا يقتضى عملُه من الحزم والقسوةِ، فلا تعرِفُ الرحمةُ قلبَه، ولا يتناول الأمورَ إلا بالحزم والبأسِ الشديد .

ونستطيع أن نتبينَ مَرْمى السياسة العباســية من الكتاب الذى بعث به إبراهيم الإمام الى أبى مسلم الخراسانىّ، فيما يرى أن يعمله لتأييد الدولة الجديدةِ . قال : «إنك رجل منا أهــل بيت ، احفظ وصيتى : انظر هذا الحى فى اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يُتِم هذا الأمرَ إلا بهــم . واتّهِمْ ربيعةَ فى أمرهم . وأما مضرُ فإنهم العــدوُ القريبُ الدارِ . واقتل من شككتَ فيــه . وإن استطعت ألا تدعَ بخراسانَ من يتكلم بالعربيــة فافعل . وأيمـا غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله» .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هــذه الوصية ، فكان يُسرِعُ الى قتل كل من يتهمه، ويقضى على كلّ من يرتاب فى أمره، حتى بلغت ضحايا هذه الخُطّةِ فيما يقول المؤرّخون العربُ، ستمائة ألف نفس قُتِلَتْ صبرا .

ومهما افترضت المبالغة والغلو فى إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أيمّا إسرافٍ فى القتل وسفك الدماء تنفيذًا لوصية الإمام .

حلّ أبو مسلم خراسانَ سنة ١٢٨ ﻫ فساسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام بقرية من قُرى مرو يقال لها "سفيذنج"، وقد كثُرَ أنصارُه وانثالَ الناسُ عليه من كل صَوْب، فأعلن فيهم لبسَ السواد واتخذه شعارا للعباسيين ، ثم غيَّر شكلَ صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكانت بنو أمية تبدأ بالإقامة كصلاة يوم الجمعة، وأمر بأن يُكبَّر ست تكبيرات تباعا، وكاتب نصرَ بن سيار الوالى الأموى . ولما ضاقت "سفيذنج" عليه ولم تتسع لأنصاره، رحل الى الماخوان[1]، وكانت عدّةُ رجاله، فيما يقول المؤرخون، سبعة آلاف رجل . ثم احتال فى التفرقة بين نصر ورجاله ، حتى أخذ بناءُ خصمه ينهارُ، ويتخلى عنه أنصارُه واحدا بعد واحد . وفى هـذا يقول نصر شعرا بعث به الى مروان الحمار الخليفة الأمـــوىّ :

أرَى بينَ الرمادِ وميضَ نارٍ * ويوشِكُ أن يكونَ لها ضِرامُ
فإن لم تُطفِها عقلاءُ قــوم * يكون وَقُودَهـا جُثَثٌ وهَامُ
فإن النار بالعُودَين تُذْكَى * وإنّ الحـرب أوّلُها كلامُ
فقلت من التعجب ليت شعرى * أأيقـاظٌ أميّــةُ أم نِيَـامُ

فلما ورد هـذا الشعرُ على مروانَ لم يُجِبْ عليه بمـا يجب أن يُجيبَ به الملكُ الحازمُ الحريصُ على ملكه المبقِى على عرشــه : من مبـادرته بإرسال الكتائب والجيوش لكبح الثائرين على الملك أو إعداده المعدّات لإرسالهـا، وإنما كتب الى نصر كتابا يمثّل الضعفَ والاستسلامَ ، ويُنبِئُ بجنوحه الى سياســة القول والكلام ، فى موضع يتطلب تقلد الرمح والحسام، يقول فيه :

---

(١) الماخوان بضم الخاء المعجمة وآخره نون : قرية كبيرة ذات منارة وجامع من قرى مرو ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة الى الصحراء .

« إن الحاضرَ يرى ما لا يرى الغائبُ، فاحسِمْ أنت هذا الداءَ الذى قد ظهر عندك »
فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصرَ عنده » .

⁂

يجب ألّا يفوتنا أن نُشيرَ هنا الى ناحيةٍ مهمّةٍ فى خُلُقِ أبى مسلم تُمَثِّلُ ما يجب على القوّاد من الحزم والكتمان ، فقد جاء فى « كتاب المحاسن والمساوى » للبيهقى ما نصه : « قيل لأبى مسلم صاحب الدولة : بأىّ شيء أدركتَ هذا الأمرَ ؟ فقال : آرتديتُ بالكتمان، وأْتزرت بالحزم، وحالفتُ الصبرَ، وساعدتِ المقادير، فأدركتُ ظنّى وحزتُ حدّ بُغيتى . وأنشد :

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عَجَزَتْ * عنه ملوكُ بنى مروان إذ حَشَدُوا
ما زلتُ أسعَى عليهم فى ديارهمُ * والقومُ فى غفلةٍ بالشأم قد رَقَدُوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحدُ
ومَنْ رعى غنما فى أرض مَسْبَعةٍ * ونام عنها تولّى رَعيَها الأسدُ» اهـ

على أن مروان استيقظ أخيرًا من غفوته ، وانتبه من غفلته، وأمر بأخذ إبراهيم بن محمد . فلما قُبِضَ عليه فى الحميمة بالبلقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبى العباس ، وأمر أهله وأنصارَه بالمسير الى الكوفة، وحَضّهم على السمع والطاعة لأبى العباس .

وقد حُبِسَ إبراهيم فى سجن «حرّان» مع جماعة من خصوم مروان من بنى أمية، وظلّ فى سجنه حتى مات . وقد اختلف المؤرّخون فى كيفية موته، فنهم من قال : إنه سُقِيَ سُمًّا، ومنهم من قال : هُدِمَ عليه بيتٌ فمات .

على أن المؤرّخين وإن اختلفت أقوالهم فى كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات غِيلةً وانتقامًا . وقد رثاه بعضُ الشعراء فقال :

قد كنتُ أحسَبُنى جَلْدًا فضعضعنى * قبرٌ بحرّانَ فيه عِصمةُ الدينِ
فيه الإمام وخير الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين

فيه الإمامُ الذى عمّتْ مصيبتُه * وعَمّتْ كلَّ ذى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمةً * لكن عفا الله عمن قال آمين

ثم انتقلَ الأنصارُ الى الكوفة، وقد ساعدهم أبوسلمةَ الخلّالُ المعروف "بوزير آل محمد"، ولكنه عدل عنهم أخيرا . وقيل : إنه كاتب ثلاثةً من أعيان بنى علىّ : يَعرِضُ الخلافةَ على أحدهم وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبدالله المحض بن حسن، وعمر الأشرف ابن زين العابدين ، وكانت خاتمةُ حياته القتلَ .

ونريد بعد الذى قدمناه أن نُلِمّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمونَ، لنرى كيفَ كانتْ الحياةُ السياسيةُ فى عهدهم الذى كان بلا شك نواةً صالحةً لعصر المأمون . وإنا لنرجو، اذا وُفِّقنا الى بيان المناحى التى امتاز بها هؤلاء ، أن ينكشف الغطاءُ عن حقيقة أمرهم ومكانتهم التاريخية ، كما نرجو أن نظفَر من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم بتفهم الأصول التى كوّنتِ العصرَ الذى من أجله وُضِعَ هذا الكتابُ .

الفصل الرابع

أبو العباس السـفاح

كان أبو العباس السفاح أوّلَ من تولى الخلافةَ العباسيةَ ونقل الملكَ من بنى أميةَ الى بنى العباس . وقد أجمع المؤرّخون على أنه كان وافرَ الكرم ، ظاهرَ المروءة ، جليلَ الوقار ، كثيرَ الحياء ، حسنَ الأخلاق ، وَصُولًا لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السمحةِ الرضيةِ ، يجمع قلباً ذكيا وأنفاً حميا ، فى تعقب الأمويين وتبـديد شملهم ، فى كل بقعةٍ يخشى أن تُسمَعَ لهم فيها كلمةٌ ، أو يطاعَ لهم رأىٌ ، أو يؤثَرَ عنهم صنيعٌ . وكانت هذه الدولةُ الناشئةُ تحتاج الى مثل هـذه القسوة من مثـل أبى العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائما فى مثل هـذه الظروف ، أنّ جلَّ الملوكِ الذين بُعثوا لإنشاء دولٍ جديدة ، وممالك جديدة ، وأُسرات ملكيةٍ جديدةٍ ، مثل أبى العباس السفاح وغيره ، هم مُكْرَهُون لا محالة على اسـتعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشـدةِ ، دون إغفالهم الموادعة والملاينة فيما لا يهدّد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان فى بعض أيامه جالسا فى مجلس الخلافة وعنـده سـليمانُ بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سَدِيفٌ الشاعر وأنشده :

لا يغرّنْك ما ترى من رجال ٭ إنّ تحت الضـلوع داءً دويا

فضع السيفَ وارفع السوطَ حتى ٭ لاترَى فوق ظهـرها أُمويا

فقال له سليمانُ : قتلتنى ياشيخ ! ودخل السفاحُ وأُخِذَ سليمانُ فقُتل .

وهذا الذى صنعه السفاح أصبح سنةً عباسيةً فى تأييد الملك . وكان قليلٌ من الإغرا كافياً فى محق من تقع عليـه العينُ من خصوم الخلافة ، فقد دخل شبل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن على، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقبل عليه فقال :

أصبح الملكُ ثابتَ الآساس * بالبهاليلِ من بنى العباس
طلبوا وترَ هاشم فشفَوْها * بعد ميلٍ من الزمان وياس
لا تُقيلنّ عبدَ شمس عِثارًا * واقطعَنْ كلّ رقلة وغراس
خوفُهم أظهرَ التودّدَ منهم * وبهم منكُمُ كحزّ المواسى
ولقد ساءنى وساء قبيلى * قربُهم من نمارقٍ وكراسى
أنزِلوها بحيثُ أنزلها الله * بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرعَ الحسين وزيد * وقتيلًا بجانب المهراس
والقتيلَ الذى بحرّانَ أمسى * رهنَ رمسٍ فى غُربةٍ وتناسى

فأمر بهم عبد الله فضُربوا بالعُمُد حتى قُتلوا، وبسط النطوعَ عليهم، فأكل الطعامَ عليها وهو يسمع أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشيّةُ عند حدّ التنكيل بالأحياء، بل تعدّتهم الى الأموات، فقد ذُكِرَ أن عبد الله بن على أمر بنبش قبور بنى أمية بدمشق، فنُبِشَ قبرُ معاويةَ بن أبى سفيان فوُجِدَتْ فيه عظام كأنها الرمادُ . ونُبِشَ قبرُ عبد الملك بن مروان فوُجِدَتْ فيه جمجمته . وكان لا يوجد فى القبر إلا العضوُ بعد العضوِ، غير هشام بن عبد الملك فقد وُجِدَ صحيحًا لم يَبْلَ منه إلا أرنبةُ أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وأحرقه وذرّاه فى الريح . ثم تعقّب أولادَ الخلفاء من بنى أمية فلم يُفلِتْ منهم إلا من كان فى المهد صبيا . وأدرك بعضَ الهاربين الى الأندلس فقتلهم بنهر أبى فُطْرُس [1]، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر

(١) نهر أبى فُطْرُس بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به كانت وقعة عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس مع بنى أمية فقتلهم فى سنة ١٣٢ ﻫ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ؛ واستصفى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَشَبٍ ومال ؛ فلما فرغ منهم تغنّى بهذه الأبيات :

بنى أمية قد أفنيت جمعكمو * فكيف لى منكمو بالأوّل الماضى
يُطَيِّبُ النفسَ أن النار تجمعكم * عُوِّضتمو من لظاها شرَّ مُعْتاضِ
مُنيتمو — لا أقال الله عثرتكم — * بليث غاب الى الأعداء نَهّاض
إن كان غيظى لفوت منكمو فلقد * مُنِيتُ منكم بما ربى به راضى

قلنا : إن السفاح كان الى جانب هذه القسوة برّا بذوى رحمه ، وَصُولًا لهم . ولنذكر مثالا لذلك : تصرّفه مع آل الحسن بن علىّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلًا منهم هو محمد ابن عبد الله كما بينا من قبل ؛ فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصرى عن عثمان بن سعيد ابن سعد المدنىّ : أنه لما وَلِىَ الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن على بن أبي طالب فأعطاهم الأموالَ وقطع لهم القطائعَ ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم علىّ ؛ قال : « يا أميرَ المؤمنين بألف ألف درهم ، فإنى لم أرها قطّ » ، فاستقرضها أبو العباس من ابن مُقْرِن الصيرفىّ وأمر له بها . قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيتُ مال . ثم إن أبا العباس أُتِىَ بجوهر مروان فجعل يقلّبه وعبد الله بن الحسن عنده فبكى عبد الله ؛ فقال له : ما يُبكيك يا أبا محمد؟ قال : هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط! قال : فحباه به ، ثم أمر ابن مقرن الصيرفىّ أن يصل اليه ويبتاعه منه فاشتراه منه بثمانين ألف دينار .

على أن هذا الرفقَ واللينَ ، وهذه السياسة والحكمة ، لم تُنْسِ أبا العباس السفاحَ ما يجب عليه من مراقبة الطالبيين ، والتسمّع لما قد يجيشُ فى خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له ؛ فإن صلةَ الرحم من مثل السفاح لا تكون ظاهرةً خُلقيةً بقدر ما تكون حيلةً سياسيةً ؛ وكذلك رأيناه يقول لبعض ثقاته وقد خرج من عنده بنو الحسن : « قُمْ بإزائهم ولا تألُ فى إلطافهم ، وأظهر الميلَ اليهم والتحاملَ علينا وعلى ناحيتنا ، وأنهم

أحقُّ بالأمر منا كلما خلوت بهم، وأَحْصِ لى ما يقولون وما يكون منهم فى مسيرهم ومَقْدَمِهم » .

ومما ذكرناه يرى القارئ معنا أن السفاحَ قد جمع حقًّا بين القسوة واللين، وأنه لم يكن فى عُنُفه بأخطرَ منه فى رقته، وإنما كان يلين ليستلَّ سخيمةً مدفونةً أو ليستدرجَ بعض الحاقدين، ويقسو ليرى أعداءه أن لا أمل لهم فى الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شىء، فإن خلافة أبى العباس كانت أقصرَ من أن تسمحَ لخصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القوىّ فى سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عُمِّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم لخلفائه خُطَّةً تُجنِّبهم بعضَ ما تورطوا فيه من الاضطراب .

الفصل الخامس

أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكاً، سديدَ الرأى، مُحكم التدبير، وكان قوىَّ العزيمة، جرىء القلب، يمضى الى غايته مُضىَّ السهم الى الرميَّة لا يَثْنيه عنها شىءٌ . سياسىٌّ حاذق لا يقبل أن تَتدخّل فى سياسته عاطفةٌ ولا خُلُقٌ ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسىّ ليس غير . وهو الى ذلك داهية، وربما اضطره الدهاء الى شىء إن لم يكن الإثم الخلقىّ فهو يشبهه فى كثير من الأحيان .

وهو من هذه الناحيةِ أحدُ أولئك الساسة الذين عَرَفهم التاريخُ من حين الى حين بالإقدام فى غير تردّدٍ ولا لينٍ ولا تهيّبٍ للوسائل ، والذين مَثّلهم «مكيافلى» أحسنَ تمثيلٍ .

فقد ذكر ابن الأثير أنه أحضر مرةً ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبد الله ؛ فقال : شاوِرْ عمومتَكَ يا أمير المؤمنين ؛ قال المنصور : فأين قول ابن هرمة :

نزور آمرأً لا يمخض القوم سِرَّه * ولا ينتجى الأدنين فيما يحاولُ
اذا ما أتى شيئاً مضى كالذى أتى * وإن قال إنى فاعلٌ فهو فاعلُ

ثم قال : امض أيها الرجل! فوالله ما يراد غيرى وغيرك، وما هو إلا أن تَشخَصَ أنت أو أشخص أنا ؛ فسار وسيّر معه الجنود . وقال المنصور لما سار عيسى : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه ! » .

وكان الى جانب ذلك ، كما قال الجاحظ ، : مُقدّمًا فى علم الكلام ومُكثِرًا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور فى أيدى العارفين والورّاقين معروف عندهم .

وفى وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة : «ما رأيت رجلا قط فى حربٍ ولا سمعت به فى سِلْمٍ أمكَرَ ولا أبدعَ ولا أشدَّ تيقُّظا من المنصور، لقد حصرنى فى مدينتى تسعةَ أشهر ومعى فُرسانُ العرب، فجهدنا كلَّ الجَهْدِ أن ننال من عسكره شيئا نكسِرُه به فما تهيأ ؛ ولقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء، فخرجت اليه وما فى رأسى سوداء» .

وكان المنصور يعطى فى موضع العطاءِ ويمنع فى موضع المنع، ولكن المنعَ كان أغلبَ عليه، حتى ضرب المثل بشحه وسمى «أبا الدوانيق» ، لشدّته فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى فى تمثيل هذه الناحية من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واضحا مولاه قال : «إنى لواقف يوما على رأس أبى جعفر إذ دخل المهدىّ وعليه قباء أسودُ جديد، فسلم وجلس، ثم قام منصرفا وأتبعه أبو جعفر بصرَه، لحبه له وإعجابه به، فلما توسّط الرواقَ عثَر بسيفه فتخرّق سوادُه، فقام ومضى لوجهه غيرَ مُكترِثٍ لذلك ولا حافلٍ به ، فقال أبو جعفر : ردّوا أبا عبد الله فرددناه ؛ فقال : يا أبا عبد الله، أستقلالا للمواهب ! أم بطرا بالنعمة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كأنك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فانظر اليه كيف لام ابنه ووليَّ عهده، وقد كان عنده أثيرا، ولامه بمحضرٍ من حاشيته فى شىء ليس ذا بال عند أوساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعتذرُ للمنصور بحرصه على الاقتصاد فى أموال دولة ناشئة ، وأخذ ولىّ العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثةَ وأمثالَها مما سنرويه لك ، تُظهِرُ ناحيةً صغيرةً من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائلُ الأعمال فى الدولة يستطيع أن يُظهِرَ فيها ميلَه الى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسِفَّ الى هذه الصغائر .

* * *

على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقارنة بينه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية؛ فقد كان معاويةُ، كما رأيت،

أكرمَ الناس، وأشدَّهم تسخيرا للأموال العامةِ والخاصةِ ، فى الأغراض السياسيةِ . وكان المنصورُ أشحَّ الناس بالأموال العامةِ والخاصةِ ، يُؤثِر التضحيةَ بالدماءِ والكفايات فى سبيل أغراضه السياسيةِ على التضحية بالأموال .

ولعلّ من الإنصاف أن نلاحظَ الفرقَ بين العصرين، وبين الدعائم التى اعتمد عليهما الرجلان فى إقامة ملكهما . فقد كان معاويةُ فى بيئةٍ عربيةٍ، لم تخلُص بعـدُ من البداوة ولا من سماحة الدينِ ، فكان الحلمُ والكرمُ أليقَ به وأنفعَ ، بينما كان المنصور فى بيئـةٍ من الفرس والموالى، تأثُّرها بالحضارة شديدٌ، وحظها من الدين قليلٌ .

ولو بسط معاويةُ سلطانه بالسيف لفشل ؛ ولكننا نرى أن لو بسط المنصورُ سلطانه بالمـال فى شيءٍ من الحزم لوُفِّق ولحقن الدماءَ ولرسم لخلفائه خُطّةً أقربَ الى اللين والعافية من هذه الخُطةِ العنيفةِ التى ستراها فى سيرة أكثرهم .

وحدّث الوضينُ بن عطاء قال : «استزارنى أبو جعفر، وكانت بينى و بينه خَلَالةٌ قبل الخلافة ، فصرت الى مدينـة السلام ، فخلونا يوما فقال لى : يا أبا عبـد الله ، ما مالُك؟ فقلت : الخيرُ الذى يعرفه أميرُ المؤمنين ؛ قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ ؛ فقال لى : أربع فى بيتك؟ قلت : نعم . قال : فوالله لردّد ذلك علىّ حتى ظننت أنه سيمولنى . قال : ثم رفع رأسه الىّ فقال : أنت أيسرُ العرب، أربعُ مغازلَ يدرن فى بيتك ! »

على أن شحّ المنصور لم يكن يخلو أحيانا من بعض الظرف والفكاهة؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلا على رجل يقـال له أزهرُ السمّانُ قبـل خلافته ، فلمـا ولى الخلافةَ زاره الرجل وطلب صلته ، فوصـله ثم عاوده فوصله ، وجاءه فى الثالثة فقال له المنصور : يا أزهرُ ما جاء بك ؟ قال : دعاء سمعتـه منك أحببتُ أن آخذه عنـك ؛ قال : لا تردْه فإنه غير مستجاب، لأنى قد دعوتُ الله أن يُريحنى من خِلقتِك فلم يفعل ! وصرفه ولم يعطه شيئا .

وربما كان من العدل التاريخى أن نحتاط أمامَ هـذه الرواياتِ الكثيرةِ التى أسرف المؤرخون فى روايتها إثباتاً لبخل المنصور وشحّه ، فقد يكون مصدرُها ما ألِفوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يبلغ أكثرَ من أنه كان شديدَ الميل الى الحرص والتدبير ، والنُّفرةِ من الملحفين ، وأخذَ أهل بيته بذلك كله .

ولم يفت المنصورَ أن يعلّلَ ذلك البخلَ ، فقد جاء فى عيون الأخبار أنه قال فى مجلسه لقوّاده : « صدق الأعرابىُّ حيث يقول : أَجِعْ كَلبكَ يَتبعْكَ » فقام أبو العباس الطوسىّ وقال : « يا أمير المؤمنين ، أخشى أن يلوّحَ له غيرُكَ برغيف فيتبعَه ويدَعكَ ! » . وقد كان أبرويزُ أحكمَ من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو فى حبسه « لا تُوسّعَنَّ على جندك فيستغنوا عنك ولا تُضَيّقَنَّ عليهم فيضجُّوا منك ، أَعطِهم عطاءً قصداً ، وامنعهم منعًا جميلا ، ووسّعْ عليهم فى الرجاء ، ولا تُسْرِفْ عليهم فى العطاء » .

ولیس أدلُّ على الشخصية السياسية لهـذا الخليفةِ من سيرته مع ثلاثة ، هم فى حقيقة الأمر أكبرُ زعماء الدولة فى عصره . فهذه السيرة تُبين لك ، فى وضوحٍ وجلاءٍ ، ما قدّمناه من أن المنصورَ كان «مكيافلى» السياسة ، لا يُحجِمُ عن الغـدر وقطعِ الرحِم وكفرِ النعمةِ ، إذا رأى منفعتَه فى ذلك .

وهؤلاء الزعماء هم أولا : أبو مسلم الذى أخلص فى نُصْرة المنصور والسَّهَرِ على ملكه ، فلم يألُ جهدًا فى تعقب الخارجين على الملك ، لا يَفرقُ فى ذلك بين أشياع المنصور وأهله من بنى العباس ، ولا خصومه الذين يكيدون له فى السرّ أو فى العلانية ، فقتل الشيبانىَّ والكرمانىَّ وأبا سلمة الخلّال ، وحارب عمّ المنصور عبدَ الله بن على واستولى على ما فى عسكره من الغنائم والأسلحة . وثانيا : عمه عبدالله بن علىّ ، وهو الذى فعل ما فعل فى نُصرة الدعوة العباسية وتقتيلِ خصومها من بنى أمية ، فضـلا عن حروبه الموفّقة فى صَـدّ جيوش مروان ؛ ومع ذلك فقد سلّط عليه المنصورُ أبا مسلم فحاربه وقهره ، ولمـا لم يَصِلْ الى قتله ، كلّف ابنَ عمه عيسى

ابن موسى والى الكوفة أن يقتله، فلما لم يقتله تولى المنصورُ قتله بنفسه، ليأمنَ ما قد يُحدثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه وولىّ عهده عيسى بن موسى، وقد رأيتَ كيف أشخصه المنصورُ لقتال محمد بن عبد الله مُلحًا فى ذلك، حتى إذا أُشخِصَ قال المنصور: «لا أبالى أيهما قتلَ صاحبَه !» ثم ما زال المنصورُ يكيدُ لهذا الأميرِ حتى خلعه من ولاية العهد، وبايع مكانَه لابنه المهدى، ثم مضى فى الكيد له . وقد يكون من المفيد أن ننقُلَ ما جاء فى المستطرَف عن خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفة المنصور، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن على، فإن فيما قالاه تصويرًا دقيقًا لسياسة المنصور، وتمثيلًا لحرصه على الملك الذى كان لا يبالى فى سبيل توطيده أن ينكُثَ بما عقدَ من عهد، أو ينقضَ ما أبرمَ من ميثاق .

جاء فى المستطرف : أن عيسَى بنَ موسى لما غدَر به المنصورُ ونقلَ ولايةَ العهد منه الى المهدىّ ابنه أنشد :

أينسَى بنو العباس ذبِّىَ عنهمو ٭ بسيفى ونارُ الحرب زاد سعيرُها
فتحتُ لهم شرقَ البلاد وغربَها ٭ فذلّ مُعاديها وعزّ نصيرُها
أُقَطِّع أرحاما علىَّ عزيزةً ٭ وأُبدى مكيداتٍ لها وأُثيرُها
فلما وضعتُ الأمرَ فى مستقرِّه ٭ ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورُها
دُفعتُ عن الأمر الذى أستحقه ٭ وأوسق أوساقا من الغدر عيرُها

وجاء فى ابن الأثير : أن المنصور أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسَه وسلّم اليه عمّه عبدَ الله بن على وأمره بقتله وقال له : "إن الخلافةَ صائرةٌ اليك بعد المهدىّ فاضرب عنقَه، وإياك أن تَضْعُفَ فتنقضَ علىّ أمرى الذى دبرتُه . ثم مضى الى مكةَ وكتب الى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل فى الأمر الذى أمره، فكتب عيسى : «قد أنفذتُ ما أمرتَ به»، فلم يشك فى أنه قتله . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونسَ بن فروة وأخبره الخبر؛ فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك، لأنه أمر بقتله

سرّا ثم يدّعيه عليك علانيـةً ، فلا تقتله ولا تدفعه اليه سرّا أبدا واكتم أمره ، ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المنصور وضعَ على أعمامه مَنْ يحرّكهم على الشـفاعة فى أخيهم عبـد الله ففعلوا وشفعوا ، فشفّعهم ، وقال لعيسى : إنى كنتُ دفعتُ اليك عمى وعمّك ليكونا فى منزلك وقد كلّمنى عمومتُك فيه ، وقد صفحتُ عنه فأتنا به ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرْنى بقتله فقتلتُه ؛ قال : ما أمرتُك ؛ قال : بل أمرتَنى ؛ قال : ما أمرتُك إلا بحبسه وقد كذبتَ . ثم قال المنصور لعمومته : إنّ هـذا قد أقرّ بقتل أخيكم ؛ قالوا : فادفعه إلينا نَقِيـدْهُ به ؛ فسلّمه اليهم وخرجوا به الى الرحبة واجتمع الناسُ وشُهِرَ الأمرُ وقام أحدُهم ليقتلَه ، فقال عيسى : أفاعلٌ أنت ؟ قال : إى والله ! قال : رُدّونى الى أمير المؤمنين ، فردّوه اليه ، فقال له : إنمـا أردتَ بقتله أن تقتلَنى ، هذا عمّك حىّ سوىّ ؛ قال ، ائتنا به فأتاه به ؛ قال : يدخلُ حتى أرى رأيى ، ثم انصرفوا فأمر فجُعِلَ فى بيتٍ أساسه ملحٌ ، وأجرِىَ المـاءُ فى أساسه فسقط عليه فماتَ » .

وهـذه الرواية يؤيدُها أكثر المؤرّخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير ، وكان من أركان هـذه الدولة ، ما يُضيفُ حَلقةً ، الى سلسـلة الاضطهادات التى ارتكبتْ تأييدا لهذا الملكِ ، فقد أحضره اليه وقال له : أتحفظُ قولَ الإمام لى : « مَن اتهمتَه فاقتله ؟ » قال : نعم ؛ قال : فانى قد اتهمتك ؛ فخاف سليمان وقال : أُناشِدُكَ الله ! قال : لا تُناشِدْنى فأنت منطوٍ على غشّ الإمام ، وأمر بضرب عنقه .

وقد سَئِمَ الناسُ هذه الحالةَ ، وثارَ بعضُ أمراء بنى العباس أنفسهم احتجاجاً على ما أُريقَ من الدماء ، فقد جاء فى الأغانى فى أخبار عبد الله بن عمر العقيلى الشاعر المخضرم : أن محمد ابن عبد الله لمـا سمع للعقيلى قصيدته التى مطلعها :

تقـول أمامـةُ لمـا رأت * نُشُوزى عن المضجَعِ الأنفسِ

والتى ختامها :

فما أنسَ لا أنسَ قتـلاهمُ * ولا عاش بعدهمُ من نَسِى

بكى واستعبر، فقال له عمه الحسن بن الحسن بن على : أتبكى على بنى أمية، وأنت تريد ببنى العباس ماتريد ! فقال : « والله ياعم لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم ، وإن الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم ليست لأبى جعفر » . وذكر الأصفهانى أيضا : أن محمدا وآله وهبوا للشاعر مالا لمدحته تلك . وهكذا تغيرت نفوس آل البيت من إسراف العباسيين فى الفتك والقتل[1] .

* * *

وماذا كان حظ أبى مسلم وكيف كان جزاؤه على ذلك الإخلاص الدموى ؟

كان جزاؤه أن قتل بيد الخليفة نفسه عملا بسنته المعروفة : « أقتل من آتهمته » ، مع أنه كان لايقطع أمرا دونه .

وقد ذكر الجاحظ : أن المنصور لما هم بقتل أبى مسلم ، سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق فى ذلك ليلته ، فلما أصبح ، دعا بإسحاق بن مسلم العقيلى ، فقال له : حدثنى حديث الملك الذى أخبرتنى عنه بحران ، قال : أخبرنى أبى عن الحصين بن المنذر : أن ملكا من ملوك فارس ، يقال له سابور الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وشاب ذلك بفهم فى الدين ، فوجهه سابور داعية الى خراسان ، وكانوا قوما عجما يعظمون الدين جهالة بالدين ، ويخلون بالدين استكانة لقوة الدنيا وذلا لجبابرتها ، فجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا ، واعتز بقتل ملوكهم لهم وتخولهم إياهم ، وكان يقال لكل ضعيف صولة ، ولكل ذليل دولة . فلما تلاحمت أعضاء الأمور التى لقح ، استحالت حربا عوانا ، شالت أسافلها بأعاليها ، فانتقل العز الى أرذلهم ، والنباهة الى أخملهم ، فأشربوا له حبا مع خفض من الدنيا افتتح بدعوة من الدين ، فلما استوسقت له البلاد ، بلغ سابور أمرهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يأمن زوال القلوب وغدرات الوزراء ، فآحتال فى قطع رجائه عن قلوبهم ، وكان يقال :

وما قطع الرجاء بمثل يأس * تبادهه القلوب على اغترار

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا الرأى بقوله : (أحسب أن تغير آل البيت على بنى العباس إنما كان سببه أنهم نفسوا عليهم ما أتيح لهم من ملك مع اعتقادهم أنهم أحق بذلك منهم) .

فصمّم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفُرسانهم، فقتله فبغتهم بحدث فلم يرعهم إلا ورأسُه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة، ونأي الرجعة، وتخطّف الأعداء، وتفرّق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستتمّوا الدعوةَ بطاعةِ سابور، ويتعوّضوه من الفُرقةِ، فأذعنوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فلكهم حتى مات حَتْفَ أنفه . فأطرق المنصورُ ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا ٭ وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليعلما

وأمر إسحاقَ بالخروج، ودعا بأبي مسلم فلما نظر اليه داخلا قال :

قد اكتنفتْكَ خلاتٌ ثلاث ٭ جلبن عليك محذورَ الحِمام

خلافك وامتناؤك ترميني ٭ وقودك للجماهير العظام

ثم وثب اليه ووثب معه بعضُ حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب فبدره المنصور فضربه ضربة طوّحه منها، ثم قال :

إشرب بكأس كنت تَسقى بها ٭ أمرّ فى الحلق من العلقم

زعمتَ أن الدينَ لا يُقتضى ٭ كذبت فاستوفِ أبا مُجْرمِ

ثم أمر بحزّ رأسه وبعث به الى أهل خراسان وهم ببابه، فجالوا حوله ساعة ثم ردّهم عن شَغَبِهم انقطاعُهم عن بلادهم وإحاطةُ الأعداء بهم ، فذلّوا وسلّموا له . فكان إسحاق اذا رأى المنصور قال :

وما ضربوا لكَ الأمثالَ إلا ٭ لتحذُوَ إن حذوتَ على مثالِ

وكان المنصور اذا رآه قال :

وخلّفها سابورُ للناس يُقتَدى ٭ بأمثالها فى المعضلات العظائم

وما أجملَ تلك الجملةَ التى قالها محمد بن عبد الله العلوى حين أمّنه المنصور على نفسه فقد قال : أىّ أمان تعطينى : أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبى مسلم!

ولقد تنفس المنصورُ حين قتَلَ أبا مسلم، حتى قال له بعضُ أقربائه ساعة قتله : عُدَّ هذا اليومَ أوّلَ يوم من خلافتك !

* * *

على أنه من الحق أن نقرّر أنّ عدوانَ المنصور وإسرافَه فى التنكيل بخصومه له قيمتُه فى الدلالة على عِرفانه بحق المُلك وحِرصه على نجاة الدولة من أخطار البغى، والخروج على النظام، ففى سبيل هذه الغاية أسرفَ فى سفك الدماء وتقطيع الأرحام وقتلِ أمثال بنى الحسن والحسين، والديباج الأصفر، والنفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك خزانةَ رءوس فيما ترك ميراثا لابنه المهدى .

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقبَ الرأى محكمَ التدبير، وهو الذى يقول لابنه المهدى : «يا أبا عبد الله، ليس العاقلُ الذى يحتالُ للأمر الذى وقع فيه حتى يخرجَ منه، ولكنه الذى يحتالُ للأمر الذى غَشِيه حتى لا يقعَ فيه» .

وقد ذكر المؤرّخون أنه كان اذا جنى على أحد جنايةً أو أخذ من أحد مالا جعله فى بيت المال مفردا وكتب عليه اسمَ صاحبه، فلما أدركته الوفاةُ قال لابنه المهدى : «يابنىّ إنى قد أفردت كلّ شىء أخذتُه من الناس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فاذا وَلِيتَ أنت فأعِدْه على أربابه، ليَدْعوَ لك الناسُ ويحبوكَ» . وفى عهد المنصور أُنشِئَتْ "بغدادُ" موئل العلم ودار السلام .

الفصل السادس

المهــدى

عيناى واحدةٌ تُرَى مسرورةً ∘ بأميرها جَذْلَى وأخرى تذرِفُ
تبكى وتضحك تارة ويسوءها ∘ ما أنكرت ويسرُّها ما تعرِفُ
فيسوءها موتُ الخليفة مُحرِمًا ∘ ويسرّها أن قام هذا يخلُفُ
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى ∘ شعرا أُسرّحه وآخر أنتِفُ
هذا حباه الله فضلَ خلافةٍ ∘ ولذاك جناتُ النعيم تُزخرَفُ

بهذه الأبيات الرقيقةِ كان أبو دُلامة أوّلَ من تقدّم بتعزية المهدى بوفاة والده المنصور وتهنئته بارتقاء عرش الخلافة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهدى ، فيما أجمع عليه الرواةُ ، شهمًا فَطِنًا كريما ، شديدَ البأس فى تعقب الملحدين والزنادقة ، لا تأخذُه فى إهلاكهم لومةُ لائم .

وكان كثيرا ما يجلس لردّ المظالم . وقد عُرِفَ عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال : «أدخلوا علىّ القضاةَ ، فلو لم يكن ردّى للظالم إلا للحياء منهم لكفى» . وروى الطبرى فى حوادث سنة تسع وستين ومائة أنّ مِسْوَرَ بن مُساور قال : «ظلمنى وكيل للمهدى وغصَبنى ضيعةً لى ، فأتيتُ سلاما صاحبَ المظالم فتظلمت منه ، وأعطيته رُقعةً مكتوبةً فأوصل الرقعةَ الى المهدى وعنده عمّه العباس بن محمد وابنُ عُلاثةَ وعافيةُ القاضى ، قال فقال لى المهدى : أُدْنُهْ فدنوتُ ، فقال : ما تقول ؟ قلتُ : ظلمتنى ، قال : فترضى بأحد هذينِ ؟ قلتُ : نعم ، قال : فادنُ منّى ، فدنوتُ منه ، حتى التزقتُ بالفراش ، قال : تكلّم ، قلت : أصلح الله القاضى ، إنه ظلمنى فى ضيعتى هذا ، فقال القاضى : ماتقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : ضيعتى وفى يدى ، قال : قلتُ أصلح الله القاضى ، سله صارت الضيعةُ اليه قبل

الخلافة أو بعدها؟ قال : فسأله ما تقول يا أميرَ المؤمنين؟ قال : صارت إلىّ بعد الخلافة؛ قال : فأطلِقها له؛ قال : قد فعلتُ؛ فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين لهَـذا المجلسُ أحبُّ إلىّ من عشرين ألف ألف درهم !

⁂

أما كرمه فسجية قديمة فيه، وبسببه نال عتبَ المنصور غيرمرّة . وقد ذكر الطبرى أن المؤمل بن أميل قال : قَدِمت على المهدِىّ بالرّىّ وهو ولىّ عهد، فأمر لى بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحتُه بها، فكتب بذلك صاحبُ البريد الى المنصور، وهو بمدينة السلام، يخبره أن المهدىّ أمر لشاعر بعشرين ألف درهم، فكتب اليه المنصور يَعْـذُلُه ويقول له : إنمـا كان ينبغى لك أن تُعطى الشاعرَ بعد أن يُقيم ببابك سنةً أربعةَ آلاف درهم . قال المؤمل : فكتب الى كاتب المهدىّ أن يوجّه اليه الشاعرَ، فطُلِبَ فلم يُقْدَرْ عليـه، فكتب اليه : إنه قد توجّه الى مدينة السلام، فوجّه المنصور قائدا من قوّاده، فأجلسه على جسر النهروان، وأمره أن يتصفحَ الناس رجلا رجلا ممن يمرّ به حتى يظفرَ بالمؤمّل، فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من زوّار الأمير المهدىّ؛ قال : إياك طلبت؛ قال المؤمل : فكاد قلبي ينصـدع خوفا من أبى جعفر، فقبضَ علىّ ثم أتى بى بابَ المقصورة وأسلمنى الى الربيع، فدخل اليه الربيعُ فقال : هذا الشاعرُ قد ظَفِرنا به؛ فقال : أدخلوه علىّ؛ فأُدخِلْتُ عليـه، فسلمتُ فردّ علىّ السـلام، فقلت : ليس هاهنـا إلا خيرٌ؛ قال : أنت المؤمل بن أميل ؟ فقلت : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين؛ قال : هيه ! أتيت غلاما غِرًّا نخدعتَه، فقلتُ : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، أتيتُ غلاما كريما نخدعتُه فانخدع، قال : فكأنّ ذلك أعجبه فقال : أنشدنى ما قلتَ فيه؛ فأنشدتُه :

هو المهـدىّ إلا أنّ فيـه ✱ مَشابِهَ صورةِ القمرِ المنـيرِ
تشـابَه ذا وذا فهما اذا ما ✱ أنارا مشكلان على البَصير
فهذا فى الظلام سراجُ ليلٍ ✱ وهذا فى النهار سراج نورِ

ولكنْ فضَّلَ الرحمن هذا * على ذا بالمنابرِ والسريرِ
وبالمُلكِ العـزيز فذا أميرٌ * وما ذا بالأميرِ ولا الوزيرِ
ونقص الشهر يُخمد ذا وهذا * منيرٌ عنـد نقصان الشهورِ
فيا بنَ خليفةِ الله المصفَّى * به تعـلو مُفاخرةُ الفخورِ
لئن فتّ الملوكَ وقد توافَوا * إليك من السهولة والوُعُورِ
لقد سبق الملوكَ أبوكَ حتى * بَقُوا من بين كابٍ أو حسيرِ
وجئتَ وراءه تجرى حثيثا * ومابك حين تجرِى من فُتورِ
فقال الناسُ ما هـذان إلا * بمنزلة الخليق من الجـديرِ
لئن سبق الكبيرُ فأهلُ سبقٍ * له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ * لقد خُلِقَ الصغيرُ من الكبيرِ

فقال : والله لقد أحسنتَ ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم! ثم قال لى : أين المـال ؟ قلتُ : ها هو ذا، قال : ياربيعُ آنزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم، وخذ الباقى، قال : فخرج الربيع فحط ثِقْلى ووزن لى أربعـة آلاف درهم وأخذ الباقى . فلما صارت الخلافةُ الى المهدىّ ولّى ابنَ ثوبان المظالم، فكان يجلس للناس بالرصافة . فاذا ملأ كساءه رقاعا رفعها الى المهدىّ ، فرفعت اليـه يوما رُقعة أذكره قصتى، فلمـا دخل بها ابن ثوبان جعل المهدىّ ينظر فى الرقاع ، حتى اذانظر فى رقعتى ضَحِكَ، فقال له ابنُ ثوبان: أصلح اللهُ الأميرَ ! ما رأيتكَ ضحكتَ من شىء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة! قال : هذه رقعة أعرف سببها، ردّوا اليه العشرين ألف درهم، فُرُدّتْ إلىّ وانصرفت .

ولنترك هذه السماحةَ فى إجازة الشعراء لنرى كيف كانت أريحية المهدىّ فى الإحسان الى الجماهير، فقد ذكر الطبرىّ فى حوادث سنة ستين ومائة أن المهدى قسم فى تلك السنة مالا عظيما فى أهل مكة وفى أهل المدينة كذلك، وأنه نظر فيما قسم فى تلك السفرة، فوجد ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار، فَقَسَّم ذلك كله، وفَرَّق من الثياب مائةَ ألف ثوب وخمسينَ ألف ثوب .

⁂

وكان المهدي الى جانب جوده وسخائه حيياً خجولا و براً رحيما . دخل عليه رجل فقال : «يا أمير المؤمنين، إن المنصـور شتمني وقذف أمي ، فإما أمرتني أن أحله ، و إما عوضتني واستغفرتُ الله له ؛ قال المهدي : ولم شتمك ؟ قال : : شتمتُ عدوّه بحضرته فغضب ؛ قال : ومَنْ عدوُّه الذي غضب لشتمه ؟ قال : ابراهيمُ بن عبـد الله بن حسن ؛ قال : إن ابراهيمَ أمسُّ به رحماً ، وأوجبُ عليه حقاً ، فإن كان شتمك كما زعمتَ فعن رحمه ذبَّ ، وعن عِرْضه دفع ، وما أساء من انتصر لابن عمه ؛ قال : إنه كان عدوّا له ؛ قال فلم ينتصرْ للعداوة و إنما انتصَرَ للرحم ؛ فأسكتَ الرجلَ ؛ فلما ذهب ليولّي قال : لعلك أردتَ أمرا فلم تجد له ذريعةً عندك أبلغَ من هذه الدعوى ! قال : نعم ، قال : فتبسم المهدي وأمر له بخمسة آلاف درهـــم» .

ولْننظُر الى مايرويه الربيعُ عنه ، قال : رأيتُ المهدي يصلّي في بَهْوله في ليلة مُقمرة فما أدري أهو أحسنُ أم البهوُ أم القمرُ أم ثيابه ! قال : فقرأ هذه الآية : ﴿فهل عَسَيْتُمْ إنْ تولّيتُمْ أن تُفسدُوا في الأرض وتُقَطِّعوا أرحامَكم﴾ قال : فأتم صلاته والتفت الي فقال : يا ربيعُ ! قلتُ : لبيك يا أميرَ المؤمنين ؛ قال : عليَّ بموسى ؛ وقام الى صلاته قال : فقلت من موسى ؟ أابنُه موسى أم موسى بن جعفر وكان محبوسا عندي ، قال : فجعلت أفكر قال فقلت : ماهو إلا موسى بن جعفر . قال : فأحضرته ، قال : فقطع المهدي صلاته وقال : ياموسى ، إني قرأت هذه الآية : ﴿فهل عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أن تُفسدُوا في الأرض وتُقَطِّعوا أرحامَكم﴾ فخفتُ أن أكون قطعتُ رحمَك ، فوثِّق لي أنك لا تخرجُ عليّ ؛ قال : فقال نعم ؛ فوثّق له وخلّاه » .

ومثل هـذا ماحدّث به علي بن صالح قال : غضب المهدي على بعض القوّاد ، وكان عتب عليـه غيرَ مرّة فقـال له : الى متى تُذْنبُ اليَّ وأعفو ! قال : الى أبد نُسيءُ ويُبقيكَ اللهُ فتعفو عنّا ، فكررها عليه مرات ، فاستحى منه و رضي عنه .

ثم لننتقلْ الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فنرى النوفليَّ يحدثنا عن البيعة للمهدىّ وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيعَ تناول يدَ الحسن بنِ زيد فقال : قم يا أبا محمد فبايِــع . فقام معه الحسنُ فانتهى به الربيعُ الى موسى فأجلسَه بين يديه ، فتناول الحسنُ يدَ موسى ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها النـاس ، إن أمير المؤمنين المنصور كان ضربني واستصفى مالى . فكلمه المهدىّ فرضىَ عنّى وكلّمه فى ردّ مالى علىّ فأبى ذلك ، فأخلفه المهدىّ من ماله وأضعفَه مكانَ كلِّ عِلْقٍ عِلْقين ، فمن أولى بأن يبايعَ لأمير المؤمنين بصــدرٍ منشرحٍ ونفسٍ طيبةٍ وقلبٍ ناصحٍ منى ، ثم بايع موسى للمهدى ثم مسح على يده .

* * *

و بعد . فالمهدىّ من الخلفاء العباسيين فى الذؤابة . وقد صدق الأستاذ «ميو ر» اذ يقول : إن المهدىّ كان فى إدارته لشؤون رعيته كمن يعمَلُ بوجهٍ عامٍ على رفاهيةِ الأمة و إسعادِها ، وكان مُعيناً ومعجِّلا للعصر الذهبىّ الذى تلا أيامَه . وما أُخذ عليه من بعض الهَنَاتِ لا يمنع المؤرخَ المنصفَ أن يرى فى عصره ترفيهاً للناس ، مما كانوا يعانون من الشدّة أيامَ المنصور .

كان المهدىّ مُوفَّقًا فى آختيار وزرائه ، و إن كانت السِّعايةُ أحلّتْ ببعضهم العــذابَ وســوءَ المصير ، وكان دقيقا فى نظره للأمور . وقــد بدأ خلافتَه بإطلاق مَنْ كان فى سجن المنصور ، إلا من كان قِبَلَه تَبِاعةٌ من دم أو قتل ومن كان معروفا أنه يسعى فى الأرض بالفساد أو كان لأحدٍ قِبَلَه مَظْلَمَةٌ ، و إنمــا أطلق من كان جُرمُهم سياسيًّا .

وكان محبا للأدب ، مشجعا على التأليف فيه ، جادًا فى طلب الزنادقة والبحث عنهــم فى الآفاق ، محبا للغزواتِ والفتوح . وقد قيل : إنه كان لا يشربُ النبيذَ و إن كان سُمّارُه يشربونه فى مجلسه ، وكان محبا للسماع ، و يخبرنا الطبرىّ فى حوادث سنة تسع وستين ومائة ، أن المهدىّ مات مسموما وقد لَبِسَتْ عليه قِيانُه المُسُوحَ ، فقال أبو العتاهية فى ذلك :

رُحْنَ فى الوَشْى وأصبحــ ... ــن عليهنّ المســوحُ
كلّ نَطّاح مــن الدهــ ... ــر له يومٌ نَطُــوحُ

لَسْتَ بالباقِ ولو عُمِّـ * ـرتَ ما عُمِّـرَ نــوحُ
فعلى نفســك نُحْ إن * كنتَ لا بدَّ تنــوحُ

✦ ✦ ✦

والظاهرُ مما قدمناه أن المهدىّ كان يخالف أباه المنصورَ مخالفةً شديدةً من بعض النواحى، ويلائمه مُلاءمةً ما من نواحٍ أُخَر: كان كريما مُهِينًا للمال، بينما كان أبوه بخيلًا شحيحا، ولكنه وَرِثَ عن أبيه بعضَ القسوةِ والميلِ الى سفك الدماء[1].

ولم تكن السياسة لتُعينه على ذلك، فقد ثبَّتَ له المنصور أركانَ الملك فالتمس الدماءَ فى تتبع الزنادقة والفتكِ بهم، وأسرف فى ذلك، حتى قتلَ بعضَ الأبرياء فى قسوة تُمثّلها قصته مع ابن وزيره أبى عبيد الله.

وفى المهدىّ ناحيةٌ جديدة فى خلفاء العباسيين، هى الميلُ الى الاعتدال السياسىّ فى معاملة الطالبيين، فقد كان على شىء من الرفقِ بهم والعطفِ عليهم، لا يمنعه من اتقائهم والإشفاق منهم.

وهذه السياسةُ الرقيقةُ الحازمةُ تذكِّرنا بعضَ التذكير بما سيكونُ من سياسة المأمون.

ومن أظهر خصالِ المهدىّ الشخصيةِ غيرتُه على النساء. تلك التى أغرته ببشارٍ فضربه حتى مات، متعللا بزندقته، وإن كانت العلة الحقيقية هى استهتار بشارٍ بالغزل[2]. وقد أورث المهدى غيرَته هذه ابنَه الهادى كما سترى.

---

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا الرأى بقوله: «قسوة المهدى فى سفك الدماء، لم تكن عامة وإنما كان ذلك فى الزنادقة خاصة».

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أن قتل بشار لم يكن سببه الغيرة على النساء وإنما كان بتدبير يعقوب بن داود الوزير ودسيسه. وبشار هو الذى يقول:

بنى أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا * خليفة الله بين الناى والعود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أخبره بأن بشارا وقع فى الخليفة وهجاه. فاستنشده المهدى هجاءه فامتنع فعزم عليه فأنشده:

خليفة يزنى بعماته * يضرب بالدف وبالصولجان
أبدلنا الله وغيره * ودس موسى فى حر الخيزران

الفصل السابع

الهادى

قال محمد بن على بن طَباطَبا فى كتاب «الآداب السلطانية» : كان الهادى مُتيقِّظًا غيورا كريما شديدَ البطش جرىءَ القلب، مجتمعَ الحسّ ذا إقدام وعَزمٍ وحزمٍ .

ونحن نخشى أن يكون فى هـذا الثناء إسرافٌ كثير، فلم يطل عهد الهادى بالخلافة ليمكنَ الحكمُ له أو عليه، وإنما مرّ بها مرورَ الطيف .

ومع ذلك فقد أكثر المؤرخون من التحدّث عنه بالخير . وليس يستوقفنا من سيرته كلّها إلا ثلاثةُ أمور :

الأوّل ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال : كنتُ أتولى الشُّرطةَ للمهدىّ وكان المهدىّ يبعث الى ندماء الهادى ومُغَنّيه، ويأمرنى بضربهم ، وكان الهادى يسألنى الرفقَ بهم والترفيهَ لهم ، ولا ألتفتُ الى ذلك، وأمضى لِمَا أمرنى به المهدىّ . قال : فلما وَلِى الهادى الخلافةَ أيقنتُ بالتلف ، فبعثَ إلىّ يوما، فدخلتُ عليه متكفِّنًا متحنِّطًا، واذا هو على كرسىّ، والسيفُ والنِّطعُ بين يديه ، فسلّمتُ ، فقال : لا سلّم اللهُ على الآخر! تذكُرُ يومَ بعثتُ اليكَ فى أمر الحرّانىّ وما أمرَ أميرُ المؤمنين به من ضربه وحبسه فلم تُجبنى؟ وفى فلان وفلان، وجعل يُعدّد ندماءه، فلم تلتفِتْ الى قولى ولا أمرى ؟ قلت: نعم يا أميرَ المؤمنين، أفتأذنُ لى فى استيفاء الحجة؟ قال: نعم ؛ قلت : ناشدتُك بالله يا أميرَ المؤمنين ، أيسرّك أنك ولّيتنى ما ولّانى أبوك ، فأمرتَنى بأمرٍ فبعث إلىّ بعضُ بنيكَ بأمرٍ يخالف به أمركَ، فاتبعتُ أمرَه وعصيتُ أمرك؟ قال: لا ، قلت: فكذلك أنا لك وكذا كنتُ لأبيك، فاستدناني فقبّلتُ يديه، فأمر بخلع فصُبّتْ علىّ، وقال: قد ولّيتُك ما كنتَ تتولاه فامضِ راشدًا، فخرجت من عنده فصرت الى منزلى ، مفكرا فى أمرى وأمره ، وقلت : حدَثٌ يشرب، والقومُ الذين عصيتُه فى أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه، فكأنى بهم حين يغلبُ

عليهم الشرابُ قد أزالوا رأيه فيَّ وحمـلوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوف . قال : فإنى بالحالس وبين يدىَّ بُنَيَّـةٌ لى، فى وقتى ذلك ، وكانون بين يدىَّ، ورقاقٌ أشطره بكامخ وأسخنه وأضعه للصبية، واذا ضجةٌ عظيمةٌ ، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت ، بوقع الحوافر وكثرة الضَّوضَاء، فقلت : هاه ! كان والله ما ظننتُ ووافانى من أمره ما تخوفتُ ، فاذا البابُ قد فُتِح ، واذا الخدمُ قد دخلوا ، واذا أمير المؤمنين الهادى على حمارٍ فى وسطهم ، فلما رأيته ، وثبتُ عن مجلسى مُبادرًا ، فقبلتُ يده ورجله وحافرَ حمـاره ؛ فقال لى : ياعبدَ الله ، إنى فكرتُ فى أمرك ، فقلتُ يسبق الى قلبك أنى اذا شربتُ وحولى أعداؤك ، أزالوا ما حَسُنَ من رأيي فيك ، فأقلقك وأوحشك ، فصرت الى منزلك لأونسَكَ وأُعلمَكَ أن السخيمةَ قد زالتْ عن قلبي لك ، فهاتِ فأطعمنى مما كنت تأكل فأفعلُ فيه ما كنتَ تفعلُ ، لتعلم أنى قد تحرمتُ بطعامك ، وأنستُ بمنزلكَ ، فيزولَ خوفُك ووحشتُك ؛ فأدنيتُ اليه ذلك الرقاقَ والسُّكُرَّجةَ التى فيها الكامخُ فأكلَ منهـا ، ثم قال : هاتوا الزَّلَّةَ التى أزللتها لعبـد الله من مجلسى فأدخلت إلىَّ أربعمائة بغلة موقرة دراهم ، وقال : هـذه زلتك فاستعنْ بها على أمرك ، واحفظ لى هذه البغال عندك ، لعلى أحتاج اليها يوما لبعض أسفارى ؛ ثم قال : أظلك اللهُ بخير ، وانصرف راجعا . ونحن وإن كنا نفترض فى هذه الرواية وأمثالها المبالغة نرى أنها تدلّ فى جملتها على بصرٍ بالسياسة ، وفطنةٍ فى العلم بالناس ، والانتفاع بكفاياتهم .

الأمر الثانى وقوفُه موقفَ حزم نعتقد أنه أنقذ القصر العباسى ، من شرٍّ عظيم ، أفسد على ملوك الفرس قصورَهم ، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أمورَ الخلافة بعد عصر المأمون ، ذلك هو تدخُّلُ النساء فى أمور الدولة .

فقد ذكر الطبرىّ أن الخيزُرانَ والدةَ الهـادى ، كانت فى أول خلافته ، تَفْتَاتُ عليه فى أموره ، وتسلُكُ به مسلَكَ أبيه من قبله ، فى الاستبداد بالأمرِ والنهى ، فأرسل اليها : ألا تخرجى من خَفَـر الكفايةِ الى بَذاذةِ التبـذّل ، فإنه ليس من قدرِ النسـاء الاعتراضُ فى أمر الملك ، وعليكِ بصلاتكِ وتسبيحكِ وتبتّلكِ ، ولك بعد هذا طاعةٌ مثلك فيما يجب لك .

قال : وكانت الخيزرانُ فى خلافة موسى كثيرا ما تكلّمه فى الحاجات، فكان يجيبها الى كلّ ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، وانثال الناسُ عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكبُ تغدو الى بابها؛ قال : فكلّمته يوما فى أمر لم يجد الى إجابتها اليه سبيلا فاعتلّ بعلة؛ فقالت : لابدّ من إجابتى؛ قال : لا أفعل؛ قالت : فإنى قد تضمنتُ هذه الحاجةَ لعبد الله بن مالك؛ قال : فغضب موسى وقال : ويلٌ على ابنِ الفاعلة ! قد علمتُ أنه صاحبُها، والله لا قضيتُها له ! قالت : إذًا والله لا أسألك حاجةً أبدا؛ قال : إذًا والله لا أبالى، وحَمِى وغضِبَ؛ فقامت مُغْضَبَةً؛ فقال : مكانَك تستوعى كلامى، والله وإلا فأنا نَفِىٌّ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغنى أنه وَقَف ببابِك أحدٌ من قوّادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربنّ عنقه ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك ! ما هذه المواكبُ التى تغدو وتروحُ الى بابك فى كل يوم ! أما لكِ مغزلٌ يَشْغَلكِ، أومُصْحَفٌ يُذَكِّرِك، أو بيتٌ يصونُك ! إياكِ ثم إياكِ ما فتحتِ بابك لِمِلّىٍّ أو لذمىٍّ ! فانصرفت ما تعقِلُ ما تطأ، فلم تنطِق عنده بحُلوةٍ ولا مُرّةٍ بعدها .

ولم يكتف الهادى بكلامه معها، بل جمع قوّادَه يوما وقال لهم : أيُّما خيرٌ أنا أم أنتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين؛ قال : فأيما خير أمى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين؛ قال : فأيكم يحبّ أن يتحدّث الرجالُ بخبر أمه فيقولوا فعلتْ أمُّ فلان وصنعتْ أمُّ فلان وقالتْ أمُّ فلان ؟ قالوا : ما أحدٌ منا يحبّ ذلك؛ قال : فما بالُ الرجالِ يأتون أمّى فيتحدّثون بحديثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشقّ ذلك عليها، فاعتزلَتْه وحلَفتْ لا تكلمُه، فما دخلت عليه حتى حضرتْه الوفاةُ . وقد قالوا : إن الهادى حاول سَمّها فلم يُفلح . على أن الخيزرانَ أفلحت فى القضاء عليه حين مرض، فقد ذكروا أنها دسّت اليه من جواريها مَنْ قتلته بالجلوس على وجهه .

لننتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته الغدر بأخيه الرشيد .

ولننظر فى حوادث سنة سبعين ومائة، لنرى كيف أخلص آل برمك للرشيد، فقد هم الهادى بتحويل الخلافة عنه لابنه جعفر، ولكن يحيى بن خالد ثبت فى المحافظة على ولاية هارون، محتملا فى ذلك كل مكروه. وكان لبطانة الهادى أثر سيىء فى تشجيعه على خلع الرشيد ومبايعة جعفر؛ وكان فيمن بايعه يزيدُ بن مَزيد وعبد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم، من أصحاب الأغراض .

ولم تزد الحوادثُ يحيى بن خالد إلا حِرصًا على حق الرشيد، فصار يعلله ويُسَرّى عنه، ولولاه لخلع الرشيد نفسه، بعد أن تنقصوه فى مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصَعُب أمرُهم حتى ظهر، وأمر الهادى ألّا يُسارَ قدّامَ الرشيد بحربة، فاجتنبه الناسُ .

أما الأخبارُ عن كرمه فكثيرة. فمن ذلك ما رواه الطبرى فى حوادث سنة سبعين ومائة أنه أمر ذاتَ ليلة بثلاثين ألف دينار لعيسى بن دأب أحدِ جُلّاسه وكان — كما وصَفَهُ الطبرىُّ — لذيذَ الفُكاهةِ، طيّبَ المسامَرة، كثيرَ النادِرة . ويقول علىّ بن صالح : إنه كان يوما على رأس الهادى وهو غلامٌ ، وقد كان جَفَا المظالمَ عامّةَ ثلاثة أيام ، فدخل عليه الحرّانى فقال له : يا أميرَ المؤمنين إنّ العامةَ لا تنقاد على ما أنتَ عليه، لم تنظر فى المظالم منذ ثلاثة أيام؛ فالتفت الىّ وقال : ياعلىّ ائذن للناس علىّ بالجَفَلَى لا بالنَّقَرى ، فخرجتُ من عنده أطيرُ على وجهى ، ثم وقفتُ فلم أدرِ ما قال لى، فقلت : أراجعُ أميرَ المؤمنين فيقول : أتحجبنى ولا تعلم كلامى ! ثم أدركنى ذِهنى ، فبعثتُ الى أعرابىّ كان قد وفد، وسألته عن الجَفَلَى والنَّقَرى فقال : الجفَلى جفالةٌ، والنقَرى ينقر خواصهم؛ فأمرتُ بالستور فرُفِعَتْ، و بالأبواب ففُتِحَتْ، فدخل الناسُ على بَكْرة أبيهم، فلم يزل ينظرُ فى المظالم الى الليل، فلما تَقَوّضَ المجلس مَثَلْتُ بين يديه، فقال : كأنك تريد أن تذكر شيئًا يا علىّ؛ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، كلّمتنى بكلام لم أسمعه قبل يومى هذا، وخفتُ مراجعتَك فتقول أتحجُبنى وأنت لم تعلم كلامى ! فبعثتُ الى أعرابىّ كان عندنا ففسّر لى الكلام، فكافئه عنّى يا أمير المؤمنين؛ قال : نعم، مائة ألف درهم تُحمل اليه . قال : فقلتُ يا أمير المؤمنين،

إنه أعرابىّ جِلْفٌ وفى عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه ! فقال : ويلك يا علىّ أَجُودُ وتَبخلُ !

+ + +

وكان الهادى شديدَ الغيرة، ظاهرَ الشهامة . وهاك حديثاً لا يخلو من الأدب والفُكاهة، حدّثَ به السِّندىُّ بن شاهك قال : كنت مع موسى بجُرجانَ، فأتاه نعىُ المهدىّ والخلافة، فركبَ البريدَ الى بغدادَ ومعه سعيدُ بن سَلم ووجّهنى الى خُراسانَ ، فحدّثنى سعيدُ بن سَلْم قال : سرنا بين أبيات جُرجانَ و بساتينها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتينِ من رجل يتغنّى، فقال لصاحب شُرْطته : علىّ بالرجل الساعةَ، قال : فقلتُ يا أمير المؤمنين ما أشبهَ قصّةَ هذا الخائن، بقصّةِ سليمان بن عبد الملك ! قال : وكيف ؟ قال : قلت له : كان سليمانُ بن عبد الملك فى مُتنَزَّه له ومعه حرمُه ، فسمع من بستان آخر صوتَ رجلٍ يتغنّى، فدعا صاحبَ شُرْطَته فقال : علىّ بصاحب الصوت فأُتِىَ به، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : ما حملك على الغناء وأنتَ الى جنبي ومعى حَرَمى؛ أما علمتَ أن الرِّماكَ(١) اذا سمعتْ صوتَ الفحلِ حنّت اليه ! ياغلام جُبَّهُ ! فجُبَّ الرجلُ، فلما كان فى العام المقبل، رجع سليمانُ الى ذلك المتنزه فجلس مجلسه الذى جلس فيه ، فذكر الرجلَ وما صنع به ، فقال لصاحب شُرْطَتِه : علىّ بالرجل الذى كنا جَببناه، فأحضره، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : إما بعتَ فوفيناكَ، و إما وهبتَ فكافأناك ؛ قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له : يا سليمان! اللهَ اللهَ! إنك قطعتَ نسلي فذهبتَ بماء وجهى ، وحَرَمتَنى لَذَّتى ، ثم تقول : إما وهبتَ فكافأناك و إما بعتَ فوفّيناك ! لا والله ! حتى أقِفَ بين يدى الله! قال : فقال موسى : يا غلام رُدّ صاحبَ الشُّرطةِ فردّه، فقال : لا تعرِضْ للرجل .

+ + +

وأما حبُّه للنجدة فيحدّثنا به عمرُ بنُ شبّةَ، إذ ذكر أن علىّ بن الحسين بن على بن الحسين ابن على بن أبي طالب، وكان يلقَّبُ بالجزرىّ، تزوج رُقَيَّةَ بنتَ عمرٍو العثمانية، وكانت تحت

(١) الرماك : جمع رمكة بفتحتين وهى الأنثى من البراذين .

المهدى؛ فبلغ ذلك موسى الهادى فى أوّل خلافته، فأرسل اليه فجهله وقال : أعياكَ النساءُ إلا امرأة أمير المؤمنين! فقال: ما حرّم اللهُ على خلقه إلا نساءَ جدّى صلى الله عليه وسلم، فأما غيرُهنّ فلا ولا كرامةَ، فشجه بمِخْصَرةٍ كانت فى يده وأمر بضربه خمسمائةِ سوطٍ فضُرِبَ، وأرادَه أن يُطَلّقها فلم يَفْعَلْ، فحُمِلَ من بين يديه فى نِطْعٍ فَأُلْقِىَ ناحيـةً، وكان فى يده خاتم سرى، فرآه بعضُ الخدم وقد غُشِىَ عليه من الضرب، فأهوى الى الخاتم فقبض على يد الخادم فدقّها، فصاح وأتى موسى فأراه يدَه، فاستشاط وقال : يفعل هـذا بخادمى مع استخفافه بأبى وقوله لى! وبعثَ اليه : ما حملك على ما فعلتَ؟ قال : قل له وسَله ومُره أن يضعَ يده على رأسك وليصدُقك ؛ ففعل ذلك موسى فصَدَقَه الخادم ؛ فقال : أحسن والله! أنا أشهد أنه ابنُ عمى لو لم يفعل لانتفيتَ منه وأمر بإطلاقه .

⁂

وقد كان الهادى مثلَ أبيه مُحِبًّا للآداب مُشَجِّعًا للشعراء، وكان على سنته فى بغض الزنادقة ومقتهم، مُوَفَّقًا فى اختيار الوزراء، مُصَابًا كأبيه ببطانة سوء، همُّها الوقيعةُ والوشايةُ وإغراءُ الخليفة والبيتِ المالك باجتراح المآثم واقتراف المظالم .

قال الطبرى : إن عبـد الله بن محمد المنقرىّ حَدَّثَ عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصرَفه من فخّ[(١)]، فوجده خائفا يلتمس عذرا من قتل مَن قتل فقال له : أصلح الله الأمير، أُنشِدُك شعرا كتب به يزيدُ بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيـه من قتل الحسين بن على رضى الله عنه؟ قال : أنشدنى، فأنشده :

يا أيها الراكب الغادى لِطيتِهِ * على عُذَافِـرةٍ[(٢)] فى سيرها قُحَـمُ

(١) فخ بفتح أوّله وتشديد ثانيه : وادى الزاهر، ويوم فخ كان أبو عبد الله الحسين بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنـه خرج يدعو الى نفسه فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة فى المدينة وخرج الى مكة فلما كان بفخ لقيته جيوش بنى العباس وعليهم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم التروية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته ، ولم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخ وفيه دفن عبد الله بن عمر ونفر من الصحابة الكرام اهـ ملخصا من ياقوت مادة « فخ » .

(٢) العذافرة : الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة ، أنظر لسان العرب مادة « عذفر » .

أبلغ قريشا على شحط المزار بها * بنى وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده * عهدَ الاله وما تُرعى له الذمُ
عنفتمُ قومكم فخرا بأمكم * أم حَصَانٌ لعمرى برة كرم
هى التى لا يُدانى فضلَها أحدٌ * بنت النبى وخير الناس قد علموا
وفضلُها لكم فضلٌ وغيركمُ * من قومكم لهمُ من فضلها قِسَم
إنى لأعلم أو ظنا كعالمه * والظنّ يَصْدُق أحيانا فينتظِمُ
أن سوف يتركم ماتطلبون بها * قتلى تهادا كم العِقْبانُ والرخمُ
ياقومنا لاتشبوا الحرب اذ خمدتْ * ومَسّكوا بحبال السِّلم واعتصِمُوا
لاتركبوا البغيَ إن البغى مَصرَعةٌ * وإن شارِبَ كأسِ البغى يَتّخمُ
قد جربَ الحربَ من قد كان قبلكمُ * من القرون وقد بادت بها الأممُ
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخا * فربَّ ذى بذخ زلّت به القدمُ

قال : فسُرّى عن موسى بن عيسى بَعْضُ ما كان فيه .

وإذا لم يكن بدّ من اختصار حياة الهادى فى كلمة جامعة فلنقل : إنه وَرِثَ عن أبيه المهدى كرَمه وغَيرته وحبّه للأدب ، ووَرِثَ عن جدّه المنصور حزمَه وشيئا من مَيله الى الغدر .

الفصل الثامن

هـارون الرشـــيد

يا خَيْزُرانُ هَنَاكِ ثم هَنَاكِ * أمسَى يَسُوسُ العالَمِينَ ٱبْنَاكِ

بهذا يُعلِنُ مروانُ بن أبي حفصةَ الشاعرِ النابهُ تَبَوُّأَ الرشيد عرشَ الخلافة ، بعد أخيه الهادى ، بعهدٍ من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية . وبهذا يهنئ الشاعرُ الخيزرانَ بتَوَقُّلِ الرشيد لعرش كانت الخيزرانُ معذبةً مُعنَّاةً بمن كان يعتليه قبل الرشيد . وقد يكون من المستصوَبِ أن نتركَ ليوسفَ بن القاسم بن صبيح كاتب الرشيد، يُعلنُ الينا ما أعلنَهُ بنفسه الى العالم العربى، من خبر ٱعتلاء الرشيد للخلافة، فإنه، بأسلوبه الرشيق وبلاغته السَّهلةِ ومكانته من الرشيد، أحقُّ بذلك وأجدرُ، ولا سيما وقد طُيِّرتْ قطعتُه للخافقَينِ، مُنبئةً بموت خليفةٍ وتتويج خليفةٍ .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله بمنِّه ولطفه، منّ عليكم معاشرَ أهل بيت نبيه، بيتِ الخلافة ومعدنِ الرسالة، وآتاكم أهل الطاعةِ، من أنصار الدولة وأعوان الدعوة، من نعمه التى لا تُحصى بالعدد، ولا تنقضى مدى الأبد، وأياديه التامة إذ جمع أُلفتكم، وأعلى أمركم، وشدّ عَضُدَكم، وأوهَنَ عَدُوَّكم، وأظهر كلمةَ الحقِّ، وكنتم أولى بها وأهلَها، فأعزَّكم اللهُ وكان الله قوياً عزيزاً، فكنتم أنصارَ دينِ الله المرتضى، والذّابين بسيفه المنتضى، عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم . وبكم ٱستنقذهم من أيدى الظَّلَمةِ أئمةِ الجور، والناقضين عهدَ الله، والسافكينَ الدمَ الحرامَ، والآكلين الفيءَ، والمستأثرين به . فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة، واحذروا أن تُغَيِّروا فيُغَيِّرَ بكم . وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادى الإمام فقبضه اليه، وولى بعده رشيدًا مرضيًّا أميرَ المؤمنين بكم رؤوفا رحيما، من مُحسِنِكم قبولا،

وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً . وهو — أمتعه الله بالنعمة، وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولاه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته — يعدكم من نفسه ، الرأفة بكم والرحمة لكم، وقسم أعطياتكم فيكم ، عند استحقاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما فى بيوت الأموال، ماينوبُ عن رزق كذا وكذا شهرا غير مُقاصّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحاملاً باقى ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث فى النواحى والأقطار من العصاة المارقين الى بيوت الأموال ، حتى تعودَ الأموالُ الى جمامها وكثرتها والحال التى كانت عليها . فاحمدوا الله وجددوا شكرا يوجب لكم المزيد من إحسانه اليكم بما جدد لكم من رأى أمير المؤمنين وتفضّل به عليكم أيده الله بطاعته، وارغبُوا الى الله له فى البقاء، ولكم به فى إدامة النعماء، لعلكم تُرحَمُون : وأعطوا صفقةَ إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولايةَ عباده الصالحين» .

⁂

بهذا الكتاب القيّم البليغ، أشعرَ العالمَ العربىّ بابتداء خلافة هارونَ الذى نستطيع بحق أن نقولَ إنه أضخمُ الخلفاء المسلمين اسماً ، وأبعدهُم صوتاً ، وأشدُّهم فى الخيال تأثيرا، فأنتَ لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد، حتى يُحدِثَ فى نفسك صورا خياليةً، مختلفةَ النوع ، ولكنها متفقةٌ فى القوة ، فهو يُنشِئُ فى نفسك حيناً صورة الخليفةِ المترَف ، المسرف فى الترف ، الذى بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . وينشىء فى نفسك حيناً آخر صورةَ الخليفةِ القوىّ، الذى أذلّ أعداءَ الإسلام وبسطَ سلطانَ الخلافة على أطراف الأرض ،وأخذ ملوكَ الروم بدفع الجزية . وينشىء فيها مرّةً أخرى صورةَ الخليفةِ الحذِر، الذى بث الجواسيس، ليعرِفَ من أمر الناس ماظهرَ وما خفى، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو جاسوسا، يطوفُ فى الأسواق ، ويُوغِلُ فى البيوت ، ويَغشَى المجالسَ والأنديةَ، حتى ألمّ بكل شىء ، وأحاط بكل خفيّة، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشًا لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يُنشِئُ فى نفسك صورةَ الخليفة العالم الأديب، الفقيه بألوان

العـلم والدين والأدب ، المشـجّع للفقهاءِ والعلماءِ والشـعراءِ والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك فى الشرق والغرب . ويُنْشِئُ فى نفسك أيضا صورةَ الخليفة الورِع الزاهد، المتهالك نُسُكاً وطاعةً وتبتّلاً لله، كما ينشىء فيها صورةَ الخليفة الذى لا يكاد يخلو الى نفســه ويَسْدِلَ الستـارَ بينه وبين رعيته حتى يأخذَ مع المجّان فى مجونهم، فيُخَيِّـلُ اليك أنه لا يدَعُ من سُبُل اللذة سبيلا إلا سلكها وجَنى ثمـارها ، فمن غِناءٍ، الى شَرابٍ، الى عَبَثٍ، الى استمتاعٍ بالنساء، من حرائرَ وإماءٍ، وهو بعد هذا كله سياسيٌّ، ماهرٌ ، بعيدُ النظر فى تصريفه الأمورَ، فيه حزمُ المنصور وعُنفُه وميلُه الى الغَدر والأثرة ، وكلّ ما يُشخِّصُ سياسـةَ « مكيافلى » ، وفيه حلمُ معاوية ودهاؤُه اللّيِن المرنُ ، وسخاؤه بالمـال واصطناعه الناسَ .

ومن غريب الأمر أن كلَّ هذه الصور المتناقضة التى تتباين أشدَّ التباين، قد اجتمعت حقا فى شخص هـذا الخليفةِ، لا كما يصـوّرها المؤرّخون والرواةُ والقُصّاصُ وأصحابُ الأساطيرِ، بل اجتمعت اجتماعا يختلف قوة وضعفا باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرةِ التى كوّنت مِزاجَه وشخصيتَه، وقَصْرَه، وبيئته السياسية العامة؛ فليس الرشيد فى حقيقـةِ الأمر ، شخصًا كغيره من الأشخاص يمثل نفسَــه وما وَرِث عن أُسرته ، ولكنه مِرآةٌ اجتمعت أمَامها صورٌ مختلفةٌ من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هـذه الصـــور .

فالرشيدُ يمثل كلَّ هؤلاء الناس، وكلَّ هذه الأشياء، وكلَّ هـذه الظروف التى شهدتها بغدادُ قرب آخر القرن الثانى للهجرة . ومن هنا كان من العسـير جدا أن نستخلصَ منـه صورةً تاريخيةً صادقةً، بريئةً من الغلوّ والإسراف .

فأمّا المؤرّخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكلّ ما عرفتَ أنهـم تأثروا به، من الإغراقِ والمبالغـةِ والغلوّ فى المدح مُخلِصين فى أكثر الأحيان .

وأما المؤرخون من الفرنج فلم يسلم أشـدُّهم احتياطا من التأثر بهذه الطائفة الضخمة من الأساطير التي بثها في نفوس الجماعات كتابُ "ألف ليلة وليلة" منذ زمنٍ طويل .

وقـد ظهر هـذا التأثر مظهرين مختلفين ، مظهرَ المدح والإسراف فيه عنـد قوم ، ومظهرَ الذم والإغراق فيه عنـد قوم آخرين . وأولئـك وهؤلاء مخدوعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التي أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ونحن مجتهدون — لا في أن نعطيكَ هـذه الصورةَ الصادقةَ من الرشـيد التي لا يزال التاريخُ محتاجا اليها ، فليس ذلك غرضَنا في هذا البحث ، وليس في هذا الكتاب متّسعٌ له ، بل في أن نُعطيَكَ صورةً صادقةً من فهـم المؤرخين من العرب والفرنجة لعصر الرشـيد ، غير مُهملين مع ذلك أن نُسجّلَ آراءً لنا هنا وهناكَ حين نشعُر بالحاجة الى ذلك ، لتوضيح مذهبنا في فهم عصر المأمون الذي نضعُ فيه هذا الكتابَ .

⁂

يجمع المؤرخون العربَ على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وبسطة يده بالخير والعطاء ، وانطوائه على الجود والسخاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصـلي في كل يوم مائةَ ركعة الى أن فارق الدنيا إلا أن تَعرِضَ له عِلّةٌ ، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجّ حجّ معه مائةٌ من الفقهاء وأبنائهـم ، واذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة بالنفقة السابغـة والكسوة الباهرة . وكان يقتفي آثار المنصور ويطلبُ العمل بها إلا في بذلِ المـال ، فانه لم يُرَ خليفةٌ قبله كان أعطى منه للمـال ثم المأمون من بعده . وكان لا يَضيعُ عنده إحسانُ محسنٍ ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه . وكان يُحبُّ الشعراءَ والشعرَ ، ويميلُ الى أهل الأدب والفقه ، ويكره المِراءَ في الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له وبالحرى ألا يكون فيـه ثواب . وكان يحبّ المديحَ ولا سيما من شاعرٍ فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالي .

ولقد كانت دولةُ الرشيد — كما يقول الفخري — : دولةٌ من أحسن الدول وأكثرِها وقارًا ورونقًا وخيرًا وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظمَ الدنيا . ولم يجتمع على باب

خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقضاة والكتّاب والندماء والمغنين من اجتمعوا على باب الرشـيد، وكان يَصِلُ كلَّ واحدٍ منهم أجزلَ صلة ، ويرفعُـه أعلى درجة . وكان فاضلا شاعرا راويةً للأخبـار والآثار والأشعار ، صحيحَ الذوق والتميز ، مهيباً عند الخاصة والعـامّة .

⁂

ولقد حاول الهادى أن يُرغِمَ الرشـيدَ على خَلع نفســه من الخلافة بعده ، وأن يكتُبَ بولاية العهد لابنه جعفر ، وقد تمّ له شيء من ذلك . وإنا لنجدُ فى حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشيءَ الكثير من إخلاص آل برمك للرشـيد لا سيما شدّة محافظة يحيى البرمكىّ على حقوق الرشيد فى ولاية العهد ، فعُذِّبَ وحُبِسَ وأُوذِىَ فى هذا السبيل إيذاءً شديدا .

ولقد أظهر الرشيدُ ، وهو ولىّ عهد ، من الجرأة ومتانة الأخلاقِ والصراحةِ ، ما هو حقيق بالإعجـاب . ولسنا نرى مندوحة من ذكر الرواية التى ذكرها محمد بن عمـر الرومىّ ، فهى تُعطينا صورةً دقيقةً لمـا نحن بسبيله ، فقد حدَّثَ عن أبيه قال : جلس موسى الهادى بعد ما ملك فى أوّل خلافته جلوسا خاصا ، ودعا إبراهيمَ بن جعفر بن أبى جعفر وإبراهيمَ بن سلم ابن قتيبة والحرّانى فجلسوا عن يساره ، ومعهم خادمٌ له أسودُ يقال له أسلمُ ويُكْنَى أبا سليمانَ ، وكان يَثِقُ به ويُقَدِّمه ، فبينا هو كذلك ، إذ دخل صالح صاحبُ المصلّى فقال : هارونُ بن المهدى ، فقال : آئذن له ، فدخل فسلّم عليه وقبل يديه وجلس عن يمينه بعيدًا من ناحية ، فأطرق موسى ينظر اليـه وأدمنَ ذلك ثم التفت اليه فقـال : يا هارون كأنى بك تحـدّث نفسَك بتمام الرؤيا ، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرطُ القتَـادِ ، تؤمل الخلافةَ ! قال : فبرك هارون على ركبتيه وقال : يا موسى إنك إن تجبرتَ وُضِعْتَ ، وإن تواضعتَ رُفِعْتَ ، وإن ظلَمتَ خُتِلتَ ، وإنى لأرجو أن يُفضِى الأمرُ الىّ ، فأُنصِفُ مَنْ ظلمتَ ، وأصلُ مَن قطعتَ ، وأصير أولادَك أعلى من أولادى ، وأزوّجهم بناتى ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدىّ . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبا جعفر ! أُدنُ منى ، فدنا

منه فقبّل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، أعنى أباك المنصور ، لا جلستَ إلّا معى ! وأجلسه فى صدر المجلس معه . ثم قال : ياحرّانى احمل الى أخى ألف ألف دينار ، وإذا افتتح الخراجُ فاحمل اليه النصفَ منه وآعرِضْ عليه ما فى الخزائن من مالنا ، وما أخذ من أهل بيت اللعنة ، فيأخذ جميعَ ما أراد ، قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصالح : أدنِ دابّته الى البساط .

قال عمرو الرومى : وكان هارون يأنس بى فقمت اليه فقلت : ياسيدى ما الرؤيا التى قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدى : أُرِيتُ فى منامى كأنى دَفَعْتُ الى موسى قضيباً والى هارون قضيبا ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلًا ، فأما هارون فأورق قضيبُه من أوّله الى آخره ، فدعا المهدى الحكمَ بن موسى الضمرى ، وكان يُكْنَى أبا سفيانَ ، فقال له : عبِّر هذه الرؤيا ، فقال : يملكانِ جميعا ، فأما موسى فتَقِلُّ أيامه ، وأما هارون فيبلغ مَدَى ما عاش خليفةً وتكونُ أيامُه أحسنَ أيامٍ ، ودهرُه أحسنَ دهرٍ . قال ولم يلبَثْ إلا أياما يسيرةً ثم اعتلَّ موسى ، ومات وكانت عِلَّتُه ثلاثةَ أيام .

قال عمرو الرومى : أفضتِ الخلافةُ الى هارون فزوّج حَمْدُونةَ من جعفر بن موسى ، وفاطمةَ من إسماعيل بن موسى ، ووفّى بكل ما قال ، وكان دهرُه أحسنَ الدهورِ .

⁂

ولقد كان الرشيدُ مشغوفا بالفنون والعلوم ، وكان قصرُه الزاهى الزاهرُ مركزا لمختلف الثقافَات . وأما وَلَعُه بالشعر وضروبِ الآداب وإجازتُه الشعراءَ بسخاء فالحديثُ فى ذلك طويل المناحى .

وكان الرشيد ، مع استمتاعه بمرافِهِ الحياة ومناعمها : تزوج ستَّ زوجات وتسرى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبرى وأسماء أولاده منهن ، وكان ، مع تبرّج المدنية فى أيامه ، ومع إحيائه أنديةَ اللغة والآداب والمنادمة ، ورعًا متأثرا بالمواعظ والزهديات . وسنذكر لك طرفا من مواقفه الدالة على خشيته لله ، وأدبه ، وورعه ، وتواضعه .

أما خشيته لله وأدبه، فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرَّقة بعد أن شخص من بغداد، فخرج معه يوما الى الصيد، فعرض له رجلٌ من النُّسَّاك فقال : يا هارون اتق الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك : خذ هذا الرجلَ اليك حتى أنصرف، فلما رجع دعا بغدائه، ثم أمر أن يُطعَمَ الرجلُ من خاصّ طعامه، فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أنصفني في المخاطبة والمساءلة قال : ذاك أقل مما يجب لك، قال : فأخبرني أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال : بل فرعون، قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ . قال : صدقتَ، فأخبرني : فمن خير : أنت أم موسى بن عمران؟ قال : موسى كليمُ الله وصفيّه اصطفاه لنفسه وأتمنه على وحيه وكلّمه من بين خلقه، قال : صدقتَ، أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه الى فرعون قال لهما : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. — ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكنّياه — هذا وهو فى عتوّه وجبروته، على ماقد علمتَ، وأنتَ جئتَنى، وأنا بهذه الحالة التى تعلم أؤدى أكثر فرائض الله علىّ، ولا أعبدُ أحدا سواه، أقف عند أكبر حدوده وأمرِه ونهيه، فوعظتَنى بأغلظ الألفاظ وأشنعها، وأخشنِ الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدّبتَ، ولا بأخلاقِ الصالحين أخذتَ، فما كان يؤمنك، أن أسطو بك، فاذا أنتَ قد عرضت نفسَك لما كنتَ عنه غنياً، قال الزاهد : أخطأتُ يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك، قال : قد غفر لك الله، وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى أن يأخذها وقال : لاحاجة لى فى المال، أنا رجل سائح، فقال هَرثمةُ ونخزه : تردّ على أمير المؤمنين يا جاهلُ صِلَتَه! فقال الرشيد : أمسكْ عنه، ثم قال له : لم نُعطِكَ هذا المالَ لحاجتك اليه، ولكن من عادتنا أنه لا يخاطبُ الخليفةَ أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصلَه ومنَحه، فاقبل مِن صِلتنا ماشئتَ وضَعْها حيثُ أحببتَ، فأخذ من المال ألفَىْ درهم وفرّقها على الحُجّاب ومَنْ حضر البابَ .

وأما ورعه فقد ذُكر، أن أبا مريم المدنى كان مع الرشيد وكان مِضحاكاً له مُحدّاثاً فكِها، فكان الرشيد لايصبِر عنه ولا يَمَلّ محادثَته، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفة

بأخبار أهل الحجاز، وألقاب الأشراف ومكايد المجان، فبلغ من خاصته بالرشيد أن بوّأه منزلاً في قصره، وخالطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه، فجاء ذاتَ ليلة وهو نائم وقد طلع الفجرُ وقام الرشيدُ الى الصلاة فألفاه نائما، فكشف اللحافَ عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحتَ؟ قال: يا هذا ما أصبحتُ بعدُ، اذهَبْ الى عملك، قال: ويلك! قم الى الصلاة، قال: هذا وقتُ صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، فمضى وتركه نائما وتأهَّبَ الرشيد للصلاة، فجاء غلامُه فقال: أميرُ المؤمنين قد قام الى الصلاة، فقام فألقى عليه ثيابَه ومضى نحوه، فاذا الرشيدُ يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى اليه وهو يقرأ: ﴿ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالكَ الرشيدُ أن ضَحِكَ في صلاته، ثم التفتَ اليه وهو كالمُغْضَبِ فقال: يابن أبي مريم في الصلاة أيضا! قال: يا هذا وما صنعتُ! قال: قطعتَ عليَّ صلاتي، قال: والله ما فعلتُ، إنما سمعتُ منك كلاما غمني حين قلتَ: ﴿ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلتُ: لا أدري والله، فعاد فضحك وقال: إياكَ والقرآنَ والدينَ ولك ما شئتَ بعدهما.

وأما تواضعُه فنترك الكلمةَ فيه لأبي معاويةَ الضرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلتُ مع الرشيد يوماً، فصبَّ على يديَّ الماء رجلٌ فقال: يا أبا معاوية أتدري مَنْ صَبَّ الماء على يديك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: أنا، فقلتُ: يا أمير المؤمنين أنتَ تفعل هذا إجلالاً للعلم، قال: نعم. فتصوّر الى أي حدٍّ بلغَ صنيعه!.

* * *

نترك جانبا الآن التكلّمَ عن البرامكة ونكبةَ البرامكة الى فصلٍ مستقلٍّ. وربما كان من المصلحة الفنيّة للكتاب أن يُفردَ لكل بحث من بحوثه بابٌ خاصّ، نستوعبُ فيه ما يجدُر بنا استيعابُه من تلك النواحي الهامّة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى في عنقنا أن نتحدثَ اليك في أمور أربعة قد تفيدك في عهد الرشيد عامة وربما أفادت في تفهم عصر المأمون خاصة وهي: (١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد، (٢) السياسة الخارجية، (٣) التكلم عن بيعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم،

(٤) التكلم عن الدولة البرمكية والنكبة البرمكية . وسنتوخّى الإيجازَ المقنعَ من غير إخلال بما لا يليق بنا الإخلالُ به، ولا سيما باب بيعات الرشيد ، فإنا لا نرى مندوحةً من إثبات نصوصها لمـا لها من الخطر من حيث إنها أثرٌ تاريخيٌّ خليقٌ بالدراسةِ والبحثِ .

١ — السـياسة الداخليـــة

أنتَ جِدُّ عالِمٍ بمـا كان من تطلّع الطالبيين للخلافة . وقد مرّ بك القولُ في تحفّزاتهم وخروجهم وحروبهم للخليفة العباسي ، الجالس على العرش ، كلّما واتتهم الفُرَصَ وأمكنتهم الأحـــوال .

وأنتَ جِدُّ عالِمٍ أن الخلفاء ما كانوا يركنونَ الى جانبهم نِفاسًا وتباغضًا، واصطداماً للمصلحة الخاصة وتعارُضًا . بَيْدَ أن الرشيد وهو الرءوم بسجيته، المجبولُ على الخير بنزعته، رأى في أول عهده، أن يجدِبَ عليهم ويَستلَّ سخيمةَ العداوةِ من قلوبهم، فرفع الحجرَ عمن كان منهم ببغداد، وسيّرهم الى المدينة، ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله، وكان أبوه مع ذلك فيمن أشخِصَ الى المدينة .

لم يُشجع الطالبيونَ الرشيدَ على الاستمرار على خُطّته تلك، بل كان من بعضهم ما دفعه الى تغيير خُطّتِه السديدة، إذ خرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الناجين من وقعة «فخ» التي كانت في أيام الهادي، ونزح الى بلاد الديلم، حيث قويت شوكتُه واشتدّ ساعدُه، وهرعَ اليه الناس من الأمصار والكُورِ، فاغتمّ الرشيدُ لذلك أيّما اغتمامٍ وترَكَ، فيما يقول الرواةُ، شربَ النبيذ، ثم نَدبَ الى قتاله الفضلَ بن يحيى بن خالد في خمسين ألفا، ومعه من القوّاد صناديدُهم ومن الجند شجعانُهم ،فسار سَمْتَ يحيى ،فكاتبه ورفق به واستماله وبسط أمله ،وكاتب صاحبَ الديلم وجعل له ألفَ ألفِ درهم على أن يُسَهِّلَ له خروجَ يحيى وحُمِلَتْ اليه، فأجاب يحيى الى الصلح والخروج، على أن يكتبَ له الرشيدُ أماناً بخطه ، فبادر الفضــلُ برفع ذلك الى الرشيد، فأثلج فؤادَه وعَظُمَ موقعه لديه، وكتب أمانًا ليحيى بن عبد الله وأشهدَ عليه القضاةَ والفقهاءَ وجِلّةَ بني هاشم ومشايخهم، منهم عبد الصمد بن عليّ والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم، ووجّه به مع جوائزَ وكرامات وهدايا، فوجه الفضلُ بذلك اليه فقدِم يحيى بن عبد الله عليه .

وفى رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيدَ قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده، وأنه قد اشتد فى مطاردته، واقتفاء أثره، طلبَ الأمان من الفضل، فأمنه وحمله الى الرشيد .

ويحدثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفضلُ بن يحيى البرمكى بيحيى بن عبد الله العلوى بغدادَ، لقيه الرشيد بكل ما أحبّ، وأمر له بمالٍ كثيرٍ، وأجرى عليه أرزاقاً سنيةً، وأنزله منزلاً سريّاً بعد أن أقام فى منزل يحيى بن خالد أياما، وكان يتولّى أمرَه بنفسه ولا يَكِلُ ذلك الى غيره، وأمر الناسَ بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه، وبلغ الرشيدُ الغايةَ فى إكرام الفضلِ، وفى ذلك يقول مروانُ ابن أبى حفصة :

ظَفِرْتَ فلا شَلَّتْ يدٌ برمكيةٌ ۞ رَتَقْتَ بها الفتقَ الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقينَ التئامُه ۞ فكفّوا وقالوا ليس بالمتلائِم
فأصبحتَ قد فازَتْ يداك بخُطَّةٍ ۞ من المجد باقٍ ذكرُها فى المواسِم
وما زال قِدْحُ الملكِ يخرُجُ فائزا ۞ لكم كلّما ضُمّتْ قِداحُ المُساهِم

ونوجه النظرَ هنا الى ظاهرة فى شعر مروان وأبى تمامة الخطيب الذى أنشدَ فى هذا المعنى أبياتاً له يُستدَلُّ منها على اغتباط الشاعر، وجمهرة الناس طبعاً، بالوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك، مفخرةً للعاملين على رَتقِ الفتق والتئام الصَّدع . ولكن وأسفاه ! فإن للوجهة النفعية خطرَها بين الملوك وبين السّعاة بالنميمة، ولها أثرها السيء فى إلصاق تُهَمٍ بالأبرياء، ولها مَغَبّتُها الضارة فى بذو بذور الكراهية والبغضاء، بين الملوك والزعماء .

وقد بينا لك أن الأمان الذى كتبه الرشيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاءَ والقضاةَ وزعماءَ الشّعب . وقد يكون من المفيد فى تصوير ناحية من نواحى العصر أن نذكر

لك هنا نصيب هـذا الأمان وحظه من بعض الفقهاء ، فى الفُتيا بنقضـه وآخرين بالوفاء له . وندع لأبى خطابٍ أحدِ المعاصرين الكلمةَ قال : إن جعفرَ بن خالد حدّثه ليلةً وهو فى سَمَرِه قال : دعا الرشيدُ اليومَ يحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حضره أبو البَخترى القاضى ، ومحـمد بن الحسن الفقيـه صاحب أبى يوسف ، وأحضر الأمان الذى كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول فى هـذا الأمانِ أصحيح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجّه فى ذلك الرشيـدُ ، فقال له محمـدُ بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنـا ! فاحتملها الرشيـدُ على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا البخترى أن ينظرَ فى الأمان ، فقال أبو البخترى : هذا الأمان مُنتَقَضٌ من وجه كذا وكذا ! فقال الرشيـدُ : أنتَ قاضى القضاةِ وأنتَ أعلمُ بذلك ! ومزّقَ الأمانَ وتفل فيه أبو البخترى ! !

ولك أن تُعَلّقَ ما شئت على تصرّف أبى البَخترى ، الفقيه الدينى ، الذى أصبح بفتياه تلك قاضىَ القضاة ، ولك أن تستنبطَ ما أحببت فى موقفه ومرونته حين مزّقَ الأمانَ ، ولم تزد قيمته فى نظره على "قصاصات الورق" حتى تفل فيه . ولك أن تقول ما أردتَ فى موقف زميله محمـد بن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف وعدم ترخصـه أو جموده . أمّا نحن فإنّا لا نعدو خُطّتَنَا التى رسمناها لأنفسنا ، فى مثل هذه المواقف ، من التزام الحيدة التـامة وعدم الزج بأنفسنا فى المزالق الخطرة ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى بالنميمة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله الساعُونَ ، وكلّما رق الرشيدُ له أثاروا فى نفسه السخيمةَ عليه ، فقد ذكروا أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن لنا قرابةً ورحمًا ولسنا بتُرك ولا دَيْلَم ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأنتم أهلُ بيتٍ واحدٍ ، فأذكّرك الله قرابتَنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عَلَامَ تحبِسُنى وتُعذّبنى ! قال : فرقّ له هارون ، ولكنّ الزبيرى — وكان حاكما للمدينة أيامَ الرشيد ، وهو يعد من الأحزاب المعادية للعلويين واشتهر بشدّة البغض لهم ، وكان حاضرا مجلسَهما — أقبل على الرشيد فقال : «يا أمير المؤمنين لا يغرّنك كلام هذا ، فإنه شاقّ عاصٍ ، وإنما هذا منه مكرٌ وخُبثٌ ، إنّ هذا أفسدَ علينا مدينتَنا ، وأظهر

فيها العصيانَ؛ قال : فأقبل يحيى عليه، فوالله ما استأذن أميرَ المؤمنين فى الكلام حتى قال : أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أنتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه قدامك ، فكيف إذا غاب عنك! يقول : ومن أنتم استخفافا بنا؛ قال : فأقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن أنتم عافاكم الله! المدينةُ كانت مُهَاجَرَ عبد الله بن الزبير أم مُهَاجَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ومن أنت حتى تقول : أفسد علينا مدينتنا! وإنما بآبائى وآباء هذا هاجر أبوك الى المدينة . ثم قال : «يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم ، فان خرجنا عليكم قلنا : أكلتم وأجعتمونا ولبستم وأعريتمونا وركبتم وأرجَلْتمونا ، فوجدنا بذلك مقالًا فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالًا فينا ، فتكافأ فيه القولُ ، ويعودُ أمير المؤمنين على أهله بالفضل ، يا أمير المؤمنين فَلِمَ يجترئُ هذا وضُرَباؤه على أهل بيتك يسعى بهم عندك! إنه والله ما يسعى بنا اليك نصيحةً منه لك ، وإنما يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحةٍ منه لنا ، إنما يريد أن يباعد بيننا ، ويَشتفىَ من بعضٍ ببعض ، والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الىّ هذا حين قُتِلَ أخى محمدُ بن عبد الله فقال : لعن اللهُ قاتلَه ! وأنشدَنى فيه مرثيةً قالها نحوا من عشرين بيتا ، وقال : إن تحركتَ فى هذا الأمر فانا أول مَنْ يبايعك ، وما يمنعكَ أن تلحق بالبصرة فايدينا مع يدكَ ! فتغيَّرَ وجهُ الزبيرى واسودّ ، فأقبل عليه هارون فقال : « أى شىء يقول هذا؟» قال : كاذب يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف! قال : فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبد الله وقال : تَروى القصيدةَ التى رثاه بها؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أصلحك الله! وأنشدها إياه ، فقال الزبيرى : والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو — حتى أتى على آخر اليمين الغَمُوس — ما كان مما قال شىء ، ولقد يقول علىّ ما لم أقل . قال : فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف فهل من بينة سمعوا هذه المرثيةَ منه؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكن أستحلفه بما أريد ، قال فاستحلفه ، قال : فأقبل على الزبيرى فقال : قل أنا برئٌ من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنتُ قلتُه ، فقال الزبيرى : يا أمير المؤمنين أىّ شىء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذى لا اله إلا هو ويستحلفنى

بشئ لا أدرى ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقًا فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به ! فقال له هارون : احلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى . ويقول الطبرى : إنه اضطرب منها وأرعد، فقال : يا أمير المؤمنين ما أدرى أى شيء هذه اليمين التى يستحلفنى بها وقد حلفتُ له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفنّ له أو لأصدقنّ عليك ولأعاقبنك! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنتُ قلتُه ، قال : فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج فمات من ساعته .

وقد روى المؤرخون العرب فى صدد موت ذلك الزبيرى روايات لا نرى بأسا بإيرادها ، فقد ذكر الفخرى أنه ما انقضى النهار حتى مات ، فحملوه الى القبر وحطّوه فيه وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا الترابَ فيه ذهب الترابُ ولا ينطمّ القبرُ فعلموا أنها آية سماويةٌ ، فسقّفوا القبرَ وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته اذ يقول :

يا جاهدًا فى مساويهم يكتّمها * غدرُ الرشيدِ بيحيى كيف ينكتمُ
ذاق الزبيرىُّ غِبّ الحِنثِ وانكشفتْ * عَنِ ابنِ فاطمةَ الأقوالُ والتُّهمُ

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتِل يحيى فى الحبس شرَّ قتلةٍ . على أن هناك رأيا آخر فى موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكّل به فى الحبس منعه الأكلَ فمات .

ولننظرْ ما يرويه لنا مُعاصِرٌ وهو عباس بن الحسن عما كان من الرشيد بعد ما أصاب الزبيرى مما أجمع رواةُ العرب على إصابته به إثرَ كذبه فى قسمه ، فقد قال : دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال يا عباس بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمدلله الذى صرَعه بلسانه ، ووقاكَ اللهُ يا أمير المؤمنين قطعَ أرحامك ؛ فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحبّ ، ورفع السترَ فدخل يحيى وأنا والله أتبين الارتياعَ فى الشيخ ؛ فلما نظر اليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمتَ أن الله قد قتل عدوّك الجبار ! قال : الحمد لله

الذى أبان لأمير المؤمنين كذب عدوه علىّ ، وأعفاه من قطع رحمه ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريده — فكيف ولست بطالب له ولا مريده — ولم يكن الظفر به إلا بالاستعانة به، ثم لم يبق فى الدنيا غيرى وغيرك وغيره، ما تقويت به عليك أبدا، وهذا والله من إحدى آفاتك — وأشار الى الفضل بن الربيع — والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ثم طمع معى فى زيادة ثمرة لباعك بها ؛ فقال : أما العباسىّ فلا تقل له إلا خيرا وأمر له فى هذا اليوم بمائة ألف دينار، وكان حبسه بعض يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبسه ثلاث حبسات مع هذه الحبسة وأوصل اليه أربعمائة ألف دينار .

*

وبعد، فقد عُنينا بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هـذا الخليفة العباسىّ مع علوىّ من رجالات عصره لنتبين نفسية المعاصرين والولاة، وما انطوت عليه صدورهم من حب لآل علىّ وتوقير لأشخاصهم، ونعتهم بالكرامات والمعجزات . واذا اعتبرت أن هذا كله قد حصل فى عهد خليفة عظيم بسخائه وفواضله، محبوب لمآثره ونوافله، قوىّ فى مملكته، كثير الأنصار فى شيعته، أيقنت أن للحزب العلوىّ أنصارا يعتـدّ بهم، ومكانة فى النفوس يُحْفَلُ بها . وهذا معقول جدا، وإنك لتستسيغه من نفسك وفهمك اذا ذكرت أن أنصار هذه الدولة هم من الفرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى وبنى أمية خاصة من عداء وشجار، ومقت وكراهية، وأنت تعلم أن الدعوة فى بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم، وأن القائمين بها كانوا من الفرس، فمن المعقول أن تُشرب قلوبهم حب هذه الدعوة وأفراد هذه الدعوة، والتغنّى بمذهب هذه الدعوة، منذ الساعة الأولى، ولا يزيد مرور الزمان كلّ دعوة أو مذهب حزبىّ إلا قوة وانتشارا وكثرة أنصار ورسوخ عقيدة . فلنلاحظ ذلك جيدا، فإنه قد يفيدنا فى تعليل بعض أفعال البرامكة .

ولنرجع الى التحدث معك باختصار عن بقية الحوادث الداخلية فى عصر الرشيد، ولنقسم القول الى ناحيتين : أولاهما ثورات ناتجة عن العصبية، وثانيتهما فتوق وثورات فى شتى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين النزارية واليمنية وغيرهما ، فإن ابنَ جرير الطبريّ يحدثنا أن قد وقع هياج فى الشأم سنة ست وسبعين ومائة بين النزارية واليمنية ، ورأسُ النزارية يومئذ أبُو الهيذامِ ، فولى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خالد ، وضم اليـه القوادَ والأجنادَ ومشايخَ الكتّاب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنتِ الفتنة .

وأما الثوراتُ الأُخَر فإنا نجد فى أخبار سـنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسنة سبع وثمـانين ومائة ، ما يدلّ على حصول فِتنٍ وحروب من جَرَّاء العصبية أيضا .

ولقد حصلَتْ حروبٌ فى خُراسانَ والطالقانِ وحُورانَ والجزيرة واليمن ومصر وأرمينية وحمص لرافع بن ليث ، وكان النصرُ فى أكثرها حليفَ جيوش الرشيد وولاته .

على أن جُلَّ هذه الثورات ناجمٌ فى الواقع عن اتساع رقعة المملكة ، وسُرعة تبديل الولاة ، وسـوء تصرّف بعض هؤلاء الولاة ، ولا سيما فى جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفـة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

وإنا لنجتزى بما قدّمناه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ السياسة الخارجية :

أما ملخصُ السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمُه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأندلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرةُ المعارف الإسلاميةُ ، فى مبحثها عن الرشيد ، الى أن حروبا بلغت نهاية الشدّة قد وقعت بين الرشـيد والبزنطيين . وقالت : إنّ ولاة الرشيد عملوا منذ بداية عهده على تقوية الحصون التى على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات فى البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ — ٧٩٨م) ، بيد أنه عجّل بعودته ، ثم شبتْ حربٌ فى السنة التالية كالعادة ، واذ كانت الأمبراطورة إيرين كانت تعانى متاعبَ داخلية فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تبوأ الأمبراطور نيقفور أريكته سنة ١٨٦ ﻫ (٨٠٢م) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مُهِينٍ طلب فيه أن يُعِيدَ اليه الجزية التى أُدِّيتْ من قبل ، فلم يَحْفِل الخليفةُ بشروط الصلح فعادت الحروبُ .

وفى سنة ١٩٠ ﻫ (٨٠٦ م) استولى هارون على "هِرَقْلَة" واضطر الأمبراطور الى أن يدفعَ جزيةً جديدةً ، عن نفسه وعن أسرته ، فوق الجزية العامة . وفى السنة التالية هوم البزنطيون يزيدَ بن مقلد ، وكانت أغلاطُ هرثمة معهم مماثلةً لأغلاط « ابن مقلد » .

ويقول بعض المؤرخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بشَرْلمان ، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيرا عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك فى المراجع العربية ، وإنه لَيُشَكُّ كثيرا فى صحة هذه الرواية . وأما علاقته بالأُمويينَ فى الأندلس ، فلم يكن مرجوا أن تكون علاقة صفاء ومودّة ، فقد كان العباسيون يعدّونهم خارجين على سلطانهم ، ولا يَرَوْنَ فى دولتهم نظيرا يستحق أن يعيش وإياهم فى سلام وهدوء .

وقد ظهرت أيام الرشيد دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « فخ » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، فسار الى مصر وشخص منها الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفَّ حوله برابرةُ أورُبَّةَ ، فأنشأ هناك أوّلَ خلافةٍ للعلويين وهى دولة الأدارسة .

وظهرت كذلك أيام الرشيد دولةُ الأغالبة فى إفريقية ، فإنه ولّاها إبراهيمَ بنَ الأغلب التميمى ، ليجعل من مملكته حاجزا منيعا بين الخلافة العباسية والأدارسةِ الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، فعظُمَ أمرُه ، وصار كملك مستقلّ ، إلا أنه كان يخطب للرشيد .

٣ – التكلم عن البيعة

والآن نتحدث اليك عن أكبر أغلاط الرشيد، وأبعدها أثرا فى حياته وفى الدولة العباسية، بل فى حياة المسلمين السياسية بوجه عام، وهى بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأمين والمأمون والقاسم .

وقد قدمنا لك فى الكتاب الأول رأينا فى هذا النوع من احتياط الخلفاء لأنفسهم ولأبنائهم، وما كان له من الأثر السيئ فى حياة القصور خاصة وفى السياسة عامة، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثر من واحد، فقد كان ذلك ينشئ بطانات مختلفة، ويكوّن أحزابا لا تلتف حول مبدإ أو فكرة وإنما تلتف حول الأشخاص والمنافع التى تُنتَظرُ منهم .

وهذه البطاناتُ والأحزاب، تتنافس فى القصر، فتُفسِدُ على الخليفة والأمراء حياتهم الخاصّة، **وتقطعُ ما بينهم من صِلات** كان يجب أن تُرعَى حرمتُها . كما أنها تتنافس خارج القصر، فتُفسِدُ على الدولة سياستَها العامّة فتصرفُها عن مرافقها الداخلية، كما تَصرِفُها **عن** الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهابتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سُنَّةٌ أُمويّةٌ، آتت ثمرها الخبيث، وجرّتْ على الأمويين أنواعَ الوبال فمزّقتهم وأضاعتْ ملكهم، كما قدمنا، وكان المعقول أن يستفيد العباسيون من هذا الدرس، ويُعرضوا عن سنّةٍ منكَرةٍ فى نفسها، وقد سنّها أعداؤهم السياسيون – مع هذا كله تورّط الرشيدُ فيما تورّط فيه عبدُ الملك، وخلفاء عبد الملك، وتعرَّضتِ الدولةُ العباسيةُ لِما تعرّضت له الدولةُ الاموية، بل كان خطرُ هذه السُنّةِ على العرب أيام بنى العباس أشدَّ منه أيامَ بنى أمية . ذلك أن سقوطَ الدولة الأموية قد نقلَ السلطانَ من أُسْرةٍ الى أُسْرةٍ واحتُفِظَ به لقريش . فأما أثرهذه السنة أيام بنى العباس فهو نقلُ السلطان الفعلىّ من العرب الى الفرس ثم الى التُّرك، وجعلُ الخلافة نوعا من العبث والسخرية فى أيدى المتغلبين من القوّاد والخدم والرقيق .

ومهما نلتمس الأسبابَ لتورّط الرشيد فى هـذه السُّنة التى كان يجب أن يتجنبها فلن نستطيعَ أن نُهمِلَ سببين أساسيين : أحدهما تأثر القصر العباسىّ بسننِ الملك الفارسىّ القديم وسياسته. والآخر تأثر الخلفاء بما كان للنساء، حرائرهن و إمائهن، من سلطان ونفوذ. فلولا هـذان السببان لما تورّط الرشيدُ فى هذه السنّة التى تورّط فيها أبوه المهدىّ، وذاق هو غيرَ قليلٍ من ثمرها .

ستقول : ولكن الرشيد احتاط، فأخذ على أبنائه العهودَ والمواثيقَ أن يفى بعضُهم لبعض، ويبرّ بعضُهم ببعض . ولكن ما قيمةُ هذا الاحتياط أمام سَطوةِ الملك وسلطانه ، ومطامع الإنسان التى لا حدّ لها؟ وما قيمةُ هذه العهودِ والمواثيقِ وقد أثبت التاريخُ فى جلّ مراحله أنها لا تُعتبر عهودا ومواثيقَ إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد، أما الأقوياء وذوى السلطان والبطش فهى عندهم ليست بعهودٍ ولا مواثيق، إنما هى «قُصَاصَاتُ وَرَق» لا أكثر ولا أقلّ ، وقد يُفْتَى بأنها « قصاصات ورق » أولئك الذين وكّدوها وشهدوا على صحتها، وتضامنوا فى البرّ بها والوفاء لأصحابها !

وقد كان الخلفاء قبل الرشيد يحتاطون لكل بيعة فيها أخذٌ للعهود والمواثيق . ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياطُ أيامَ بنى أمية ولا أيامَ بنى العباس .

و إليك الآن أحاديثَ المؤرّخين من العرب وغير العرب فى هذا الموضوع :

لما لاحظ الفضلُ بن يحيى سنة خمس وسبعين ومائة أنّ جماعةً من بنى العباس قد مدّوا أعناقَهم الى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولىُّ عهد، أجمعَ على البيعة لمحمد، ولما صار الفضل بن يحيى الى خراسان فرّق فى أهلها أموالا وأعطى الجندَ أعطيات متتابعات، ثم أظهر البيعةَ لمحمد بن الرشيد، فبايع الناسُ له وسماه الأمينَ . وفى ذلك يقول النمرىّ :

أمسى بمرو على التوفيق قد صَفَقَتْ * على يد الفضل أيدى العُجْم والعَرب
ببيعة لولىّ العهد أحكمَها * بالنصح منه و بالإشفاق والحدَب
قد وكّد الفضلُ عَقْدًا لا انتقاضَ له * لمصطفًى من بنى العباس مُنتخَب

ولـما تناهى الخبر الى الرشيد بذلك وبايع له أهلُ المشرق بايع، وكتب الى الآفاق فبُويع له فى جميع الأمصار . فقال أبانُ اللاحقيّ فى ذلك :

عَزَمْتَ أميرَ المؤمنين على الرشد * برأى هـدًى فالحمد لله ذى الحمد

ويقول لنا اليعقوبيّ فى هـذا الصدد : إن هارون بايع لابنـه محمد بالعهد من بعـده سنة ١٧٥ هـ ومحمد آبن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّةً، وأخرج محمد الى القوّاد، فوقف على وسادةٍ فحمدَ الله وصلّى على نبيـه، وقام عبدُ الصمد بن على ، فقال : أيها الناسُ لا يغرنكم صِـغَرُ السنّ ، فإنها الشجرةُ المباركةُ أصلُهـا ثابت وفرعُها فى السماء . وجعل الرجل من بنى هاشم يقول فى ذلك حتى انقضى المجلس، ونُثِرَتْ عليهم الدراهمُ والدنانيرُ وفأرُ المسك وبيضُ العنبر .

ويقول لنا الطبريّ فى حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان انصرافُ الرشيد من مكة، ومسيرُه الى الرقّة، وبيعته بها لابنه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأخذ البيعةَ له على الجند بذلك بالرقة، وضمُّه إياه الى جعفر بن يحيى وأنه قد بويع له بمدينة السلام حين قدمها ، وولاه أبوه خراسانَ وما يتصـل بها الى همـذان ، وسماه المأمونَ . وقد قال فى ذلك سَلْمُ بنُ عمرو الخاسِرُ :

بايع هارونُ إمامُ الهـدى * لِذِى الحجا والخُلُق الفاضل
المخلِف المتلِف أمـوالَه * والضامن الأثقال للحامل
والعـالِم الناقد فى علمـه * والحاكم الفاضـل والعادل
والراتق الفاتق حِلف الهدى * والقـائل الصادق والفاعل
لخير عباس اذا حصّـلوا * والمُفضِلِ المجدى على العائل
أبرّهم بـرّا وأولاهـم * بالعُرف عند الحَدَث النازل
لمشـبِه المنصور فى مُلكه * اذا تدجّتْ ظلمةُ الباطـل
فتم بالمأمون نورُ الهـدى * وانكشف الجهلُ عن الجاهل

وفى سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لأبنه القاسم بعد المأمون ، وجعل أمر القاسم فى خلعه و إقراره الى عبد الله إن أفضت الخلافةُ اليه .

وأراد الرشيدُ أن يُوثِّقَ الأمر بين بنيه فى ولاية العهد، حتى يَسُدَّ دونهم بابَ الفتنة، فرأى أن خير وسيلة لذلك هى ما يحدّثنا عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمـد وعبد الله معه وقوّاده ووزراؤه وقضاتُه فى سنة ١٨٦هـ، وخلف بالرّقة إبراهيمَ بن عثمان بن نهيك العكى على الحرم والخزائن والأموال والعسكر، وأشخص القاسمَ ابنه الى مَنْبِج، فأنزله إياها بمن ضَمَّ اليه من القوّاد والجند، فلما قضى مناسِكَه، كتب لعبد الله المأمون ابنــه كتابين جهدَ الفقهاءُ والقضاةُ آراءهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بمـا فيه من تسليم ما وَلِىَ عبـدُ الله من الأعمال وصيرَ اليه من الضّياع والغلّاتِ والجواهرِ والأموال . والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامةِ والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين فى البيت الحرام، و بعد أخذه البيعةَ على محمد و إشهادِه عليه بها اللهَ وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقوّاده و وزرائه وكتّابه وغيرهم، وكانت الشهادةُ بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام، وتقـدّم الى الحجبة فى حفظهما ومنع مَنْ أراد إخراجَهما والذهابَ بهما ؛ فذكر عبد الله بن محمد ومحمـد بن يزيد التيمىّ و إبراهيم الحجبىّ : أن الرشيد حضر وأحضر وجوهَ بنى هاشم والقـوّاد والفقهاء وأُدْخِلوا البيتَ الحرامَ وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهدَ عليهـما جماعةَ مَنْ حَضَر، ثم رأى أن يُعلَّقَ الكتابُ فى الكعبة . فلما رُفع ليُعلَّقَ وَقع فقيل : إن هذا الأمر سريعٌ انتقاضُه قليل تمامه . وقد أثبتنا الكتابين، لعظيم خطرهما التاريخىّ، فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

و بعـد، فإن لعصر الرشيدِ مكانَتَه وقدْره، فقد ازدهرت فيه الحضارةُ الإسلاميةُ أيما آزدهارٍ، وظهرت فيه آثارُ تحوّل المدنيةِ فى العصور التى سبقته، كما أثّر هو فى العصور التى تلته . ولقد صدق صاحب «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبى على صالح بن محمد الحافظ،

قال : «اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكةُ، وقاضيه أبو يوسفَ، وشاعرُه مروانُ بن أبى خفصة، ونديمُهُ العباسُ بن محمد عم أبيه، وحاجبُه الفضلُ بن الربيع أنبهُ الناس وأعظمُهم، ومُغنّيه إبراهيم الموصلىّ، وزوجتُه زبيدةُ بنتُ عمّه جعفر» .

وإنا لنختِم مبحثنا فى حياة الرشيد وعصره، بكلمة تبين وجهةَ نظر مؤرّخ كبير المكانةِ فى الشرقيات وهو الأستاذ «ميور»، ونتقدّم بملاحظة واحدة وهى شدّته على هارونَ الرشيد. وقد يكون الذى دفعه الى ذلك تأثُّره بمرجعه العظيم الذى وضعه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسُه بأنّ «ويل» كان بالغًا فى قسوته على هارون مبلغا عظيما على نقيض ما عُهد فيه من الحَيدة والهدوء فى أحكامه، فقد اعتبره من الظلم فى الذّروة، ولم يكن الرشيد من الرداءة بمبلغ من سبقه ومن أتى بعده . ويظهر أن الفاجعةَ البرمكيةَ هى التى أعطته هذه الأسبقيةَ التى لا يُغبَطُ عليها فى حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الرّدَّ على الأستاذ «ويل» فى حاشية كتابه، أن كتابته عن الرشيد، مع حظها العظيم من المتانة والإنصاف، لا تزال عليها غِلالةٌ من صرامة «ويل» وقواذع نقده .

نترجم لك رأى «ميور»، لأنه يكاد يكونُ صورةً صحيحة للرأى العلمىّ الأخير فى الرشيد، فهو لا يعدو الرأىَ الذى أبداه الأستاذ ك . ف . «زتوستين» فى العدد الثانى والعشرين من دائرة المعارف الإسلامية . ونحن جدُّ عالمينَ بخطر المراجع العديدة التى استند عليها «زتوستين» فى رأيه فى الرشيد . فلننقل لك الآن كلمة «ميور» فهى مثلُ الأخرى إن لم تكن أوسعَ وأبلغَ .

قال الأستاذ «ميور» فى كتابه عن الخلافة : "إن مكانةَ هارون الرشيد وٱبنه المأمون فى التاريخ لهى أسمى مكانةٍ بلغها الخلفاء العباسيون، وإن هارون لَقمينٌ بأن يكون فى الذّروة مع الخِيرة من أفاضل ملوك أُسرة بنى أمية، لولا شائبةُ القساوة المنطوية على الختل التى وصمَتْ سيرته جمعاء .

لقد كان الرشـيدُ فى قصوره محوطًا بضروب الرفاهيـةِ والرَّغد، وكان مَلِكًا فى مكارمه وجُوده، ومع ذلك قد ترك فى أعقـابه خزائنَ عامرةً بلغت تسعمائة مليون، جُمعَت بوسائل العَسف وعدم التدقيق . واذا استثنينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلةً موفَّقةً .

ولما كان الرشيد قد اعتاد منذ مَيْعَةِ شبابه الحياةَ الحربيَّـةَ فإنه كثيرًا ما شاطر جندَه مَيدان القتال . وقد كان من جَرَّاء انتصاراته العديدة، لا سيما على اليونان (الروم)، أن طُبِعَ عصرُه بطابعَ المجدِ والصِّيتِ .

ولم يُظْهِرْ خليفةٌ، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاطِ فى مختلف حركاته، سواء أ كانت فى سبيل الحج أم الإدارة أم الحرب .

على أن أصـل شهرةِ هذا الخليفةِ، ومصدرَ صِيته، راجعٌ الى أن حكمَه عجَّلَ بدخول عصر الآداب، فقد كان قصرُه المثابةَ التى يُهْرَع اليها الحكماءُ والعلماءُ من أنحاء العالم، وكانت سُوقُ البلاغةِ والشـعر والتاريخ والفقهِ والطب والموسيقى والفنون نافقةً، إذ يقابلها الخليفةُ مقابلةَ من فى سجيته النبلُ والكرم، كل ذلك مما آتى أُكُلَه وثمرَه الناضجَ فى العصور الآتيـــة .

لقد كان الرشيد يُجيز العلمـاءَ فى كل فنٍّ جائزاتٍ ملكيةً نبيلةً، على أن الشـعراء كانوا موضعَ كرمه الخاص . وهاك مثلًا ما أجاز به مروانَ بن أبى حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشـيدُ بكيس فيه خمسـة آلاف دينار وكساه خلعتَـه تشريفًا له، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برْذَونٍ من خاصّ مراكبه . اهـ

٤ — الدولة البرمكية والنكبة البرمكية

صدق الفخرى إذ يقول : إنّ دولةَ البرامكة كانت غُرَّةً فى جبهةِ الدهر، وتاجًا على مَفْرق العصر، ضُرِبَتْ بمكارمها الأمثالُ، وشُدَّتْ اليها الرحالُ، ونِيطَتْ بها الآمالُ، وبذلَتْ

لها الدنيـا أفلاذَ أكبادها، ومنحتْها أوفرَ إسعادها، فكان يحيى وبنـوه كالنجوم زاهرةً، والبحور زاخرةً، والسيول دافعةً، والغيوث ماطرةً، أسواقُ الاداب عندهم نافقةً، ومراتبُ ذوى الحرمات عنـدهم عاليةً، والدنيا فى أيامهم عامرةً، وأُبّهةُ المملكة ظاهرةً، وهم ملجأُ اللّهيف ومعتصمُ الطريد، ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا اذا ما فقدتُمُ * بنى برمكٍ من رائحين وغاد

ويؤخذ من المباحث التاريخيـة الحديثة للمستشرقين : أن البرامكةَ هم أسرةٌ فارسـيّةٌ أنجبت أوّلَ الوزراء الفرس للخلافة . وليست لفظةُ برمك باسم لشخص ، وإنما تدل على رتبة وراثيّةٍ خاصة برئيس الكهّان بمعبد «نوبهار» ببلخ . وكانت البرامكةُ تملك الأراضىَ التابعة للمعبد، ويبلغ طولها ثمانيةَ فراسخ وعرضها أربعةً، فكانت مساحتُها أربعينَ وسبعمائة ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكاتُ أو بعضها فى حَوْزة البرامكة فى الأيام التالية . ويقول ياقوت : إنّ قرية « روان » — الكبيرة الغنيـة — وهى شرق بلخ كانت فى حَوْزةِ يحيى ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسنسكريتية : الدير الجـديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذىّ . وقد وُصِفَ كذلك بوساطة حاج صينىّ اسمه «هوان شانج» فى القرن السابع للمسيح فى كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية « ستت جوليان » . على أن هذا المعبد كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة جوج ص ٣٢٢) إذ قرر أن النوبهار كانتْ مخصصةً لعبادة الأوثان لا النـار . واذا تركنا جانبًا بعض المبالغات فى وصف ابن الفقيه، فإنا نجد وصفَه مطابقًا للبوذية .

فلنلاحظ هـذه العبادةَ لأقطابٍ من زعمـاء الفرس لعبوا دورا هاما فى التـاريخ العباسىّ . ولنلاحظها جيدا، فربما أفادتنا فى إماطة اللّثام قليلا عن عبادات لفئات عديدة اعتُبرتْ زنادقةً أو مانيةً أو ملحدين . ومهما كانت هذه الفئاتُ موضعَ اضطهادٍ من خلفاء العصر، فإنه من المبالغـة الكتابية التى لا تُرضى العلمَ ولا التاريخَ فى شىء، ألا يُحفل بها

أو لا يشار اليها إشارةً طفيفـةً، اذا لم يكن لدينا من المواد ما يسمح لنا بأن نُفرِدَ لدراستها باباً، كما حفل بها الخلفاء فأفردوا لها إدارةً أسمَوا رئيسها «صاحب الزنادقة» .

ولعل أول ذكرٍ لبرمكيّ حفل به التاريخُ واعتبره مؤسّساً لتلك الأسرة البرمكية التى نبغت فى تلك الأيام الزاهيةِ الزاهرةِ والتى امتدّت الى أن انقضت فى أيام الرشيد، ونُظِرَ اليه باعتباره جدّ البرامكة، هو خالد بن برمك الذى استوزره السفاح بعد أبى سلمة الخلال وأبى الجهم . كان خالد بن برمك من رجالات الدولةِ العباسيةِ، فاضلاً جليلا كريما حازما يقظاً، استوزره السفاحُ وخفّ على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل : إن كل من استُوزِرَ بعد أبى سلمة كان يَتَجَنَّبُ أن يسمى وزيرا، تطيّراً ممـا جرى على أبى سلمة، ولقول من قال :

إنّ الوزيرَ وزيرَ آل محمـدٍ ٭ أودى فمن يَشناكَ كان وزيرا

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عملَ الوزراء ولا يسمى وزيرا . كان خالدٌ عظيمَ المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوما : ياخالد مارضيتَ حتى استخدمتَنى؛ ففزع خالد وقال : كيف ياأمير المؤمنين وأنا عبدُك وخادمُك ! فضحك وقال : إن رَيْطةَ ابنتى، تنام مع ابنتك فى مكانٍ واحدٍ، فأقوم بالليـل فأجدهما قد سرحَ الغطاءُ عنهما، فأردّه عليهما؛ فقبّل خالد يده وقال : مولًى يكتسب الأجرَ فى عبده وأمَته .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشـعراء، وانتجعه النـاسُ . وكان الوافدون يسمون سُؤّالاً، فقال خالد : إنى أستقبح هذا الاسمَ لمثل هؤلاء وفيهم الأشرافُ والأكابرُ، فسماهم الزوّارَ، وكان خالد أوّلَ من سماهم بذلك؛ فقـال له بعضُهم : والله ما ندرى أىّ أياديك عندنا أجلّ، أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه بشّارُ بن بُرد فقال فيه :

لعَمْرِى لقد أجدَى علىّ ابنُ برمكٍ ٭ وما كل من كان الغنى عنده يُجدى
حلبتُ بشـعرى راحتَيـهِ فدرّتا ٭ سَمـاحًا كما درّ السحابُ مع الرعد
اذا جئتَـــه للحمد أشرقَ وجهُه ٭ اليـك وأعطاك الكرامةَ بالحمـــد

له نِعَـمٌ في القـوم لا يستثيبها ۝ جزاءً وكيلَ التاجرِ المُدَّ بالمدّ
مُفيـدٌ ومتـلافٌ سبيل تراثهِ ۝ اذا ما غدا أو راح كالجَـزْرِ والمدّ
أخالدُ إنّ الحمدَ يبقى لأهـله ۝ جمالا ولا تبقى الكنوزُ على الكدّ
فأطعِم وكُلْ من عارة مستـردّةٍ ۝ ولا تُبقهـا إنّ العوارىَ للـردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم . وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وفادة خمسةَ آلاف درهم ، وأمر خالد أن يُكتَبَ هذان البيتان ، الأخيران ، فى صدر مجلسـه الذى كان يجلس فيه . وقال آبنُه يحيى : آخر ما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

ولقد أشرنا فى كلمتنا عن الهادى الى مبلغ إخلاص يحيى بن خالد البرمكى للرشيـد فى أيام الهادى حينما شرع فى خلع هارونَ من ولاية العهد ، وإن الأخبار التى رواها الطبرى فى سنة سبعين ومائة ناطقةٌ بولاءِ يحيى وصدقِ إخلاصه .

ويجـدُر بنا هنا أن نقتطفَ موقفينِ كمثلٍ لمواقف يحيى مع الهـادى ذَوْدًا عن الرشيد وحقوقِ الرشيـد ، فإنهما يعطياننا صورةً من إخلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما رُوِّعَ به يحيى فى سبيل الرشيد .

ذكر أبو حفص الكرمانى أن محمد بن يحيى البرمكى حدّثه قال : بعث الهادى الى يحيى ليلا فأيس من نفسه وودّع أهله وتحنّط وجدّد ثيابه ولم يشك فى أنه يقتله ، فلما أُدْخِلَ عليه قال : يا يحيى مالى ولك ! قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد الى مولاه إلا طاعتُه ! قال : فلِمَ تدخل بينى وبين أخى تفسده علىّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخلَ بينكما ! إنما صيرنى المهدى معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتَنى بذلك فانتهيتُ الى أمرك ، قال : فما الذى صنع هارون ؟ قال : ما صنع شيئا ولا ذلك فيه ولا عنده ، قال : فسكن غضبُه . وقد كان هارونُ طاب نفسًا بالخلع فقال له يحيى : لا تفعل ، فقال : أليس يُترَكُ لى الهنىءُ والمرىءُ فهما يسعانى وأعيش مع آبنة عمى ،

وكان هارون يجدُ بأم جعفر وجدًا شديدًا، فقال له يحيى : وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألّا يُترَكَ هذا فى يدك حتى يخرجَ أجمع، ومنعه من الإجابة .

وذكر الكرمانى أيضا عن خزيمة بن عبد الله قال : أمر الهادى بحبس يحيى بن خالد، على ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع اليه يحيى رقعة : إن عندى نصيحةً، فدعا به، فقال : يا أمير المؤمنين أَخْلِنى فأخلاه، فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتَ إن كان الأمرُ — أسألُ الله ألّا تَبلُغَهُ وأن يقدّمنا قبله — أتظن أن الناس يُسلّمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحُلُمُ، ويرضَوْن به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ! قال : والله ما أظن ذلك، قال : يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسموَ اليها أهلُكَ وجِلّتُهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرُهم فتخرج من ولد أبيك ! فقال له : نبّهتنى يا يحيى . قال وكان يقول : ما كلمتُ أحدا من الخلفاء كان أعقلَ من موسى . قال وقال له : لو أنّ هـذا الأمر لم يُعقَدْ لأخيـك أما كان ينبغى أن تعقدَه له ! فكيف بأن تحلّ عَقْدَه وقد عقده المهدى له ! ولكن أرى أن تُقِرَّ هـذا الأمرَ يا أمير المؤمنين على حاله، فاذا بلغ جعـفر وبلغ اللهُ به أَتيتهُ بالرشـيد فخلع نفسَه وكان أوّلَ من يُبايعـه ويعطيه صفقة يده، فقال : فقبل الهادى قولَه ورأيه، وأمر بإطلاقه .

ولمـا ولى الرشيد الخلافةَ قلد يحيى بن خالد الوزارةَ، وقال له : قد قلدتك أمرَ الرعية وأخرجتُه من عنقى اليك، فاحكم فى ذلك بمـا ترى من الصواب، واسـتعمِلْ مَنْ رأيتَ، واعزِلْ مَن رأيتَ، وامضِ الأمور على ما ترى . ودفع اليـه خاتَمـه . ففى ذلك يقول ابراهيمُ الموصلى :

ألم تر أن الشمسَ كانت سقيمةً * فلمـا وَلِى هارونُ أشرق نورُهـا
بيمن أمين الله هارون ذى النـدى * فهارونُ واليها ويحيى وزيرُها

وليس فى مقدورنا أن نصوّر شخصية يحيى بن خالد بن برمك بأحسنَ مِنْ إثباتنـا رأيَه فى الأخلاقيات، فقد قيل له : أىّ الأشياء أقلّ؟ قال : قناعةُ ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصـديقٌ كثيرُ الآفات قليلُ الإمتاع، وسـكونُ النفس الى المدح . وقيـل له :

ما الكرم؟ فقال : مَلِكٌ فى زىّ مسكين . وقيل له : ما الجود ؟ فقال : عفوٌ بعد قدرة . وقال مرّة : اذا فتحتَ بينكَ و بين أحد بابا من المعروف فاحذَرْ أن تُغلقه ولو بالكلمة الجميلة . وقال : «أحسنُ جملة الولاة إصابةُ السياسة، ورأسُ إصابة السياسة العملُ بطاعة الله، وفتحُ بابين للرعيــة، أحدهما رأفةٌ ورحمــة وبذل وتحنّن، والآخر غلظةٌ ومباعدةٌ و إمساك ومنع» .

و يروى لنا "ياقوت الرومى" فى "معجمه" عنه : أنه لمـا كان الفضل بن يحيى واليًا على خراسانَ، كتب صاحبُ البريد الى الرشيد كتابا يذكر فيه: أن الفضل تشاغلَ بالصيد واللذات عن النظر فى أمور الرعية ؛ فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب واكتب الى الفضل كتابًا يردعه عن مثل هذا ؛ فمدّ يحيى يده الى دواة الرشيد وكتب الى ابنه على ظهر الكتاب الذى ورد من صاحب البريد :

"حفظك اللهُ يابنىّ وأمتعَ بك . قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنتَ عليه من التشاغل بالصيد ومداومةِ اللذات، عن النظر فى أمور الرعيةِ ما أنكره، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك، فإنه من عاد الى ما يَزِينُه لم يعرفْه أهلُ زمانه إلا به والسلام" وكتب تحته هذه الأبيات :

إنصَبْ نهارا فى طِلاب العلا ۝ وآصبِر على فقــد لقاء الحبيب
حتى اذا الليــلُ بدا مُقبِــلًا ۝ وغاب فيه عنك وجهُ الرقيب
فبـادِر الليــلَ بمـا تشتهى ۝ فإنمـا الليــلُ نهـارُ الأريب
كم من فتًى تحسبه ناسكًا ۝ يستقبل الليــلَ بأمرٍ عجيب
ألقى عليــه الليــلُ أستاره ۝ فباتَ فى لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذةُ الأحمــق مكشوفــةٌ ۝ يسـعى بهـا كلّ عدوٍ مريب

هذا هو يحيى الذى يقول عنه المأمون : «لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحدٌ فى البلاغة والكفايةِ والجودِ والشجاعةِ» . وهــذا هو يحيى الذى كان يُجرِى على سفيان الثورى- رضى

الله عنه ألف درهم فى كل شهر ، فكان اذا صلّى سفيان يقول فى سجوده : « اللهُ إن يحيى كفانى أمرَ دنياى فاكفه أمرَ آخرته » .

هذا، واذا علمت أن أمّ الفضل بن يحيى، وهى زينب بنت منير، كانت ظئرًا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزُرانُ، والدة الرشيد، الفضل بلبان الرشيد، استطعت أن تقدُر الى أىّ مدًى كانت علاقة الرشيد بآل برمك ، وهو لم يدرجْ فى مهده، ولم يفرق بين أمسِه ويومِه .

ونجد فى أخبار سنة ست وسبعين ومائة أن الرشيد ولّى الفضلَ بن يحيى كُوَرَ الجبال وطبرستان ودُنْبَاوَنْد وقومس وأرمينية وأذربيجان، وندبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالبىّ حين خروجه بالديلم ، فوُفّق الفضلُ لأخذ أمانٍ له من الرشيد وأصلح أيّما إصلاح ونجح النجاحَ كلّه فى غزواته وحروبه، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب :

للفضلِ يومُ الطَّالَقَانِ وقبلَه * يومٌ أناخ به على خاقانِ
ما مثلُ يومَيْه اللذينِ تواليا * فى غزوتين توالتا يومانِ
سدَّ الثغورَ وردَّ أُلفةَ هاشمٍ * بعد الشَّتاتِ فشَعْبُها مُتدانِ
عصَمَتْ حكومتُهُ جماعةَ هاشمٍ * من أن يُجرَّدَ بينها سيفانِ
تلك الحكومةُ لا التى عن لَبْسِها * عَظُمَ النبا وتفرّقَ الحكمانِ

فأعطاه الفضلُ مائة ألف درهم وخلَع عليه .

ونجد فى أخبار السنةِ نفسِها أن الفتنة هاجت بالشام بسبب العصبية التى بين النزارية واليمانية، فولى الرشيدُ موسى بنَ يحيى بن خالد الشام، فهرع اليها موسى وأقام بها، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنةُ واستقام أمرُها، فمدحه الشعراءُ. ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشامُ هَيجا * يُشيبُ رأسَ وليدِه
فَصَبَّ موسى عليها * بخيلِه وجنودِه
فدانتِ الشامُ لمّا * أتى نسيجُ وَحيدِه

هـو الجـوادُ الذي بَـذَّ كلَّ جُودٍ بجـوده
أعداه جـودُ أبيـه ۝ يحيى وجـودُ جـدوده
فجـادَ موسى بن يحيى ۝ بطـارفٍ وتليـده
ونال موسى ذُرى المجـ ۝ ـدِ وهو حشوُ مُهوده
خصصتُهُ بمـديحى ۝ منثـوره وقصـيده
من البرامك عُودٌ ۝ له فأكرم بعُـوده
حَوَوْا على الشعر طُرًّا ۝ خفيفـه ومـديده

وقد مدحه بمثل ذلك اسحاقُ بن حسان الخريمىّ .

ويقول الطبرىّ فى أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة : إن الرشيد فوّض أمورَه كلها الى يحيى ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها شخوصَ الفضل بن يحيى الى خراسانَ واليًا عليها ، فأحسن السيرةَ بهـا ، وبنى بها المساجدَ والرباطاتِ ، وغزا ماوراء النهر ، فخرج اليه خاراخره ملك أشروسنة ، وكان ممتنعًا . وقد مدحه مروانُ بن أبى حفصة وغيره بقصائدَ عدةٍ ، وقد ذكر محمد ابنَ العباس أنه سمع مروان يقول : إنه أصاب فى قَدْمَتِه تلك على الفضل سبعَمائةِ ألف درهم .

وقد مدحه سَلْمٌ الخاسرُ فقال :

وكيف تخاف من بؤسٍ بدار ۝ تكنفها البرامكـةُ البحورُ
وقوم منهم الفضل بن يحيى ۝ نفـيرٌ ما يوازنـه نفـيرُ
له يومان يومُ ندًى وبأسٍ ۝ كأنَّ الدهرَ بينهما أسيرُ
اذا ما البرمكى غدا ابنَ عشرٍ ۝ فهمتُـه وزيرٌ أو أمـيرُ

ولننظر الى مكانةِ الفضل وآل برمك من الرشيد ؛ فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبرى يحدّثنا أنه لمـا قدم الفضل بن يحيى من خراسانَ خرج الرشيدُ الى بستان أبى جعفر يستقبله ، ١

وتلقاه بنو هاشم والناسُ من القوّاد والكتّاب والأشراف، فجعل يصل الرجل بألف الألف وخمسمائة الألف . ومدحه مروانُ بن أبي حفصة فقال :

حَمِدنا الذى أدّى ابنَ يحيَى فأصبحتْ ∘ بمقدَمِه تجرى لنا الطّيرُ أسعُدَا
وما هَجَعتْ حتى رأتْـهُ عيونُنـا ∘ وما زلنَ، حتى آبَ، بالدّمع حُشَّدا
نفى عن خُراسانَ العدُوَّ كما نفى ∘ ضُحَى الصبح جِلْبابَ الدجى فتعرّدا
لقد راعَ من أمسى بمَروٍ مسيرُه ∘ إلينا وقالوا شَعبُنا قد تبدّدا
على حينِ ألقَى قُفْلَ كلّ ظلامةٍ ∘ وأطلق بالعفو الأسيرَ المقيَّدا
وأفشَى بلا منٍّ مع العدل فيهم ∘ أيادىَ عُرْفٍ باقياتٍ وعُوَّدا
فأذهبَ رَوْعاتِ المخاوفِ عنهمُ ∘ وأصْدَرَ باغى الأمنِ فيهمْ وأوردَا
وأجدَى على الأيتام فيهم بعُرْفِهِ ∘ فكان من الآباء أحنَى وأعودَا
اذا الناسُ راموا غايةَ الفضل فى النّدَى ∘ وفى البأسِ ألفَوْها من النّجم أبعدَا
سَما صاعدًا بالفضل يحيىٰ وخالدٌ ∘ إلى كلّ أمرٍ كان أسنَى وأمجدَا
يَلِينُ لِمَن أعطَى الخليفةَ طاعةً ∘ ويُسقِى دَمَ العاصى الحُسامَ المهنّدا
وَشدَّ القُوَى من بَيْعةِ المصطفى الذى ∘ على فضله عَهْدَ الخليفةِ قلّدا
سَمىَّ النّبىّ الفاتحِ الخاتمِ الذى ∘ به اللهُ أعطى كلَّ خيرٍ وسَدَّدا
أبحْتَ جِبالَ الكابُلىّ ولم تَدَعْ ∘ بهنَّ لنيران الضّلالة مُوقِدا
فأطْلَعْتَها خَيلًا وطئنَ جموعَهُ ∘ قتيلًا ومأسورًا وفَلًّا مُشرَّدا
وعادَت على ابنِ البَرْمِ نُعاكَ بعدما ∘ تَحوَّبَ مخذولًا يرى الموتَ مُفردا

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة، هاجت العصبيةُ بالشام، وتفاقمَ أمرها، واغتمّ الرشيد بذلك، فعقد لجعفر بن يحيى على الشام، وقال له : إما أن تخرج أنتَ أو أخرجَ أنا ؛ فقال له جعفر : بل أَقِيكَ بنفسى . وشخصَ اليهم جعفر فى جلّة القوّادِ والكُراع والسلاح،

فأصلح بينهم، وقتل زواقيلهمَ والمتلصِّصةَ منهم، فعادوا الى الأمن والطمأنينة، وأطفأ تلك الثائرة . وقد مدحه منصور النمرى بقصيدة مطلعها :

لقد أُوقِدَتْ بالشام نيرانُ فتنةٍ * فهذا أوانُ الشام تُخمَدُ نارُها
اذا جاش موجُ البحر من آل برمكٍ * عليها خبَتْ شُهبانُها وشرارُها

ولما عاد جعفر موفَّقًا من سفرته هذه، وقد استخلف على الشام مكانه عيسى بن العكى، دخل على الرشيد فزاده إكراما و إجلالا .

وانا لننقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد، حين مَثَلَ بين يديه، لأنه يُعتبر أثرا قيِّماً من ناحيةِ تحليلِ نفسيّة الطرفين، ولرَوعته و بلاغته فى أدب العصر، ولأنه فى الوقت نفسه بمثابة نصّ تاريخىّ للعصر الذى ندرُسه .

قال الطبرى : لما دخل جعفر على الرشيد قَبَّلَ يديه و رجليه، ثم مَثَلَ بين يديه فقال : الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنَسَ وحشتى ، وأجاب دعوتى ، ورحِم تضرّعى، وأنسأ فى أجلى حتى أرانى وجهَ سيدى ، وأكرمنى بقربه، وامتنَّ علىّ بتقبيل يده ، وردّنى الى خدمته، فوالله إن كنتُ لأذكر غيبتى عنه ومخرجى، والمقاديرَ التى أزعجتنى، فأعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتنى، وخطايا أحاطت بى، ولو طال مُقامى عنكَ يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك، لخفتُ أن يذهب عقلى، إشفاقًا على قربك، وأسفًا على فراقك، وأن يُعجّلَ بى عن إذنك الاشتياقُ الى رؤيتك . والحمد لله الذى عصمنى فى حال الغيبة، وأمتعنى بالعافية، وعرّفنى الإجابةَ، ومسّكنى بالطاعة، وحال بينى و بين استعمال المعصيةِ، فلم أشخَصْ إلا عن رأيك ، ولم أقدُم إلا عن إذنك وأمرِك ، ولم يخترمنى أجلٌ دونك، والله يا أمير المؤمنين، فلا أعظمَ من اليمين بالله،لقد عاينتُ فلو تُعرَضُ لى الدنيا كلّها ، لاخترت عليها قربَكَ ولما رأيتها عوضًا من المُقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلام فى هذا المقام : إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليك فى خلافتك ، بقدر ما يعلم من نيّتك، ويُريكَ فى رعيتك، غايةَ

(١) الزواقيل : هم اللصوص، كما فى القاموس وشرحه فى مادة «زقل» .

أمتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلم شعثهم، حفظاً لك فيهم، ورحمة لهم، وإنما هذا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بحبل مرضاتك. والله المحمودُ على ذلك، وهو مستحقه. وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كور الشام وهم منقادون لأمرك، نادمون على ما فرّط من معصيتهم لك، متمسكون بحبلك، نازلون على حكمك، طالبون لعفوك، واثقون بحلمك، مؤملون فضلك، آمنون بادرتك، حالُهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم. وعفوُ أمير المؤمنين عنهم، وتغمّده لهم سابقُ لمعذرتهم، وصلةُ أمير المؤمنين لهم وعطفُه عليهم متقدمٌ عنده لمسألتهم. وأيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم، وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مُرّاقهم وأصلح دهماءهم وأولاني الجميلَ فيهم ورزقني الانتصارَ منهم، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتخوفهم منك ورجائهم لك. والله يا أمير المؤمنين ما تقدّمتُ اليهم إلا بوصيتك، وما عاملتُهم إلا بأمرك، ولا سرتُ فيهم إلا على حدّ ما مثّلته لي ورسمته، ووقفتني عليه. ووالله ما انقادوا إلا لدعوتك وتوحُّد الله بالصنع لك، وتخوّفهم من سطوتك. وما كان الذي كان مني، وإن كنتُ قد بذلتُ جهدي وبلغتُ مجهودي، قاضياً ببعض حقك عليّ، بل ما ازدادت نعمتُك عليّ عظماً إلا ازددتُ عن شكرك عجزاً وضعفاً. وما خلق الله أحداً من رعيتك، أبعدَ من أن يَطمعَ نفسَه في قضاء حقك مني، وما ذلك إلا أن أكون باذلاً مُهجتي في طاعتك، وكلّ ما يقرّب الى موافقتك؛ ولكني أعرف من أياديكَ عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري، فكيف بشكري وقد أصبحتُ واحدَ أهل دهري فيما صنعته فيّ وبي! أم كيف بشكري وإنما أقوى على شكرك بإكرامك إياي! وكيف بشكري ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدي! وكيف بشكري وأنت كهفي دونَ كل كهف لي: أو كيف بشكري وأنت لا ترضى لي ما أرضاه لي! وكيف بشكري وأنت تجدّد من نعمتك عندي ما يستغرقُ كل ما سلف عندك لي! أم كيف بشكري وأنت تُنسيني ما تقدّم من إحسانك بما تُجدّدُه لي!

أم كيف بشكرى وأنت تُقدّمنى بطَولكِ على جميع أكفائى ! أم كيف بشكرى وأنت وليّ ! أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى ! وأنا أسأل الله ، الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاقٍ له ، إذ كان الشكر مُقَصِّرًا عن تأدية بعضه ، بل دون شقص من عُشر عشيره ، أن يتولى مكافأتك عنى ، بما هو أوسع له وأقدر عليه ، وأن يقضى عنّى حقك وجليلَ منتك ، فإن ذلك بيده وهو القادر عليه" .

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة نفسِها ولّى الرشيدُ جعفرَ بن يحيي الحَرَس . وهكذا تجد فى أخبار كلّ سنة نبأً عن آل برمكٍ ، وتمداحًا لآل برمك وأثرًا جليلًا فى خدمة الدولة من آل برمك ، ومكانةً سامية تبوّأها آلُ برمك من الرشيد .

وإنا لا نرى ندحة من إيراد واقعة حال رواها الفخرى بين جعفر بن يحيي البرمكى وعبد الملك بن صالح الذى سعى به كاتبه قمامةُ وابنُه عبد الرحمن عند الرشيد بتهمةِ طلبه الخلافةَ لنفسه ، حتى حبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع ، وهو منافسٌ لآل برمك ، وكثيرًا ما سعى الساعون بين صالح والرشيد . فاذا ما تعرّض البرمكيون بالخير لرجل من كبار رجالات الدولة ، المتهمين بالتطلّع الى الخلافة ، واذا ما نجح البرمكيون فى إيصال الخير لهم ، وفى إرضاء قلب الرشيد عليهم ، كان فى ذلك أصدقُ دليلٍ على مكانتهم الرفيعةِ من الرشيد ، فما بالك اذا ما وصلوا الى أن يبنى أحد أولاد صالح على إحدى بنات الرشيد ، واذا ما اقتطعوا له الولاياتِ ورفَدوه بأجزل الأموال ! .

على أنا نترك الكلمة لابن طَبَاطَبَا ليقصّ عليك ما يرويه فيما نحن فى صدده — قيل : إن جعفر بن يحيي البرمكى جلس يوما للشرب ، وأحبّ الخلوةَ ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم وقد هُيِّئَ المجلسُ ولبسوا الثيابَ المصبّغة ، وكانوا اذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو ، لبسوا الثيابَ الحمرَ والصفرَ والخضرَ . ثم إن جعفر بن يحيي تقدّم الى الحاجب ألّا يأذنَ لأحدٍ من خلق الله تعالى سوى رجلٍ من الندماء كان قد تأخر عنهم اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاساتُ ، وخفقَتِ العيدان ،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبدُ الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس، وكان شديدَ الوقارِ والدينِ والحِشْمةِ، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمَه ويشربَ معه، وبذل له على ذلك أموالًا جليلةً فلم يفعل، فاتفق أن عبد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه فى حوائجَ له، فظن الحاجبُ أنه هو عبد الملك بن صالح الذى تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجبُ له، فدخل عبد الملك ابن صالح العباسىّ على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضيةَ قد اشتبهت على الحاجب، بطريق آشتباهِ الاسم، وَفَطَنَ عبدُ الملك بن صالح أيضا للقصة وظهر له الخجلُ فى وجه جعفر بن يحيى، فانبسط عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبّغة شيئا، فأُحْضِر له قميصٌ مصبوغٌ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: اسقونا من شرابكم، فسقَوْه رطلا وقال آرفقوا بنا فليس لنا عادةٌ بهذا، ثم باسطهم ومازحهم، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضُه وحياؤه، ففرح جعفر بذلك فرحًا شديدًا وقال له: ما حاجتك؟ قال: جئتُ، أصلحك اللهُ، فى ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفةَ فيها: أُولاها أن علىّ دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيتها أريد ولايةً لابنى يشرُفُ بها قدرُه، وثالثتها أريد أن تزوّج ولدى بابنة الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفءٌ لها؛ فقال له جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث. أما المال ففى هذه الساعة يُحمل الى منزلك، وأما الولايةُ فقد ولّيتُ آبنكَ مصرَ، وأما الزواج فقد زوّجته فلانةَ ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا، فآنصرِفْ فى أمان الله. فراح عبدُ الملك الى منزله فرأى المالَ قد سبقه. ولما كان من الغد، حضر جعفر عند الرشيد وعرّفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوّجه ابنته؛ فعجب الرشيد من ذلك، وأمضى العقدَ والولايةَ، فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كُتِبَ له التقليدُ بمصر، وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد.

أرأيت كيف لم ينقض الرشيد ما أبرمه جعفر فى مسئلة خطيرة الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسرة الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة!!

أليس فى ذلك ما يقطع برفيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسامى منزلتهم ، عنـد الرشيد وفى الدولة التى هم مفزع رجالاتها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألا يفوتَكَ فى المثل المتقدم، ما جاء فيه خاصا بالملابس فإنه قد يعطيك فكرة مّا عن تخصص بعضها للسهرات والردهات والمنادمات ممـا لا يختلف عن نظام اليوم من « ردنجوت » و « سموكنج » و « فراك » الى غير ذلك مما يدل على مبلغ الثروة واستفحال أمر المدنية، عند القوم فى تلك الأيام الخاليات، فتأمل ... !

***

ربما تطلب الىّ مثالا على جودهم وتعلق الناس بهم، فأبلغك، أرشدك الله ، أن كتبَ الأدب مُتْرَعةٌ بالمئات من ذلك، بلا مبالغة ولا غلو ولا تهويل ولا إغراق .

وسنترك الكلمة فى هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إسحاق الموصلىّ ، والآخر الإتليدىّ فيما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمنـذر بن المغيرة . وإنا نكتفى بإيراد هذين المثلين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُبِلَتْ عليه نفوسُهم من المروءة وبُعْدِ الهمة وحبّ الخير .

أما مسألة إسحاق الموصلىّ فتفصيلُ الخبر فيها أن الفضـل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكىّ وعَلُّوَيْهَ ومخارقا للاجتماع عنده، وذلك أيام المأمون بعد رجوعِه ورضاه عنه، إلا أن حالة الفضل كانت ناقصةً متضعضعةً، فلما اجتمعوا عنده كتب الى اسحاق الموصلىّ يسأله أن يصيرَ اليه، ويُعلِمَه الحالَ فى اجتماعهم عنده، فكتب اسحاق اليهم بحضوره ولكنّ جاءهم متأخرا، وكان عَلُّوَيْهَ يغنى فأخطأ، فقال له اسحاق : أخطأتَ ، فغضب عَلُّوَيْهَ وعاتبه بكلام طويل، ومنـه قوله له : إنه من صنيعة البرامكة ، فقال اسحاق : أما البرامكة وملازمتى لهم فأشهرُ من أن أجحدَه، وإنى لحقيقٌ فيـه بالمعذِرة ، وأحرى أن أشكرهم على صنيعهم وبأن أذيعَه وأنشرَه، وذلك والله أقلّ ما يستحقونه منّى . ثم أقبل على الفضل ، وقد غاظه مدحه لهم ، فقال : أتسمع منى شيئا أخبرك به مما فعلوه، وليس هو بكبير فى صنائعهم عندى ولا عند

أبى قبيل ؟ فان وجدتَ لى عذرا و إلا فلُمْ . كنت فى ابتداء أمرى نازلا مع أبى فى داره ، فكان لا يزال يجرى بين غلمانى وغلمانه وجوارىّ وجواريه الخصومة ، كما يجرى بين هذه الطبقات ، فيشكونهم اليه ، فأتبين الضجرَ والتنكر فى وجهه ، فاستأجرتُ دارا بقربه ، وانتقلتُ اليها أنا وغلمانى وجوارىّ ، وكانت دارًا واسعةً ، فلم أرض ما معى من الآلة لها ، ولا لمن يدخل الىّ من إخوانى أن يروا مثلَه عندى ، ففكرتُ فى ذلك وكيف أصنع ، وزاد فكرى حتى خطر بقلبى قبحُ الأحدُوثة من نزول مثلى فى دار بأجرة ، وإنى لا آمن فى وقت أن يستأذنَ علىّ ، وعندى مَنْ أحتشِمُه ولا يعلم حالى ، فيقال صاحب دارك : أو يوجّه فى وقت فيطلب أجرة الدار وعندى من أحتشمه ، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى جاوز الحدّ ، فأمرتُ غلامى بأن يُسْرِجَ لى حمارا كان عندى لأَمضىَ الى الصحراء ، أتفرّجُ فيها مما دخل على قلبى ، فأسرجَه وركبتُ برداء ونعل ، فأفضى بى المسيرُ ، وأنا مفكر لا أميزُ الطريقَ التى أسلك فيها ، حتى هجم بى على باب يحيى بن خالد ، فتواثبَ غلمانُه إلىّ وقالوا : أين هذا الطريقُ ؟ فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأذنوا لى ، وخرج الحاجب فأمرنى بالدخول ، وبقيتُ خجِلًا قد وقعتُ فى أمرين فاضحين : إن دخلتُ اليه برداء ونعلٍ وأعلمتُه أنى قصدته فى تلك الحال كان سُوءَ أدبٍ ، وإن قلت له كنت مجتازا ، ولم أقصدك ، فجعلتُك طريقا ، كان قبيحا ، ثم عزمت فدخلت ، فلما رآنى تبسم وقال : ما هذا الزىّ يا أبا محمد ؟ احتبسنا لك بالبر والقصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقا ، فقلت : لا والله ياسيدى ، ولكنى أَصْدُقُكَ ، قال : هات ، فأخبرته القصةَ من أولها الى آخرها ، فقال : هذا حقٌّ مُستوٍ أفهذا شغَل قلبكَ ؟ قلتُ : إى والله ، وزاد فقال : «لا تَشْغَلْ قلبك بهذا ، يا غلام ردّوا حماره ، وهاتوا له خِلعةً» ، فجاءونى بخلعة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلتُ ، ووضع النبيذَ فشربت وشرب فغنيتُه ، ودعا فى وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربع رقاع ظننتُ بعضَها توقيعا لى بجائزة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليه الرقاعَ وساره بشىء فزاد طمعى فى الجائزة ، ومضى الرجل وجلسنا نشرب ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، فقمت وأنا منكسرٌ خائب، فخرجتُ وقُدِّم لي حماري، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لي غلامي: الى أين تمضي ؟ فقلت : الى البيت ، قال : قـد والله بِيعتْ دارُك وأُشهِدَ على صاحبها وٱبتيع الدربُ كله وُوُزِنَ ثمنُه، والمشترى جالسٌ على بابك ينتظرك ليعرّفك، وأظنه اشترى ذلك للسلطان، لأنى رأيتُ الامر فى استعجاله واستحثاثه أمرًا سلطانيًا، فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن فى حسابى، وجئت وأنا لا أدرى ما أعمل، فلمـا نزلت على باب دارى اذا أنا بالوكيل الذى سارّه يحيى قد قام الىّ ، فقـال لى : ادخل أيَّدكَ الله دارَك حتى أدخلَ الى مخاطبتـك فى أمر أحتاج اليك فيـه، فطابت نفسى بذلك، ودخلتُ ودخل الىّ فأقرأنى توقيع يحيى : يُطلَقُ لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاع له بها دارُه وجميعُ ما يجاورُها ويلاصقها ، والتوقيعُ الثانى الى ابنـه الفضل : قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمـائة ألف درهم يُبتاعُ له بها دارُه ، فأطلِقْ اليـه مثلَها ليُنفقَها على إصـلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهى . والتوقيع الثـالث إلى جعفر : قد أمرت لأبى محمد إسحاق بمـائة ألف درهم يبتاع له بها منزلٌ يسكنه، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومرمّتها على ما يريد، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يَبْتَاعُ بهـا فرشا لمنزله . والتوقيـع الرابع الى محمد : قد أمرت لأبى محمد إسحاق أنا وأخواك بثلثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقة ينفقها عليه وفرش يبتذله، فمُرْ له أنت بمائة ألف يصرفها فى سائر نفقته . وقال الوكيل : قد حملتُ المـال واشتريتُ كلَّ شىء جاورك بسـبعين ألف درهم ، وهـذه كتب الابتياعات باسمى والإقرار لك، وهذا المـال بورك لك فيـه فاقبضه، فقبضته وأصبحتُ أحسنَ حالا من أبى فى منزلى وفرشى وآلتى، ولا والله ماهذا بأكبر شىء فعلوه لى، أفألام على شكر هؤلاء! فبكى الفضلُ بن الربيع وكلُّ من حضره، وقالوا : لا والله لا تُلامُ على شكر هؤلاء !

أرأيتَ الى أىّ مدًى بلغَتْ مكانةُ البرامكة من رجالات العصر وأدبائه ، حتى تملّكوا من القلوب أعنّتَها، ومن النفوس أزمّتها ، وكيف استحوذوا على السّـويداء والمهج ، ولِمَ لهجتِ الألسنةُ بتمداحهم والإشادة بذكرهم ! .

أما حديث المأمون والمغيرة بن المنذر الذى رواه لنا الاتليدى فها كه بحذافيره : قال خادم المأمون : طلبنى أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لى : خذ معك فلانا وفلانا ، سماهما لى : وأحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم ، واذهبْ مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغنى أن شيخا يحضُرُ ليلا الى آثار دور البرامكة ويُنشِدُ شعرا ويذكرُهم ذكرًا كثيرًا ويندُبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف ، فامض أنت وعلىّ ودينار ، حتى تردُوا تلك الخرابات ، فاستتروا خلف بعض الجُدر ، فاذا رأيتم الشيخَ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا ، فأتونى به ، قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات ، فاذا نحن بغلامٍ قد أتى ومعه بساطٌ وكرسى حديد ، واذا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليه مهابةٌ ولطفٌ ، فجلس على الكرسىّ وجعل يبكى وينتحب ويقول هذه الأبيات .

ولما رأيتُ السيفَ جدّل جعفرا * ونادى منادٍ للخليفةِ فى يحيى

بكيتُ على الدنيا وزاد تأسُّفى * عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها . فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجبْ أميرَ المؤمنين ، ففزع فزعًا شديدًا وقال : دعونى حتى أُوصِى بوصيةٍ ، فإنى لا أُوقِنُ بعدها بحياة ، ثم تقدم الى بعض الدكاكين ، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيةً وسلمها الى غلامه . ثم سرنا ، فلما مثَلَ بين يدى أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ وبما استوجَبَتْ منك البرامكةُ ما تفعله فى خرائب دُورِهم؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادىَ خَضرةً عندى ، أفتأذن لى أن أُحدِّثَكَ بحالى معهم؟ قال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى الدينُ واحتجت الى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى ، وبيتى الذى ولدت فيه ، أشاروا علىّ بالخروج الى البرامكة ، فخرجتُ من دمشق ومعى ثلاثون رجلا ونيِّفٌ من أهلى وولدى ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغدادَ ونزلنا فى بعض المساجد ، فدعوتُ ببعض ثيابٍ كنت أعددتها لأستترَ بها ، فلبستها وخرجت ، وتركتهم جياعًا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع

بغداد سائلا عن البرامكة، فاذا أنا بمسجد مزخرف، وفى جانبه شيخٌ بأحسن زىٍّ وزينة، وعلى الباب خادمان، وفى الجامع جماعةٌ جلوسٌ، فطمعت فى القوم، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدم رِجلا وأؤخر أخرى والعرق يَسيلُ منّى لأنها لم تكن صناعتى، واذا الخادم قد أقبل ودعا القومَ فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، واذا يحيى جالس على دكة له وسط بستانٍ، فسلمنا وهو يعدّنا مائة وواحدا وبين يديه عشرةٌ من ولده، واذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينيةٌ من فضة على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدى كلِ رجلٍ صينيته، فرأيتُ القاضىَ والمشايخ يضعون الدنانيرَ فى أكمامهم، ويجعلون الصوانىَ تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدى لا أُجسُرُ على أخذ الصينية، فغمزنى الخادمُ فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهبَ فى كمى والصينيةَ فى يدى، وقمتُ وجعلت ألتفت ورائى مخافة أن أُمنَعَ من الذهاب، فوصلت وأنا كذلك الى صحن الدار ويحيى يلاحظنى، فقال للخادم: ائتنى بهذا الرجل: فأتاه بى فقال: مالى أراكَ تلتفتُ يمينا وشمالا؟ فقصصتُ عليه قصتى، فقال للخادم: ائتنى بولدى موسى، فأتاه به، فقال: يا بنىّ هذا رجل غريب، فخذه اليك، واحفظه بنفسك ونعمتك، فقبض موسى ولده على يدى، وأدخلنى الى دار من دوره، فأكرمنى غايةَ الإكرام، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذّ عيشٍ وأتم سرورٍ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى، وقد علمتَ اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين، فاقبِضْه اليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمنى غايةَ الإكرام، ثم لما كان من الغد تسلّمنى أخوه أحمد. ثم لم أزل فى أيدى القوم يتبادلوننى مدّة عشرة أيام، لا أعرف خبرَ عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء!، فلما كان اليومُ الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعةٌ من الخدم فقالوا: قم فاخرج الى عيالك بسلام، فقلتُ: واويلاه! سُلِبتِ الدنانيرُ والصينيةُ وأُخرُجُ على هذه الحالة! إنا لله وانا اليه راجعون! فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادمُ السترَ الأخير قال لى: مهما كان لك من الحوائج فارفعها الىّ، فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به، فلما رُفع السترُ

الأخيرُ، رأيتُ حجـرةً كالشمس حسنًا ونورًا ، واستقبلنى منها رائحةُ الندّ والعود ونفحاتُ المِسك ، واذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديبـاج ، وحَمل الىّ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلمـا جاءتهم البليةُ ، ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشـيد ما نزل، أجحفنى عمرُو بنُ مسعدة، وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلُهما به ، فلمـا تحامل علىّ الدهرُ كنتُ فى آخر الليـل أقصدُ خراباتِ دورهم ، فأندُبُهم وأذكر حسنَ صنيعهم الىّ وأبكى على إحسانهم ، فقال المأمون : علىّ بعمرو بنِ مسعدةَ! فلما أُتِىَ به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال : كم ألزمتَـه فى ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، فقال له : رُدّ اليـه كلَّ ما أخذت منه فى مدته وأفرِغْهُما له ، ليكونا له ولعقبه من بعـده ، قال : فعلا نحيب الرجل، فلمـا رأى المأمون كثرةَ بكائه ، قال له : يا هـذا قد أحسنا اليك فما يبكيك؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنيع البرامكة ! لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبُهم حتى اتصـلَ خبرى الى أمير المؤمنين ففعل بى ما فعـل ، من أين كنتُ أصـل الى أمير المؤمنين ! قال ابراهيم ابن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعَتْ عيناه وظهر عليـه حزنه، وقال : «لعمرى هـذا من صنائع البرامكة فعليهم فابكِ، وإياهم فاشكر، ولهم فَاوفِ، ولإحسانهم فاذكر» .

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضى يحيى بن أكثم قال : سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحدٌ فى الكفاية والبـلاغةِ والجودِ والشجاعة، قال القاضى : فقلتُ يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ، ففيمن الشجاعة؟ فقال : فى موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند .

⁂

مكانةٌ عاليــة بلا ريب مكانةُ آل برمك، وسلطانٌ لا حدّ له سلطانُهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصولة ونفوذُ قولٍ فى دولةِ الرشيد، فما الذى يا ترى غيَّرَ قلبَ الرشيد عليهم حتى نكبهم ؟

لنذكر ما يقوله المعاصرون ونُعقِّبُ عليه بكلمة هادئةٍ حكيمة لابن خلدون .

أما بَختيشُوع الطبيب المأمونى، فانه يقول نقلا عن أبيه جبريل : إنه لقاعد فى مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، ردّ عليه ردًّا ضعيفًا، فعلم يحيى أن أمرهم قد تَغَيَّر . قال : ثم أقبل علىّ الرشيدُ فقال : ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحدٌ بلا إذنك ! فقلت : لا ولا يَطْمَعُ فى ذلك، قال : فما بالنا يُدخَلُ علينا بلا إذن ! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدّمنى الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعةَ، وما هو إلا شىءٌ كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتى إن كنت لأدخل وهو فى فراشه مجرّدًا حينا وحينا فى بعض إزاره، وما علمتُ ان أمير المؤمنين كره ما كان يحبّ ، وإذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثــة إن أمرنى سيدى بذلك ؛ قال : فاستحيا الرشـيدُ، وكان من أرق الخلفاء وجهًا، وعيناه فى الأرض مايرفع اليه طرفَه، ثم قال : ما أردت ماتكره ولكن الناس يقولون ؛ قال جبريل : فظننت أنه لم يسنح له جوابٌ يرتضيه، فأجاب بهذا القولِ، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمــدُ بن يوسفَ كاتبُ عصرنا المأمونىّ النابهُ، فانه يحدّثنا عن ثمامة بن أشرس بحديث سننقله لك . وقبل إيراد هــذا الحديث نودّ أن نُذكّرك بأن محمدَ بنَ الليث الذى سيرد فيه هو محمد بن الليث الذى اختاره المهدىّ كاتبا للسرّ فى مجلس مشاورته لتدبير رأى فى حرب خُراسانَ، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإثباتِ مقالتهم فى كتابٍ .

وربما كان من المفيد أن نزيدَ القارئَ بمحمد بن الليث معرفةً ، لا لأنه من رجالات عصرنا ومن ذوى الأثر الادبىّ القيّم فيه ، ولا لأنه صاحبُ تلك الرسالة الشائقةِ التى بُعِثَ بها من الرشيد الى ملك الروم التى أثبتناها فى المجلد الثانى من هـذا الكتاب (١) ، بل لانا نرى فى توضيح قدره توضيحًا لقدر البرامكة ، ولأنك حينما ترى الرشيدَ يقبض على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومنزلتهـم من نفسه ، لنصحه له بأن يضع حدًا لاستفحال شأن البرامكة ، وللرجل قدرُه ومنزلتُه ، تستطيعُ أن تتصوّرَ تصوّرًا صميمًا مكانةَ البرامكة من الرشـيد ومن الدولة ومن العصر الذى هم فيـه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشـيدَ أطلق محمد بن الليث من حبسه واعتذر له قبيلَ نكبة البرامكة تستطيع أن تعلم اذًا مقدارَ التحوّل الذى نال نفسيّةَ الرشيد .

سترى فى مشاورة المهدىّ (٢) التى ذكرها ابن عبد ربه فى العقد والتى أثبتناها لك فى المجلد الثانى أن محمدَ بنَ الليث يتكلّم فى المجلس ــ وكان الرشـيدُ بلا شك ولى العهد ــ كلاما يُرضى الرشيد . اذًا فمحمد بن الليث كان الى جانب وظيفته كناموسٍ لمجلس المشاورة ، صاحبَ رأيٍ فى مجلس الاستشارة نفسِه يُعتدُّ به . فهو ذو شخصيةٍ عظيمة من ذوى شخصيات الدولة الذين لكلامهم خطرُه ولقولهم أثرُه .

قال : أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمـد بن الليث رفع رسالةً الى الرشيد يعظه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يُغنى عنك من الله شيئا ، وقد جعلتَه فيما بينك وبين الله ، فكيف أنتَ اذا وقفتَ بين يديه ، فسألك عما عملتَ فى عباده وبلاده ، فقلت : يارب إنى استكفيتُ يحيى أمورَ عبادك ، أتُراك تحتج بحجة يرضَى بها ! مع كلام فيه توبيخٌ وتقريعٌ ، فدعا الرشيدُ يحيى ، وقد تقدّم اليه خبرُ الرسالة ، فقال : تعرِفُ محمدَ بن الليث ؟ قال : نعم ؛ قال فأىّ الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، ــ لاحظ كيف يتّهمون فى الدّين ــ فأمر به الرشيد فوضع فى المطبَق دهرا . فلما تنكر الرشـيدُ للبرامكة ، ذكره فأمر بإخراجه

(١) و (٢) أنظر باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

فأُحْضِرَ، فقال له بعد مخاطبة طويلة : يا محمد، أتحبني؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين، فقال : تقول هـذا ! ! قال : نعم وضعتَ فى رجلى الأكبالَ وحُلْتَ بينى وبين العيـال، بلا ذنب أتيتُ ولا حَدَثٍ أحدثت، سـوى قول حاسد يكيد للإسـلام وأهله ، ويحبُّ الإلحـادَ وأهلَه ، فكيف أُحِبّكَ ! ! قال : صدقتَ، وأمر باطلاقه، ثم قال : يا محمد أتحبنى؟ قال : لا والله يا أمـير المؤمنين ولكن قد ذهب ما فى قلبى ؛ فأمر أن يُعطَى مائة ألف درهم فَأُحْضِرتْ، فقال : يا محمد أتحبنى؟ قال : أما الآن فنعم ! قد أنعمتَ علىّ وأحسنتَ إلىّ ؛ قال : إنتقمَ الله ممن ظلمك وأخذ لك بحقك ممن بعثنى عليـك ؛ قال ثمامةُ : فقال النـاسُ فى البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوّلَ ما ظهر من تغير حالهم .

فمـاذا حدث بعد ذلك ؟

حدث — كما يخبرنا أحدُ المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبى جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دارَ الرشيد فى الآونة التى نحن فى صددها، فقام الغلمانُ اليه احترامًا وإجلالًا، فما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرورٍ الخادمِ : مُرِ الغلمانَ ألا يقوموا ليحيى اذا دخل الدارَ! قال : فدخل فلم يقم له أحد فَارْبَدَّ لونُه ؛ قال : وكان الغلمانُ والحجّابُ بعـدُ اذا رأوه أعرضوا عنه ؛ قال : فكان ربما استسقى الشَّربةَ من المـاء أو غيره فلا يسقونه، وبالحَرَى إن سَقَوْه أن يكون ذلك بعد أن يدعوَ بها مرارا .

ولننظر فى سبب آخر يرويه لنا أحدُ المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمـد اليزيدىّ، قال : من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تُصدّقه، وذلك أن الرشيدَ دفع يحيى الى جعفر لحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالى، فسأله عن شىء من أمره فأجابه، الى أن قال : اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمُك غدًا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فوالله ما أحدثتُ حدثًا، ولا آويتُ محدثا؛ فرقّ عليه وقال له : اذهب حيث شئتَ من بلاد الله؛ قال : وكيف أذهبُ ولا آمن أن أُوخَذَ بعد قليل فأُرَدَّ اليك أو الى غيرك ! فوجّه معه من أدّاه الى مأمنه . وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع من عين

كانت له عليه من خاص خدمه، فبَلا الأمرَ فوجده حقا وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره، وقال : وما أنت وهذا! لا أُمَّ لك! فلعل ذلك عن أمرى! فانكسر الفضلُ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبالِ؛ قال : بحياتى؟ فأحجم جعفر، وكان من أدقّ الخلق ذهنًا وأصحّهم فكرا، فهجسَ فى نفســه أنه قد علم بشىء من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدى، ولكن أطلقته وعلمتُ أنه لا حياة به ولا مكروه عنده؛ قال : نِعْمَ ما فعلتَ، ما عَدَوْتَ ما كان فى نفسى؛ فلما خرج أتبعه بصره، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلنى الله بسيف الهدى على عَمَلِ الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، ونذكره لك هنا على علاته، استكمالا للموضوع من كل نواحيه . يقول الطبرى : إنه يظن أن المصدرَ للرواية هو زاهر بن حرب، قال : « إن سببَ هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيدَ كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباســة بنت المهدى ، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب ، وذلك بعــد أن أعلم جعفرا قلّةَ صبره عنــه وعنها، وقال لجعفر تزوّجها ليحلّ لك النظرُ اليها اذا أحضرتُها مجلسى، وتقدّم اليه ألا يمسَّها ولا يكون منــه شىء مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوّجها منــه على ذلك ، فكان يُحضِرهُما مجلسه اذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيَثْمَلانِ من الشراب، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها، فحملتْ منه وولدت غلاما، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهتْ بالمولود مع حواضنَ له من مماليكها الى مكةَ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون ، حتى وقع بين عباســةَ وبعض جواريهــا شرّ ، فأنهتْ أمرها وأمرَ الصبىّ الى الرشــيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من الحلى الذى كانت زينته به أمه، فلما حجّ هارونُ هذه الحجةَ — سنة سبع وثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الجاريةُ أخبرته أن الصبىّ به، مَنْ يأتيه بالصبىّ، وبمن معه من حواضنه، فلما أُحْضِرُوا

سأل اللواتى معهن الصبيّ، فأخبرنه بمثل القصة التى أخبرته بها الرافعة على عبّاسة، فأراد، فيما زعم، قتل الصبي ثم تحوّب عن ذلك، وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاما كلما حج بعُسفان فيقْريه اذا انصرف شاخصا من مكة الى العراق، فلما كان فى هذا العام اتخذ الطعامَ جعفرٌ كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره فاعتلّ عليه الرشيدُ ولم يحضُرْ طعامَه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزلَه من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان » .

أمّا نحن فلا نريد القطعَ بأنّ نكبة البرامكة كانت أثرًا لسببٍ بعينه من هـذه الأسبابِ، وربمـا كانت نتيجةً لطائفةٍ من الأسبابِ مجتمعةٍ، منها ما نعرفه، ومنها ما لم نعرفه بعـد، ونحب ألّا يفوتنا هنا أن نفترضَ فرضًا نعـترف بأنه فرضٌ لا أكثرولا أقل، ونعترف بأنّه فى حاجةٍ الى التحقيق العلمىّ، ولكنّا نعترف أيضـا أنّ عرضه على علاته لا يخلو من النفع، وهو أنّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعـتزلة (١)، وهى الاعتدال بين أهواءِ الأحزابِ السياسية المتطرفة وتلطيفُ الخصومةِ بين جناحى الحزب الهاشمىّ فلم يرضَ الرشيدُ عن هذا النحو من السياسة، ومالأه على ذلك النفعيون من أنصار الجناح العباسىّ . وسنرى بعـد قليلٍ أن المأمون كان يرى رأى البرامكة، فى هـذا النحو من السياسة المعتدِلة، الموفّقة بين وجهات النظر المختلفة .

* * *

أما كيفيــة القبض على البرامكة، واحتياطُ الرشيد وحذره قبـل قتلهم، ومصادرته لأموالهم، وما قالته الشـعراء فى رثائهم، فحديثٌ طويل يتطلّبُ رسالةً خاصة، وفقنا الله لدراســة موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم فى الدولة العباسية فى موضوعنا (عصر الرشـــيد) فى القريب العاجل إن شاء الله .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبـد الوهاب النجار فى هـذا بقوله : "ليس الاعتزال مذهبا سياسيا ولم ترج سوق الاعتزال فى زمن الرشيد ولم يكن شيئا يعتدّ به على عهده" .

على أننا نرى من المستصوب قبل أن تتم هذه الفذلكة الموجزة أن نختمها بكلمة لابن خلدون، لا تخلو من تحليل صحيح، ومذهب فى الموازنة رجيح، وباب فى التاريخ جميل المنهج، معقول التعليل .

قال ابن خلدون: إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموالَ الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه، فغلبوه على أمره وشركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرّف فى أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعُد صيتهم وعمّروا مراتبَ الدولة وخُططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم: من وزارةٍ وكتابةٍ وقيادةٍ وحجابة وسيف وقلم. يقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيفٍ وصاحب قلم، زاحموا فيها أهلَ الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولىّ عهد وخليفة، حتى شبّ فى حِجْره، ودرّج من عُشّه، وغلبه على أمره، وكان يدعوه يا أبت، فتوجه الإيثارُ من السلطان اليهم، وعظمت الدالّةُ منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوهُ، وخضعت لهم الرقابُ، وقُصِرَتْ عليهم الآمالُ، وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتُحَفُ الأمراء، وتسرّبت الى خزائنهم، فى سبيل التزلف والاستمالة أموالُ الجباية، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المننَ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدمَ، وفكوا العانىَ، ومُدِحُوا بما لم يُمدح به خليفتهم، وأسْنَوْا لعُفاتهم الجوائزَ والصّلات، واستولوا على القرى والضِّياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصّة، وأغصّوا أهلَ الولاية، فكُشِفت لهم وجوهُ المنافسة والحسد، ودبّت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقاربُ السّعايةِ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تَعطِفْهم، لما وقر فى نفوسهم من الحسد، عواطفُ الرَّحِم، ولا وَزَعتهم أواصرُ القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بهم الإصرارُ على شأنهم الى كبائر المخالفة .

الحياة العلمية فى العصر العباسىّ

توطئة — حركة النقل — العلوم القرآنية واللغوية والفقهية .

(أ) توطئة :

هذه فذلكة مجملة بمثابة توطئة لما سنعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح فى العصر المأمونى . فمهمتُنا الآن أن نلمّ ببيان العناصر المهمة فى الحياة العلمية العباسية .

نعلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان فى الثقافة الانسانية عظيمٌ عميقٌ ، لأنه الى جانب إمداد العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتّابهم ومفكريهم قد أمدّوه أيضا بالنُّخَب والمُلَح مما وقفَ عليه اليونان من زُبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . فاذا ما قلنا : إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ، ومُنتجَات العقول اليونانية، فكأننا نقول ضمنا إنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسيةً الى حدّ ما، أو على الأقل كانت مُتسمةً بالطابع الفارسىّ متأثرةً به . ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جبون» أن «جستنيان» اضطهد مدارس أثينا، لأنه كان خَصمًا للفلسفة الوثنية، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حين ذاك قد آتت ثمرتَها ونضجتْ، ثم هرع أصحابها الى الفرس، واتصل بأنوشروان سبعةٌ من علماء اليونان فأكرم وِفَادتهم، وأفسح لهم مجالَ التأليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القِدْح المعلّى فيه . ويقول ابن النديم فى الفهرست: إن الفرس نقلت فى القديم شيئًا من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية، فنقل ذلك الى اللسان العربىّ عبد الله بن المقفع . فمن المعقول اذًا أن يكون

العربُ حين اتصلت ثقافتُهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا فى الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُغمَطُ قَدرُه، لأنك اذا استقصيتَ تاريخ ملوكهم الكبار، مثل سابور بن أردشير، تجد أنه فى خلال عهده بعث الى بلاد اليونان، وجلب كتبَ الفلسفة، وأمر بنقلها الى الفارسية، واخترنها فى مدينته وأخذ الناس فى نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربيةُ أفادت أيّما إفادة من منتجات الفرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقـل :

لنتدرج الآن الى شىء من التوضيح، فننقل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسى فى هذا الباب، لأنه مختصرٌ عما تعرض له أمثال الأساتذة «نللينو» و «ابن أبى أصيبعة» «والقفطى» «وابن النديم» وغيرهم ممن سيكونون عدّتنا وموئلنا حين نعرض لهذه البحوث فى العصر المأمونى .

يقول ابن صاعد : « إن أول علم اعتُنِى به من علوم الفلسفة علمُ المنطق والنجوم . فأما المنطق فأول من اشتهر به فى هذه الدولة عبدُ الله بن المقفع الخطيب الفارسى، فإنه ترجم كتبَ أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التى فى صورة المنطق، وهى كتاب «قاطاغورياس» وكتاب «بارى أرمنياس» وكتاب «أنولوطيقا» وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول، وترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بايساغوجى » « لفرفوريوس الصورى » ، وعبّر عما ترجم من ذلك عبارةً سهلةً قريبةَ المأخذ ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكليلةَ ودِمنةَ، وهو أول مَنْ ترجمَ من اللغة الفارسية الى اللغة العربية......

وأما علم النجوم فأول من عُنِىَ به فى هذه الدولة محمدُ بن ابراهيم الفزارى، وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الآدمى ذكر فى تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد : «أنه قدم على الخليفة المنصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهند عالم بالحساب المعروف

بالسند هندي فى حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كردجات محسوبة لنصف نصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع البروج وغير ذلك، فى كتاب يحتوى على اثنى عشر بابا، وذكر أنه اختصره من كردجاتٍ منسوبةٍ الى ملك من ملوك الهند يسمى فيغر، وكانت محسوبةً لدقيقة؛ فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية، وأن يؤلف منــه كتابٌ تتخذه العرب أصلًا فى حركات الكواكب، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى، وعمل منه كتابا يسميه المنجمون "بالسند هند الكبير" وتفسيرُ السند هند باللغة الهندية : الدهر الداهر . »

وقد يكون من المستصوب أن نفهم حقيقةً وجهة نظر العرب حين ذاك الى علم الفلك؛ فهــم كاليونانيين فى زمن "بطليموس" كان غرضُهم فى الهيئة تبينَ الحركات السماوية مع كل اختلافاتهـا المرئية، بأشكال هندسـية، تمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأىّ وقت فُرِضَ ، فإن كانت تلك الأشكالُ تصلُحُ لحساب الظواهر رضوا بها وما اهتموا بالبحث فى حقيقة حركات الأجرام السماوية، وذلك لظنهم أن البحثَ عن حقيقة الحركات وعللها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الالهية .

ونحن نجد، بقطع النظر عن أحكام النجوم التى صارت غير مقبولة فى أيامنا، أن الهيئة عند العرب كما يقول الأستاذ «نللينو» ، قد اشتملت على علم الهيئة الكروىّ والعملىّ، وقسم صغيرٍ من النظرىّ يخصّ الكسوفاتِ واستتارات الكواكب السيارة، مع علم التاريخ الرياضىّ وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافية لبطليموس، فقد خرج من علم الهيئة عنــد العرب علم الميكانيكا الفلكية وعلم طبيعة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة النظرى، إذ إنه يبحث عن حقيقة حركات الكواكب .

فلا مِرْيةَ اذًا فى أن العرب، الى جانب وقوفهم على الفلسفة الفارسية والحكمة اليونانية، قد وقفوا أيضا على آخر الاراء العلمية الخاصة بعلم الفلك فى ذلك الحين، وأنهم وقفوا على آراء بطليموس فيما وقفوا عليه من الآراء . وبطليموس — كما قال البتانى — قــد تقصى

علم الفلك من وجوهه ، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسىّ والعددىّ الذى لا تُدفَعُ صحتُه ولا يُشَكُّ فى حقيقته ، فأمر بالمحنة والاعتبار بعده ، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدرَكَ عليه فى أرصاده على طول الزمان ، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه ، لجلالة الصناعة ، ولأنها سماويةٌ جسيمةٌ لا تُدرَكُ إلا بالتقريب .

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقولِ بأن أيوبَ وسمعان فسراه لمحمد بن خالد البرمكى . ونرجو حين تعرّضنا لهذه الموضوعات فى العصر المأمونىّ أن نُلم بها إلماما أدق وأوسع .

على أنه يجدر بنا فى هـذه الفذلكة أن نشير الى الكتبِ البهلوية الثلاثةِ التى استطاع الأستاذُ « نللينو » أن يكتشف أثر نقلها فيما قبـل انتهاء القرن الثانى للهجرة . فواحد منها فى علم الهيئة الحقيقىّ وهو زيج الشاه أو زيج الشهريار ، والآخران فى صناعة أحكام النجوم وهما البزيذج فى المواليد المنسوب الى بُزُرْجَمْهِر ، وكتاب صور الوجوه لتنكلوس ، وكذلك يجدر بنا أن نشير الى أن كتاب المجِسْطِى نقل فى أيام الرشيد .

وإنا نلخص لك هنا ما لاحظه المرحوم جورجى بك زيدان فى أمر النقـل من أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرّضوا لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبيـة أو الشعر ، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود ، فقد نقلوا جـملةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبارِ ملوكهم وترجموا الشاهنامة ، ولكنهم لم ينقلوا تاريخَ هيرودوتس ولا جُغرافيةَ استرابون ولا إلياذةَ هوميروس ولا أوديسّته . وسبب ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتُهم فى الفلسفة والطبّ والنجوم والمنطق (١) .

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار : «أنه يمكن ارجاع ذلك الى سبب يراه أهمّ . وهو أن الراحلين من اليونان أيام الاضطهاد الى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء . فأسسوا فى تلك البلاد مدرستهم وأخذ أهل البلاد عنهم ما يعرفون . فالأدب والتاريخ والجغرافيا لم يهاجرن الى البلاد التى أخذ عنها العرب وإنما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياضة» .

ولا يُستخَفُّ بما اقتضاه ذلك النقل، عن أشهر أمم الأرض فى ذلك العصر، من التأثير فى الآداب الاجتماعية والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معظمه فى الأدب والتاريخ؛ فدخل الآدابَ العربيــةَ كثيرٌ من آداب الفرس الساسانيــة وأفكارهم، اقتبسها العربُ من الكتب التى نُقِلَتْ عنهم، ولم يبق منهـا إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنـة، ونُتَفٌ متفرقةٌ فى بعض الكتب. وقد درس فى هذا الموضوع المُتَشَرِّقُ «اينواسترانتسيف» الروسى ووضع فيه كتابا طبع فى بطرسبرج سنة ١٩٠٩ م.

على أنا نلاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائما الى الآن فى بعض الكتب العربية التى وُضِعَتْ فى عصور قريبــة من عصر المأمون. نذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة، و «التاج» المنسوب للجاحظ. فعلى هذه المنقولات وأمثالها بنى المسلمون ما ألفوه فى هذه العلوم أثناء تمدينهم غير ما اختبروه وأضافوا اليها من عند أنفسهم.

وإن المطلع على ما جاء بالفهرست لابن النديم خاصا بتلك المنقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلّها قد ضاع، على أنه كان للقليل الباقى منها أثرُه الفعّال فى نهضة أوروبا. وأهم ما بقى من ذلك التراثِ القيّم هو كتابُ المَجِسْطِى لبطليموس، ترجمه الحجاج بن يوسف وكتاب السياسة فى تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن البطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكى وغيرها.

(ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرخون القدماء يقولون فى العلوم القرآنية إنه قد تفرع عن القرآن نحو ثلثمائة علم. ونحن نحيلك على أمثال "مفتاح السعادة" لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المطبوع بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد، ومقدمة ابن خلدون و "مفاتيح العلوم" وغيرها. وأما النحاة وطبقاتهم واللغــة وما دخلها من الألفاظ المستحدثة فى العصر العباسى، فأمامك أمثال "شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل" لشهاب الدين

الخفاجى "ودرة الغواص" للحريرى، وكتاب "المعرب من الكلام الأعجمى" لأبى منصور الجواليق المتوفى فى منتصف القرن السادس وطبع فى ليبسك سنة ١٨٩٧ م وكتاب «طبقات النحاة» المعروف "بنزهة الألباء فى طبقات الأدباء" لأبى البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنبارى، وغيرها مما لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضع فى العصر العباسى خاصة أمثال قولهم صيدلية ، وتشريح ، ونبض، وهضم ، ومبرّدات، وقابض، ومسهل ، وتشنّج ، وذات الرئة ، وبنج ، والهيولى ، والقاموس ، والقانون ، الى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذى تجده فى مظانه ، ولا نرى حاجة بنا الى الاستطراد فيه .

ويجدُر بنا هنا أن نشيرَ الى أثر من أجلّ الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية فى بداية العصر العباسى . ويمكن النظر اليه كما ينظر الاسكتلنديون الى كتاب "جون سنكلر" عن تاريخهم الاقتصادى . وهذا الأثر القيم الخالد الذى نظّم جبايةَ الدولة أجملَ تنظيم وأدقه ، هو كتاب الخراج للفقيه الأكبر أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان .

الفصل العاشر

الحالة الأدبية فى صدر عصر بنى العباس

توطئة — الخطابة والخطباء — الكتابة — مجالس الخلفاء والمناظرة — الشعر .

(أ) توطئـــــة :

أسلفنا لك القولَ فى الحالة الأدبية فى عصر بنى أمية التى كانت فى الواقع، الى جانب ما بيناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلى، قريبةً فى جملتها من غضاضة البدوِ وخشونة المدر، فلم تتسع لها الاغراضُ ولم تنفرج لها الجوانبُ إلا بقدر ما تنطبق عليه جزيرةُ العرب وباديةُ الشأم من الأفكار والأخيلة، وما توحى به غياضُ دمشقَ ونَبراتُ معبدٍ، من صفاء الفكرِ ووضوحه، وجلاءِ المعنى واقترابه، لا يبالى القومُ الإمعانَ فى الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنما كان همُّهم، كما يقول الرواة : أن تُجوِّدَ ألفاظُهم، وتجلّ تراكيبُهم. وفى الحقيقة أنهم قد اقتعدوا فى ذلك من البلاغة ذِرْوتَها، وبلغوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يضع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زيادُ وعبد الملك والحجاج، وما أرسله جرير والأخطل والفرزدق، لتعرفَ أين كان القومُ من البلاغة، وكيف تملكوا أَعِنّتها فى أيديهم . فلما جاءت دولةُ العباسيين وقامت أركانُها على سواعدِ العجم، ودَلَفَ اليها السُّريانُ واليهودُ والفرس، وضمّتهم الدولةُ الى أحضانها، وأفرجت لهم بين ذراعيها، وأنزلتهم فى كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقدموا لها بتراث آبائهم وعُصَارة قرائح علمائهم، وحوّلوا ميراثهم الى ميراثها، أفادتْ لُغةُ العرب، وآمتزجت المدنيةُ الساميةُ بالآريّة، وآتسعت دائرة المعارف، وتشعبت أغراضُ اللغة، وشمّر كلُّ ذى فضلٍ فى تدوين العلوم وآستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسيمها، وترجموا كتبَ الحكمة والمنطق، وازدهرت الآدابُ ازدهارَ

الفَنَاء والقوّة، فانتظمت رخاءَ الدنيا وسعادةَ الإنسان ، وازّينت بالحجج الحكمية والبراهين العقلية . وتولَّى كِبْرَ ذلك بشارٌ وابنُ المقفع وأبو نواس وأضرابهم، وأدخلوا اليها الجديدَ عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم يتحرجوا من استعمال الألفاظ الأعجمية فى أسماء الألوان والآنية والفرش، وتأنقوا فى صوغ العبارات وإحكامها، حتى مال بعضُهم الى السجع والازدواج . ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة الى سعيد بن مسلم إذ يقول : "أَستَنْسِئُ اللهَ أجلَكَ، وأستعيذُه من الآفات لك ، وأستعينُه على شكر ما وهب من النعمة فيك إنه لذلك ولىّ ، وبه ملىّ . أتانى غلامُك المليحُ قدّه ، السعيد بملكك جدّه، بكتابٍ قرأته ، غيرَ مستكرَه اللفظ ولا مُزْوَرّ عن القصد، ينطق بحكمتك ويُبِينُ عن فضلك" .

وجملة القول أن اللغة قد تجدّد إهابُها، وانفرجت شِعَابُها ، ونوّعت أساليبُها ، بما دخل عليها من نعيم الدولة وتَرَف الحضارة، وما احتوته من العلوم والفنون، حتى كانت سيدةَ لغات العالَم جميعا .

(ب) الخطابة والخطباء :

كانت الداعيةُ الى الخطابة فى العصر العباسىّ قويّةً متوافرةً بليغةً . كانت قويّةً لأن طبيعةَ الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المذهبية الحادّة، والثورات الاجتماعية العنيفة، من شأنها خَلقُ مجالاتِ التكلم وتقوية الملكات الخطابية وتنميتها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها . وكانت متوافرة لتعدّد موضوعاتها وتشعّب مناحيها ولانتجاب الدُّعاةِ والنفعيين عليها لانتهاز أمثال تلك المواقف . وكانت بليغةً لقرب العصر العباسىّ من عصر البلاغة الإسلامية الأُموية من ناحية الحرارة والتشيّع الى بنى العباس، وقوّة المحاجّة فى إنكار ما انتهكه الأمويون من حُرُمات الدين، ولتعدّد أسباب التفاضل بين آل العباس والعلويين .

وإن نظرةً تحليليةً الى خطبة المنصور التى خطبها حينما أخذ عبدَ الله بن الحسن وإخوتَه والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزز قولنا وتؤيد حكمنا . قال : « يا أهلَ خُراسانَ

أنتم شيعتُنا وأنصارُنا وأهلُ دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا ، وإن اهـلَ بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم، والله الذى لا إله إلا هو، والخلافة فلم نَعْرِض لهم فيهـا بقليلٍ ولا بكثيرٍ ، فقام فيهـا علىّ بن أبى طالب فتلطّخ وحكم عليـه الحكمانِ ، فافترقت عنـه الأمةُ ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليـه شيعتُه وأنصارُه وأصحـابُه و بطانتُه وثقاتُه فقتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل! قد عُرِضَتْ عليـه الأموالُ فقبلها فدسَّ اليه معـاويةُ : إنى أجعلك ولىَّ عهـدى من بعدى ، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه، فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسينُ بن على فخدعه أهلُ العراق وأهلُ الكوفة أهلُ الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن أهلُ هذه المدرة السوداء— وأشار الى الكوفة — فوالله ما هى بحربٍ فأحاربها ولا سِلْمٍ فأسالمها، فرّق اللهُ بينى و بينها، فخذلوه وأسلموه، حتى قُتِلَ. ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغرّوه فلما أخرجوه، وأظهروه أسلموه، وكان قد أتى محمدَ بن على فناشده فى الخروج وساله ألا يقبـل أقاويلَ أهل الكوفة وقال له : إنا نجد فى بعض علمنا أن بعضَ أهل بيتنا يُصْلَبُ بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلكَ المصلوبَ، وناشده عمّى داود بن على وحذّره غدرَ أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم على خروجه فقُتِـلَ وصُلِبَ بالكُناسَة [1] . ثم وثب علينـا بنو أميـة فأماتوا شرفنا وأذلوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترةٌ يطلبونها وما كان ذلك كا إلا فيهم و بسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد فصرنا مرّةً بالطائف ومرّةً بالشام ومرة بالشَّراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزّنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهلَ الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقرّ الحق مقرّه وأظهر مناره وأعزّ أنصاره وقطع دابرَ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرّت الأمورَ فينا على قرارها

(١) الكناسة بالضم : محلة بالكوفة .

من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضّلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خِلافته وميراثِ نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلًا علىّ وجُبنًا عن عدوّهمُ ٭ لبئست الخلّتان الجهلُ والجبنُ

فإنى والله يأهل خراسان ما أتيتُ من هذا الأمر ما أتيتُ بجهالةٍ . بلغنى عنهم بعض السقم والتعرّم، وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يافلان، قم يافلان فخذ معك من المال كذا ، وحذوتُ لهم مثالا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسّوا اليهم تلك الأموالَ، فوالله ما بقى منهم شيخٌ ولا شابٌ ولا صغيرٌ ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللتُ بها دماءَهم وأموالهم وحلّتْ لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علىّ فلا يرون أنى أتيتُ ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ .

ولقد يُلاحظ على الخَطابة العباسية اتسامُها بطابع النعرة الدينية لمباهاتهم بصلتهم من النبىّ، كما يلاحظ عليها اللغةُ « الأتوقراطيةُ » التى لا تختلف فى شىء عن لغة باباوات رُومةَ فى العصور الوسطى ولغة الملوك الذين يدينون بنظرية « حقوق الملك المقدّسة » وأنهم ورثة الله فى أرضه وممثلوه بين خلقه ... .

خطبة للمنصور الخليفة العباسىّ

خطب فى مكة فقال :

أيها الناس، إنما أنا سلطانُ الله فى أرضه أسُوسُكم بتوفيقِه وتسديدِه وتأييدِه، وحارسُه على ماله أعملُ فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه، فقد جعلنى الله عليه قُفْلًا إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يُقفلنى عليها أقفلنى ؛ فارغبوا الى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أن يوفقنى للرشاد والصواب ، وأن يُلهمنى الرأفة بكم والإحسانَ اليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

خطبة للخليفة المهدى

الحمد لله الذى ارتضى الحمدَ لنفســه ، ورضىَ به من خلقه ، أحمَدُه على آلائه وأمجّدُه لبلائه ، وأستعينه وأومن به وأتوكل عليــه توكلَ راضٍ بقضائه وصابرٍ لبـلائه . أوصيكم عبـادَ الله بتقوى الله فإن الاقتصارَ عليها سلامةٌ ، والترك لهـا ندامة . وأحثكم على إجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاء الى ما يقرّب من رحمتــه ، وينجى من سخطه ، ويُنال به ما لديه من كريم الثواب ، وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شـديد العقاب وأليم العذاب ووعيدِ الحساب ، يوم تُوقفونَ بين يدى الجبار ، وتُعرَضُونَ فيــه على النار . يوم لا تَكلّمُ نفسٌ إلا بإذنه ، فمنهم شقىٌ وسـعيد . يوم يفرّ المرء من أخيــه وأمّه وبنيه لكل آمرئ يومئذ شأن يغنيه . يوم لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئا ولا يُقبلُ منهـا عدلٌ ولا تنفعها شـفاعةٌ ولا هم ينصرون . يوم لايجزى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئا ، إن وعدَ الله حق فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغَرور . فإن الدنيا دارُ غُرور وبلاءٍ وشرورٍ واَضمحلالٍ وزوالٍ وتقلبٍ واَنتقالٍ . قـد أفنتْ من كان قبلكم وهى عائدةٌ عليكم وعلى مَنْ بعدكم . من ركن اليها صَرَعته ، ومن وثق بها خانته ، ومن أمّلها كَذَبتــه ، ومن رجاها خذَلته . عِزُّها ذُلٌ ، وغِناها فقــرٌ . والسعيدُ مَنْ تركها والشقىُّ مَنْ آثرها . والمغبونُ فيها من باع حظَّه من دارِ آخرته بها . فاللهَ اللهَ عبادَ الله! والتوبةُ مقبولةٌ والرحمةُ مبسوطةٌ : وبادروا بالأعمال الزكيةِ فى هــذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذَ بالكَظَم وتندَموا فلاتنالون الندمَ يومَ حسرةٍ وتأسّفٍ ، وكآبةٍ وتلهُّفٍ . يومٌ ليس كالأيام وموقف ضنك المقـام .

خطبة لهـارون الرشيد

الحمد لله الذى نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصرُه على أعدائه ونؤمن به حقًّا ونتوكل عليه مُفوّضينَ اليه . أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، فانـــ فى التقوى تكفيرَ السيئاتِ وتضعيفَ الحسناتِ ، وفوزًا بالجنة ونجاةً من النار ، وأُحذّركم يومًا تشخص فيــه

الأبصار وتُبلَى فيه الأسرار . يوم البعث و يوم التغابُن و يوم التلاق و يوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد فى حسنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ... فاتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم تُوَفّى كلُّ نفس ما كسبت . حَصّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . و إياكم والأمانى فقد غرّتْ وأردتْ وأو بقتْ كثيرا حتى أكذبتهم مناياهم ، فتناوشوا التوبةَ من مكان بعيد وحِيلَ بينهم و بين ما يشتهون . فرغّبَ ربكم عن الأمثال والوعد وقدّم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلا فجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبّة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لاتدفعون عنهم ولاتحولون دونهم ، فزالتْ عنهم الدنيا وانقطعتْ بهم الأسبابُ ، فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليجزى الذين أساءوا بما عملوا و يجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

و إن نظرةً تجلى الى النُّخَبِ الصغيرة التى اخترناها لك عن المنصور والمهدى والرشيد تعطيك فكرةً صحيحةً بأنا لم نَعْدُ لُبَابَ الصواب فيماذهبنا اليه من "أتوقراطيتها" و "بابويتها" فى طبيعة منحاها ، وطلاوتها و بلاغتها فى مبناها .

⁂

على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوة التى كانت عليها فى صدر تلك الدولة حينما استقرّت و رسخت ، اذ فترتْ عند ذلك الدواعى وهدأت الدوافع ، وأخذتْ حالتُها فى الاضمحلال لاشتداد اختلاط العرب بالأعجام ولأن الشخصياتِ البارزةَ فى الدولة كانت فى الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تتجرد ألسنتهم بالخطابة لما يصيبها أحيانا من لكنة العيّ وحَصَر العجمة و إن سمتْ معلوماتُهم وارتقت فى البلاغة أساليبُهم .

و ربما كان من المعقول أن نقول : إن الخطابةَ فى العصر العباسىّ كانت بوجه عام أقلّ منها فى العصر الأموىّ من ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مَصَاقع

لا يقلّون عن إخوانهم الأمويين بلاغة واقتدارا، بيد انها كانت متعدّدةَ الأبواب، لتشعب ما بيناه لك من الوجوه والمناحى .

(ج) الكتابة :

جرت الكتابةُ فى العهد الأوّل من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بنى أميـة : من جَوْدة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصدِ وبساطتِه، فلم يكن القومُ ليُمعِنُوا فى التصور والتفكير، أو ينظروا الى السماء فيستوحُوها، أو الى الطبيعـة فيستنطِقُوها، أو يَستَشِفُّوا ماوراء العالَم، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلةً يرمون فيهـا عن حاضر البديهة وعفوِ الخاطرِ، فلمْ يشاركوا الحكماءَ فى تفكيرهم، ولا المناطقـةَ فى حججهم، اذا استثنينا نفرا قليلا أمثال ٱبن المقفع، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيتٍ بديع، أومثل سائر، أوحكمةٍ رائعة، أوفكرةٍ سامية، أومعنى يصل الى القلب بلا استئذان، وأوغَلُوا فى ذلك حتى صاروا فصحاءَ الناس وأمراءَ البيان . فكان الأديبُ منهم يُرسل الرسالة أمام مَقْصَدِه فتعمل فى النفوس ما لا تعمله الأسنةُ والرماحُ . وناهيكَ بما كانت تفعله تلك الرسائل فى نفوس القوم ! .

فلما حَفَلَتْ بغدادُ، وأقبلت الدنيا وٱتسع السلطانُ وٱمتدّت أطرافُه، وضَمّتِ الدولة الى أحضانها أبنـاءَ الفرس والسُّريانِ، وكانوا يحملون تُراثَ آبائهم وطُرَفَ علمائهم، وأوسع الخلائفُ رحابَهم لكل ذى فضل من رجال الدولة، وعرفوا للعلم مَقَامَه فرفعوه، وللأدب صولَته فأكرموه، وقرّبوا العلماءَ والأدباءَ، وعقدوا مجالسَ للمناظرة والمنادمة — كما سنبين لك — وأكبَّ الناسُ على العلم والتأليف والترجمة، وتكشَّفَ كل ذلك عن علوم وفنون لا عهـد للعربية بها، فنقلوا اليها الطبَّ والسياسةَ والحكمةَ والفلكَ والمنطقَ والتنجيمَ، وألف المسلمون فى الفقه والنحو والحديث والتفسير — كان لكلّ ذلك أثره فى أخيلة الكُتّاب وأَسَلاتِ الأقلام ووَحْىِ القرائح، فتعدّدت الأغراضُ، وتنوعت الأساليبُ، ومال الكُتّابُ الى السهولة فى العبارة، والتأنق فى اللفظ، والجودةِ فى الرصف، وأطالوا فى المقدّمات، وتنوعوا البدء

والختامَ والألقابَ والدعاء، ومالوا الى الغلو والمبالغة؛ وهاك مثلاً ما كتب ابنُ سيابة الى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها : «للأصْيَدِ الجواد ، الوارِى الزناد، الماجد الأجداد ، الوزيرِ الفاضل، الأشمّ البازل، اللباب الحُلاَحِلِ، من المستكينِ المستجير، البائس الضرير، فإنى أحمدُ اللهَ ذا العزة القدير، اليك والى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة . أما بعد، فاغنم وآسلم وآعلم، إن كنت تعلم،أن من يَرحَم يُرحَم ، ومن يَحرِم يُحرم ، ومن يُحسِن يغنَم ، ومن يَصنع المعروفَ لا يعدَم ، قد سبق الى تغضّبُك علىّ، واطّراحُك لى ، وغفلتُكَ عنّى بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلستُ بحىّ صحيح، ولا بميت مُستريح، فررتُ بعد الله منك اليكَ، وتحمّلتُ بك عليك ...» .

أما الإطنابُ فى الكتابة فكان صفةً غالبةً فى كل ما شمل بيعة، أو عهدًا، أو احتجاجًا أو انتصارا، أو تقريرا لمذهب أو استهواء، أو دفعا لشبهة أو طلبا لنعمة، أو ما يقوم نضالا أو ما يدعو نزالا . وستجد طرفا من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهى الزاهر فى باب المنثور بالكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وقد بالغوا فى تمداح ممدوحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المنصور العباسىّ والنفس الزكية، فقد جاء مما كتبه الأوّلُ قولُه : «أما بعد، فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك ، فاذا جُلّ فخرك بالنساء لتُضلّ به الجُفَاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساءَ كالعمومة، ولا الآباءَ كالعَصَبة والأولياء ، وقد جعل العمَّ أبا وبدأ به على الوالد الأدنى، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام : ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ . ولقد عَلِمْتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعةٌ ، فأجابه اثنان أحدهما أبى ، وكفر به اثنان أحدهما أبوك . فأما ما ذكرتَ من النساء وقراباتهن فلو أُعطِينَ على قرب الأنساب وحقّ الأحساب لكان الخيرُ كلُّه لآمنةَ بنتِ وهب، ولكن اللهَ يختار لدينه من يشاء من خلقه ...» .

غير أن ذلك لم يكن يمنع أن الميلَ الى الإيجـاز له فى نفوس القوم مَقامُه، وفى قلوب البلغاء عِزُّه وسلطانُه ، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أميرٍ أو وزيرٍ أو ذى جاهٍ وسلطانٍ ، فقد رُفِـعَ الى المنصور شَكَاةٌ من أهل الكوفة لأعوجاجٍ فى عاملهم، فوقَّعَ عليها « كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم » . وكتب جعفر الى عامل شكِيَ له منه : «قد كثر شاكُوك وقلّ شاكروك ، فإمّا آعتدلت و إمّا آعتزلت » .

وقد أجمع الرواة أنَّ الحال قد بقيت على ذلك من المتانة وحسنِ الإشارة واطف المدخل وفراهة المعنى وحسن الابتداع ، حتى خلف من بعـدهم خلفٌ ضعفت فيهم ملكةُ اللغة وأعوزهم البيانُ، فمالوا الى الألفاظ وصناعتها، والأسجاع (وزَخْرَفَتِها)، و بقيت الكتابةُ تتقلب فى أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسُها مع رأس العباسيين فى القرن السابع الهجرى .

(د) مجـالس الخلفـاء والمناظرة :

لخلفاء العباسيين بحكم طبيعة دعوتهم السياسية واستفحال أمر المدنية فى أيامهم مجالسُ حافلةٌ بالأدباء والشعراء والمغنين والمنادمين قد أترِعتْ بذكرها كتبُ الآداب واستوعبَ الشيءَ الكثيرَ منها أبو الفرج الأصفهانيّ فى أغانيه .

وكانوا يُجِلُّونَ العلماءَ، كما بينا لك فى موقف الرشيد مع أبى معاوية الضرير، و يعتنون بالشعر واللغة، ويَحرِصُون على تعليم أولادهم بوساطة نُخبةٍ من رجالات عصرهم، فالمنصورُضمَّ الشرَقيّ بن القطامى الى ابنه المهدى وأوصاه أن يعلّمه أخبارَ العرب ومكارمَ الأخلاق وقراءةَ الأشعار . والرشيدُ عَهِدَ بتعليم ابنه الأمينِ الى الأحمر النحويّ ثم الكسائيّ ، وعَهِد بتأديب المأمون الى اليزيدى وسيبويه وغيرهما. وللرشيد وصيّةٌ يقال إنه أوصى بها الأحمرَ حينما عهِدَ اليه بتأديب الأمين ، ونحن نثبتها هنا لتقفَ منها على نوع التربيـة التى كان يتطلبها خلفاءُ ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدل فى الوقت نفسه على مبلغ التحوّل الذى وصلت اليه المدنيةُ العربيةُ فى العصر العباسيّ وكيف استفادت من نُظُم اليونان والفرس وغيرهم ممن وقف العـربُ على آرائهم ومؤلفاتهم .

أما الوصية فهى : « يا أحمرُ، إن أميرَ المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرةَ قلبه، فصيِّر يدكَ عليه مبسوطةً، وطاعته لكَ واجبةً، فكن له بحيثُ وضعك أميرُ المؤمنين . أقرِئه القرآنَ وعرِّفه الأخبارَ ، وروِّه الأشعارَ، وعلِّمه السُّنَنَ ، وبَصِّره بمواقع الكلام وبَدئه، وامنعْه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه، ورَفع مجالس القوّاد اذا حضروا مجلسَه . ولا تمرّن بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدةً تفيده إياها من غير أن تحزُنه فتُميتَ ذهنَه، ولا تُمعِنْ فى مسامحته فيستَحلى الفراغَ ويألفَه. وقوِّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليكَ بالشدّة والغلْظة » .

⁂

وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يعنون أيّما عناية بحفظ الأشعارِ وروايتها، ويعتبرون عدمَ حفظها مصيبةً وكارثةً؛ فقد روَى الهيثم بن عدى عن ابن عياش قال: لما مات جعفرُ المنصور بن الأكبر مشى المنصورُ فى جنازته من المدينة الى مقابرِ قريش ومشى الناسُ أجمعون معه حتى دفنه ثم انصرف الى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيعُ انظر مَن فى أهلى يُنشدنى :

* أمِنَ المنون وريبها تتوجّعُ *

حتى أتسلّى بها عن مصيبتى؛ قال الربيعُ : فخرجتُ الى بنى هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألتهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألّا يكونَ فيهم أحدٌ يحفظ هذا لقلة رغبتهم فى الأدب، أعظمُ وأشدُّ علىّ من مصيبتى بابنى. ثم قال : أنظر هل فى القوّاد والعوامّ من الجند من يعرفها، فإنى أُحبّ أن أسمَعها من إنسانٍ يُنشِدُها؛ فخرجتُ فاعترضتُ الناسَ فلم أجد أحدا يُنشِدُها إلا شيخا كبيرا مؤدّبا قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته هل تحفظ شيئا من الشعر؟ فقال : نعم شعرُ أبى ذؤيب فقلت : أنشِدْنى ، فابتدأ هذه القصيدةَ العينيةَ ، فقلت له : أنت بغيتى، ثم أوصلته الى المنصور فاستنشده إياها، ثم أجازه بمائة درهم .

أما التحوّل العظيم الذى حصل فى أبهاء "صالونات" الخلفاء الخاصة بالمنادمة، فالحديثُ عنه يطول . وحسبُك فى ذلك ما يدلى به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين ، فإنه يحدّثك بما يَنقَعُ الغُلّةَ إذ قد سُئل عن أحوال الأُمَويين فى الشراب واللهو فتكلم بإيجاز عن حالتهم، وسُئِل عن العباسيين فوصفَ وأجادَ وصوّرَ وأفاد قال :

« أما معاويةُ ومَرْوَانُ وعبدُ الملك والوليدُ وسليمانُ وهشامٌ ومروانُ بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستار، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمُغْنّى والتَذَّ حتى ينقَلِبَ ويمشى ويحـرّك كتفيْه ويرقُص ويتجرّد حيث لا يراه إلا خواصّ جواريه، إلّا أنّه كان اذا ارتفع من خلف الستار صوتٌ أو نعيرُ طَرَبٍ أو رقصٌ أو حركةٌ بزفيرٍ تُجاوزُ المقدارَ قال صاحب الستار : حَسْبُكِ ياجاريةُ كُفّى ! انتهى ! أقصِرى ! يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى . فأما الباقون من خلفاء بنى أمية، فـلم يكونوا يتحاشَـوْن أن يرقصوا ويتجرّدوا ويحضُروا عُراة بحضرة الخلفاء والمغنّيـن ، ومع ذلك لم يكن أحد منهم فى مثل حال يزيد بن عبـد الملك والوليد بن يزيد فى المجونِ والرَّفثِ بحضرة الندماء والتجرّد ما يباليان ما صنعا .

قلت : فعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ما طنّ فى سمعه حرف غناءٍ منذ أفضتِ الخلافة اليه الى أنْ فارق الدنيا، فأما قبلها، وهو أمير المدينة، فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل . وكان ربما صفق بيديه، وربما تمرّغ على فراشه وضرب برجليه وطرِب، فأما أن يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا .

قلت : فخلفاؤنا (خلفاء بنى العباس) .

قال : كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعـد سنةٍ، أشار بذلك عليه أسـيد بن عبد الله الخزاعى . وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستار :

« أحسنتَ والله ! أعِدْ هذا الصوتَ » فيُعاد له مرارًا، فيقول فى كلها : « أحسنتَ ». وكانت فيه فضيلةٌ لا تجدها فى أحدٍ، كان لا يحضُره نديمٌ ولا مغنٍّ ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بِصِلَةٍ أو كُسْوَةٍ قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، وكان لا يُؤَخِّرُ إحسانَ محسنٍ لغدٍ، ويقول : « العجب ممن يُفْرِحُ إنسانا فيتعجّلُ السرورَ ويجعل ثواب من سَرَّه تسويفا وعِدَةً » فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحدٌ ممن حضره إلّا مسرورا، ولم يكن هذا العربىّ ولا عجمىّ قبله . غير أنه يُحكى عن بَهْرامَ جُور ما يُقارِب هذا .

" فأما أبو جعفر المنصور فلم يكن يظهر لنديم قطُّ، ولا رآه أحد يشرب غيرَ الماء . وكان بينه وبين الستار عشرون ذراعا ، وبين الستار والندماء مثلها . فاذا غنّاه المُغَنّى فأطربه حرّكتِ الستارَ بعضُ الجوارى، فاطّلع اليه الخادمُ صاحبُ الستار فيقول : قل له « أحسنتَ بارك الله فيك » وربما أراد أن يُصَفِّقَ بيديه فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه فيكون ذاك هناك . وكان لا يُثيب أحدًا من ندمائه وغيرهم درهما فيكون له رَسْمًا فى ديوان . ولم يُقْطِعْ أحدًا ممن كان يضاف الى مُلْهِيَةٍ أو ضَحِكٍ أو هزْلٍ موضعَ قدمٍ من الأرض، وكان يحفظ كلَّ ما أعطى واحدا منهم عَشْرَ سنين ويحسبه ويذكره له .

" وكان المهدىُّ فى أوّل أمره يحتجب عن الندماء متشبّها بالمنصور نحوًا من سنة ثم ظهر لهم، فأشار عليه أبو عَوْنٍ بأن يحتجبَ عنهم فقال : « إليك عنّى يا جاهل ! إنما اللذةُ فى مشاهدة السرور وفى الدنُوّ ممن سرّنى ، فأما من وراء وراء فما خيرُها ولذّتُها ! ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوانِ إلا أنى أُعطيهم من السرور بمشاهدتى مثلَ الذى يُعطونى من فوائدهم لجعلتُ لهم فى ذلك حظا مُوَفَّرًا » . وكان كثيرَ العطايا يواترها، قلَّ مَنْ حضره إلا أغناه، وكان لَيِّنَ العريكة، سَهْلَ الشريعة، لذيذَ المنادمة، قصيرَ المناومة، لا يَمَلُّ نديما ولا يتركه إلا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبورا على الجلوس، ضاحك السِّن قليل الأذى والبَذاء .

« وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق، صَعْبَ المرام، قليـلَ الإغضاء، سَيِّء الظنّ ، قلّ مَن توقّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شيءٌ أبغض اليـه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للمغنى بالمـال الخطير الجزيل فيقول : « لا يُعطينى بعدها شيئا » فيعطيه بعد أيام مثلَ تلك العطيّة .

«ويقال : إنه قال يوما وعنده ابن جامع وابراهيم الموصلى ومُعاذ بن الطبيب — وكان أوّل يوم دخل عليه مُعاذ وكان حاذقا بالأغانى عارفا بها — : مَن أطربنى اليومَ منكم فله حُكْمُهُ فغناه ابن جامع غناء لم يحرّكه . وكان ابراهيمُ قد فهم غرضَه فغناه :

سُلَيمَى أجمعَتْ بينَا ٭ فَأيْنَ تقولُهـا أيْنَـا

فطرِب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال : « أعِدْ بالله وبحياتى ! » فأعاد فقال : «أنت صاحبى فاحتَكِمْ» . فقال إبراهيمُ : يا أمير المؤمنين، حائطُ عبد الملك بن مروان وعينُه الخرّارةُ بالمدينة، قال: فدارت عيناه فى رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان . ثم قال : «يابن اللخناء! أردت أن تُسْمِعَ العامةُ أنك أطربتَنى ، وأنى حكّمتُكَ فاقطعتُك ، أما والله لولا بادرةُ جهلكَ التى غلبتْ علىٰ صحيح عقلكَ وفكركَ ، لضربتُ الذى فيه عيناكَ ! » ثم سكتَ هُنَيهةً . قال إبراهيم : فرأيتُ مَلَكَ الموت قائما بينى و بينه ينتظر أمره . ثم دعا إبراهيم الحرّانى ، فقال «خُذ بيدِ هذا الجاهلِ فأدخِلْه بيتَ المـال فليأخُذْ منه ما شاء ! » . فأخذ الحرّانىُّ بيدى حتى دخل بى بيتَ المـال ، فقال كم تأخذ؟ فقلت مائةَ بدرةٍ ، فقال : دعنى أؤامره ، قلت : فآخذُ تسعين ، قال : حتى أؤامرَه ، قلت : فثمانين ، قال : لا ، فأبى إلا أن يؤامره ، فعرفتُ غرضَه ، فقلت له : آخذ سبعين لى ولك ثلاثون ، قال : شأنَكَ ، قال : فانصرفتُ بسبعين ألفا وانصرف مَلَكُ الموت عن الدار .

قال : وكان الرشيدُ فى أخلاق أبى جعفر المنصور يتمثلها كلّها إلا فى العطايا والصِّلات والخلَع . فانه كان يقفو فعـلَ أبى العباس والمهدىّ ، ومَنْ خبَّرك أنه رآه قط وهو يشرب

إلا الماء، فكذّبه، وكان لا يحضُر شربَه إلا خاصُّ جواريه ، وربما طرِبَ للغناء فتحرّك حركةً بين الحركتين فى القِلَّة والكثرة .

«وهو من بين خلفاء بنى العباس مَن جَعَل للمغنين مراتبَ وطبقاتٍ، على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنو شِروان، فكان إبراهيم الموصلىّ ، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع ، وزلزل منصور الضارب فى الطبقة الأُولى ، وكان زلزل يضرب ويغنّى هٰذانِ عليه . والطبقة الثانية سُلَيم بن سلاّم "أبو عبيد الله الكوفى"، وعمرو الغزال ومَن أشبههما . والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصنج والطنابير . وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصِلاتُهم . وكان اذا وَصَلَ واحدا من الطبقة الأُولىٰ بالمال الكثير الخطير جعل لصاحبيه اللّذين معه فى الطبقة نصيبا منه ، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا . واذا وُصِل أحد من الطبقتين الأخريين بصلة لم يقبل واحدٌ من الطبقة العليا منه درهما ، ولا يجترئ أن يَعرِضَ ذلك عليه .

« قال : فسأل الرشيدُ يوما برصوما الزامر، فقال له : يا إسحاق! ما تقول فى ابن جامع؟ فحرّك رأسه وقال : خمرُ قُطْرُبُّلَ(١) يعقِل الرّجْلَ ويذهب العَقْلَ . قال : فما تقول فى إبراهيم الموصلىّ؟ قال : بستانٌ فيه خوخ وكُمّثرى وتُفّاح وشَوْكٌ وخَرنوبٌ . قال : فما تقول فى سُلَيم بن سلاّم ؟ فقال : ما أحسَنَ خِضابه . قال : فما تقول فى عمرو الغزّال ؟ قال : ما أحسنَ بنانَه . قال : وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق مَن بَرَأَ الله بالحَسّ . فكان اذا جَسَّ العودَ فلو سمعه الأحنفُ ومَن تحالم فى دهره كلّه لم يملكْ أن يطربَ .

« قال ابراهيم : فغنيتُ يوما على ضربه، فخطّأنى، فقلتُ لصاحب السّتار : هو والله أخطأ . قال : فرفَعَ الستار ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأتَ ! فحمى زلزلُ وقال : يا ابراهيم تُخطئنى ! . فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه بغير لفظ إلا عرفتُ غرضَه .

(١) قطربل بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام : اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر وما زالت متنزها للبطالين وحانة للخمارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها . أنظر ياقوت فى قطربل .

فكيف أُخَطِّئُ وهذه حالى! فأداها صاحبُ الستار . فقال الرشيد: قل له صدقتَ، أنت كما وصفتَ نفسك وكذب ابراهيمُ وأخطأ . قال ابراهيم : فغمّنى ذلك ، فقلت لصاحب الستار : أبلغ أمير المؤمنين سيدى ومولاى ، أنّ بفارس رجلا يقال له سُنَيْدٌ ، لم يخلق الله أضربَ منه بعود ولا أحسنَ مجسًّا ، و إن بعث اليه أميرُ المؤمنين لحمله عرف فضلَه وتغنيتُ على ضربه ، فإن زُلْزُلًا(١) يكايدنى مكايدةَ القُصّاص والقرّادين . قال : فوجه الرشيد الى الفارسىّ فحُمِلَ على البريد فأقلق ذلك زُلْزُلًا وغمّه . فلما قدم الفارسىّ ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاءوا بالعيدان قد سُوِّيَتْ ، وكذلك كان يفعل فى مجلس الخلافة ليس يُدْفَعُ الى أحد عودُه فيحتاجُ الى أن يحرّكه لأنها قد سُوِّيَتْ وعُلِّقَتْ مَثالثُها مشاكِلَةً للزِّيرة على الدقّة والغلظ . قال : فلما وُضِعَ عودُ الفارسىّ فى يديه ، نظر اليه منصور زلزل ، فأسفر وجهُه وأشرق لونُه ، فضرب وتغنّى عليه ابراهيم . ثم قال صاحبُ الستار لزلزل : يا منصور اِضرِبْ ! قال : فلما جسَّ العودَ ما تمالك الفارسىّ أن وثب من مجلسه بغير إذن حتّى قبل رأسَ زُلْزُلٍ وأطرافَه ، وقال : مِثلُكَ ، جُعِلتُ فِداك ! لا يُمْتَهَنُ ويُستعمَلُ ، مثلك يُعْبَدُ . فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسىّ . فأمر له بصلة وردّه الى بلده .

«وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم ، نزل بين ظَهْرَانَىْ قومٍ وقد كان يحلّ لهم أخذ الزكاة فما مات حتى وجبت عليهم الزكاة .

« وكان اسحاق بَرْصُومَا ، فى الطبقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما لِزَمْرِه ، فقال له صاحب الستار : يا إسحاق اُزْمُرْ على غناء ابن جامع . قال : لا أفعلُ . قال : يقول لك أميرُ المؤمنين ولا تفعل! قال : إن كنت أزمُرُ على الطبقة العليا رُفِعتُ اليها ، فأما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزْمُرَ على الأولى فلا أفعلُ ! فقال الرشيدُ لصاحب الستار : اِرفعه الى الطبقة الأولى ، فاذا قمتُ فادفع البِساطَ الذى فى مجلسهم اليه . فرُفِعَ اسحاقُ الى الطبقة العالية وأخذ البساطَ وكان يساوى ألفىْ دينار . فلما حمله الى منزله استبشرت به أمُّه وأخواته وكانت أمه نَبَطِيَّةً لكاء تخرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته،

(١) كذا ضبطه صاحب القاموس « كقنفذ » وضبطه ابن خلكان « كهدهد » .

وجاء نساء جيرانه يُهنِّئْنَ أمه بما خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لها ، فأخذت سكينا وجعلت تَقْطَعُ لكل من دخل عليها قطعةً من البساط حتى أتت على أكثره . فجاء برصوما فاذا البساطُ قد تُقُسِّمَ بالسكاكين . فقال : ويلاِ ما صنعتِ . قالتْ : لم أدر، ظننتُ أنه كذا يقسم . فحُدِّثَ الرشيد ذلك فضحك ووهبَ له آخرَ .

«وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلى غنَّى أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير طربا فاستعاد عامّةَ ليله ، وقال : ما رأيتُ صوتا يجمع السخاءَ والطربَ وجودةَ الصنعةِ والخفةَ غيرَ هذا الصوتِ ، فأقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين، لو وَهبَ لك إنسانٌ مائة ألف درهم أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحة، كنتَ أسَرَّ بها أو بهذا الصوت؟ قال : والله لأنا أسرّ بهذا الصوت منى بألف ألفٍ وألف ألف . قال : فلو فقدتَ من بيت مالك مائة ألف كان أشدّ عليك أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرورُ؟ قال : بل ألف ألف وألف ألف أهون علىّ . قال: فلم لا تَهَب مائة ألف أو مائتى ألف لمن أتاك بشىء فقد ألفى ألف أهون عليك منه! فأمر له بمائتى ألف درهم .

* * *

امتاز العصرُ العباسى بتقدم مجالس المناظرة ورَونقها وتنظيمها وقيدِ المناقشاتِ فيها . وقد يكون من المفيد إعطاؤك صورةً صحيحةً للمناظرة وعِظَمِها ، واهتمامهم بترويق عبارتها، وطلاوةِ أساليبها، وبلاغة تراكيبها، وملاحظة قوة الحجة فيها، بأن ننقل اليك مشاورةَ المهدى لأهل بيته . وهى إن صحت تعتبر أثرا أدبيا له قيمتُه وخطرُه ، وأثرا سياسيا لمناقشات القوم السياسية ولتضمنها خُطَطًا ونصائحَ لا يزيد عليها إلا تلك النصائح التى تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأمونى لابنه عبد الله، وستراه فى موضعه من باب المنثور بالكتاب الثالث فى المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فستجدها فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

(هـ) الشـــعر :

لا يُقدّسُ العرب من علوم الحياة وفنونها شيئا أكثر من تقديسهم الشعرَ الذى استودعوه أفكارهم وأخبارهم، وحفظوا به فخرهم ومناسبهم وساقوا به الجيوشَ والجحافلَ، فدكّتْ عروشًا وأبادت ممالكَ، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ما جعله مكانَ فخرهم ومفزَعَ أمرهم، فكنتَ تجد العربىَّ يسمع البيت من الشعر فيترنح ترنح النشوان، ويثور حتى كأنه جبل نار وكثيرًا ما سجدوا أمامه، لمكانه من نفوسهم . وقد روى الأصمعىّ وغيره من ذلك شيئا كثيرا .

وقد بقيت للشعر هذه المكانةُ فى كلّ عصوره العربية، ولم يَنَلْ منه ان دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس، وحلُّوا منها مكانَ الصدورِ والحكامِ، فإن الخلفاءَ والسادةَ وجمهرةَ الأمراءِ والأدباءِ، كانوا يحملون فوقَ أكتافهم رءوسًا عربيةً حفظوا فيها تُراثَ آبائهم ومفاخرَ أجدادهم، وأقبلوا على الشعر وإنشادِه، وكانوا هم أنفسُهم يَقرِضون الشعرَ. واليك ما جاء فى عيون الأخبار عن المنصور قال : "كان عمرو بن عُبَيد اذا رأى المنصورَ يطوف حول الكعبة فى قرطين يقول : إن يُرد الله بأمة محمد خيرًا يولِّ أمرَها هذ الشابَّ من بنى هاشم . وكان له صديقًا . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكلمه وأراد الانصراف قال : يا أبا عثمان، سل حاجتك، قال : حاجتى ألا تبعث الىَّ حتى آتيك، وألا تعطينى حتى أسألك . ثم نهض فقال المنصور :

* كلهم ماشى رُوَيد * كلهم خاتلُ صيد *
* غيرَ عمرو بن عُبَيد *

فلما مات عمرو رثاه المنصور فقال :

صلى الاله عليكَ من مُتوسِّدٍ * قبرا مررت به على حرّان
قبر تضمَّن مؤمنا متحنفا * صدقَ الالهَ ودان بالقرآن
واذا الرجالُ تنازعوا فى سُنّة * فصلَ الحديثَ بحكمةٍ وبيان
فلو آن هذا الدهر أبقى صالحا * أبقى لنا حيًّا أبا عثمان

ولقد أحضروا لأبنائهم المؤدبين يثقفونهم على الشعر واستظهاره، وجلسوا للشعراء مجالس أثابوا فيها وأعطَوْا، ووهبوا من المِنَح ماوهبوا . روى الفضل بن الربيع : «أن مروان بن أبى حفصة دخل على المهدىّ بعد وفاة معن بن زائدة الشيبانىّ فى جماعة من الشعراء فيهم سَلْمٌ الخاسر وغيرُه، فأنشد مديحًا فيه، فقال له : ومن أنت؟ قال : شاعرُك ياأمير المؤمنين وعبدُك مروانُ بنُ أبى حفصة، فقال له المهدىّ : ألست القائل :

أقمنا باليمامة بعد مَعْنٍ * مُقَامًا لا نريدُ به زوالا

وقلنا أين نرحلُ بعد معنٍ * وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا! لاشىء لك عندنا، جُرّوا برجله فجرّوا برجله حتى أُخرِجَ . فلما كان من العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء فمثل بين يديه وأنشد :

طرقَتْك زائرةً فحىِّ خيالَها * بيضاءُ تخلط بالجمال دلالَها

قادَتْ فؤادَك فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوبَ الى الصّبا فأمالَها

قال : فأنصت له الناسُ حتى بلغ قوله :

هل تطمِسُون من السماء نجومَها * بأكفكم أو تسترُون هلالَها

أو تجحدون مَقالةً عن ربكم * جبريلُ بلّغها النبىَّ فقالَها

شهدَتْ من الأنفال آخرُ آيةٍ * بتُراثهم فأردتمو إبطالَها

قال : فرأيت المهدىّ قد زحف من صدر مُصَلّاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع؛ ثم قال : كم هى ؟ قال : مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالُها وقعتْ لكثير من الأمراء والوزراءِ الذين عرفوا للشعر منزلته، فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأُموِيُّون يستعينون به فيها. وحسبُكَ أن نقول لك : إنهم استعملوه فى المفاخرة وفى إثارة العصبية واستحقاق الخلافة ، وفى الهجاء

والتحريض ؛ فقد دخل سديفٌ على عبد الله بن على العباسى وعنده جماعةٌ من بنى اميــة فأنشده قولَه :

لا يَغُرَّنْكَ ما ترى من أُنَاسٍ * إن تحتَ الضـلوع داءً دَوِيًّا

فَضَعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى * لا ترى فوق ظـهرها أُمَوِيًّا

فأمر عبدُ الله فذهبت أرواحهم هباء .

وكثيرا ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء ويحتالون به على قضاء حاجاتهم ، ويُقدِّمونه أمامَهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب ؛ فقد رووا أن الرشيدَ عند رجوعه من حرب الروم أتاه كتاب ، وهو فى الطريق ، من ملك الروم "نِقْفُور" يفيد نقضَ الصلح الذى عقد معه ، فهاب القومُ إخبارَ الرشـيد وامتنعوا عن مكاشـفته ، وقدّموا لمكالمته من الشـعراء الحجاجَ بن يوسف التيمى واسماعيلَ بن القاسم أبا العتاهيـة وغيرهما ، فأنشـده الحجاجُ بن يوسف :

نقض الذى أعطيتَـه نقفورُ * وعليـه دائرةُ البـوارِ تدورُ

أبشر أميرَ المؤمنين فإنه * غُـنْمٌ أتاك به الاله كبيرُ

فلقد تباشرتِ الرعيَّـةُ ان أتى * بالنقض عنه وافدٌ وبشـير

ورَجتْ يمينك أن تُعجِّل غزوةً * تشفى النفوسَ مكانُها مذكورُ

أعطاك جِزْيتَـه وطاطأ خدّه * حذرَ الصوارم والردى محذورُ

فأجرتَه من وقعها وكأنهـا * بأكفنا شُعَلُ الضرام تطيرُ

وصَرَفْتَ بالطول العساكرَ قافلا * عنـه وجارُك آمِنٌ مسـرورُ

نقفور إنك حين تغدرُ أن نأى * عنـك الإمام لجاهـلٌ مغرورُ

أظننتَ حين غدرتَ أنك مُفْلِتٌ * هَبِلتك أمُّك ما ظننتَ غرورُ

ألقاك حَيْنُك فى زواخر بحره * فطمَتْ عليك من الإمام بحورُ

إن الإمامَ على اقتسارك قادرٌ * قرُبت ديارُك أم نأت بك دورُ

ليس الإمامُ وإن غفلنا غافلا * عما يسوسُ بحزمه ويُديرُ
ملك تجرّد للجهاد بنفسه * فعدوه أبدا به مقهورُ
يامن يريد رضا الاله بسعيه * واللهُ لا يخفى عليه ضميرُ
لا نصح ينفع من يَغُشُّ إمامَه * والنصحُ من نصحائه مشكورُ
نُصحُ الإمامِ على الأنام فريضةٌ * ولأهلها كفارةٌ وطهورُ

فكرّ الرشيد راجعا فى أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما اراد . فقال أبو العتاهية :

ألا نادتْ هِرَقْلةُ بالخراب * من الملكِ الموفّقِ بالصواب
غدا هارونُ يُرعِدُ بالمنايا * ويُبرِقُ بالمذكّرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها * تمر كأنها قِطعُ السحابِ
أميرَ المؤمنين ظفرتَ فاسلم * وأبشر بالغنيمة والإياب

* * *

وكان الشعراءُ يلعبون دوراً هاماً فى الحياة الحزبية . وحسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم كأبى دلامة، وحمّاد عجرد، وبشار بن بُرْد، ومروان بن أبى حفصة، وسَلْم الخاسر، وأبى نُواس، ومنصور النمرى، وغيرهم . وللبرامكة شعراء أمثال أبَان بن عبد الحميد، وابن مناذر والرقاشى وغيرهم ، ولسائر الأمراء شعراء . وهناك شعراء لم يكتسبوا بالشعر كصالح بن عبد القدّوس ، وشعراء للشيعة كالسيد الحميرى وسليمان قتة ودعبل ، وشعراء لم يتحضروا كربيعة الرّقى وكلثوم بن عمرو العتابىّ وغيرهم . وإنّا نحيلك هنا الى ما أثبتناه لك من منظوم العصر العباسى، فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وجماعُ المقالِ أن الشعرَ العباسى قد تضمّن فنونا عديدة، ولكنه لا يحتج به فى اللغة كالأموى مثلا ، لأن النّقدَة فى الشعرِ والأدبِ جعلوا حدّهم بشاراً ولم يتعدّوه بسبب تفشى اللحن واستفحال اختلاط الأعجام بالعرب .

على أن الشـعراء العباسيين قـد تفننوا فى أنواعه أيما تفنن من قول فى المهاجاة إلى قول فى الأخلاق، الى مُلَح الى تضَرُّع الى وصف، الى هجو الخلفاء برضاهم الى مدحهم. وعلى الجملة فقـد استعملوه فى كل غرض من أغراض الحياة من مُفاخرة وخمريات وزهريات ورثاء، كما أن منهم من ذكر الوقائعَ العربيةَ فى شعره ؛ فأثرى الشعراءُ وأترفوا. وحسبُكَ أن تعلم أن سَلْمًا الخاسرَ خلّف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم غير الضياع . ومثله مروان بن أبي حفصة وغيرهما . وسكن الشعراء الآطام والقصور، واقتنوا الأُنُف الحسّانَةَ من الحدائق وشاهقات الدور، واستخدموا الجواريَ والغلمان، وأمعنوا فى شهواتهم ولذاتهم وتنعّموا بحطام الدنيـا ومرافهها، فسَهُلَتْ ألفاظُهم، ورقت طباعهم، وقلّ اقتضابُهم، وحاولوا الخروجَ على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يستبدلوا الخمرَ وساقيها من الدار وبانيها . وتقدّم فى ذلك النواسى يحمل علمهم فقال :

صِـفَةُ الطُّلولِ بَلاغةُ القُـدْمِ ٭ فاجعل صفاتِكَ لابْنـةِ الكرمِ

وقد بالغ فى ذلك حتى سجنه الخليفةُ وأخذ عليه ألا يذكرَ الخمرَ فى شعره، فقال :

أَعِرْ شِعْرَكَ الأطلالَ والمنزلَ القفرَا ٭ فقد طالما أزرى به نعتُكَ الخمـــرا

دعانى الى نعت الطـــلول مُسَلَّط ٭ تضيقُ ذِراعى أن أردّ له أمرا

فسمعًا أمـــيرَ المؤمنين وطاعةً ٭ وإن كنتَ قد جشّمْتَنى مركبا وعْرا

ونهج كثيرٌ من الشعراء نهجَ أبى نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الآن .

⁂

هذا الترفُ الذى شمِل القومَ، يضاف اليه اختلاطُهم بالأعاجم، وما كان لهم فى ذلك الوقت من حرية فى التصور والتفكير، جعلهم يفتحون فى اللغة العربية فتحا جديدا يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيُدخِلونها فى أشعارهم وآثارهم، وتمتد أيديهم الى كثيرٍ من اللفظ الأعجمى يصوّرون ما جاد به النعيمُ وما استلزمته الحضارةُ . فيقول أبو نواس فى ذلك :

وذات خــد مُورّدْ * قُوهيّــة المتجــرّدْ
تأمّـــلُ العين منهـا * محاسنًا ليس تنفَــد
فبعضُها قــد تناهى * وبعضهـا يتـــولّد
والحسنُ فى كل عضو * منهـا مُعَـادٌ مُرَدّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا مناظرَ الطبيعة ورغدَ العيش ونعيمَه، وصحبةَ الإخوان وغناءَ القيانِ، ومصايدَ الوحشِ والطـيرِ، ومجالسَ الأنسِ والسرورِ، وابتـدعوا كثيراً من المعانى الجديدةِ، كقول بشار :

يا قَوم أُذْنِى لبعض الحىّ عاشقةٌ * والأذنُ تَعشقُ قبـل العين أحيانا
قالوا بمن لا تَرَى تَهذِى فقلت لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وقال أبو تمّـام :

وإذا أراد الله نشرَ فضيــلةٍ * طُوِيَت أتاحَ لهـا لسانَ حَسـود
لولا اشـتعالُ النـار فيما جاورتْ * ما كانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُود

بقيت هنالك أمور جديرة بالاهتمام، كان يصح أن نقفَ عندها قليـلا، فقد بالغوا فى الوصف، وفتحوا باب القصص، وتغزلوا بالغلمان، ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصر المأمون

الفصل الأول

محمد الأمين

توطئة — مولده — نشأته وأخلاقه .

(١) توطئة :

فى التاريخ الأموى مأساةٌ مُرَوِّعةٌ، وهى أن جندَ الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا خليفتهم، وحزوا رأسَه، وذهبوا به الى يزيدَ، فنصبه على رمح وطِيفَ به فى دمشقَ !

كانت تلك المأساةُ المروِّعةُ نتيجةَ دعوةٍ سياسيةٍ حادّةٍ، على الخليفة الوليد الذى تُشبهُ حالتُه السياسيةُ من جلّ وجوهها حالةَ الأمين ؛ فقد كان من ضحايا نظام ولاية العهد الثانى، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعلَه خليفةً بعده، فاضطر الى تولية أخيه هشام، ثم ابنه الصغيرِ الوليدِ بعد هشام . فحاول هشام أن يولّى ابنَه مسلمةَ بدل الوليد، كما حاول يزيدُ من قبل توليةَ ابنه الوليدِ، فلم يُفلحْ هذا ولا ذاك . وكانت النتيجةُ المعقولةُ لخطتهما السياسية : من محاولة كليهما خلعَ ولىّ العهد والبيعةِ لولده، أن انضم الى كلٍّ بعضُ القوّاد والزعماء والأنصار، تأييدا له فيما يريد . وكان هؤلاء القوّادُ والزعماء والأنصار يصبحون موضع المقت والاضطهاد من ولىّ العهد المضطهد متى ولِى الخلافة وصار الأمر

إليه . فاذا ما اضْطُهِدَ الخليفةُ نفسُه وحَبِطت خُطَّتُه كان نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين .

نريد أن نقول، إرضاءً للعلم والتاريخ والمنطق، أن الرواة اذا قالوا مثلا : إن الوليـد كان كافرا أو كان مجموعةَ قبائحَ، أو أنه سلّم يوسف الثقفيّ كلا من محمـد وابراهيم ابنى اسمـاعيل المخزوميّ موثقين فى عباءتين، وأن يوسـف أقامهما للنـاس وجلدهما وعذبهما وأماتهما؛ أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام، وفرق بين رَوْح بن الوليـد وبين امرأته؛ أو ذكروا أنه عذّبَ خالد بن عبد الله القَسْرىّ سيدَ اليمن وأنه سلمه للثقفىّ فنزع ثيـابه وعذبه مُرَّ العـذاب حتى أماته؛ أو وصفوا مُنَافِسَـه يزيدَ بالنسـك والورع — فإن من واجب المؤرّخ المنصف، المتحرّى للحقائق التاريخية، والراغب فى النصفة العلمية، والمتمشى فى أناة وترو وحكمة مع الافتراضات التحليلية، والخاضع لأحكام المنطق والحيدة والتعقل، أن ينظر بتحفّظ وتحرز كبير، الى مثـل تلك الروايات التى يوصَفُ بها الخليفةُ المضطَهَدُ والمغلوبُ على أمره، وكل من آنثـلّ عرشه وضاع ملكه، وخُتِمَتْ بالقتـل أو الحرمان حياتُه .

على أنه يجدر بنا أن نتساءل، قبـل أن نقتحم موضوعنا فى هـدوء وسكون : ما هو الروح الذى يغلب على الرواة المعاصرين، والشـعراء المعاصرين، والكتّاب المعـاصرين، والمُحَدِّثينَ المعاصرين ؟ وما النهج الذى تسلكه الصحافة المعاصرة ؟ أليس هو الى حدّ غيرِ قليلٍ، مُناصَرةَ الحزبِ القوىّ أو الزعيم القـوىّ مناصرةً حارّةً قوية حادّة، وقد لا تخلو من مبالغةٍ فى تمدحها بمحاسنه، وإغراقٍ فى زرايتها على خصمه بنقائصه .

فمهمّة المؤرّخ اذاً — حين يَعْرِض لحياة خليفـة مضطهَد انتهت حياته بحزّ رأسـه : مثل حياة الوليـد بن يزيد الأموىّ، ومحمد الأمين العباسىّ، وحين يعرِض لتحليل حيـاة خليفـة منتصر : مثل حياة يزيد خصم الوليد فى العصر الأموىّ، وحياة عـبد الله المأمون خصم محمد الأمين فى العصر العباسىّ — ليست ميسورةً معبّدة بل هى جدّ شائكة .

وقد يكون من الحصافة والنَّصَفةِ العلميةِ أن يُعرَض ما يرويه الرواةُ المعاصرون من مَدْح للغالب وانتقاص للمغلوب، على بساط البحث التحليلي . ولسنا نرمي بذلك الى أن تُرفَض مقولاتهم وتُنتقص بلا حقٍ وجاهةُ رواياتهم ، وإنما نوصى بالحيطة والاحتراس لا أكثر ولا أقل .

(ب) مولده :

بعد هذه التوطئة الوجيزة التى لم نَرَ مَنْدُحَةً عن إثباتها فى هذا الموضع، نبدأ كلمتنا عن محمد الأمين ، من الناحية التحليليةِ لأخلاقِه . أما ناحيةُ النزاع الذى شجر بينه وبين أخيه المأمون، فلها موضِعُها التاريخيُّ من كتابنا :

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد، ولد سنة سبعين ومائة هجرية، وهى السنة التى آستُخلِفَ فيها والدُه الرشيدُ . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر . وُلِدَ المأمون فى الليلة التى استُخلِفَ فيها والدُه .

وأم الأمين أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فهو هاشميّ الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسيّ غيره .

واذ كان أخوالُه هاشميين ولهم فى الدولة نفوذٌ قويٌ وكلمةٌ مسموعةٌ، فقد سَعَوْا، فيما يحدثنا التاريخ ، حين مَدّ جماعةٌ من بنى العباس أعناقهم الى الخلافة ، الى أن يكون الأمرُ الى آبن أختهم، وقد نجحوا .

سعى خالُ الأمين عيسىٰ بنُ جعفر بن المنصور الى الفضل بن يحيىٰ الذى بعثه الرشيد على رأس جيش الى خراسان، لمحاربة بعضِ الخارجين على الخلافة، وتسكينِ الاضطرابِ فى تلك النواحى، وقد كان التوفيقُ حليفَه فى ذلك الوجه، فقال عيسى للفضل : «أَنْشُدُكَ اللهَ لَمّا عملتَ فى البيعة لابن أخى، فانه ولدك وخلافتُه لك»؛ فوعده الفضلُ أن يفعل .

فلما كان الفضل بخراسان ، يُدِل بما واتاه فيها من ظهور على الخارجين، وهو بعدُ من آل برمك وزراء الرشـيد، وأصحاب السلطان العظيم فى الدولة، بايع لمحمد الأمين هو ومن معـه من القوّاد والجند ، بعـد أن فرق أموالًا عظيمةً، وأعطى أعطياتٍ كثيرةً . وتغنّى بذلك شعراء العصر، أمثال أبان بن عبد الحميد اللاحق، والنمرىّ وسَـلْم الخاسر وغيرهم . ولبيان وجهة نظرِهم فى البيعة نقتطف لك شيئا ممـا قاله سلم والنمرىّ .

قال سَـلْمٌ :

قـد وفَّقَ اللهُ الخليفةَ إذ بنى * بيتَ الخليفة للهجانِ الأزهرِ

فهو الخليفةُ عن أبيـه وجدّه * شهدا عليـه بمنظرٍ وبمخبَرِ

قد بايع الثقلان فى مهدِ الهدىٰ * لمحمـد بن زبيدة ٱبنة جعفر

وقال النمرىّ :

أمسَتْ بمروٍ على التوفيق قد صَفَقَتْ * على يد الفضلِ أيدى العُجْمِ والعربِ

ببيعـةٍ لولىّ العهـد أحكمها * بالنصح منه وبالإشـفاقِ والحدبِ

قد وكّد الفضلُ عقدًا لا ٱنتقاضَ له * لمصـطفًى من بنى العبـاس منتخَبِ

فلمـا تناهى أمر البيعة الى الرشـيد، ووجد نفسـه أمام «الأمر الواقع» ، إذ قد بايع لمحمد أهلُ المشرق، بايع له بولاية العهد، وكتب الى الآفاق فبويع له فى جميع الأمصار .

ومن هـذا تعلم ما يصح أن يعتبر سرًّا فى أن الأمين كان ولىّ عهد الرشـيد، دون أن يكون أكبر ولده سنا .

*
* *

(ج) نشأته وأخلاقه :

تقرأ ما سـطره أمثال "كارليـل" عن "كرومول" و "فردريك الأكبر" وما كتبه "ترفيان" عن "ماكولى" و "بزول" عن "جونسـون" و "اللورد مورلى" عن

"جلادستون"، وغيرهم من الكتّاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو الساسة أو العبقريين ، فتلاحظ ، فى جل كتبهم ، وفى الدقيق المستوفى منها على الأخص، أنهم يحفلون أيّما احتفالٍ، بقيد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلهم فى طفولته، وكيف كانت ثقافته فى ميعة شبابه وطراوة إهابه ، وما هى الأوابدُ والغرائبُ أيام كان حَدَثاً صغيرا . وقد لاتُدهِشُكَ متانة "ما كولى" وقوةُ سبكه وارتفاعهُ الى ذِرْوَة البلاغة فى أساليبه، ولا يهولُكَ كثرةُ ما حفظ ووفرة ما اطلع، اذا علمت مثلًا أنه وهو لم يعدُ السادسةَ أو السابعة كانت محفوظاته فى طفولته ، تبشر بعبقريته فى رجوليته . وكذلك يقال عن "شارلس دكنز" وسيع الاطلاع فى صباه على جلّ ما سُطِّرَ وكُتِبَ ، حتى صار فى مقتبل حياته وقد ملك ناصيةَ البلاغة ، وتسنّمَ الذروة فى تعرّف النفسيات وتحليل روح الطبقات كافة : من بائسين مُعْوِزين الى أشراف مترفين . وكذلك يقال عن "سبنسر" الفيلسوف العظيم والمربى النابه الذى كان يحفِلُ فى مبدأ نشأته، وهو لم يعدُ العاشرةَ مثلا، بالدويبات وغريب الهوام التى كانت على شاطىء النهر، فعكف على دراستها، فتولدت فى نفسه صفات الجلد والأناة والمواظبة، حتى أصبحنا نراه ، وهو فى شيخوخته، يخرج للناس المعجزَ المطرِبَ فى علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حدَّ له ولا حصرَ. كذلك يقال عن "جونسون" فى صباه، وكيف كان يغالب المرَض والمرضُ يُغالبه، وكيف كانت أحاديثُه فى مطاعمه، وكيف كان سحرُ بيانه وتدفّقه فى مجالسه، وكيف كان أبيًّا عيوفا، مترفعا أنوفا ، فرفض فى شمم وإباء حذاءً جديدا اشتراه له من لاحظ تخرّق حذائه وقصر يده عن جديد ... الى آخر ما يقيده كتّاب العصر عن نشأة أبطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال فى إثبات شبيهه ومثيله، مما يفيد فى تعرّف أحوالهم، ويساعد على تفهُّم حقيقة أمورهم . لأن القارئ اذا زامل الزعيمَ فى طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجدّه، وجلده أو تبرمه، وتعلمه أو تعرّمه، ونشاطه أو خموله، ورزانته أو تبذّله، ووقف كذلك

على نقائصه وفضائله ، وهو حَدَثٌ بعدُ ، يستطيع أن يفهَـمَ فهما صحيحا ، حكمة تصرفاته في مقتبل حياته ، كما يفهم الصديقُ صديقَه والخدنُ خِدنَه .

ولنتساءل الآن . هل سجّل لنا التاريخ شيئا قيّما عن نشأة الأمين وطفولته ؟

أظن أنني لا أعدو الحقّ كثيرا اذا قلت لا ؛ إذ قلّما يعرض المؤرّخون القـدماءُ لشيء من طفولة العظماء ورجال التاريخ .

على أنّا قد وقفنا من طفولة الأمين على شـذرات ليست بذات غناء كبير ، نثبتها لك وندرسها معك ، فربمـا ساعدتنا بعض المساعدة على تفهم حداثة الأمين ، وآستخلاص بعض الحقائق عنه .

يحدّثنا البيهقيّ في «المحاسن والمساوى» بمـا سنلخصه لك خاصا بنشأة الأمين التعلّمية ، لنقف على البيئة التي كان فيهـا الأمينُ ، ولأن روايتـه ، خصوصا ما جاء عن حُلم زبيدة وفزعها منه ، ممـا رواه المسعوديّ في "مروجه" أيضا ، قـد تجعلنا نعلل بحقٍّ أثر الوسط والوراثة في خَلق ما كان بالأمين من آستعداد لحب الأستخارة ، مما كانت له نتائجهُ السيئةُ ، ولأنه يفهمنا بوجه عام لِمَ كان الأمين فصيحا ، أديبا ، بليغا ، ولِمَ كان عابثا مستهترا ؛ ولِمَ كان وادعا متهيبا من الدماء ؛ ولأنه يفسر نشأته في ترف الخلافة ونعيمها ، ومَرح الحداثة ونَهزِها ، والأستمتاع بجمـال زبيدة والإدلال بهاشميتها !

⁂

أنتَ جِدُّ عالِم أن الرشـيد جعل الأمينَ في حِجر الفضل بن يحيي ، والمأمونَ في حِجرِ جعفر بن يحيي . وأنت جدّ عالم أن الفضل بن يحيي قال لهشيم بن بشر الواسطي : «ليكن أكثرُ ما تأخذ به وليّ العهد الأمين تعظيمَ الدماء ، فإني أُحبّ أن يُشرِبَ اللهُ قلبَه الهيبةَ لها ، والعفافَ عن سـفكها» . وأنت جدّ عالم بوصـية الرشـيد للأحمر النحويّ بأخذ الأمين بالشدّة ، إن لم تنفع الملاينة في تقويمه . وقد آن لنا أن نتركَ للأحمر فرصةَ التكلم ، فيرويَ لك ما كان من أمره مع تلميذه الأمين .

يقول الأحمر : « كنت كثيرا ما أشدد على الأمين فى التأديب ، وأمنعه الساعات التى يتفرغ فيها للهو واللعب ، فشكا ذلك الى خالصة — ولعلها كانت كبيرة وصيفات أو أمينات القصر الزبيدى — فأتتنى برسالة من أم جعفر تعزم علىّ بالكف عنه ، وأن أجعلَ له وقتا أُجمُّه فيه لتوديع بدنه ، فقلت : الأمير قد عَظُمَ قدرُه وبَعُدَ صوتُه ، وموقعُه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد ، لا يحتملان التقصير ، ولا يقبل منه الخطلُ ، ولا يرضى منه بالزلل فى المنطق ، والجهل بالشرائع ، والعمى عن الأمور التى فيها قِوامُ السلطان وإحكامُ السياسة ، قالت : صدقتَ ، غير أنها والدةٌ لا تملك نفسها ولا تقدر على كفِّ إشفاقها ، ومع حذرها أمرٌ إن شئت حدّثتُك به ، فقلتُ : وما ذاك ؟ قالت : حدّثتنى السيدةُ أنها رأت فى الليلة التى حملَتْ فيها به كأن ثلاثَ نسوةٍ دخلنَ عليها ، فقعدتْ منهن ثنتان ، واحدةٌ عن يمينها ، وواحدةٌ عن يسارها ، فأمرَّتْ إحدى الثلاث يدَها على بطنها ، ثم قالت : مَلِكٌ رِبَحْلٌ ، عظيم البذل ، ثقيل الحمل ، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر ، سليم الصدر ، منهتك الستر ! وقالت الثالثة : ملك قَصاف ، عظيمُ الإتلافِ ، يسير الخلافِ ، قليلُ الإنصافِ ! فانتبهتُ وأنا فزعةٌ فلم أُحِسَّ لهنّ أثرا ، حتى كانت الليلة التى وضعته فيها ، أتيننى فى الخَلْق الذى رأيتهنّ فيه ، فقعدْنَ عند رأسه ، واطّلعْنَ جميعاً فى وجهه ، ثم قالت واحدة منهنّ : شجرةٌ نضرة ، وريحانةٌ جنية ، وروضةٌ زاهرة ، وعينٌ غدقة ، قليلٌ لُبثُها ، عَجِلٌ ذهابُها ! وقالت الثانية : سفيهٌ غارم ، طالبٌ للمغارم ، جسورٌ على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره ، وشقوا لحده ، وقربوا أكفانه ، وأعدّوا جهازَه ، فإن موته خير له من حياته ! قالت : فبقيتُ متحيرةً ، وبعثتُ الى المنجمين والمعبرين ومن يزجر الطيرَ ، فكل يبشرنى بطول عمره ، ويعدنى بقاءَه وسعادته ، وقلبى يأبى إلا الحذرَ عليه ، والتهمةَ لما رأيتُ فى منامى . وبكتْ خالصةُ وقالت : يا أحمرُ وهل يدفعُ الإشفاقُ والحذرُ والاحتراقُ واقعَ القدرِ ، أو يقدر أحدٌ على أن يدفعَ عن أحبائه الأجلَ ! . قلتُ : صَدَقْتِ ، إن القضاء لا يدفعه شىء » .

ويحدثنا التاريخ أن الرشيدَ اتخذ فيمن اتخذَ لتربية الأمين وتعليمه ، قطربًا النحويَّ . وكان حمادُ عجرد يتعشق الأمين ، ويطمع أن يتخذه الرشيد عليه مؤدبا . فلم يتهيأ له ذلك لتهتكه وقبيح ذكره فى النـاس ؛ وقد كان رام ذلك فلم يُجَبْ اليه . فلمـا سمع أن قطربا قد استوى أمره وأجيب الى ذلك لستره وعفافه ، أخذ حمـادًا المقيمُ المقعِدُ ، حسدا على ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المنزلةِ الرفيعةِ والدرجة السنيةِ ، فأخذ رقعــةً وكتب فيها أبياتًا ، ودفعها الى بعض الخـدم ، الذين يقومون على رأس الرشـيد ، وجعل له على ذلك جُعْلًا ، وسأله أن يُودِع الرقعــةَ دواةَ أمير المؤمنين ، ففعل . فمـا كان بأسرعَ من أن دعا الرشيدُ بالدواة ، فاذا فيها رقعةٌ فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جزاك الله مغفــرةً * لا يُجْمَع الدهرَ بين السَّـخْلِ والذيبِ
السَّخْل غِرٌّ وهَــمُّ الذيبِ غفلتُــه * والذيبُ يعــلم ما بالسَّخْلِ من طيبِ

فلمـا قرأ الرشيدُ الرقعــةَ قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطيا ! انفوه من الدار ، فأخرجوه عن تأديب الأمين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأمين حراسًا ، واتخذ عليه حمادا وكان عليه رقباء سبعين أو ثمـانين !

ربما كان من الحق أن تقول : إن هــذه النشأة كانت لها آثارها السيئة ، خصوصا أنا نلاحظ ، أن الأمين تنقصه الدُّرْبةُ السياسية . وأنت تعلم أن الدربة السياسية هى ناحية يُؤْبَهُ لها كثيرا ، فى تمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتنظيم ملكات السلطان فى ولىّ العهـد ، خصوصا ذلك العصر الذى لم تكن فيــه وسائل الثقافة الملكية متوافرة توافرها اليوم : من سياحةِ لولىّ العهدِ الى الممالك المتمدينةِ ، ووقوفٍ على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هى حال ولىّ عهــد انجلترا ونظرائِه مثلا ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسيةِ فى ذلك العصر كانت أشدَّ منهـا اليوم ، لأن الملكَ حين ذاك كان صاحبَ سلطانٍ فعلى مطلقٍ ، غيرَ مقيد بقانونٍ أو دستورٍ إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

نريد أن نقول إنه اذا كان تَدْبُ الهادى للرشيد، حين ولاه قيادة الجند لحرب الروم، قد أوجد الرشيد فى مركز القيادةِ العامةِ ، وفيها من الشيوخ المحنكين والقادة المدرّبين والزعماء المنظمين ، مجموعةً صالحة للثقافة السياسية، وفرص تسنح، فى الفينة بعد الفينة، للرانة السياسية ولتخريج خليفةٍ مُدَرّبٍ فى فنون الملك ، واذا كان المأمون قد نُدبَ للحكم فى خراسان وغير خراسان ، حتى نكّبت به ظروف الأحوال عن مفاسد مال الخلافة ونعمة ابن زبيدة ودلال الهاشميين — نريد أن نقول إنه اذا كان ذلك كذلك ، وكانت هذه هى نتائجُ الدُرْبةِ السياسيةِ ، فمن الميسور أن نفهم مغبّة افتقادها، كما أنه من الميسورِ أن نستنبطَ أن عنصرًا هاما من عناصرِ تكوين رجالِ السياسةِ والحكم كان ينقص الأمين الذى لم تستطع غاشيته من الخدم و بطانته من الموالى وأخواله من الهاشميين وأساتيذه من المربين، أن يحولوا بينه و بين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزمٍ فى أموره، وبسدادٍ فى تصرفه، وقمع لميوله، وتقويم لأعوجاجه، و بما يجعله رجلا كاملا ! أظن لا . وأظن أنك محقٌّ فى نفيك هذا عمن كان فى ظروفه و بيئته .

على أنه من العدل والحق ، أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقيل الظل ، بل كان نقيض ذلك على حظٍّ من توقّد الذهن وفصاحة اللسان ، وخفة الروح والظل . وحسبك أن ترى شيئًا مما كان ينضَحُ به فى مجالس اللهوِ والمنادمةِ : من سرعة البديهة ، وظرافة النكتة، وحلاوة التندر، ورقة الدعابة، وعذوبة الفكاهة، لتؤمن بما نقول .

وكل ما أجمع عليه المؤرّخون الفرِنْجَةُ « كمبور » وكُتّاب دائرة المعارف الاسلامية، واتفقت عليه كلمة المؤرّخين العربِ جميعا ، أنه كان مستهترا ، مسْرفًا، مع خَوَرِ خُلُقٍ ، وعدم تبصرٍ فى العواقب ، ولا تروٍّ فى مهمات الأمورِ ، مما يرجع فى الواقع الى عدم العناية بثقافته السياسية، كما أسلفنا .

وإنّا محقون اذا ما قررنا أنّه لو وجدَ الأمينُ يدًا حكيمةً تقسو عليه أحيانًا فتفلّ من شباةِ نفسِه العابثةِ المرحةِ ، وتقوّم اعوجاج خلقه الرخو ، وتقوى سجاياه المنحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليصْهرَ بلظىٰ أوارِهَا ، ويَصقلَ من جلادها وسجالها ، ويفيد نفسه من خبرةِ كُماتها ، ودُربة شيوخها ، وخِدَع مديريها ، وخُطَطِ مُشيريها ، وتوليه حكمَ صُقعٍ من الأصقاع ، للرانة فيه على معضلات الحكم ومشكلاته ، والاحتكاك بقادته وقُضاته ، إذًا لكان للمأمون منه خصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامز .

على أنّا وإن قلنا إن الأمينَ كان مستهترا ، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبرَ الذى رواه الطبرى وغيره والذى ضربه الفخرى مثلا على إهمال الأمين وغفلته وجهله ، إلا بشىء من التحفظ كثير . وهاك خلاصة الخبر لكى تقدُر معنا ما لهذه الملاحظة من وجاهةٍ وقيمةٍ :

لما اشتدّ الخلافُ بين الأمين والمأمون ، حتى انتهى الى غايته ، أرسل الأمين لمحاربة أخيه جيشا ، لم يُرَ فى بغدادَ قبل ذلك أكثفُ منه ، قِوامُه أربعون ألفا وقيل خمسون ، وزوّده بالسلاحِ الكثيرِ والأموالِ الوافرةِ ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولةِ ، جليلُ القدرِ ، مهيبُ الجانبِ ، هو على بن عيسىٰ بن ماهان . وقد خرج معه الأمين الى ظاهر المدينة مشيعًا مودّعًا . وكان فى حكمِ اليقينِ أن الظفر سيكون حليفَه ، لكثرة عددِه ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره فى حدود أربعة آلاف — ثم كانت الغلبة لطاهر ، وورد الخبرُ بنعي على بن عيسىٰ الى الأمينِ وهو يصيد ، قال للذى أخبره بذلك : دعنى فإن كوثرًا قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدتُ شيئًا ! وكان كوثرُ هذا خادمًا من الخصْيانِ ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

نقول — ولعلك توافقنا فيما نذهب اليه — إنّا لا نستطيع أن نقبلَ هذا الخبرَ وأمثالَه ، إلا بشيء من التحفظ كثيرٍ . فإن خليفةً يسمع مثل هذا النبأ العظيم ويعلم أن وراءه الفصل في مصير سلطانه ثم لا يأبه له ، لا يكفي أن يوصفَ بالإهمال والجهل ، بل هو جديرٌ بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسفيه الأبله أولىٰ بالحجر عليه منه بأن يكون ذا سلطانٍ مطلقٍ في دولةٍ بعيدة الأطراف والنواحي . ومحالٌ على الرشيد الذي عرف بالحزم ، وجَوْدَةِ الحَدْس ، والتأني في الأمور ، أن يُسنِدَ هذا السلطانَ العظيمَ من بعده لسفيهٍ أبله .

لهذا نَميلُ الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، بأن هذا الخبرَ ، والكثيرَ من أمثاله ، ليس إلا أثراً من آثار الدعوة المأمونية التي كان لها من الأثرِ في ثلّ عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقلّ عن أثر عساكر المأمون وحزم قوّاده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأُسقِطَ في أيدي جنودها ، لفتورهم في الدفاع عن الأمين وعَدِم استبسالهم في الذود عنه . ويعزو مؤرخُه الأستاذ "وبل" أسباب ندمهم هذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يُغدِقُ عليهم من الأموال والخيرات .

أما أنه كان سخيًّا بل مسرفا في السخاء فمما لا ريب فيه . ومهما افترضتِ المبالغةُ فيما سنرويه لك نقلا عن المظانّ الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورةَ التي ستقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعةً مقتصدةً — وهذا ما نوصيك به دائما — كافيةٌ للاقتناع بانه كان سخيا ، بل مسرفا في السخاء .

يقول الأصفهانيّ في أغانيه : غنّى ابراهيمُ بن المهديّ ليلةً محمدًا الأمين صوتا في شعر أبي نواس :

يا كثيرَ النوح في الدِّمَنِ ٭ لا عليها بل على السكنِ
سُـنّةُ العشاق واحدةٌ ٭ فإذا أحببت فاستكنِ

ظَنَّ بى مَنْ قد كَلِفْتُ به ٭ فهـــو يجفونى على الظَّنَنِ
رشأٌ لـــولا ملاحتـــه ٭ خلتِ الدنيا من الفتن

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أجزتنى الى هـــذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : هل هى إلا خراج بعض الكُوَر ! . هكذا ذكر إسحاق .

أما محمـــدُ بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إبراهيمَ فقال : لما أردتُ الانصرافَ قال : أوقِروا زَورَقَ عمّى دنانيرَ ! فانصرفتُ بمالٍ جزيلٍ .

ثم تعـــالَ ، أرشـــدَكَ اللهُ ، لننظرَ معًا فيما يرويه أحدُ المعاصرين ، وهو سـعيد بن حميد فإنه يقول :

لما ملك محمد وجّه الى جميع البـلدان فى طلب الملهِينَ وضمّهم اليـه ، وأجرى عليهم الأرزاقَ ، ونافس فى ابتياع فُرْهِ الدواب وأخذ الوحوش والسـباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخفّ بهم ، وقسّم ما فى بيـوت الأموال وما بحضرته من الجوهر ، فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحُمِلَ اليه ما كان فى الرقّة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببنـاء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبـه ، بقصر الخلد والخيزرانيةِ ، وبستانِ موسىٰ ، وقصر عبدويه ، وقصر المعلى ، ورقة كلواذى ، وباب الأنبار ، وبَنارى والهوب ، وأمر بعمل خمس حرّاقات فى دجلة ، على خِلْقة الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، وأنفق فى عملها مالًا عظيمًا . فقال أبو نواس يمدحه :

سخّـــرَ اللهُ للأمين مطايا ٭ لم تُسـخَّرْ لصاحب المحرابِ
فاذا ما ركابه سِرنَ برًّا ٭ سار فى المـاء راكبًا ليثَ غابِ
أسدًا باسـطًا ذراعيه يهوى ٭ أهرتَ الشِّدقِ كالحَ الأنيابِ
لا يعانيه باللجام ولا السـو ٭ ط ولا غمز رجله فى الركابِ
عجبَ الناسُ إذ رأوك على صو ٭ رة ليثٍ تمرّ مرَّ السـحابِ

سَبَّحوا إذ رأوكَ سِرتَ عَليه * كيف لو أبصروك فوق العقابِ
ذات زَورٍ ومنسر وجناحيـ * ـن تشق العُبابَ بعد العبابِ
تسبق الطير فى السماء اذا ما آسـ * ـتعجلوها بجيئةٍ وذهابِ
بارك اللهُ للأميرِ وأبقا * ه وأبقى له رداء الشبابِ
ملك تقصر المدائحُ عنه * هاشميٌّ موفَّقٌ للصوابِ

على أنه يصح التساؤل : من أين للخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة، والثروات الوفيرة لسد مطامعه ولإجابته الى شتى مناعمه ؟ .

و إنا نظن أنه يكفيك أن تنظر أيضا ، فيما تنظر اليه من مختلف مصادر المال : من خراج ربما كان ظالما، وجبايا هائلة مروعة، وموازين غنيّة، وضرائب مبالغ فى فرضها، الى باب الاستصفاء وحده وما ينجم عنه وعن نكبة الوزراء والكبراء. وحبذا لو وُفّق لدراسته بعض الباحثين فى التاريخ الاسلامى فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الضحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم، قال : ابتنى الأميرُ سفينةً عظيمةً أنفق عليها ثلاثةَ آلاف ألف درهم، واتخذ أخرى على خِلْقَةِ شىء يكون فى البحر يقال له «الدلفين» . فقال فى ذلك أبو نواس :

قد ركب الدلفين بدرُ الدجى * مقتحمًا فى الماء قد لَجَجا
فأشرقت دِجلةُ فى حسنه * وأشرق الشُّكانُ وآستبهجا
لم تر عينى مثلَه مركبًا * أحسن إن سار وإن أحنجا
اذا استحثته مجاذيفُه * أعنق فوقَ الماء أو هملجا
خصَّ به اللهُ الأمينَ الذى * أضحى بتاج الملك قد تُوِّجا

ثم لتتدبر معى ما يرويه لنا أحد الأمناء بقصر الرشيد، وهو حسين خادم الرشيد ، فإنه يقول : إن الخلافةَ لما صارتْ الى محمد هُيِّئَ له منزلٌ من منازله على الشط بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه، فقال : ياسيدى، لم يكن لأبيك فرش يباهى

به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسنَ من هذا، فأحببتُ أن أفرشَه لك ، قال : فأحببتَ أن يُفـرَش لى فى أول خلافتى المـردراج ! ! وقال : مزّقوه ! قال : فرأيتُ والله الخدمَ الفرّاشين قد صيروه ممزقا وفرّقوه .

وهناك مئات من الشواهد التى يرويها المعاصرون، أمثال مخارق المغنى ، وأبى عبادة البحترى عن مشيخته ، والعباس بن الفضل بن الربيع ، وكوثر وغيرهم ، عن سَرَف الأمين وبذخه ولهوه وعبثه ، يصح أن ترجع اليها فى مظانها ، وكلها تؤيد صدقَ اللباب والجوهر .

فمن ذلك ما يرويه لنا حميد بن سعيد ، من أن محمدا الأمين لما ملك ، وكاتبه عبد الله المأمون ، وأعطاه بيعته ، طلب الخصيانَ وآبتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته ، فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضا ، سماهم الجرادية ، وفرضًا من الحبشان ، سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء ، حتى رمى بهم ، وحتى قال فى ذلك بعضُ شعراء العصر ، وقد ذكر أسماء بعضهم وحالَ الأمين معهم :

ألا يا مُزمنَ المثوى بطوس ۰ غريبًا ما يفادَى بالنفوسِ
لقـد أبقيتَ للخصيانِ بَعلًا ۰ تحمَّلَ منهم شـؤمَ البَسوسِ
فأما نوفلٌ فالشأن فيـه ٭ وفى بدرٍ فيا لك من جَليسِ
وما العُصـمىُّ بَشّارٌ لديه ٭ اذا ذكروا بذى سهم خسيسِ
وما حَسَنُ الصغيرُ أخس حالًا ۰ لديه عنـد مخترق الكؤوسِ
لهم من عُمْرِه شَطرٌ وشَطرٌ ۰ يعاقرُ فيه شربَ الخَنْدَريسِ
وما للغانيـاتِ لديه حـظٌّ ۰ سوى التقطيب بالوجه العبوسِ
اذا كان الرئيسُ كذا سقيماً ٭ فكيف صلاحُنا بعد الرئيسِ
فلو علمَ المقيمُ بدار طـوسٍ ٭ لعَزَّ على المقيم بدار طـوسِ

* * *

وفى الحق أن قصفَ الأمين، وانهماكه فى لهوه، وغلوّه فى عبثه، واستهتاره فى مرحه، واشتغاله بوجه خاص بخدمه، قد جرّ عليه وبالًا كثيرًا، وشرًا مستطيرًا، ونفّر ١
منه قلوبَ العقلاء من مشايعيه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثال ذلك ما ذكروه عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بنى هاشم، جلداً وعقلاً، وصنيعاً، وكان يتخذ الخدمَ، كطبيعة حياة المترفين فى ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آثر خدمه عنده، يقال له منصور، فوجد الخادمُ عليه فهرب الى محمد، وأتاه وهو بقصر أمّ جعفر المعروف بالقرار، فقبِله محمد أحسن قبول، وحظِى عنده حُظوةً عجيبة . فركب الخادم يوما، فى جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيافة، فمرّ بباب العباس بن عبدالله، يريد بذلك أن يُرِى خدمَ العباس هيئته وحاله التى هو عليها، وبلغ ذلك الخبر العباس فخرج اليه، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس، وهمّ أن يقتله، لولا وَسَاطةُ أمّ جعفر من ناحية، واشتغالُه بخروج الحسين بن علىّ بن ماهان عليه وانضمامه الى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وغاشيته، ذوى السلطان، من المقربين والزعماء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء، أسوأُ أثرٍ فى تاريخ المدنية الإسلامية .

* * *

وهناك ظاهرة خُلُقيّة فى أخلاق الأمين، وهى حبّه للاستخارة واحتفالُه بالبحث عن أمرِ طالعه، وركونُه، حتى فى آخر لحظة من حياته وهى لحظة التقرير فى مصيره أيُسَلِّم نفسه الى طاهر أم الى هرثمة، الى منام رآه . وربما كانت هذه الخلة فيه، من أثر البيئة، كما أسلفنا، أو من روح العصر نفسه، وإن كان ابنُ ماهان قائده يحتقرها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفِلُ فى مهامّ أموره بالاستخارة ووحى الأحلام، بل كان يجعل جلّ اعتماده على مشورة رجالاته وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأمينَ لم يكن يستشير ، ولكنه كان فى كل شؤونه يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير بطانته فيــه النتيجة السيئة ، فكان لايعمل بمـا يدلى به اليه من نصح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الخلة فيه مارواه عمرو بن حفص مولى محمد ، إذ يقول : «دخلت على محمد فى جوف الليل ، وكنت من خاصته ، أصــل اليه حيث لا يصــل أحدٌ ، من مواليه وحشمه ، فوجدته والشمع بين يديه ، وهو يفكر ، فسلمت عليه ، فلم يردّ علىّ ، فعلمت أنه فى تدبير بعض أموره ، فلم أزَلْ واقفا على رأسه ، حتى مضى أكثرُ الليل ، ثم رفع رأسه الىّ فقال : أحضرنى عبــد الله بن خازم ؛ فمضيت الى عبد الله فأحضرته ، فلم يزل فى مناظرته ، حتى انقضى الليلُ . فسمعت عبد الله وهو يقول : « أنشُدُكَ اللهَ يا أمير المؤمنين ! أن تكون أوّل الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه ، وآستخف بيمينه ، وردّ رأى الخليفة قبله . » فقال : « آسكت لله أبوك ! فعبدُ الله كان أفضلَ منك رأيا وأكمَلَ نظرا ، حيث يقول : لا يجتمع فحلان فى هجمة » . ثم جمع وجوه القوّاد ، فكان يعرض عليهم واحدًا واحدًا ما آعتزمه فيأبونه ، وربمـا ساعده قوم ، حتى بلغ الى خزيمة بن خازم ، فشاوره فى ذلك ؛ فقال : « يا أمير المؤمنين لم ينصحك مَنْ كَذَبك ، ولم يغشك من صَدَقك ، لا تُجَرِّئ القوّاد على الخلع فيخلعوك ، ولاتحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ، فإن الغادر مخذول ، والناكث مفلول ! » .

ولكن الأمين ـــ كما قلنا ـــ كان هواه يعمّى عليه وجه الصواب من أمره ، وكان واقعا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته ، وهم الذين كان رياؤهم سما زعافًا ، ونفاقهم وباء فتاكًا ، ولين كلامهم حسكا وقتادًا ، والذين لم يخلصوا لمليكهم أو بلادهم ، فيما يدلون به من الآراء ، وما يقدّمونه من النصائح ، وإنمـا يخلصون لعاجل مصلحتهم ، فزينوا له نكثَ العهد ، وسهّلوا له أمره ، حتى أقدم عليه ، وكان ماكان من النزاع على ما سنصفه لك فى بابه .

على أنّا لا نعنى بما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان بليد الذهن ، وإنما نعنى أنه كان ضعيف الإرادة ، عديم الدُّرْبة . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا بتوقد ذهنه ، وفصاحة لسانه ، ونقرر أيضا ، إحقاقًا للحق وإنصافًا للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متعهدًا ، الى حدّ غير قليل ، قوّاده بالنصح والرأى ؛ فقد ذكر أحدُ معاصريه ، وهو عمرو ابن سعيد ، أن محمدا الأمين لما جاز باب خراسان ترجّل وأقبل يوصى علىّ بن عيسى بن ماهان : «امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ، وولّ الرىّ يحيى بن على ، واضمم اليه جندًا كثيفًا ، ومُرْه ليدفع الى جنده أرزاقهم مما يجيء من خراجها . وولّ كلّ كورة ترحل عنها رجلًا من أصحابك . ومن خرج اليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخًا بأخيه ، وضَعْ عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن أحدًا رماك بسهم ، أو طعن فى أصحابك برمح» .

ولم تكن هذه الوصيةُ هى الوصيةَ الوحيدةَ للأمين فنقول : فلتةٌ من عابث ؛ فإن هناك ثانيةً وثالثةً وهلمَّ جرًا . وها هو ذا أحمد بن مزيد أحد قوّاده يخبرنا أنه لما أراد الشخوصَ فى مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصنى أكرم الله أمير المؤمنين ! ، فقال : «أوصيك بخصال عدّة : إياك والبغىَ ، فإنه عِقَال النصر ، ولا تُقدّم رِجْلًا إلا باستخارة ، ولا تشهر سيفًا إلا بعد إعذار ، ومهما قدرت عليه باللين ، فلا تتعدّه الى الخرق والشر ، وأحسن صحابةَ مَنْ معك من الجند ، وطالعنى بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندى ، ولا تستقْها فيما تخاف رجوعه علىّ ...» الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظةٍ من حياته محاولًا الانتصارَ ، باذلا مقدورَه فى الحرب ، ولكن عبثه ولهوه كانا يقعدان به .

وكان طيبَ القلب ، يعفو حتى عن الخارجين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقفه مع حسين بن على بن ماهان لمعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما طلب اليه أن يدفع له ولدى عبد الله المأمون ليكونا أسيرين فى يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعةَ فيها، وإلا عمل فيهما بحكمه وأنفذ فيهما امره! فقال له الأمين: «أنت أعرابيٌ مجنون، أدعوك الى ولاء أعنة العرب والعجم، وأطعمك خراج كور الجبال الى خراسان، وأرفع منزلتك عن نظرائك، من أبناء القوّاد والملوك، وتدعونى الى قتل ولدىَ، وسفك دماء أهل بيتى! إن هذا لخرقُ والتخليط!!

هذا الموقف النبيل، دليلٌ على سلامةِ طَويّته، وطُهْرِ سجيّته. ولكنَّ حظَّه الحالك، ونجمه الآفل، ورياء مشيريه، وضعف إرادته، وخور عزيمته، ولهوه وعبثه، ونصيب المغلوب من الدعوة عليه، والحملة الموجهة اليه، قد ضربت بجرانها على سيرته، فاذا بها شوهاء مُزْرِيَة. واذا بها مفضحةٌ منفرة، حتى قيل فيه ما قيل مما يجدر بنا ألا نخلى كتابنا من إثبات بعضـــه:

جاء فى الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور: «قال المأمون لطاهر بن الحسين: يا أبا الطيب! صف لى أخلاقَ المخلوع، قال: كان يا أمير المؤمنين واسعَ الطرب، ضيقَ الأدب، يبيح نفسَه ما تعافُه همُ ذوى الأقدار! قال: فكيف كانت حروبه؟ قال: كان يجمع الكتائبَ ويفُضُّها بسوء التدبير، قال: فكيف كنتم له؟ قال: كنا أُسْـدا تبيت وفى أشداقها أعناقُ الناكثين، وتسبح وفى صدورها قلوب المـارقين؛ قال: أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت رابعهـم ولا خامسهم، وهم الفَضْل بن الرَّبيع، وبكْرُ بن المُعْتمِر، والسِّنْدِىّ بن شاهَك! هم والله ثأر أخى وعندهم دمه ...!».

وقال المسعودى فى التنبيـه والإشراف: «إنــ الأمين كان باسـطًا يدَه بالعطاء، قبيحَ السـيرةِ، ضعيفَ الرأيِ، سـفاكًا للدماءِ، يركبُ هواه، ويُهمِل أمرَه، ويتكل فى جليلات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، الى أن استتر الفضـلُ لمـا تبيّنَ من اختلال أمر محمد، ووهى أمره، فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وغلب عليه عدّة من الأولياء منهم علىّ بن عيسى، والسندىّ

ابن شاهك، وسليمان بن أبي جعفر المنصور» . وقال غيره: «إنه كان كثيرَ اللهوِ واللعب، منقطعًا الى ذلك مشتغلًا به، عن تدبيرِ مملكته .

ويقول ابنُ الأثير: «لم نجد للأمين شيئا من سيرته، نستحسنُه فنذكُره» . وهذا حقٌّ في جملته عن الأمين كمدبِّر مملكةٍ وخليفة؛ فإن فتًى غِرًّا، لم يُثقَّف الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصبح ذا سلطانٍ مُطلَقٍ، في ملكٍ كبيرٍ يشبع ذوى المطامع النهمة، ثم تحوطه حاشيةٌ من الدهاةِ، ذوى المطامعِ الواسعةِ، والأغراضِ الكبيرة: كالفضل بن الربيع، الذى أفسد ما بينه وبين أخيه، وبكر بن المعتمر الذى زيّنَ له خَلْعَه، ثم هو فوق ذلك، ينصرف الى حدٍّ كبيرٍ، عن معالجةِ تدبيرِ الملكِ، الى اللهوِ، والى اللهوِ بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبرىّ في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علىّ بن إسحاق أحد معاصريه: أنه لما أفضت الخلافة الى محمد، وهدأ الناسُ ببغداد، أصبح صبيحة السبت، بعد بيعته بيوم، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب؛ فقال في ذلك شاعرٌ من أهل بغداد:

بَنَى أمينُ اللهِ مَيدانا * وصَيَّر الساحةَ بُستانا

وكانت الغِزلانُ فيه بَانًا * يُهدَى اليه فيه غِزلانا

نقول إن مثل هذا الفتى الذى يولى وجهه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التى كان يجدر به ومن كان في مكانه ألا تكون صاحبةَ النصيبِ الأولِ من عنايته واهتمامه، خليق ألا يجدَ المؤرِّخُ له عملًا صالحًا في شأنٍ من شؤونِ الدولة، وقمينٌ، على ذلك أن يكون موضعَ استغلال كبير للدعوة المأمونية .

وقال غير ابن الأثير: «كان الأمين فصيحًا بليغًا كريمًا» . وكيف لا يكون تلميذُ الأحمرِ والكسائىّ وقطربٍ وحمادٍ وغيرهم من فحول اللغة وجهابذة البيان وأساتذة الأدب من منثور ومنظوم فصيحا بليغا ! .

على أنه من الحق والعدل، أن نقرر أيضا، أن هذه الصفاتِ، تكاد تكون من سجايا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة الفينانة . ومن أجل هذا، ذهبنا الى ما ذهبنا اليه، من

أن الأمين لم يكن كما صوّروه لنا من البلَه والسُخف، ومن الخمول والبلادة . ومحالٌ أن يكون كذلك، وتصرّفاته فى بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحالٌ أن يكون بليـدًا بفطرته وآستعداده، أو جاهلا غبيًّا، لأنه فى الذروة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدارَ آهتمام الخلفاء العباسيين، والأمراء الهـاشميين، بالثقافة الأدبيـة، كما بينا لك ذلك فى كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية فى العصر العباسىّ . وإنما ظروفُ حياة الأمين، والبيئةُ التى أحاطت به، وما الى ذلك ممـا فصلناه لك، جعلت صورةَ الأمين كما أراناها التاريخ، ثم هى فى الوقت نفسه جنحت به الى الآستهتارِ والى العبثِ والمجانة .

وقد يكون أحسنَ ما نختتم به كلمتَنا عن تحليل الأمين وسيرته، وأصـدقَ وصفٍ له، ما ذكره الفضل بن الربيع، وزيره ووزير أبيه من قبله، والذى سنعرض لشىء من دقيق تصرّفاته، وحكيم تدبيراته، عنـد ما نعرض لتفصيـل النزاع بين الأمين والمأمون، فهـذا الوصف ربمـا كان أقلّ تحاملا من غيره على الأمين، وربما كان خيرًا من سواه فى تصوير الأمين وتحليل أخلاقه ونفسيته .

ذكر الطبرىّ: «أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفضل بن الربيع بعث اليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنبارىّ، قال: فأتيته، فلما دخلتُ عليه، وجدته قاعدًا فى صحن داره، وفى يده رقعةٌ قد قرأها، وآحمرّت عيناه، وآشتدّ غضبُه، وهو يقول: ينام نومَ الظَربانِ، لا يفكر فى زوالِ نعمةٍ، ولا يتروى فى إمضاء رأيٍ ولا مكيدةٍ، قد ألهاه كأسُه، وشـغله قدحُه، فهو يجرى فى لهوه، والأيام تسرع فى هلاكه، قد شمّر عبدُ الله له عن ساقه، وفوّق له أَصْيبَ أسهمه، يرميه على بعـد الدار بالحتف النافذ والموت القاصد، قد عبّى له المنايا على متون الخيل، وناط له البلاءَ فى أسنة الرماح وشِفَار السيوف؛ ثم استرجع وتمثل بشعر البَعيث :

وَمَجْـدولَةٍ جَذْبِ العنانِ خريدَةٍ * لهـا شَعَرٌ جَعْدٌ وَوَجْهٌ مُقَسَّمُ
وثغـرٌ نقيُّ اللونِ عذبٌ مَذَاقُه * تُضيءُ له الظلماءُ ساعةَ تَبْسِمُ

وثديان كالحُقّين والبطنُ ضامرٌ * خميصٌ وجُهْرٌ ناره تتضرّمُ
لهَوتُ بها ليلَ التمام ابنَ خالدٍ * على بمرْو الرُّوذ غيظًا تجرّمُ
أظلُّ أناغيها وتحتَ ابنِ خالدٍ * أميةَ نَهْدُ المرْكلَين عَشَمْشَمُ
طواها طِرادُ الخيلِ فى كلِّ غارةٍ * لها عارضٌ فيه الأسنةُ تُرْزِمُ
يُقارعُ أتراكَ ابنِ خاقانَ ليلَهُ * الى أن يُرى الإصباحُ لا يتلعثمُ
فيُصبحُ من طُول الطِّرادِ وجسمُهُ * نحيلٌ وأُضحِى فى النعيم أُصمِّمُ
فشتَّانَ ما بينى وبينَ ابن خالدٍ * أميَّةَ فى الرِّزقِ الذى اللهُ قاسمُ

ثم التفت إلىّ فقال : « يا أبا الحارث، إنا وإياك لنجرى الى غايةٍ، إن قصرنا عنها ذُممنا، وإن اجتهدنا فى بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل، إن قوى قوينا، وإن ضعف ضعفْنا، إن هذا قد ألْقى بيده، إلقاء الأمة الوَكْعاء، يشاور النساء ويعتزم على الرؤيا، وقد أمكن بسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة، فهم يَعدونه الظفَر، ويُمنُّونه عُقَب الأيام، والهلاكُ أسرع اليه من السيل الى قِيعان الرمل . وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ونعطَب بعطبه ! » .

الفصل الثانى

المـأمون

توطئـــة — مـــولده — نشـــأته وأخلاقه .

(أ) توطئـــة :

لننتقل الآن الى حداثة المأمون ، ولنتبـع فى دراستنا له نفس الطريقـة التى ترسمناها حين دراستنا لحداثة الأمين ، فنتكلم عن مولده ، كما نتكلم عن نشأته وأخلاقه ، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخيـة فى هذا الصـدد ، وأن ننظر فيهـا نظرة تفهم واستيعاب وإمعانٍ ومقارنةٍ وموازنةٍ بمـا يقتضيه المقام من إجمالٍ و إيجاز .

(ب) مولـــده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبعين ومائة هجرية ، وهى التى استخلف فيها الرشيدُ ، فلما بُشِّرَ بمولده سرّ به سرورًا عظيماً ، وسماه المأمون تيمنًا بذلك . وأمه أم ولد باذغشية تسمى «مَرَاجِل» ويقال : إنها تمتُّ الى أسرةٍ عريقةٍ فى المجد من الأسر الفارسية .

نشأ المأمون فى حِجرِ الخلافةِ وتهيأ له من وسائل التربيةِ والتثقيف ما لم يتهيأ إلا لأخيه الأمين . وكانت ظاهرةً عليه مخايلُ النجابةِ والذكاءِ وبعدِ الهمة والتعـالى بنفسه عن سفسافِ الأمورِ .

ومع كبرِ سنِّ المأمون ، وظهورِ هـذه الخلال فيه ، وثقةِ الرشيدِ به ، ومحبته له لم يُتَحْ له ما أُتيحَ للأمين ، من البيعة بولاية العهد ؛ إذ كان لأم الأمين من المكانةِ لدى الرشيد ، وهى زوجه ، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بينا لك ، فى كلامنا على الأمين ، ما قام به أخوالُه من المسعى الموفّقِ ، فى أن يكون أمرُ الدولة من بعد الرشيد ، لابن أختهم ،

وما قام به الفضل بن يحيي فى خراسان : من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيدُ أمامَ الأمر الواقع، فأعلن بولاية العهد للأمين راضياً أو مكْرَهاً .

(ج) نشأته وأخلاقه :

وكل الرشيدُ بكفالة المأمون، والنظر فى شؤونه، ومراقب أحواله، جعفرَ بن يحيي وزيره، كما جعل الأمينَ، فى كفالة الفضل أخى جعفر . ونحن نحس، عند ذكر كفالة الفضل للأمين، إحساسًا قد لا يعدو الواقعَ كثيرا، أن بين هذه الكفالة، وبين إعلان الفضل، بولاية العهد للأمين فى خراسان، صلةً .

فلما نما المأمونُ وترعرع، أخذ المؤرخون يذكرون لنا من مظاهر نجابته وحزمه، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بمن كانت أهواؤهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجرى حوله من شؤون وأحوال، مما سنقصّه عليك، ما ينبئُ بما سيكون لهذا الغلام من شأن عظيم .

ولعل أظهرَ ما يدل على نجابة المأمون فى صباه ما يقصّه علينا التاريخُ عن أبى محمد اليزيدى مؤدّبه الذى يقول : « كنت أؤدب المأمونَ، وهو فى كفالة سعيد الجوهرىّ، فجئت دارَ الخلافة، وسعيدٌ قادمٌ اليها، فوجهتُ الى المأمون بعض خدمه يعلمه بمكانى، فأبطأ علىّ، ثم وجهتُ آخرَ فأبطأ، فقلت لسعيد : إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر، فقال : أجل ! ومع هذا فانه اذا فارقك تعرّم(١) على خدمه، ولقوا منه أذًى شديدًا، فقومه بالأدب . فلما خرج تناولته ببعض التأديب، فانه ليدلُكُ عينيه من البكاء، إذ قيل: جعفر بن يحيي الوزير قد أقبل، فأخذ منديلًا فمسح عينيه وجمع ثيابه، وقام الى فراشه فقعد عليه متربعًا، ثم قال : لِيَدخلْ . فقمت عن المجلس، وخفتُ أن يشكونى اليه، فألقى منه ما أكره. قال : فأقبل عليه بوجهه وحدّثه حتى أضحكه، وضحك اليه . فلما همّ بالحركة، دعا المأمونُ بدابة جعفر ودعا غلمانه فسعَوْا بين يديه، ثم سأل عنى فجئت، فقال : خُذْ علىَّ بقية حزبى ! فقلت : أيها الأمير، أطال الله بقاءك ! لقد خفتُ أن تشكونى الى جعفر

(١) أصابهم بشراسة وأذى .

٦

ابن يحيى، ولو فعلتَ لتنكّرَ لى؛ فقال: تُرَانى يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذه ! فكيف بجعفر بن يحيى حتى أطلعه على أنى أحتاج الى أدب ! خذ في أمرك، عافاك الله ! فقد خطر ببالك ما لا تَراه أبدا، ولو عدتَ الى تأديبى مائة مرة !

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون، وثقوب بصيرته، وأصالته وحصافته، منذ نعومة أظفاره، ومَيْعَةِ صباه، ما يحكى من أن أم جعفر عاتبت الرشيد، فى تقريظه للمأمون، دون الأمين ولدها؛ فدعا خادماً وقال له: وَجِّهْ الى الأمين والمأمون خادماً، يقول لكل واحد منهما على الخلوة: ما تفعل اذا أفضت الخلافةُ اليك؟ فأما الأمين فقال للخادم: أُقطِعُكَ وأُعطيكَ، وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال: أتسألنى عما أفعلُ بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفةُ رب العالمين! إنى لأرجو أن نكون جميعا فداءً له! فقال الرشيدُ لأم جعفر: كيف تَرَيْنَ؟ فسكتت عن الجواب.

وأعدلُ الشواهدِ على تقديرِ هذا الغلامِ لنفسه، كأميرٍ وابنِ خليفة، وشعورِه بما له من منزلة اجتماعيةٍ خاصةٍ، وبما ينبغى أن يكون له، فى نفوس الناسِ من إجلالٍ واحترامٍ، وما يجب لمثله، فى آدابِ التحيةِ وحسنِ الخطابِ، ما جَبَه به الحسنَ اللؤلؤى، وهو الذى اتخذه الرشيد مؤدبا للمأمون، بعد أبى محمدٍ اليزيدى، حين كان يطارحُهُ شيئاً من الفقه، وأخذت المأمونَ سِنةٌ من النوم، فقال له اللؤلؤى: نمتَ أيها الأمير؟ فقال المأمون: سوقى ورب الكعبة خذوا بيده! فجاء الغلمان فأقاموه. فلما بلغ الرشيد ماصنع قال متمثلا:

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلا وشيجُهُ ⁂ وتُغرَسُ إلا فى منابتها النخلُ

ويحدّثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبيا، أن الرقاشى هجاه حين مدح الأمين بقوله:

لم تــلده أمــةٌ تعــرف فى السوق التجارا
لا ولا حــدّ ولا خا ⁂ ن ولا فى الخزى جارا

يعرّض بالمأمون، لأن الرشيد كان قد حدّه فى جاريةٍ أو فى خمرٍ.

ومهما يكن من شىء، فى صبا المأمون، فقد كانت ظاهرةً فيه، مخايل النجابةِ والذكاءِ والحزم، وحسنِ التدبيرِ وجَوْدةِ الحَدْسِ، والطموح الى الكمال.

وقد يجد الذين يذهبون، الى أن فى تلقيح الأجناس تحسينًا للنوع، حجةً ظاهرةً فى المأمون لمذهبهم، إذ لاتعوزهم الوسيلةُ فى أن يرجعوا نجابته الى أنه من أمٍّ فارسيةٍ وأب عربى، أو بعبارة أخرى: الى أنه قد جمع بين الدم الآرى والدم السامى[1].

هذه المخايلُ حببته الى الرشيد، وجعلته يقدره قدْرَه، فجعله ولىَّ عهدِ الخلافةِ بعد أخيه الأمين، وجمعت حولَه طائفةً من ذوى الهمم الشماء الذين توسموا فيه محققا لأطماعهم الواسعة.

ومن أظهر هؤلاء الذين التفوا حوله، لتحقيق مطامعهم، الفضلُ بن سهل الذى اتخذ يحيى بن خالد البرمكى وسيلةً الى الرشيد، فى أن يكون فى خدمة المأمون. وحسبك أن تعلم من أمر الفضلِ هذا، أنه القائل حين سئل عن السعادة: إنها أمر جائز وكلمة نافذة! . وأنه الذى قال له مؤدب المأمون يومًا فى أيام الرشيد: إن المأمون لجميلُ الرأى فيك، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته، ألف ألف درهم؛ فاغتاظ من ذلك وقال له: ألك علىّ حقدٌ! ألى اليك إساءةٌ! فقال المؤدب: لاوالله ماقلت هذا إلا محبةً لك! فقال: أتقول لى: إنك تحصل منه ألف ألف درهم! والله ماصحبته لأكتسب مالا قلّ أو جلّ، ولكن صحبته يمضىَ حكمُ خاتَمى هذا فى الشرق والغرب! قال: فوالله ما طالت المدّة حتى بلغ ما أمل.

حسبك أن نذكر لك هذا، من أمر الفضل بن سهل، لتعلم ما لهذا الرجل من همةٍ وثابةٍ، وعزيمةٍ مرهفةٍ مَضّاءة، ومطالع واسعة. وحسبك أن نذكر لك ما وصفه به أحد معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته. قال:

يمضى الأمور على بديهته * وتريه فكرتُه عواقبَها
فيظل يُصْدِرُها ويورِدُها * فيعمُّ حاضرَها وغائبَها

[1] كتب أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار عن هذا مانصه: «كذلك كان الرشيد، كان يجمع بين الدم الآرى والدم السامى. فهل التحسين يجمع فى الطبقة الأولى فقط ويفسد فى الثانية؟ ومع هذا فان جوزتاف لوبون يخالف هذا الرأى على اطلاقه ويقول: إن أمة كل أفرادها مولدون لاتساس ويعلل ذلك بتضارب السجايا والخصال والعقائد التى يرثها من أبويه واضطرابها فى نفسه».

وإذا ألمّتْ صعبةٌ عَظُمَتْ * فيها الرَّزِيَّةُ كان صاحبَها
المستقلَّ بها وقد رَسَبَتْ * ولَوَتْ على الأيام جانبَها
وَعَدَلْتَها بالحق فاعتدلتْ * وَوَسِعْتَ راغبَها وراهبَها
وإذا الحُرُوبُ بَدَتْ بَعَثْتَ لها * رأيًا تَفُلُّ به كتائبَها
رَأيًا إذا نَبَتِ السيوفُ مضى * عزمٌ بها فَشَفَى مضاربَها
وإذا الخطوبُ تأثّلتْ وَرَسَتْ * هدّتْ فواضلُه نوائبَها
وإذا جَرَتْ بضميره يَدُهُ * أبْدَتْ به الدنيا مناقبَها

يقول الفخرى: قالوا لما رأى رأى الفضل بن سهل نجابة المأمون فى صباه، ونظر فى طالعه، وكان خبيرا بعلم النجوم، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة، لزم ناحيته وخدمه ودبّر أمورَه، حتى أفضت الخلافةُ اليه فاستوزره.

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون، الى خبرته بالنجوم، أم الى جَوْدَةِ حَدْسه، فقد اتصل بالمأمون وهو صبيّ، وكان الحاملُ له على أن يكون فى خدمته تحقيقَ آمال كبار، رأى بكياسته وحذقه فى نجابة المأمون خيرَ كفيل بتحقيقها.

ولقد كان استعداد المأمون الفطرى منذ نشأته أن يكون رجلَ جماعة، وقائدَ أمة، إذ قد حَبَتْهُ الطبيعةُ فيما حبته من شتى المواهب موهبةَ الخطابةِ والتبريزِ فيها. فقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى قال: حدّثنى عمى عبد الله وأخى أحمد قالا: لما بلغ المأمونُ وصار فى حدّ الرجال، أمرنا الرشيدُ أن نعمل له خطبةً يقوم بها يومَ الجمعةِ، فعملنا له خطبتَه المشهورةَ، وكان جهيرَ الصوت، حسنَ اللهجة، فلما خطب بها رقّتْ له قلوبُ الناس، وأبكى مَن سمعه، فقال أبو محمد اليزيدى يمدح المأمون:

لِتَهْنِ أميرَ المؤمنينَ كرامةٌ * عليه بها شُكْرُ الإلهِ وُجوبُ
بأنَّ وَلِىَّ العهدِ مأمونَ هاشمٍ * بدَا فَضْلُه إذ قام وهوَ خطيبُ
ولمّا رماهُ الناسُ من كل جانبٍ * بأبصارِهِم والعودُ منه صَليبُ

رَمَاهُمْ بِقَوْلٍ انصتُوا عَجَبًا له * وفى دُونهِ للسَّامعينَ عجيبُ
ولمَّا وعَتْ آذانُهُم ما أتى بِهِ * أنابَتْ ورقّت عِنْدَ ذاك قُلُوب
فأبكى عيونَ الناسِ ابلغُ واعِظٍ * أغَرُّ بِطَاحِىٌّ النِّجارِ نجيبُ
مَهيبٌ عليه للوقارِ سكينةٌ * جرىءٌ جَنَانٍ لا أكعُّ هَيُوب
ولا واجِبٌ فوق المنابر قلبُه * اذا ما اعترى قلبَ النَّخيبِ وَجيبُ
اذا ماعلا المأمونُ أعوادَ منبرٍ * فليسَ له فى العالَمِين ضَرِيبُ
تصدّع عنه الناسُ وهو حديثُهُم * تحدّثَ عنهُ نازِحٌ وقريبُ
شبيهُ أميرِ المؤمنينَ حَزَامَةً * اذا وَرَدَتْ يومًا عليه خُطُوبُ
اذا طاب أصلٌ فى عروق مَشَاجِهِ * فأغصَانُهُ مِنْ طيبهِ ستطيبُ
فقل لأميرِ المؤمنينَ الذى به * يُقَدِّمُ عبدُ اللهِ فهو أديبُ
كأن لم تَغِب عن بلدةٍ كان واليا * عليها ولا التدبيرُ منك يغيبُ
تَتَبَّعَ ما يُرضيكَ فى كل أمرِهِ * فسيرتُهُ شخصٌ اليك حبيبُ
وَرِثْتُم بنى العباس إرثَ محمدٍ * فليس لحىٍّ فى التُّراثِ نصيبُ

فلما وصلت هذه الأبيات الى الرشيد أمر لأبى محمد بخمسين ألف درهم ، ولابنه محمد ابن أبى محمد بمثلها .

***

« وبعد » فليس مِنْ شكٍّ فى نجابةِ المأمونِ وتبريزه . ولعل هذه النجابة الخارقة ، كانت من الأسباب التى حملت الرشيدَ، على أن يستوثق له الأمرَ فى ولاية العهد من أخيه ، ولأخيه منه ، بجمعهما فى بيت الله الحرام ، حين حج عام ست وثمانين ومائة ، ومعه كبارُ رجال الدولة ، وجلّ الظاهرينَ من الأسرة المالكة ، واستكتب كليهما عهدًا بما له وعليه قِبَلَ الآخر ، وأشهد عليهما جماعةً من ذوى المكانة والنفوذ ، ثم علّق العهدين فى الكعبة ، ليكونا فى مكان الاحترام الدينى . وقد أثبتنا لك العهدين فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث .

نقول : لعل هذه النجابة الخارقة كانت من الأسباب التى حملت الرشيدَ على أن يفعل ما فعل، من استيثاقِ الأمرِ بين الأخوين، خوفًا على المأمون ومنه. ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضُه : من أنّ الرشيدَ كان يُقدِّر قوة حزبَيِ المأمون والأمين، وبعبارةٍ أخرى، حزبَيِ الفرسِ والعربِ، أو العلويةِ والهاشميةِ، أو الشيعيةِ والسنيةِ .

ونحن لا نستطيع أن نرجع مظاهرَ العطف المختلفة، وفى مناسباتٍ كثيرةٍ من الرشيد على المأمون، الى الأبوة وحدها، فان للرشيد أولادًا غير المأمون، وغير الأمين، لم ينالوا شيئا من هذه الحظوة العظيمة لديه . لذلك نرى — وقد ترى معنا رأينا — أن هذه الحُظْوَة، التى ينالها المأمون من الرشيد، فى مناسباتٍ كثيرةٍ، دون إخوته، ترجع الى ما امتاز به المأمونُ، من نجابةٍ خارقةٍ، وميلٍ الى جدّ الأمور، وترفُّعٍ عن سفسافها، وسموٍّ عن دناياها، واضطلاعٍ بما يكلف القيام به من أعباء ومهامّ .

ولعل أظهر مظاهرِ العطف من الرشيد على المأمون، ما فعله الرشيد حين وافته منيته "بطوس"، من وصيته بجميع ما كان معه، من جندٍ وسلاحٍ ومالٍ للمأمون، دون أن يكون لخليفته من بعده، ليشدّ بذلك من أزر المأمون، ويقوّى من جانبه . وأنت جدُّ عالم بما قدّمناه لك من الكلام فى العصر الأموى، عن أثر المال فتقدّر معنا ما كان يرومه الرشيد، ولستَ فى حاجةٍ لأن أقول لك، إن أثر المال وسلطانه فى نفوذ الكلمة، وقوّة الشوكة، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعدو الواقعَ كثيرا، حين نذهب الى القول بأنّ الرشيدَ كان يحذر الخلافَ بين الأخوين، ويخاف كليهما على الآخر : يخاف الأمينَ على المأمون، لأن الأمين سيُصبح الخليفةَ الذى بيده قوّة الدولة من جندٍ ومال، وتصحبه مزاياها من عظم الهيبةِ ونفوذِ الكلمةِ، وسيكون مطمحَ آمال الآملين وموضعَ رجاء الراجين .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعا، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفّون حوله، رغبةً أو رهبةً . وجديرٌ بمن كان هذا شأنه أن يُخشى ويُتّقى .

ويخاف المأمونَ على الأمين، لأن ما امتاز به المأمونُ، من نجابة خارقة، وجدٍّ وحنكة، وعرفانٍ بشؤونِ الحياةِ واضطلاع، واعتداد بنفسه، يجعل منه خطراً شديداً على الأمين جديرا بأن يخشى ويتقى أيضا . ويظهر أنَّ كل هذا وقر فى نفس الرشيد الذى كان معروفاً بالحزم وجَوْدَةِ الحدْس، وقوةِ البصرِ بالعواقب، فأراد أن يتقيه، ورأى أن خيرَ وسيلة لاتقائه، أن يستكتبهما العهدين، كما قدمنا، فيقطع بذلك أسبابَ الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دسّ الدسّاسين، وسعاية الساعين، ويفهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأميرين من حرمة وتوقير .

غير أن تصرّفات الأيام، وآثار البطانة، ونتائج السعاية، ومَغَبّات الرياء والنفاق، كانت فوق ما كان يقدر الرشيدُ، فوقع الخلاف بين الأخوين أعنفَ ما يكون . ولم يكن ما اتخذه الرشيد من وقايةٍ وحيطةٍ ليصدّ تيارَه الجارفَ .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق فى اختيارِ حاشيته ومشيريه، فجمع حوله طائفةً من ذوى الدهاء والحنكة، وهؤلاء وإن كانوا من ذوى المطامع والأغراض، قد أخلصوا له النصح، وثقفوه التثقيف الذى يكفل له النجاحَ، فان تحقيقَ أطماعهم الواسعة، موقوفٌ على نجاحه . فإخلاصُهم له إخلاصٌ فى الواقع لأنفسهم أيضا . ولما كانت أم المأمون فارسية فربما جاز لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثرا فى أن يخلص له هؤلاء المشيرون إذ كانوا كلهم من الفرس وإذ كانت له بهم هذه القرابة .

وهذا يفسر لنا عاطفةً من عواطف المأمون، وهى ميلُه الى خراسان، وتعصّبه بعضَ التعصب للخراسانيين، إذ يحدثنا التاريخ أن رجلا من الشام اعترض طريقه مرارا وقال : « يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشأم كما نظرت لعجم خراسان ؛ فقال له : أكثرت على والله ما أنزلت قيسا عن ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهمٌ واحد ، يعنى فتنة ابن العامرى، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفيانى حتى تكون من أشياعه، وأما ربيعةُ فساخطةٌ على ربها

منذ بعث اللهُ نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا[(١)] . اعرف ! فعل الله بك ! »

وإنه ليجوز لنا أن نرجع هذا الميلَ، لا الى ما ذكره المأمون وحده، بل الى التربية وأثر البيئة الفارسـية فى نفسه ، والى مقابلة حسن الصنيع بمثله ؛ فأم المأمون فارسية ، والذين كفلوه وقاموا بتثقيفه فارسيّون، والذين أحاطوا به ونصروه فارسيّون . ومن هنا نستطيع أن نفهمَ الرأىَ الذى يقول به بعض المؤرخين الفرنجة : إن انتصارَ المأمون على الأمين كان أيضا انتصارًا للفرس على العرب، كما كان انتصارًا للفرس على العرب انتصارُ العباسيين على الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضا، ما ذهب اليه، بعض الباحثين، من أن المأمون كان شيعيًا وهو عباسىّ ، لأن البيئة الفارسـية التى نشأ فيها كانت إلى حد غير قليل مهدَ التشيع للعلويين ، فيجوز أن تكون قد صبغت المأمون بشئ من ألوانهـا ، وقد كان لذلك آثاره، لا فى السياسة ونظام الملك فحسب، بل فى الآراء والمذاهب مما سنذكره حين نعرض للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدّمناه لك عن نشأة المأمون وصباه، قد رسمنا لك صورةً واضحةً لهذا الأمير الذى سيكافح كفاحا شديدًا فى سـبيل الملك، والذى كان له أكبر أثر فى الحضـارة الإسلاميـــة .

أما شتّى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسة ، وجَوْدَة الحدس، وكفاية البطانة، وشـغفه بالعلم والأدب والجدال ، وما كان لهذا الشغف من ثورة علمية وفكرية وكلامية فى عصره، فسنرجىء الكلامَ فيها الى موضعها من كتابنـا، وهو الكلام على الخليفة المأمون، بعد أن استقرّ له الأمر فى بغـداد، وحين نضجت فيه هذه الخلال وآتت كل ما لها من ثمرات .

---

(١) فى ابن الأثير (سائسا) وهو غلط ، والصحيح ما أثبتناه عن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار . والشراة هم الخوارج .

الفصل الثالث

النزاع بين الأمين والمأمون

توطئة — بيعة الأمين وخلافه — مبدأ النزاع وكيف تحوّل — الوفود السياسية — تطور الرأى العام واستمرار الوفود السياسية — اعلان الحرب — انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء : مجهودات الأمين فى سبيل الفوز — الثورة وخطباؤها — قتل الأمين .

(أ) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك فى مجمل كلامنا عن الرشيد والأمين، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأمين فى سنة ١٧٥ هجرية، وسنّ الأمين فيما قيل وقتئذ خمس سنين، ثم أشرك معه المأمون فى ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية، ثم استوثق لكليهما من أخيه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : بأن استكتب كلا منهما عهدًا بما عليه وله قِبَل الآخر، وعلّق العهدين بالكعبة كما قدمنا .

ويؤخذ من نصوص العهدين، وما تبودل بعد ذلك من الرسائل بين الأمين والمأمون، مما سنورد لك بعضه لما تضمنته من «الديبلوماطيقية العباسية» : وهى لينٌ فى حزم، وتيئيس فى تأميل طويل الأجل، — ويؤخذ منها أن خراسان ونواحيها الى الرى كانت تحت إمرة المأمون، يتصرف فى جميع شؤونها، من سياسية وحربية واقتصادية وقضائية تصرفًا تامًا، لا تربطه بحاضرة الخلافة إلا رابطة الدعاء للخليفة . وقد صارت اليه إمرة هذه النواحى فى عهد الرشيد، وهى من الأمور التى أخذ الأمين بالوفاء بها، فيما أخذ به من عهودٍ ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك فى سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخويه فى ولاية العهد، وجعل من نصيبه العمل على الشام وقِنَّسْرِينَ والعواصِم والثغور .

وكانت الأمور جارية مجراها الطبيعى آخر أيام الرشيد، ثم شطرًا كبيرًا من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كَشحًا، دُربةً منه وسياسةً، وحصافة وكياسة، وتريثًا وتعقلًا، وحزامةً وتمهلا .

ولم تنقض الســنة الأولى من خلافة الأمين حتى كانت الدسائسُ قد فعلت فعلَهـا، وحتى كانت المنافسةُ العنيفةُ بين البطانتين قد بلغت غايتها، وأخذ كلٌّ من الأخوين يحذر أخاه ويتقيه، وآمتلأت الصـدور حفائظ وإحَنًا، ولم يبق إلا أن تُمَسّ فتنفجر . وسنفصل لك كل ذلك تفصيلا .

(ب) بيعة الأمين وخلافتــه :

لما خرج رافع[1] بن الليث بن نصر بن سيار بخراسان، وكثُف أنصارُه، وقويت شوكتُه، وعظم خطرُه، رأى الرشيدُ أن يخرج اليه بنفسه لمحاربتـه وتسكين حَبْل الأمن الذى اضطرب فى تلك النواحى . فأصابه من مشاقّ السفر، وتغيّر الطقس، وشدّة التفكير، ما أعلّ صحتـه . وبدا له من ظروف الأحوال ما حمله على تجديد البيعة للمأمون، الذى كان بمرو، وأوصى بأن يصير ما معه، من قوادٍ وجندٍ وسلاحٍ ومالٍ الى جانبه، وأخذ المواثيقَ على من معه بأن يُوفُوا بهذه الوصية .

ثم أخذت تشتد به العلة، حتى وافته منيته بطوس سنة ١٩٣ هجرية . وبويع للأمين بالخلافة، فى عسكر الرشيد، ووصله نعيُ الرشيدِ فى بغداد يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة، خلت من جمادى الآخرة، وقيل ليلة النصف من هذا الشهر، فكتم الخبرَ بقية يومه وليلته، ثم أظهره يوم الجمعة .

---

(١) هو حفيد نصر بن سيار آخر والٍ لبنى أمية بخراسان اذ دالت بعد ذلك دولتهم . وسبب خروج رافع هذا أنه طمع فى زواج امرأة يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائى لشرفها ومالها وكانت مغاضبة لزوجها، فحملها على أن تعلن الكفر لتطلق ثم تزوج منها . فبلغ أمره الرشيد الذى كلف عامله أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به فى مدينـة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره . فدرأ عنه العامل الحـد وطاف به ثم سجنه فهرب من الحبس فطارده عمال الرشيد . وما زال أمره يشتد حتى اضطر الرشيد الى الذهاب اليه بنفسه .

ويحدثنا التاريخ أن الأمينَ لمـّا بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث بكر بن المعتمر رسولا الى مقرّ الخليفة، ليوافيه بالأخبار كلّ يوم . وكتب معه كتباً، وجعلها فى قوائم صـناديقَ منقورةٍ، ألبسها جلد البقر ، ليخفى أمرَها، وكلّفه ألا يُظهرَ أحداً على شىء من أمره، وما توجه فيه ولو قُتِلَ ، حتى اذا نفذ أمرُ الله فى الرشيد، دفع الى كل من له كتابٌ كتابَه . فلما وصل رسولُ الأمينِ، راب الرشيدَ قدومُه، فسأله عما جاء به، فلمـا لم يجد فى جوابه ما يُزيلُ ريبَـه، أمر بتفتيشه وحبسه . ولعلك تصيب لباب الصواب، أولا تعـدوه كثيرا، اذا افترضت أن هـذا الريبَ الذى خامره من رسول الأمين، كان من العوامل التى حملته على تجديد البيعة للمأمون، وأن يوصى لهم بمـا معه من جندٍ وسلاحٍ ومالٍ .

لبث رسولُ الأمين فى الحبس أشهرًا ، إذ تاريخ الكتب التى يحملهـا الى من أرسلت اليهم شوّال سـنة ١٩٢ هـ . ووفاةُ الرشيد كانت فى جمادى الآخرة سـنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمـل بكرًا على الإقرار، فكلّفَ الفضلَ بن الربيع ذلك، وأن يهدّده بالموت اذا لم يقرّ . وقد حالت وفاةُ الرشيد فى ذلك اليومِ، دون تمام هذا الإقرار . ثم لمـا وثق الرسولُ من وفاة الرشيد دفع الى كل كتابه .

وقد أثبتنا لك من هـذه الكتب كتابه الى أخيه المأمون وكتابه الى أخيـه صالح فى موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لمـا لهما من خطرٍ فى موضوع النزاع، فانهما يدلان على أن الأمين لم يكن لينكث ما عقد من عهودٍ ومواثيقَ ، وإنمـا بطانة السوء هى التى زينت له أن يفعل ما فعل؛ فراجعهما ثمة . وتأمل طويلا فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء ، والزعماء ، والأمراء ، وما تجره على البـلاد من انتثار العقد وتشتيت الشـمل ، وتشعّث الألفة، وفرقة الجمـاعة، وسريان الفتن وذيوع الفوضى ، وانتشار الاضطرابات ، واندلاع نيران الثورات ، ومن ترجيح كفة الأشرار على الأبرار ، الى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التى سنحدثك عنها، وستراها واضحة جلية فى كلمتنا الآتية .

*
* *

(ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطلب الىّ ، وفقك الله، أن تقف على ما كان لتلك الكتب، من أثرٍ فى نفوس من أُرسِلَتْ اليهم ، وإنى شافٍ غُلتك، مجيبك الى سُـؤلك ، محيلك الى الطبرى فى هـذا الصدد إذ يقول :

"لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس، من القوّاد والجندِ وأولاد هارون، تشاوروا فى اللحاق بمحمـد، فقال الفضـل بن الربيع : لا أدع مُلكًا حاضرا لآخر لا يُدْرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، محبـة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد، وتركوا العهودَ التى كانت أُخِذَتْ عليهم للمأمون " .

أما المأمون – بعـد أن انتهى اليه بمرو خبرُ نكث القوم للعهود التى أُخِذَتْ عليهم ، وفرارِهم الى بغدادَ بما كان الرشيد أوصى بأن يكون له ، من جنـدٍ ومالٍ وسلاحٍ – فقد اجتمعت كلمة الرواة على حسن تيقظه وسرعة مبادرته لشتى أموره، وأنه شدّ لها حيازيمَه، وحسر لها عن ساقه . ويحدثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قوّاد أبيه، وأخبرهم الخبر وشاورهم فى الأمر، فأشاروا عليـه أن يلحق القومَ فى ألفى فارس ، ويحولَ بينهم وبين ما أرادوا .

ولكن المأمون عمل بمشورة الفضل بن سهل ، الذى كان يثق به وبكفايته ، ويؤمن بكياسته وحسن سياسته ، ويقتنع بثقوب بصره وصدق نظره ، فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليـك جعلتَ هؤلاء هديةً الى محمد ، ولكن الرأى أن تكتب اليهم كتابا، وتوجه اليهم فتذكرهم البيعة، وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدنيا والدين، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك، فتستبرئ ما عند القوم . وتوجه سهل ابن صاعد – وكان على قهرمته – فانه يأملك، ويرجو أن ينال أمله ، فلن يألوكَ نصحا، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ، وكان عاقلًا . فلم يرَ المأمون، وهو

الحاذق الفطن، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفضل الى القوم فلحقاهم بنيسابور ، فقال الفضل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذرا متعللا : " إنما أنا واحد منهم " ! وقد نال بعضهم من المأمون وأغلظ لرسوليه ، ثم رجع الرسولان بالخبر .

وكان ممكنًا ، بعد أن طوى المأمونُ كشحًا على ما وقع من القوم من نكثٍ للعهود واغتصابٍ لما أوصى به الرشيد له : من جندٍ ومالٍ وسلاحٍ ، وبعد أن أخذ يُهدِى الى أخيه خيرَ ما وصلت اليه يمناه من تحفِ خراسان ونفائسِها ، أن تسير الأمورُ فى مجراها الطبيعىِّ ، وأن يستقرَّ الأمرُ بين الأخوين على ما أراد الرشيد ، لولا أن بطانة الأمين أوغَرَتْ صدرَه على أخيه ، ولولا أن بطانة المأمون حفزته الى مقابلة العدوان بمثله ، وأفعمت قلبه ثقة بالغلبة والظفر وإيمانا بالفوز والنجح .

وإن كلمة الفضل بن الربيع "لا أدع ملكا حاضرا لآخر لايُدرى ما يكون من أمره!" فيها الغنيةُ والكفايةُ فى تفهيمنا الأساسَ الذى بُنِيَتْ عليه تصرفاتُه بين الأخوين ، فهو ينظر لمصلحة من بيده الملك اليوم ، لا يحفِلُ ببيعةٍ ولا عهدٍ ، ولا يكترث لوحدة قومية ولا يحفل بإحلال الوفاق بين العباد ، ولا يعمل على مصافاةٍ ولا وِدادٍ ، وإنما همه الملكُ الحاضر ، والإمعانُ فى إرضاء المُلكِ الحاضر .

كذلك كانت حال الفضل بن سهل فى موقفه مع عبد الله المأمون ! ومهما كانت صورةُ المأمونِ التى صوّرها لنا التاريخ بأنه المغلوب على أمره ، فى النزاع الذى نشب بين الأخوين ، وأن الأمين هو الناكث الغادر . ومهما كانت القلوبُ الإنسانية تحنو على المظلوم وتعطف على المغلوب — مهما كان كل ذلك ، مما يجعلنا نستسيغ تصرفات الفضل ابن سهل مع المأمون ، بل مما يدفعنا الى الافتتان بها وعزو الحصافة ، والأصالة ، والكياسة ، الى صاحبها ، وأن ليس هناك من هو أنهدُ منه فى مثل مواقفه ولا أجزى ، ولا أحكم من تدبيراته ولا أوفى ، ولا أرهف غرارًا من عزماته ولا أمضى ، ولا أقدر منه

فى خُطَطِه ولا أغنىٰ، بَيْدَ أنا مع ذلك، اذا جرّدنا النفس الانسانيةَ من بعض صفاتها، ونظرنا "ببرود" — على حدّ التعبيرِ الانجليزى — وبحيدةٍ ونصفةٍ منه وله، فانا نقرر، من غير أن نعدوَ الحقَّ والواقعَ، أن الفضل بن سهل لعبَ مع المأمون، ذلك الدورَ الخطيرَ بذاته الذى لعبه الفضل بن الربيع مع الأمين، وأن كلًّا قد توكأ على أميره لغايته، واستغلّه فى سبيل نُجح سياسته، ودفع به الى حيث يريد! .

أنظر اليه، وقد عادت وفود المأمون من مقابلة الفضل بن الربيع ومن لحق به من جند وسلاح، تره يصارح المأمونَ عنهم بقوله: أعداء قد استرحت منهم، ولكن افهم عنى ما أقول لك: إن هذه الدولةَ لم تكن قط أعزَّ منها أيامَ أبى جعفرٍ، فخرج عليه "المقنع" وهو يدّعى الربوبيةَ، وقال بعضهم: طلب بدم أبى مسلمٍ، فتضعضعَ المعسكر، بخروجه بخراسانَ، فكفى اللهُ المؤنةَ، ثم خرج بعده يوسفُ البرم، وهو عند بعض المسلمين كافر، فكفى الله المؤنةَ، ثم خرج أستاذ سيس، يدعو الى الكفر، فسار المهدىُّ من الرىّ الى نيسابورَ فكفى الله المؤنة. ولكن ما أصنع أكبر عليك، أخبرنى كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع؟ قال المأمون: "رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا" فقال له الفضل: وكيف وأنت نازل فى أخوالك وبيعتك فى أعناقهم، كيف يكون اضطرابُ أهـل بغداد؟ اصبر وأنا أضمن الخلافةَ! قال المأمون: "قد فعلت وجعلت الأمر اليك فقم به".

على أنه اذا صدق الرواةُ فيما يروُونه لنا: من أن الفضل بن سهل قال للمأمون فى حديثه معه: "لأصدقنك أن عبدالله بن مالك، ويحيى بن معاذ، ومن سمينا من أمراء الرؤساء، إن قاموا لك بالأمر كان أنفعَ منى لك، برياستهم المشهورة، ولما عندهم من القوة على الحـرب، فمن قام بالأمر كنتُ خادمًا له، حتى تصير الىّ محبتك، وترى رأيك فىّ".
وصدقوا فى أن الفضل بن سهل لقى هؤلاء الزعماء فى منازلهم، وذكرلهم البيعةَ التى فى أعناقهم، وما يجب عليهم من الوفاء، وأن الخيبة كانت نصيبَ دعوته لهم وتذكيره إياهم، وأنها مع ذلك لم تَصدِفْه عن قصده الذى نهدَ اليه، ولم تَحُلْ بينه وبين مضيّه قُدُمًا فى سبيل غايته، التى

تأدى لها بأداته، وتذرع لها بذرائعه، وأخذ لها عُدَّته، وأرهف لها عزمته. وأنه قال للمأمون: "لقد قرأتَ القرآن، وسمعتَ الأحاديث، وتفقهتَ فى الدين، فالرأى أن تبعث الى من بالحضرة من الفقهاء، فتدعوهم الى الحق والعمل به، وإحياء السنة، وتقعد على اللبود، وترد المظالم". وصدقوا حقًّا فى أن المأمون والفضل فعلا ذلك، وأنهما بعثا الى الفقهاء، وأكرما القوّاد والملوكَ وأبناء الملوك. وصدقوا فى أن الفضل كان يقول للتميمى: "نُقيمُك مَقامَ موسى بن كعب، وللربعى مقام أبى داود خالد بن إبراهيم، ولليمانى مقام قحطبة ومالك ابن الهيثم". وصدقوا فى أنهما كانا يدعوان كلّ قبيلة، الى نقباء ورؤساء الدولة، كاستمالتهم الرؤوسَ. وصدقوا فى أن المأمون والفضل قد حطا عن خراسان ربعَ الخراج حتى حسن موقع ذلك من الخراسانيين وسُرّوا به وقالوا: «ابن أختنا وابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم» وصدقوا فى أن المأمون تواترت كتبه الى أخيه محمد الأمين، بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح، حتى أوائل سنة أربع وتسعين ومائة التى عزلَ فيها الأمينُ أخاه القاسمَ عما كان أبوه ولاه من عمل قِنَّسْرينَ والشأم والعواصم والثغور، وولى مكانه خزيمةَ بن خازم، والتى أمر فيها بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وظهر بينهما الفساد — اذا صدق الرواة فى كل ذلك، فانا نرى من النصَفَة العلمية والتاريخية، أن نقررَ حينئذ أن الفضل بن سهل كان دَهِياً حقا، وممعنا فى الديبلوماتيقية، وكان موقفه لايقل عن موقف «وارن هاستنج» و «كليف» فى الهند، وغيرهما من جهابذة السياسة، وأقطاب الدهاء. وربما كانت مكانته أسمى منهما وأرفعَ وأخلق بمقارنتها بمن يشار اليه بالبنان من ساسة هذا الزمان!

ولننظر معًا، وهبنا الله وإياك الجلد والأناة، ووفقنا الى ما نرومه من تمحيص وتحقيق، وتفهم وتدقيق، فى حوادث سنة أربع وتسعين ومائة لنكون مُلمِّين بتحوّل النزاع الذى شجر بين الأخوين، ولنؤمن الإيمانَ كله أن البطانة قد لعبت دورا شنيعا، فى إشعال جَذْوة الحقد والسخيمة بينهما، وعملت على إضرام أُوَارها، وسعت جُهدَها فى توسيع مسافة

الخلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نجد أن الفضل بن الربيع، فيما يرويه لنا المؤرخون، سعى بعد مَقْدَمِه العراقَ على محمد، منصرفا عن طُوس، وناكثًا للعهود التى كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أفضت الى المأمون يومًا وهو حىّ لم يُبْقِ عليه، وكان يترقب فى ظفره به عَطَبَه — سعى جُهدَه فى إغراء محمد به، وأعمل قريحته فى حثه على خلعه، وزَيَّنَ له، بما فى مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده الى ابنه موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه، بل كان عزمُه، فيما ذكر الرواة عنه، الوفاءَ لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عليه لهما والدُه من العهود والشروط . فلم يزل به الفضل ابن الربيع يُصغِّر فى عينيه شأن المأمون، ويُزَيِّن له خلعه، حتى قال له : "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فان البيعة لك كانت متقدّمة قبلهما، و إنما أدخلا فيها بعدك، واحدا بعد واحد!" . قال ذلك ابن الربيع، وضم الى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسندى وغيرهما ممن بحضرته .

ومن المعقول أن نفترض أن الفضل مضى فى الإيقاع على هذه النغمة، ثَنْيًا بعد ثنى ومرة إثر أخرى، وقدح فى ذلك قريحته، واستخدم شتى وسائل أمثاله ونظرائه، حتى أزال محمدا عن رأيه . وقد ذكر المؤرخون : أن أول ما بدأ به محمد عن رأى الفضل بن الربيع فيما دَبَّر من ذلك، أن كتب الى جميع العمال فى الأمصار كلها، بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد .

والآن، بعد أن وقفتَ على تصرّف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعة المأمون، لك أن تستنبط ما يفعله الفريقُ الآخر، إجابةً على تصرّف الفريق الأوّل . ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تدبيرَ من يرى أن أخاه يدبر عليه خلعه . ولك أن تنتظرَ مثلَ ذلك من جماعة المأمون وأنصاره .

وهكذا تنبئنا حوادثُ السنةِ نفسها، إذ ينبئنا الطبرى أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط اسمه من الطرز، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار ، لما انتهى اليه من الخبر عن المأمون ، وحسن سيرته فى أهل عمله ، وإحسانه اليهم ، فيما يرويه المؤرخون ، أو سعى المأمونُ ورجالاتُ المأمون ، كهرثمة وطاهر ، فى إصلاح ما بينه وبين المأمون ، وطلبِ الأمان له ليكون عُدّةً وظهيرا للحزب المأمونى ، كما نستسيغه نحن ونستخلصه ؛ وفيها ولّى المأمون هرثمةَ رياسةَ الحرس ، ولهرثمة مكانتُه وشهرتُه ، وله سيرتُه ونجدتُه ، ولرافع بيتُه وأنصارُه ، وكتائبُه وفرسانه ، كما أن لطاهر ابن الحسين حزمه وشجاعته وفروسته ومرانه ، ولابن سهل بلا ريب حِذقُه فى تصرفاته التى بمثلها تُرَدّ الأهواء الشاردةُ ، وتُستصرَف الأبصارُ الطامحة . وعلى رأسهم ، أو الى جانبهم إن شئت المأمون ، وقد تسربل بالثوب الذى نُصِحَ اليه بلبسه ، فأضحى محمودَ الشيم مرضىَّ الخلال ، وهو باستعداده ونزعته ذلك الرجل السياسىّ ، المعتدل المزاج ، الهادئُ الأعصاب ، السديد التصرف ، السمح الأخلاق ، اللين العريكة ، الكريم المهزة ، مع أناةٍ وجلدٍ وعزم وحزم ، ونفاذ ومضاء .

ومن المعقول أيضا أن ينكر الأمينُ ذلك من ناحيته أيضا . والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدقَ عنه قلوبَ رجاله ، وأن تتسلسل الحلقات ، وتستطرد الإجراءات ، المحتومة الوقوع ، فى مثل هذه الحالات ! .

وربما كنا على حق ، اذا قلنا : إن النزاع أضحى بين الفضلين ابن سهل وابن الربيع . وانقلب عنيفا أعظم العنف فقد كان بين كفايتين لا يعرفان الونيةَ والتضجيع[1] . ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة ، ومن سَعَة الحِيلة وقَدْح الخَتْل ، ومن وَفرة الحُنكة وغَناء الاختبار ، ومن مَضاء العزيمة وثروة الذهن . لهما من ذلك كله ، وما الى ذلك من شتى الصفات السياسية ، ما لا قِبَلَ لأحدهما به من صاحبه ، فلكل من صاحبه بَوَاءٌ ونديد ، ومُنازِل عَنِيدٌ ، وكَمِىّ صِندِيدٌ !

أنظر الى الأمين ، قد كتب الى العباس بن عبد الله بن مالك ، وهو عامل المأمون على الرى ، وأمره بأن يبعث اليه بغرائب غروس الرى ؛ فبعث اليه المسكين بما أمره ، بغيرَ

(١) التضجيع : التقصير .

عالم أن للمأمون ورجاله عيونا وأرصادا، ولهم، قبل ذلك، يَقَظَتُهم التى لا تنى ولا تغفُل .
فماذا كان من المأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله الساذَج المسكين، فعزله ، ووجه مكانه الحسن بن علىّ المأمونىّ، وأردفه بالرُّسْغِىّ، على البريد . وهكذا حاولت الديبلوماتيقية "الربيعيـة" أن تصرف قلبَ عاملٍ كبيرٍ عن أمر المأمون ، والقضية المأمونيـة ، نكاية بالديبلوماتيقية "السهلية" التى اكتسبت رافعًا وضمت الى حزبها بيتَ ابن سيار . وناهيك ببيت ابن سيار !

ولنتطرّق الآن الى التكلم عن الحرب الكلامية التى نشبت بين الأخوين ، والتى كانت، بلا ريب، مقدّمة لوقوع الحرب العامة . و بعبارة أدق لنتكلم عن الوفود السياسية محـاولين، على قدر استطاعتنا، واستنادا الى ما بين أيدينـا من مصادر و وثائق ، وصف الكفايات السياسية فى ذلك العصر الغنىّ حقا برجالاته ودهاته .

*
* *

(د) الوفـــود السـيـاسـيـة :

لنتساءل أوّلا ماذا حدث فى السنة التى نحن فى صددها وهى سنة أربع وتسعين ومائة، فانها مليئة، والحق يقال، بمنتجات هاتين العقليتين ، العاتيتين حقًّـا، الجبارتين بلا مبالغة ولا إغراقٍ، ونعنى بهما عقليتى الفضل بن الربيع، والفضل بن سهل .

حدث أن وجّه الأمينُ وفدًا سياسيًّا الى المأمون ، قِوَامُه العبـاسُ بنُ موسى، وصالح صاحب المصلى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وطلبوا اليه تقديم موسىٰ بن الأمين الذى سماه "الناطق بالحق" على نفسه . وقد يكون من الطريف الممتع حقا، أن نوضّح ما كان من أمر هذا الوفد، وهل وُفِّقَ الحزبُ المأمونى فيما حاول من الأخذ بقلوب رجاله ، أو بعضهم على الأقل ، فإن فى توضيحنا لذلك ما يمدّنا بصورةٍ لا بأس فى جملتها، من صور الديبلوماتيقية فى ذلك العصر، و إن فى تفهمنا هذه الصورة ووقوفنا عليها، نفعًا عظيمًا يعيننا، بلا ريب، على تفهم العصر وروح سياسته .

يحدثنا التاريخ أن العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأمينى قال للمأمون : "وماعليك أيها الأمير من ذلك — أى من تقديم موسى عليه — فهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع، فما ضرّه ذلك ! " ويحدثنا أيضا بأن الفضل بن سهل كان موجودًا ، كما هو المنتظر، فى ذلك المؤتمر السياسى ، وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : "أسكت بجدك كان فى أيديهم أسيرًا وهذا بين أخواله وشيعته ! " .

أتعرفُ ما ذا كانَ من أمرِ الوفدِ ؟ .

إنه قد انصرف ، ولكن لا الى الأمين ، بل الى منازلَ خصصها لهم المأمونُ ، حيث أفرد لكل واحدٍ من أعضاء الوفد منزلًا ، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسى الذى تلتق به الحكومات الحاضرة الوفود السياسية . فتأمل ! .

ثم لننظر معًا — معتصمين بالأناةِ والصبرِ قليلا — فى تصرّف الفريقِ الآخر فى السنة عينها ، فنرى أن الوفدَ قد عاد الى الأمينِ ، وأخبره بامتناع المأمونِ ؛ فألحّ عليه الفضل بن الربيع وعلىّ بن ماهان ، فى البيعة لابنه موسى " الناطق بالحق " وخلع المأمون ، فأجاب الأمين الى ذلك ، وأحضر ابنـه علىّ بن موسى الذى ولّاه العراقَ ، وتسارع بعضُ ولاة الأمين فى انتهاز الفرصـة ، للتقرب منه والتحبب اليه ، بالمبـادرة بأخذِ البيعة له قبلهـم . وقد كان أول من فعل ذلك بشر بن السعيد الأزدىّ ، وصاحب مكة وصاحب المدينة .

لم يكتف الفضـل بهذا ، ولا بالكثير من أمثاله ، مما ينتظر من مثله فى مثل تلك الظروف ، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد ، وحظر الدعاء لهما على شىء من المنابر ، بل دس من ذكر المأمونَ بسـوء ، وحطّ من قدره ، ولصّق به أقبحَ النقائص والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب .

ولم يكتف الفضل بهذا ، بل وجه الى مكةَ كتابًا مع محمد بن عبـد الله ، أحد سدنةِ البيت الحرام ، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين ،

وكان حظُّهما من الأمين، لما صارا اليه، حظَّ غيرهما من العهود فى ذلك العصر، "والمعاهدات" و " قصاصات الورق " فى عصرنا الحاضر فرّقهما وأبطلهما، وأجاز سارقَهما !

ثم تعـال معى لننظر معا، نظرةَ إنعامٍ وترو، فى مشاورة المأمون لشيعته، حينما حزبه الأمر، وضاق به السبيلُ، فهى، لَعمرُك، آية فى الحكمة والمهارة السياسية .

يقول الطبرى : "كان محمد، فيما ذكر، كتب الى المأمون، قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال اليها من قِبل محمد، وأن يحتمل توجيه رجل من قِبَـله، يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره . فلما وردِ الى المأمون الكتابُ بذلك، كبُر ذلك عليه وآشتدّ، فبعث الى الفضـل بن سهل والى أخيه الحسن، فشاورهما فى ذلك؛ فقال الفضلُ : "الأمر خطير، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ولهم تأنيسٌ بالمشاورة، وفى قطع الأمل دونهم وحشةٌ وظهورُ قلةِ ثقة ، فرأى الأمير فى ذلك"، وقال الحسن : كان يقال "شاور فى طلب الرأى من تثق بنصيحته، وتألّف العدوّ فيما لا آكتتام له بمشاورته" . فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتابَ؛ فقالوا جميعا له : "أيها الأمير! تشاور فى مخطر، فاجعل لبديهتنا حظًّا من الروية"، فقال المأمون : ذلك هو الحزم؛ وأجّلهم ثلاثا . فلما آجتمعوا بعد ذلك قال أحدهم : " أيها الأمير قد حملت على كرهين ، ولست أرى خطأ مدافعة بمكروه أولها مخافة مكروه آخرهما " . وقال آخر : "كان يقال، أيها الأمير أسعدك الله، اذا كان الأمر مخطراً فإعطاؤك من نازعك طرفا من بغيته أمثلُ من أن تصيرَ بالمنع الى مكاشفته" . وقال آخر : " إنه كان يقال : اذا كان علم الأمور مُغَيبًا عنك، فخذ ما أمكنك، من هدية يومك فانك لا تأمن أن يكون فسادُ يومك راجعًا بفساد غدك" . وقال آخر : "لئن خفتَ للبذل عاقبةً، إن أشدّ منها لمـا يبعث ألا تأمن الفرقةَ" . وقال آخر : "لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فلعلّى أعطى معها العافيةَ" . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأى على مخالفتكم . قال المأمون : فناظرهم؛ قال : لذلك ما كان الآجتماعُ . وأقبـل الحسن

عليهم فقال : هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب شيء ليس له بحق ؟ قالوا : نعم ، ويحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منعه . قال : تثقون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب الى غيرها ؟ قالوا : لا ، ولعل سلامة تقع من دون ما نخاف ونتوقع . قال : فان تجاوز بعدها بالمسألة أفما ترونه قد توهن بما بذل منها فى نفسه ؟ قالوا : ندفع ما يعرض له فى عاقبته بمدافعة ما تحذرون فى عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا ، قالوا : آستصلح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك ، ولا تلتمس هدنة يومك بإخطار أدخلته على نفسك فى غدك . قال المأمون للفضل : ما تقول فيما آختلفوا فيه ؟ قال : "أيها الأمير ! أسعدك الله : هل يؤمن محمدٌ أن يكون طالبك بفضل قوتك ، ليستظهرَ بها عليك غدا على مخالفتك ! وهل يصير الحازمُ الى فضلة من عاجل الدعة ، بخطر يتعرّض له فى عاقبته ! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاحَ عواقب أمورهم" . فقال المأمون : "بل بايثار العاجلة صار من صار الى فساد العاقبة ، فى أمر دنيا وآخرة" . قال القوم : قد قلنا بمبلغ الرأى ، والله يؤيد الأمير بالتوفيق . فقال : اكتب يا فضل اليه فكتب" .

ويستطرد الطبرى بعد ذلك فى القول بأن المأمون أملى على الفضل هذا الكتاب ليبعثَ به الى أخيه وهو : "قد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين ، يسأل التجافى عن مواضع سماها ، مما أثبته الرشيد فى العقد ، وجعل أمره الىّ ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره ، غير أن الذى جعل الى الطرف الذى أنا به لاظنينٌ فى النظر لعامته ، ولا جاهلٌ بما أسند الىّ من أمره ، ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كنت على الحال التى أنا عليها : من إشراف عدو مخوفِ الشوكة ، وعامة لا تتألف عن هضمها ، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال ، وطرف من الإفضال ، لكان فى نظر أمير المؤمنين لعامته ، وما يجب من لمّ أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته ، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ، ووكدته مأخوذة العهد . وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب بمسألتـه إلىّ . ثم أنا على ثقة من القبـول بعد البيان إن شاء الله » .

ألا يجدر بنا — وقد آطلعنا على تلك المشاورة السياسية، التى يجوز لك أن تقول عنها، بالنسبة لوقتها وجيلها، وموضوعات وقتها وجيلها، إنها لا تقلّ فى دقتها، وحذقهـا، وقوة مناحيها، عما يجرى حول المـائدة الخضراء، بين ساسة اليوم — أن نقول : إن المأمون قد حُصِّنَ بساسة عُتاة ومشيرين دهاة ! .

ثم آنظر الى مبالغة المأمون فى حذره ، أو مبالغة حزبه فى الحِيطَةِ والحذر، فقد أثبت المؤرّخون أنهم قد وجهوا حُرّاسًا من قِبَلهم على الحدود ، حتى لا يتركوا للأمين أو لرجاله فرصة الآتصال برعية المأمون . و بالغوا أيما مبالغة فى تدبيرهم، حتى جاء، كما يقول الرواة، « تدبيرًا مؤيدًا، وعقـدًا مستحصدًا متأكدًا ، فضمنوا بذلك ألا تحمل رعيتهم على منوال خلافٍ أو مفارقةٍ » .

وهنا لا نرى مندوحةً، من إثبات ذلك المجهود العظيم ، الذى بذله الفضلُ بن الربيع أو الأمين، كيفما شئت التعبير ، فى استمالة القلوب النافرة من الجماعة المأمونية ؛ فقد كان، والحق يقال، طلقَ اليدين، ندىَّ الكفين، كثيرةً جدواه، وافرةً حُذَياه، عظيمةً عطاياه، ولم يألُ جهدا فى إرسال دعاته وأنصاره، لبثّ الدعوة الأمينية فى العـامة وإظهارهم على رجحانها وحقها وعدلها، و إظهار الحجة المفارقة، والدعاء لأهل القوة الى المخالفة . وكان هؤلاء الدعاةُ يبذُلون المـالَ ، و يضمنون للأنصار معظم الولايات والقطائع . وصـفوةُ القول أن تصرُّف الأمين و جماعته ، من هذه الناحية ، كان قريبَ الشبه بتصرّف المأمون و جماعتـــه .

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك ممنوعا محسومًا، حتى صاروا الى باب المأمون.

وهنا يجب أن نقول : إن الحرب الكلامية قد بدأت تَشْتَدُّ بين الأخوين ، والحرب الكلامية، أيدك الله، هى مَيْزة هامة من ميزات العصر العباسىّ . وقد صدق « كشاجم » فى قوله مشيرا الى عداوة أصحاب الأقلام فى تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئا لأصحاب السيوف بطالةٌ ✽ تقضى بها أوقاتهم فى التنعم
فكم فيهمُ من وادع العيش لم يهج ✽ لحربٍ ولم ينهد لقرن مصمم
يروح ويغدو عاقداً فى نجاده ✽ حُساما سليم الحد لم يتثلم
ولكن ذوو الأقلام فى كل ساعة ✽ سيوفهمُ ليست تجف من الدم

وإن المطلع على تاريخ العصر، المستقصىَ لدقائقه وجلائله، الواقفَ على أسراره وخفياته وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يذهبون فى القول بأن قِوامَ السياسة فى هذه الدولة كان على التحيل والمخادعة، أكثرَ مما كان على القوة والشدة .

لننتقل الآن الى ذكر الكتاب الذى بعث به الأمينُ الى أخيه، مع رسله الذين بعثهم للدعوة، وإثارة رجالات المأمون، قبل كل اعتبار، فها كه : « أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أفردك بالطرف، وضم ما ضمَّ اليك من كور الجبل، تأييدًا لأمرك، وتحصينا لطرفك، فان ذلك لا يوجب لك فضلةَ المال عن كفايتك، وقد كان هذا الطرف وخراجه، كافياً لحدثه ثم يتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من ردّه . وقد ضمّ لك الى الطرف كورًا من أمهات كور الأموال، لا حاجة لك فيها، فالحقّ فيها أن تكون مردودةً فى أهلها ومواضع حقها. فكتبت اليك أسألك رد تلك الكور، الى ما كانت عليه من حالها، لتكون فضولُ ردّها مصروفةً الى مواضعها، وأن تأذن لقائم بالخبر، يكون بحضرتك يؤدّى الينا علم ما نعنى به، من خبر طرفك، فكتبت تلط دون ذلك، بما إن تم أمرك عليه، صيّرنا الحقُّ الى مطالبتك، فاتئن عن هذا أنثن عن مطالبتك، إن شاء الله .”

وَرَدَ الكتابُ على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فَسُرْعَانَ ما رد المأمون وحزبه عليه بهذا الكتاب : ”أما بعد، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك إجابته، وإنما يتجاوز المتناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفةُ عن أهلها، فمتى تجاوزها متجاوز، وهى موجودة الوسع، لم يكن تجاوزُها إلا عن نقصها، واحتمال ما فى تركها، فلا تبعثنى يا ابن أبى على مخالفتك،

وأنا مُذْعِن بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحبّ من صلتك ، وآرض بما حكم به الحقّ فى أمرك ، أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى و بينك . والسلام " .

ثم انظر الى نعومة المأمون السياسية — وثق أنها ستروقك كثيرا ، وأنك ستشهد بعلو كعب صاحبها فى الفنون السياسية — فان التاريخ يحدثنا أنه أحضر رسلَ أخيه ، وقال لهم : «إن أمير المؤمنين ، كتبت اليه ، فى أمر كتب الىّ جوابه ، فأبلغوه الكتاب ، وأعلموه أنى لا أزال على طاعته ، حتى يضطرّنى بترك الحق الواجب الى مخالفته» . فأراد أعضاء الوفد الأمينى أن يذهبوا فى أفانين القول ، وأرادوا المحاجَّةَ والمدافعـةَ ، وأرادوا المفاوضةَ والمناقشةَ ، ولكنّ المأمون ، السياسيّ المتيقظَ جبارَ العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ جابههم بقوله : « قِفُوا أنفسَكم حيث وقفنا بالقول بكم ! وأحسنوا تأديةَ ما سمعتم ، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا » .

انصرف أعضاء الوفد ، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم حجةً قِبَلَ المأمون ، ولم يُوفَّقُوا الى حمل خبر يؤدّونه الى صاحبهم ، ورأوا من المأمون وجماعة المأمون ، كما يقول الطبرىّ ، « جدًّا غير مشوب بهزل ، فى منع مالهم من حقهم الواقع بزعمهم » .

وصل الخبر الى الأمين فأرغى وأزبد . وآستمرت الحربُ الكلاميةُ على حِدّتها بين الأخوين ، بشأن المال الذى تركه الرشيدُ ، و بشأن غير المال ، مما يصح الاطلاعُ عليه ، وعلى ما رواه سهل بن هارون وأضرابه وصفًا لذلك فى مظانّه .

على أنه يجدرُ بنا هنا أن نشير الى ما كان من نصيحة قدمها للأمين ، أحدُ رجالات عصره ، المشهود لهم بالحزم ونضوج الرأى ، وهو يحيى بن سليم ، حينما عزم على خلع أخيه ، لعلاقتها بما نحن فى سبيل القول فيه من ناحية ، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على تفهم "الدبلوماتيقية العباسية" فى ذلك العصر من ناحية أخرى ، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأمين والمأمون فى تقدير المشورة والأخذ بالنصيحة .

قال يحيى بن سليم للأمين حين مشاورته له فى خلع المأمون : «يا أمير المؤمنين، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، وتوثق بها من عهده ، والأخذ للأيمان والشرائط فى الكتاب الذى كتبه » فقال له محمد : « إنّ رأى الرشيد كان فلتة، شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره، وآستماله بُرقاه وعُقَده، فغرس لنا غرسا مكروها، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه» ؛ فقال : «أما اذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه، فلا تجاهره مجاهرة، فيستنكرها الناس، ويستشنعها العامة، ولكن تستدعى الجند بعد الجند، والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، وتفرّق فى ثقاته ومن معه، وترغّبهم بالأموال، وتستميلهم بالأطماع ، فاذا وهنتْ قوّتُه وآستفرغت رجاله، أمرتَه بالقدوم عليك، فان قدم صار الى الذى تريد منه ، وإن أبى كنت قد تناولته، وقد كَلَّ حدُّه، وهِيض جناحُه، وضعف ركنه، وآنقطع عزّه» . فقال محمد: «ما أقطع أمرا كصريمة! أنت مهذار خطيب، ولست بذى رأيٍ، فزل عن هذا الرأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح، قم فالحق بمدادك وأقلامك ! »

ونرى من المستصوب ، بعد هذا الآستطراد، أن نشير هنا الى ما رواه الطبرى من أن الفضل بن سهل ، كان قد دسّ قوما آختارهم ممن يثق بهم من القوّاد والوجوه ببغداد، ليكاتبوه بأخبار الأمين وجماعته ، يوما فيوما . وكان التجسس لذلك العهد فنا منظما متقدما ، فكان للأمين ، وهو ولىّ عهد ، على والده الرشيد عيون، وكان لأخيه حين ذاك عيون ، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون، ولولاته وعماله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والزعماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ذيوع الجاسوسية وآستفحال أمرها . فمن المعقول اذا شاور الأمين أو الفضل بن الربيع أحدا ، وقال بما فيه مصلحة القضية المأمونية، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على جليـةِ الخبر وحقيقـة الحال عند خصومهم السـياسيين . ونكاد نرجح من ناحيتنا أن لتقدم فنّ الجاسوسية عند المأمون أثره العظيم فى غلبته وظهوره على أخيه .

ولننتقل الآن الى أخبار سنة خمس وتسعين ومائة ، ولننظر فى حوادثها الجسّام نظرة تجلى فيا يهمنا مما نحن بصدده من بحوثنا هذه، فنجد أن الخصومة السياسية بين الأخوين حملت الأمين على أن يأمر بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان فى السنة التى قبلها ؛وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يُثبت فيها اسم محمد . وقال بعض المؤرخين : إن تلك الدنانير والدراهم كانت لا تجوز فى بعض الأحايين وكانت تدعى بالرباعية .

وقد سبق لنا القول إن الأمين أمر بالامتناع عن الدعاء لأخويه : المأمون والقاسم ، وإنه أمر بالدعاء لنفسه ولطفله الصغير من بعده ، وإنه صَدَر فى ذلك كله عن رأى الفَضْل ابن الرَّبيـع وجماعة الفضل بن الربيع ، ممـا كان من نتائجه نشوب الحرب الكلامية بين الأخوين، وإنذارها بوقوع شرٍّ مستطيرٍ بين الأميرين .

***

(هـ) نفور الرأى العام وآسـتـرار الوفود السياسية :

ونريد الآن أن نقفك على مبلغ نفور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، ممـا رواه لنا المؤرخون، وسنلخصه لك كطريقتنا، التى أخذنا بها أنفسنا، والتى لم نحِدْ عنها، إلا اذا دعت الضرورة والمصلحة الى تصوير أمر هام يحتـاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد فى تلخيصنا هذا على مصادر عدّة ، منها الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وغيرهم من الفرنجة الذين كتبوا فى التاريخ الاسلامى فى العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرخون أن محمدا الأمين عقد فى السـنة التى نسرد عليـك مجمل أخبارها لعلى بن عيسى بن ماهان على كُوَر الجبل كلها: نَهاوَنْد، وهَمَذان، وقُم، وأصْفَهان، حربها وخراجها. وضم اليه جماعة من القواد وأمر له ، فيا ذكر بمـائتى ألف دينار ، ولولده

بخمسين ألف دينار، وأعطى الجند مالا عظيما، وأمر له بألفي سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخِلَع . وقيل : إن محمدا الأمين أحضر بعد ذلك رجال بيته ومُشيريه، وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين؛ وكان من المنتظر، لو أن للأمين ظهيراً من الرأى العام، أن يجد من يمتدح فعلته، أو يخطب فى نشر الدعوة له وبيان أنه على حق فيما يريد أن يفعل، ولكنا نجد أنه انتهى الى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعته الظاهرين، ممن عرفنا مصالحهم فى الزُّلفى اليه والتقرب منه، وهم سَعيد بن الفَضْل الخَطيب، ومحمد بن عيسى ابن نهيك، والفضل بن الربيع .

على أنا يجب أن نقول : إن الفضل بن الربيع كان ماكرا أعظم ماكر، ولكن مكره كان مفضوحا فى هذا الموقف؛ فقد قال فى مَعْرِض كلامه : «إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خُراسان من صُلْب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم !» .

نقول : إن مكره كان مفضوحا، لأنا نعلم أن موسى كان طفلا غِرًّا، لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها، ولكن الفضل أراد أن يُقِرَّ عينَ الأمين، ولا يمكن أن يكون جادّا فى رغبته فى إثارة الخراسانيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها البطانة، يأبى عليها رياؤها ونفاقها وتزلفها إلا أن تصوّر لولىّ نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل، وأنه النباغة والعبقرية، وأن سلالته قد جمع أحداثُها مَرَانةَ الشيوخ وكفايتهم، وأصالة المجرّبين ودرايتهم، وذكاء النوابغ ومواهبهم . وهكذا تستمر البطانة على نغمتها هذه، لاصقة بمن عداه وعدا حامّته وخاصّته، ما شاء هوى الخليفة، حتى يقع فى رُوعه أن حاشيته لا تنطق إلا حقا ولا تقول إلا صدقا !.

ولنتساءل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرّفات أخيه؟ .

إنه لم يتهاون البتة فى أموره : صغيرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرّف من أخيه بمثيله ونظيره، مع وضع كل شىء موضعه، واستقصاء المصلحة والصواب فى تصرّفه .

وقد تراسل الأخوان بعد ذلك بكتب عدة . وإنا نثبت هنا نص كتاب المأمون ردّا على كتاب بعث به اليه الأمين مع وفد سياسي في شأن البيعة لابنه موسى، قال : « أما بعدُ فقـد انتهى الىّ كتاب أمير المؤمنين منكرا لإبائى منزلة تهضمنى بهـا وأرادنى على خلافِ ما يعلم من الحق فيها . ولعمرى ان أورد أمير المؤمنين موارد النصفة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكرة تركها، لانبسطتْ بالحجة مطالعُ مقالته ، ولكنتُ محجوجًا بمفارقة مايوجب من طاعته . فأمّا وأنا مُذْعِنٌ بها، وهو على ترك أعمالها، فأولى به أن يدير الحقّ فى أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه ، فان صرتُ الى الحق فرغت عن قلبـه ، وإن أبيتُ الحق قام بمعذرته . وأما ما وعَد من برّ طاعته وأوعد من الوطأة بمخالفته ، فهل أحدٌ فارق الحق فى فعله ، فأبق للتبيّن موضع ثقة بقوله ! والسلام » .

ولقد كان من تصرفات المامون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب الى علىّ بن عيسى ، قائد الجيوش الأمينية ، لمـا بلغه ماعزم عليه :

" أما بعـدُ ، فإنك فى ظل دعوة لم تزل أنت وسلفك بمكان ذبٍّ عن حَرِيمها ، وعلى العناية لحفظها ، ورعاية لحقّها ، توجبون ذلك لأئمتكم ، وتعتصمون بحبل جماعتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يدًا على أهل مخالفتكم ، وحزبا وإخوانا لأهـل موافقتكم ، تؤثرونهـم على الآباء والأبناء ، وتتصرّفون فيما تصرّفوا فيـه من منزلة شديدة ورخاء ، لا ترون شيئا أبلغ فى صلاحكم من الأمرِ الجامع لألفتكم ، ولا أجرى لبوارِكم ممـا دعا بشَتَات كلمتكم ، ترون من رغب عن ذلك جائرًا عن القصد ، ومن أمّة على منهاج الحق . ثم كنتم على منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نقم الله . فكم من أولئـك قد صاروا وديعةَ مَسْبعةٍ وجَزَرًا جامدة ، قد سفَت الرياحُ فى وجهه ، وتداعتِ السباعُ الى مَضْرَعه ، غير ممهّـد ولا موسّدٍ ، قد صار الى أمة ... وغير عاجل حظّـه . ممّن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم فى أمورها ، والتّقـدمة فى آثارها . وأنت مستشـعرٌ دون كثيرٍ من ثقاتها وخاصّتها ، حتى بلغ الله بك فى نفسـك

أن كنت قَريعَ أهلِ دعوتك، والعالمَ القائم بمعظم أمرِ أمتك، إن قلتَ ادنُوا دَنَوْا ، وإن أشرتَ أقبِلُوا أقبلوا ، وإن أمسكتَ وقفوا وقرّوا ، وِثامًا لك وٱستنصاحا ، وتزداد نعمةً مع الزيادةِ فى نفسِك ، ويزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حللتَ المحلّ الذى قَرُبتَ به من يومك ، وٱنقرض فيما دونه أكثرُ مدّتك ، لا يُنتظر بعدها إلا ما يكون ختامَ عملك : من خيرٍ فيرضَى به ما تقدّم من صالح فِعلِك، أو خلافٍ فيضِلّ له متقدّمُ سعيك. وقد ترى يا أبا يحيى حالًا عليها جلوتَ أهـل نعمتك ، والولاةَ القائمة بحق إمامتـك ، من طعنٍ فى عُقْـدة كنتَ القائم بشدّها ، وبعهودٍ توليتَ معاقد أخذها، يُبدأ فيها بالأخصّين، حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين، بالأيمـان المُحرِّجة والمواثيقِ المؤكّدةِ ، وما طلع ممـا يدعو الى نشر كلمةٍ، وتفريقِ أمةٍ، وشتّ جماعةٍ، وتَتعرّض به لتبديلِ نعمةٍ، وزوالِ ما وطّأت الأسـلافُ من الأئمةِ . ومتى زالت نعمةٌ من ولاة أمركم، وصل زوالهـا اليكم فى خواصّ أنفسكم ؛ ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . وليس الساعى فى نشرها بساعٍ فيها على نفســه ، دون السعى على حَمَلتِها القائمين بحرمتها، قـد عرضوهم أن يكونوا جَزَرًا لأعدائهم ، وطُعْمة قومٍ، تظفر مخالبُهم فى دمائهم . ومكانُك المكان الذى إن قلتَ رُجِع الى قولك ، وإن أشرتَ لم تتّهـم فى نصيحتك . ولك مع إيثار الحق الحظوةُ عنـد أهل الحق ، ولا ســواء من حَظِى بعاجلٍ مع فراق الحق فأوبق نفسَه فى عاقبته ، ومن أعان الحق فأدرك به صلاحَ العاقبة مع وُفورِ الحظّ فى عاجلته . وليس لك ما تُستدعَى ، ولا عليه ما تُستعطفُ ، ولكنه حقٌّ من حقّ أحسابك يجب ثوابُه على ربك ثم على من قمت بالحق فيه من أهل إمامتك . فإن أعجزك قولٌ أو فعل ، فصِرْ الى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكم فيها برأيك ، وتجاوز الى من يحسن تقبلًا لصالح فعلك ، ويكون مرجعك الى عقدك وأموالك ، ولك بذلك الله . وكفى بالله وكيلا . وإن تعذر ذلك بقية على نفسك فإمسا كا بيــدك وقولا بحق ، ما لم تخَف وقوعه بكرهك ، فلعــل مقتدياً بك ، ومغتبطا بنهيـك . ثم أعلِمنى رأيك ، أعرفه إن شاء الله » .

على أن ما يرمى اليه الرّواة من تحقير شأن الأمين، لا يَحُول بينـك و بين تبيّن حقيقة الأمين ورجاله ، لأنك ستلاحظ بلا ريب ، فى ثنايا سطورهم ، وفلتاتِ الحوادث التى يروونها لك، ما قد يُتيح لك أن تؤمن أن عنـد الأمين بعض رجالاتٍ أفذاذٍ ، فان الطبرىّ يحدّثنا فى حوادث سنة خمس وتسعين ومائة : أن ابن الربيع أشار على الأمين، بأن يكتب لأخيه كتابًا، تستطيب به نفسُـه ، وتسكن وحشتُه، فان ذلك أبلغ فى التدبير، وأحسن فى القالة ، من مكاثرة بالجنود، ومعاجلته بالكيد ، و إنه لذلك أحضر له إسماعيلَ بن صُبَيْح، للكتابة الى عبد الله، قال : "يا أمير المؤمنين، إن مسألتك الصفحَ عمـا فى يديه، توليـدٌ للظنّ، وتقويةٌ للتُّهمة، ومَدْعاة للحذر، ولكن آكتبْ اليه فأعلمـه حاجتَك اليـه ، وما تحبّ من قربه والاستعانة برأيه ، وسَلْه القدومَ اليـك فإن ذلك أبلغ وأحْرى أن يبلغ فيما يوجب طاعتَه و إجابته» [1] .

فقال الفضل : القول ما قال يا أمير المؤمنين .

قال : فليكتب بما رأى . قال : فكتب اليه : « من عبد الأمين محمد أمير المؤمنين، الى عبد اللهِ بن هارونَ أمير المؤمنين .

أما بعـدُ، فإن أمير المؤمنين، رأى فى أمرِك والموضـع الذى أنت فيـه من ثغرك ، وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمُكَانفـة على ما حمّله الله وقلّده من أمورِ عباده و بلاده، وفكّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير اليك منهـا ، فرجا أمير المؤمنين ألا يدخل عليـه وَكَفٌ فى دينـه ولا نكثٌ فى يمينه ، إذا كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمون نفعه، ويصل الى عامتهم صلاحُه وفضـله .

(١) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أن هذه المكيدة التى دبرها الفضل بن الربيع جاءت مفضوحة مهتوكة الأستـار . وكان أجدر بكياسته أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعـد أن يرد على المأمون ما أوصى به الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد نكث الجنود والوزير والأمراء . و بعد طلب الكور . و بعـد طلب تقديم القاسم على المأمون وبعد تلك الوفود السياسـية وتمزيق العهود التى كانت فى نظرهم مقدسة ومؤكدة بأخذها وتعليقها فى جوف الكعبة ، فإن الأمر أتى بعد أوانه ولا ينتظر منه سوى الخيبة والفشل» .

وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور، وأصلحُ للجنود، وآكدُ للفيء، وأردُّ على العامة، من مُقامك ببلاد خُراسان منقطعًا عن أهل بيتك، متغيبا عن أمير المؤمنين، وما يحبّ الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك. وقد رأى أميرُ المؤمنين أن يولّى موسى ابن أمير المؤمنين، فيما يقلّده من خلافتك، ما يحدث اليه من أمرك ونهيك، فاقدَم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أملٍ، وأفسح رجاء، وأحمد عاقبة، وأنفذ بصيرة، فإنك أولى من استعان به أميرُ المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته. والسلام".

ولننظر الى ما يرويه لنا ابنُ جَرِيرٍ الطبرى عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول:

لما وصلوا الى عبد الله أذِن لهم، فدفعوا اليه كتاب محمد، وما كان بعث به معهم، من الأموال والألطاف، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الأمير! إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثِقْلا عظيما، ومن النظر فى أمور الناس عبئا جليلا، وقد صدقت نيّته فى الخير فأعوزه الوزراءُ والأعوان والكُفَاة على العدل، وقليلٌ ما يأنس بأهل بيته؛ وأنت أخوه وشقيقه، وقد فزِع اليك فى أموره، وأمّلك للمؤازرة والمُكانفة، ولسنا نستبطئك فى برّه اتهامًا لنصرك له، ولا نحُضّك على طاعته تخوُّفا لخلافك عليه، وفى قدومك عليه أنسٌ عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجبْ أيها الأمير دعوةَ أخيك، وآثِرْ طاعته، وأعِنْه على ما استعانك عليه فى أمره، فإن فى ذلك قضاءَ الحق، وصلة الرحم، وصلاحَ الدولة، وعزّ الخلافة. عزم الله للأمير على الرُّشْد فى أموره، وجعل له الخِيَرَةَ والصّلاحَ فى عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبى جعفر فقال: إن الإكثارَ على الأمير، اللهَ! الله! فى القول خُرْقٌ، والاقتصارَ فى تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصيرٌ، وقد غاب الأمير، أكرمه الله، عن أمير المؤمنين، ولم يستغنِ عن قربه من شهد غيره من أهل بيته، ولا يجد عنده غنًى، ولا يجد منه خلَفًا ولا عوضا. والأمير أولى مَنْ برّ أخاه

وأطاع إمامَه، فليعمل الأميرُ فيما كتب به اليه أمير المؤمنين بما هو أرضى وأقرب، من موافقة أمير المؤمنين ومحبته، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظ عظيم، والإبطاءَ عنه وكفٌ في الدين، وضرر ومكروه على المسلمين.

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك فقال: أيها الأمير إنا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين، ولا نُشْحَذُ نيتك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين. وقد أعوز أميرَ المؤمنين الكُفاةُ والنصحاء بحضرته، وتناولك فزعًا اليك في المعونة والتَّقوية له على أمره. فان تُجِبْ أميرَ المؤمنين فيما دعاك اليه فنعمة عظيمةٌ يتلافى بها رعيتَك وأهلَ بيتك، وإن تقعد يُغْنِ الله أميرَ المؤمنين عنك، ولن يضعَه ذلك مما هو عليه من البرّ بك، والاعتمادِ على طاعتك ونصيحتك.

وتكلم صالح صاحب المُصَلَّى، فقال: أيها الأمير، إن الخلافة ثقيلةٌ، والأعوانَ قليل، ومن يَكِيد هذه الدولةَ وينطوي على غشها والمعاندةِ لأوليائها مِنْ أهل الخلاف والمعصيةِ كثيرٌ. وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقُه، وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه، إذ أنت وليّ عهدِه والمشاركُ في سلطانه وولايته، وقد تناولك أميرُ المؤمنين بكتابه، ووثق بمعاونتك على ما آستعانك عليه من أموره، وفي إجابتك إياه الى القدوم عليه صلاحٌ عظيم في الخلافة، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملةِ والذمةِ، وفق الله الأمير في أموره، وقضى له بالذى هو أحب اليه وأنفع له.

ثم انظر، رعاك الله، الى مبلغ دهاء الفَضْل، ودقةِ سياسته، ومُحكم أمرِه، وما يرويه بنفسه عن صَنيعه مع أحد أعضاء الوفد، في إحدى الدَّفَعاتِ التي أُرسل فيها الى المأمون، لأنا نلاحظ وفود الأمين قد أُرسلت الى أخيه المأمون أكثرَ من مرّة — قال: «أعجبني ما رأيتُ من ذكاء العباس بن موسى، فخلوت به فقلت: يذهب عليك بعقلك وسنِّك، أن تأخذ بحظّك من الإمام! — أي المأمون، اذ سُمِّي بذلك بسبب خَلْع الأمين له — فقال له العباس: قد سَمَّيْتُموه بالإمام! فأجابه الفضل: «قد يكون إمامُ المسجد والقبيلة!

فان وفيتم لم يضركم، وإن غدرتم فهو ذاك» . ثم وصل الى أن قال للعباس : «لك عندى ولايةُ الموسم، ولا ولاية أشرفُ منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئتَ ...» .

وصل الفضلُ الى ذلك القولِ وما برح به حتى أخذ عليه البيعةَ للمأمون بالخلافة . وتحوّل الأمرُ الى أن أصبح لحزبِ المأمونى من العباس العينُ التى تبلغهم الأخبارَ، والمتفانى فى المأمونية يمدّهم بالأفكار ويشير عليهم بالآراء، وحتى أضحى منه الشخصُ الذى يقول لعلى بن يحيى السَّرَخْسِيّ : إن ذا الرياستين أكبر مما وصفتَ، وإنه قد صالح المأمونَ الامامَ، وإنه لذلك يمسح يدَه على رأس على بن يحيى لتناوله البركةُ والخير . فتأملْ ! .

وإنه جميلٌ حقا أن نرى المأمون يتريّث فى أمره تريُّثَ العاقل الحكيم، لما جاءه الوفد الأمينىّ، ويتصرّف تصرّفَ الكيّس الحاذق، إذ قال لهم، فيما أثبت الرواة، بعد أن حاجّوه وناقشوه فى أمر الأمين : قد عرّفتمونى من حقّ أمير المؤمنين، أكرمه الله، مالا أنكره، ودعوتمونى من الموالاة والمَعُونة الى ما أوثره ولا أدفعه، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم، وعلى المسارعةِ الى ما سرّه ووافقه حريصٌ، وفى الرويّةِ تبيانُ الرأي، وفى إعمال الرأيِ نصح الاعتزام . والأمر الذى دعانى اليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبُّطا ومدافعة، ولا أتقدّم عليه اعتسافًا وعَجَلة، وأنا فى ثغرٍ من ثغور المسلمين كَلِبٍ عدوُّه شديدٍ شوكتُه، وان أهملتُ أمره لم آمنْ دخولَ الضرر والمكروه على الجنود والرعية، وان أقمت عليه لم آمنْ فوتَ ما أُحبّ من معونةِ أميرِ المؤمنين ومؤازرته وإيثارِ طاعته . فانصرفوا حتى أنظرَ فى أمرى ونصح الرأى فيما أعتزم عليه من مَسيرى ان شاء الله، ثم أمر بإنزالهم وإكرامهم والإحسان اليهم .

تريُّثُ المأمون مع الوفد تريُّثُ العاقل الحكيم، وإن كان فى الواقع قد هاله الأمر وخشى سوءَ مَغَبّته . ويذكر لنا أحدُ المعاصرين، وهو سُفْيانُ بن محمد، أن المأمون لما قرأ الكتابَ سُقِطَ فى يده، وتعاظمه ما ورد عليه منه، ولم يدْرِ ما يردّ عليه، فدعا الفضلَ بن سهل فاقرأه الكتابَ، وقال : ماعندك فى هذا الأمر؟ قال : أرى أن تُمسك بموضعك، ولا

تجعلَ علينا سبيلا وأنت تجد من ذلك بُدًا . قال : وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفةُ محمد وعظمُ القواد والجنود معه، وأكثرُ الأموالِ والخزائنِ قد صارت اليه ، مع ما قد فرّق فى أهل بغداد من صِلاته وفوائده، وانما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها، لا ينظرون اذا وجدوها حفظَ بيعـة ولا يرغبون فى وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له الفضل : اذا وقعت التهمةُ حقَّ الاحتراس ، وأنا لغـدرِ محمد متخوّف ، ومن شرهِه الى ما فى يديك مُشْفِق ، ولأَنْ تكون فى جُندك وعِزك مقيمًا بين ظهرانى أهلِ ولايتـك أحْرى ، فان دهمك منـه أمرٌ جرّدتَ له وناجزته وكايدتَه ، فإمّا أعطاك الله الظفرَ عليـه بوفائك ونيتـك ، أو كانت الأخرى فمتَّ محافظًا مكرما ، غير مُلْقٍ بيـديك ولا ممكنٍ عدوَّك من الاحتكام فى نفســك ودمك . قال : إن هذا الأمر لو كان أتانى ، وأنا فى قوةٍ من أمرى وصلاحٍ من الأمور، كان خَطْبه يسـيرا والاحتيالُ فى دفعه ممكنًا، ولكنه أتانى بعد إفساد خُراسان، واضطراب عامرِها وغامرِها ، ومفارقة جيغويه الطاعة ، والتواء خاقان صاحبِ التُّبت ، وتهيؤ ملك « كابُل» للغارة على ما يليـه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابنده بالضَّريبـة التى كان يؤدّيها، وما لى بواحدة من هذه الأمور يدٌ . وأنا أعلم أن محمدا لم يطلب قُدومى إلا لشرٍّ يريده، وما أرى إلا تخلية ما أنا فيـه واللحاقَ بخاقانَ ملك الترك والاستجارة به وببلاده ، فبالحرى أن آمنَ على نفسى وأمتنعَ ممن أراد قهرى والغـدرَ بى . فقال له الفضـل : أيها الأمير، إن عاقبة الغدرِ شديدةٌ، وتبعة الظلمِ والبغى غيرُ مأمونٍ شرُّها، ورُبَّ مستذَلٍّ قد عاد عزيزًا، ومقهورٍ قد عاد قاهرًا مستطيلا، وليس النصرُ بالقلةِ والكثرة، وحرج الموت أسلم من حرج الذلّ والضيم، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه، وتصيرَ الى طاعةِ محمد، متجرّدا من قوّادك وجنـدك كالرأس المختزَل عن بدنه، يجرى عليـك حكمه، فتدخل فى جملة أهل مملكته، من غير أن تُبلى عذرا فى جهادٍ ولا قتـالٍ ، ولكن اكتبْ الى جيغويه وخاقان ، فولِّهما بلادَهما، وعِدْهما التقويةَ لهما فى محاربة الملوك، وابعث الى ملك كابل بعضَ هدايا خراسان وطُرفَها وسَلْه الموادعةَ تجدْه على ذلك حريصا، وسلِّمْ لملك اترابنده ضريبتَه فى هذه السنة، وصيِّرها صلةً منك وصلتَه بها ، ثم اجمعْ اليك أطرافك، واضممْ اليك مَنْ شذَّ من جندك، ثم

اضرب الخيلَ بالخيل والرجالَ بالرجالِ ، فان ظفرت ، و إلا كنت على ما تريد من اللَّحاق بخاقان قادرا . فعرف عبد الله صدقَ ما قال ، فقال : اعملْ فى هذا الأمر وغيره من أمورى بما ترى ! فتدبَّرْ، وفقك الله ، هذا التفكيرَ الدقيق ، وهذه السياسة المحكمة الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرّف المأمونِ الحكيم ، بعد ما قدمناه لك ، فانه أنْفذ الكتب الى رجاله وأنصاره ، وعمل على لَمِّ شَعَثه ورَأْبِ صَدْعه ، واستقدم طاهرَ بن الحسين ، عاملَه على الرَّىّ ، ليعهد اليه فى قيادة جنده ، ثم مكث يدبِّر الرأى فيما يجيب به أخاه ، واستقر رأيُه على مناجزة أخيه ومنازلته ، بعد أن أعلمه ابنُ سهل أن النصر له وأن النجوم تنبئ بذلك . وانظر ما يرويه لنا المؤرخون من أنه كتب الى الأمين : « أما بعد ، فقد وصل الىّ كتاب أمير المؤمنين ، و إنما أنا عامل من عماله وعونٌ من أعوانه ، أمرنى الرشيد ، صلوات الله عليه ، بلزوم هذا الثغر ، ومكايدةِ من كايد أهلَه من عدو أمير المؤمنين . ولعمرى إن مُقامى به أردُّ على أمير المؤمنين ، وأعظم غَناء عن المسلمين من الشخوص الى أمير المؤمنين ، و إن كنتُ مغتبطًا بقربه ، مسرورا بمشاهدة نعمة الله عنده . فان رأى أن يُقِرَّنى على عملى و يُعْفِينى من الشخوص اليه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العباسَ بن موسى ، وعيسى بن جعفر ، ومحمدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم فى جوائزهم ، وحمل الى محمد ما تهيأ له من ألطاف خراسان ، وسألهم أن يحسنوا أمرَه عنده وأن يقوموا بعذره لديه .

(و) إعلان الحرب :

ولننتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التى تلتْ هذه الحربَ الكلامية ، كما هو المنتظر : إن التاريخ يحدثنا أن الأمين و رجالَ الأمين ، بدءوا فى تعبية الجنود ، كما بدأ المأمون و رجال المأمون فى حشد الكتائب . و إنا لنرتاب كثيرا ، فى صحة ما ذكره الرواة : من أن طاهر بن الحسين القائدَ العام للجيوش المأمونية كان فى جيش عدّته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بينما كان علىّ بن عيسى بن مَاهَان القائد العام لجيوش الأمينيـة فى زُهَاء أربعين ألفا ! ونرجّح كثيرا أن الرواة قد نقصوا عددَ الجنود المأمونية، ليُظْهروا للناس مبلغَ كفاية طاهر، وأنه استطاع بجند قليـل عددهُم أن يُنَازل جيوشا جرّارة ويغلبَها على أمرها ، لأنهم كثيرا ما يجنحون الى الإغراق والمبالغة فى مثل هـذه المواقف: من مظاهرتهم للأقوياء، وانتقاصهم للضعفاء كما أسلفنا .

نشك فى صحة ذلك كثيرا . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيوش المأمونية قد عثرتْ فى عسكر ابن ماهان على سبعمائة كيس ، فى كل كيس ألف درهم، وأنها عثرت كذلك على صناديقَ عدّة فيها خمر سَوَادىّ وقَنَانِىّ عِدّة !

قد يكون أمر الأموال صحيحا ، ولكنا نميل الى الافتراض بأن أمر الصناديق العدّة، إن لم يكن مكذوبا فى جملته، بقصد الزِّرَاية بالجماعة الأمينية، فهو مُغَالًى فيه كثيرا .

ويذهب ابن الأثير فى بيـان غرور على بن عيسى بن ماهان الى أنه، لمـا قرُب من الرىّ ، ظنّ أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونيـة لا يَثْبُت له ، وإن عليـا قال : « ما طاهرٌ إلا شَوْكة من أغصانى وشرارةٌ من نارى ، وما مثـل طاهر يؤمّر على جيش، وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينُه على سَوَادكم(١)، فان السِّخَال لا تَقْوى على نِطَاح الكِبَاش، والثعالبَ لا تَقْوَى على لقاء الأُسْد»، وأن علىّ بن عيسى بن ماهان قال لابنه، لمـا أشار عليه بأن يبعث طَلَائع ويرتاد موضعًا لعسـكره : ليس طاهر يُستعدّ له بالمَكايد والتحفّظ، إن حال طاهرٍ يؤدّى الى أمرين : إما أن يتحصّن بالرىّ، فيَبِيَت به أهلُها، ويكْفُونا مؤونتَه، أو يخلّيها ويُدْبر! . فقال له ابنه : إن الشرارةَ ربما صارت ضِرَاما ! " فأجابه : "إن طاهرًا ليس قِرْنًا فى هذا الموضع ، وإنما تحترس الرجالُ من أقرانها ! " .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شىء من هـذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون بعلىّ بن ماهان زَهْو وغرور، وقصرُ نظروسوء تدبير . وقد يكون -لى حين المقارنة والموازنة

(١) أى إلا أن يؤخذ أسيرا عند الأمين .

أقلّ شأنا من مُنَازِله وخصمِه طاهر بن الحسين . ولكنّا مع ذلك نُحِسّ إحساسًا لا يعدو الواقع كثيرا أن هـذا الحديث المَعْزُو اليه من قبيل الروايات المَنْحُولَة، والقِصَص المخترعة، التى كثيرا ما تُخترع وتُنْتَحَل فى مثل تلك الظروف .

على أنا مع ذلك نقرّر أن الجيوش المأمونية كانت على أتم تعبية، وأكمل كِفَاية، وأدق نظام، وأحسن حالٍ، وأن خديعة طاهر وقوّاد طاهر : من حَمْل صورة البَيْعة على أسنة رِمَاحهم تُعِيد الى الأذهان ما كان(١) بين جند معاوية وجند علىّ من حمل جند معاوية المصاحف على الرماح .

لننتقل الآن الى مسألة أخرى لها علاقة بعلىّ بن عيسى بن ماهان من ناحيةٍ ، كما أن لها علاقات بما يقع فيه القُصّاص والمؤرّخون والرواة من تناقض من ناحيةٍ أخرى . تلك المسألة هى ما يُعْزَى الى زُبَيدة من نصيحتها لابن ماهان باحترام المأمون وإجلاله ، وأنها قالت له : « يا علىّ ! إن أمير المؤمنين و إن كان ولدى، اليه تناهتْ شفقتى، وعليه تكامل حذرِى، فإنى على عبـد الله متعطّفة مُشْفِقة، لمـا يحدثُ عليـه من مكروهٍ وأذًى، وانمـا ابنى ملكٌ نافس أخاه فى سلطانه، وغاره على ما فى يده، والكريم يأكل لحمـه و يمنعه غيرُه ، فاعرفْ لعبد الله حقَّ والده و إخوته، ولا تَجبهه بالكلام، فانك لستَ نظيرَه، ولا تقتسرْه اقتسارَ العبيد، ولا تُرْهِقه بقيدٍ ولا غُلٍّ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما، ولا تعنُف علـيه فى السير، ولا تُسَاوِه فى المَسِير، ولا تركب قبلَه ، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بِرِكابه، وأن شتمك فاحتملْ منه، وإن سَفِهَ عليك فلا تُرَادّه » .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا بقوله : «لم يكن كل الجند المأمونى حاملا صورة البيعة ولا كثير منهم ولكن الأمر فى ذلك أن أحمد بن هشام علق البيعة للمأمون على رمحه وكان على بن عيسى هو الذى أخذها للمأمون على أهل خراسان أيام كان واليا بهـا ليقيم بذلك الحجة على على بن عيسى فدنا منه أحمد بن هشام بعد أن طلب الأمان وأمنه على بن عيسى وقال له أحمد : ألا تتقى الله عز وجل؟ أليس هذه نسخة البيعة التى أخذتها أنت خاصة اتق الله فقـد بلغت باب قبرك؛ فلم يأبه له على بن عيسى بل قال : مـن أتانى به فله ألف درهم فشتمه أصحاب أحمد ... الخ من ابن الأثير» .

معقول أن يكون ذلك من زُبَيدة لابن زوجها الرشيد . ولكن التاريخ يحدثنا عن قيـد من الفضة قيل إنها أعدّته ليقيَّد به المأمون ، كما يحدثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد . بيدَ أن نصّ النصيحة، وما اشتملت عليه من الأوامر، وما جُبلتْ عليه نفسية السيدة زبيدة، مما يرجح عدم صحة القول بإعدادها قيـدَ فضة أو ذهب ، ليقيد به المأمون .

⁂

(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتب الله للجيوش المأمونيـة الفَلَجَ والنصر على الجيوش الأمينية . ونترك هنا الكلمة لطاهر بن الحسـين قائد المأمون ، فانه ينبئ خليفتـه عن ذلك الانتصار بقوله : «أطال الله بقاءك، وكَبَتَ أعداءك، وجعل من يَشْنؤك فداءك، كتبتُ اليك ورأس علىّ ابن عيسى بين يدىّ، وخاتمُه فى أصبعى، والحمد لله رب العالمين» .

وذكر بعض أهـل خراسان أن المأمون لما أتاه كتابُ طاهر بخبر علىّ بن عيسى بن ماهان، وما نالته جيوشه من فوزٍ وانتصار، وما أوقع الله بجُنْد خصمه من فَشَلٍ وانكسار، قعد للنـاس، فكانوا يدخلون عليه فيهنئونه ويدعون له بدوام العزِ والنصرِ ، وأن المأمون ، فى ذلك اليوم، أعلن خلعَ محمـد ، كما أعلن خلافتـه فى جميع كُوَر خراسان وما يليها ، وسُرَّ بذلك أهل خراسان، وخطبتِ الخطباء، وأنشدت الشعراء . وفى ذلك يقول الشاعر :

أصبحت الأمّةُ فى غِبْطةٍ * من أمرِ دُنْياها ومن دينها
اذ حفظتْ عهدَ إمامِ الهدى * خـيرِ بنى حـوّاءَ مأمونها
على شَفًا كانتْ، فلما وفَتْ * تخلّصتْ من سـوء تحيينها
قامت بحق الله اذ دُبّرتْ * فى وُلْدِه كُتْبُ دواوينها
ألا تراها كيف بعدَ الرَّدى * وفَّقهـا اللهُ لـتزيينها

وهى أبيات كثيرة .

وذكر عليّ بن صالح الحَرْبيّ أن عليّ بن عيسى لما قُتل، أَرْجَف الناسُ ببغداد إرجافًا شديدا، وندم محمد على ما كان من نَكْثه وغَدْره، ومشى القوّاد بعضهم الى بعض، وذلك يوم الخميس للنصف من شوّال سنة ١٩٥، فقالوا: ان عليا قد قتل، ولسنا نشك أن محمدا يحتاج الى الرجال واصطناع أصحاب الصنائع، وإنما يحرّك الرجالَ أنفسُها، ويرفعها بأسُها وإقدامها، فليأمر كل رجل منكم جنـدَه بالشَّغَب وطلبِ الأرزاقِ والجوائز، فلعلنا أن نصيبَ منه فى هذه الحالة ما يصلِحُنا ويصلح جندنا.

خبرنى، لعَمْرُك! أليستْ هذه بوادرَ الفوضى وعلاماتِ الانتقاض! أو ليست هـذه هى هى بعينهـا مبادئَ الثـورة وأمارات زوال الملك وسـقوط العـروش، وأفول نجم أصحابها! أجل! إنها لكذلك، وإن فى انقسام كلمة الزعماء، وإثارتهم النفوس بالاضطراب والقلاقل، وإضرامهم نيرانَ الفتن، وتحريكهم الجندَ وما الى الجند للشَّغَب والهياج، تقطيعا لأوصال البلاد، ونذيرا بالهدم والفناء.

ولننظر ماذا كان من حماقات رجال الأمين؟

ان التاريخ ليحدّثنا أن رأيهم قـد اجتمع على الشغبِ والاصطيادِ فى الماء العكر، وأنهـم أصبحوا فتوافوا الى باب الجسر وكبروا، فطلبوا الأرزاق والجوائز، وبلغ الخـبر عبـد الله بن خازم، فركب اليهم فى أصحابه وفى جماعة غيره من قوّاد الأعراب، فتراموْا بالنشّاب والحجارة واقتتلوا قتالا شديدا، وسمع محمد التكبير والضجيج، فأرسل بعض مواليه أن يأتيه بالخبر، فرجع اليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشَغَبوا لطلب أرزاقهم؛ قال: فهل يطلبون شيئا غير الأرزاق؟ قال لا؛ قال: ما أهون ما طلبوا! ارجع الى عبـد الله ابن خازم فمُـرْه فلينصرف عنهم، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر، ورفع من كان دون الثمانين الى الثمانين، وأمر للقوّاد والخواصّ بالصِّلات والجوائز!

ولنتساءل الآن، إزاء إجابة الأمين لسؤل القادةِ والجند، ومبادرته الى رَفدهم، وإسراعه بمنحهم الأعطيات والهبات، والجوائز والصلات، أكان فى تصرفه حكيما، وفى عمله مسدّدا موفقا؟.

لا نظنّ ذلك . وكان الحزمُ به أولى، لِيَقْدَع الفتنـة ، وليَضَعَ حدّا صارما لشهوات ذوى الغايات والمنتفعين الذين يكثر وجودهم وتتوافر جماعتهم فى إبّانها وفترَاتها .

* * *

وقد كان اختيار الأمين لعلىّ بن عيسى بن ماهان ، خَطَلًا سياسيا، لأن سابقـة ابن ماهان فى خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء، فهو ممقوت أشـدّ المَقْت عنـدهم . ونقرر بهذه المناسبة ، أنه يخيل الينا، الى حدّ غير قليل ، اختلاق تلك القصة التى تعـزى الى الفضل بن سهل : من أنه كتب الى الدسيس الذى كان ممن يشاورهم الفضل بن الربيع فى أمره : أنه ان أبَىَ جماعة الأمين إلا عزمةً فى الخلاف ، فالطف لأن تجعـل أمرهم لعلى بن عيسى . وقال الطبرىّ : وإنمـا خصّ ذو الرياستين علياً بذلك، لسوء أثره فى أهل خراسان، واجتماع رأيهم على كرهه، وأن العـامة قائلة بحربه . فشاور الفضـلُ الدسيس الذى كان مشاوره، فقال : على بن عيسى ! وإنه إن فعل فلم يَرْمِهم بمثله فى بعد صومة ، وسخاوة نفســه ، وكان فى بلاد خراسان فى طول ولايته وكثرة صنائعه، ثم هو شيخ الدعوة وبقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

نميل الى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهان الى تدبير ابن سهل ، وإسناد كل فضـل اليه، من باب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقرّ بذكائه وسعة حيلته، كما أسلفنا . ولكنا نقرر أيضا أن صلة ابن ماهان بالأمين، وبدولة الأمين، وبابن الربيع، كانت مما يحتّم على الأمين لا محالة تقليدَه أمر جيوشــه وتفضيلَه على غيره من القادَة، لا أن دسيسَ جمـاعة المأمون هو الذى أشار بنـدبه واختياره . فلنحترس كثيرا من مبالغـة المؤرّخين والرواة ، ولنجعل من عقولنا ومنطقنا مَحكًّا وحَكما .

ونلفت النظر هنا الى تناقض وقع فيــه الرواة من الحزب المأمونى، فبينا نراهم يقرّرون أن جيش المأمون عثر على صناديق عدّة من الخمر، فيما غنمه من على بن عيسى بن هامان ، إذ بالدسيس يصفه بقوله : «ليس مثله فى بعد صومة وسخاوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والخديعة ، وبأنه كان فى حقيقة الأمر سِكّيرًا مُعَرْبِدًا، فإنا نرى أثر التأليف القصصى فى الروايتين ظاهرًا جليًا .

وسبق لنا أن قد فنّدنا، حينما كنا بسبيل القول فى الأمين، ما رواه محمد بن يحيى بن عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نَعَى الناعى اليه قائده : « ويلك دعنى فان كوثرا قد اصطاد سمكتين، وأنا ما اصطدت شيئا بعد! » . وترك الناعىَ وخبرَه، وأقبل على الصيد وكوثرِه، فلتنضمّ هذه الى تلك .

⁂

ويجدر بنا الآن أن نطلعك على بعض مقولات الشعراء فى موقف الأخوين، مع ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم فى تمداحهم للقوىّ، وغلوّهم فى زرايتهم على الضعيف .

قال أحد الشعراء البغداديين :

أضاع الخلافة غِش الوزير * وفسق الإمامِ وجهل المشير
ففضلٌ وزيرٌ وبكرٌ مشيرٌ * يُريدانِ ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلا طريقُ غُرورٍ * وشرُّ المسالك طرقُ الغرورِ
لِواطُ الخليفةِ أعجوبةٌ * وأعجبُ منه خَلاقُ الوزير
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ * كذاك لعمرى اختلاف الأمور
فلو يستعينان هذا بذاك * لكانا بعُرْضةِ أمرٍ ستير
ولكن ذا لجّ فى كوثرٍ * ولم يَشْفِ هذا دِعاسُ الحمير
فشُنِّعَ فعلاهما منهما * وصارا خِلافًا كبَوْلِ البعير
وأعجبُ مِن ذا وذا أننا * نبايع للطفلِ فينا الصغير
ومن ليس يُحسِن غسل آستِه * ولم يخلُ مَتْنُه من حِجْرِ ظِير
وما ذاك إلا بفضلٍ وبكرٍ * يريدان نقضَ الكتابِ المنير
وهذان لولا انقلابُ الزمانِ * أفى العِيرِ هذانِ أم فى النَّفير

ولكنها فتن كالجبال * ترفّع فيها الوضيع الحقير
فصبراً ففي الصبر خيرٌ جميلٌ * وإن كان قد ضاق صبرُ الصّبور
فيارب فاقبضهما عاجلاً * إليك وأورِدْ عذابَ السعير
ونكّل بفضلٍ وأشياعه * وصلّبهمُ حول هذى الجسور

(ح) عود على بدء، مجهودات الأمين في سبيل الفوز:

ولقد سبق أن قلنا لك: إنه مع ما يرمى إليه الرواة من تحقير شأن الأمين ورجالات الأمين، يمكننا مع ذلك تبيّن حقيقة أمره، مما يلاحظ فى ثنايا السطور وفلتات الحوادث، وقلنا: إن تلك الفلتات قد تُتيح لنا أن نؤمن بأن عند الأمين بعض رجالاتٍ أفذاذٍ. ونريد الآن أن نثبت لك ذلك. وهذا الطبرى يحدّثنا، فى حوادث سنة ست وتسعين ومائة، أنه لما قوى طاهر واستعلى أمرُه، وهزم من هزم من قواد محمد وجيوشه، دخل عبدُ الملك بن صالح على محمد — وكان عبد الملك محبوسا فى حبس الرشيد، فلما تُوُفّى الرشيد وأفضى الأمرُ الى محمد، أمر بتخلية سبيله، وذلك فى ذى القعدة سنة ١٩٣، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد، ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته — فقال: "يا أمير المؤمنين! إنى أرى الناس قد طمعوا فيك، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك، وقد بذلت سماحتك، فان أتممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتَهم، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذلِ أسخطتهم وأغضبتهم، وليستْ تُملك الجنودُ بالإمساكِ ولا تبقَى بيوت الأموال على الإنفاق والسَّرَف، ومع هذا فان جندك قد رعبتهم الهزائم، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع، وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوهم، ونُكولاً عن لقائهم ومناهضتهم، فإنْ سيّرتهم الى طاهر، غلب بقليلِ مَنْ معه كثيرهم، وهزم بقوة نيّته ضعف نصائحهم ونيّاتهم. وأهل الشام قومٌ قد ضرّستهم الحروب، وأدّبتهم الشدائد، وجلُّهم منقاد الىّ مسارع الى طاعتى، فانْ وجهنى أميرُ المؤمنين، اتخذتُ له منهم جندا،

تعظم نكايتهم فى عدوه ويؤيد الله بهم أولياءه وأهل طاعته . فقال محمد : فإنى مُوَلِّيك أمرَهم ، ومُقوٍ بك بما سألت من مالٍ وعُدّةٍ ، فعجِّل الشخوصَ الى ما هنالك ، فاعملْ عملا يظهر أثره ، وتُحمد بركته ، برأيك ونظرك فيه، ان شاء الله . فولّاه الشامَ والجزيرةَ واستحثّه بالخروج استحثاثا شديدا، ووجه معه كَنَفًا من الجند والأبناء .

حاول الأمين بعد ذلك أن ينتصر على أخيه بكل ما فى مقدوره ، وبعث له الجند تِلو الجند . وإنا مع اعترافنا بكفاية قادته، أمثال عبد الرحمن بن جبلة الذى ندب أهل البأس والنجدة والغَنَاء، نقرر أن طريقة الإرجاف وبثّ الدعاة التى اتبعها القادة المأمونيون كانت خَطِرةً جدًا .

انظر الى من يقول لأهل حِمْص : " يا أهلَ حِمص ! الحَرْبُ أهون من العَطَب ، والموتُ أهون من الذلّ! إنكم بَعُدتم عن بلادكم، وخرجتم من أقاليمكم ، تَرجون الكثرةَ بعد القِلة، والعزةَ بعد الذِّلة، ألا وفى الشرّ وقعتم، والى حومة الموتِ أنختم. إن المنايا فى شوارب المسوِّدة وقَلانسهم ، النفيرَ النفيرَ ! قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل ، ويفوتَ المطلَبُ ، ويعسُرَ المذهب ، ويبعد العمل ، ويقترب الأجل! " ، وقام رجل من كلب فى غرز ناقته ثم قال :

شؤبوبُ حربٍ خابَ من يَصلَاها ۞ قد شَرعتْ فرسانُها قَنَاها

فأوردَ الله لَظَى لَظَاها ۞ إن غَمرت كَلْبٌ بها لَحَاها

ثم انظر لمن يقول : " يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء، والله ماوَلَّت ولا عَدَلت، ولا ذَلّ نصيرُها، ولا ضعف وليها، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوفِ أهلِ خُراسان فى رقابكم، وآثار أسنّتهم فى صُدوركم، اعتزلوا الشرّ قبل أن يعظُمَ، وتخطَّوْه قبل أن يضطرم، شامَكم! داركم داركم ! الموتُ الفِلَسْطِينىّ خيرٌ من العيش الجَزَرىّ ! ألا وإنى راجعٌ فمن أراد الانصرافَ فلينصرف معى ! " ثم سار وسار معه عامة أهل الشام .

أرأيت الى أىّ مدى كان أثر الدعاية المأمونية ؟ .

لقد كان المأمون مُوَفّقا بلا ريب، وكانت ظروف النصر والاقبال تُوَاتيه من هنا ومن هناك، وتُظاهره على النجاح من جَرّاء حكمته وكفاية رجالاته، كما كانت تُظاهره من جَرّاء حَماقة خصومه وقلّة غَنائهم .

ثم انظر ما كان من أمر العصبيّة فى حوادث سنتى خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة ، وما كان من اشتطاط جنـد الأمين فى طلب المـال ، وما كان من عدم قـدرته على إجابة طلبات القادة الكُماة ، أمثال أسد بن يزيد، وما كان من تقلُّب الحسين ابن على معه وعليه ، وما كان من لَيَان الأمين معه بعد أن حبسه؛ فان التاريخ يحدثنا بأن كل ما فعله الأمين معه، هو أن لاَمَه على خِلافه ، وقال له : "ألم أُقدّم أباك على الناس! وأُولّه أعنّة الخيـل . وأملأْ يده من الأموال ! وأشرّف أقداركم فى أهل خراسان ! وأرفعْ منازلكم على غيركم من القوّاد ! " . فقال له : بلى ! قال : " فما الذى استحققتُ به منك أن تخلع طاعتى وتؤلّب الناسَ علىّ ، وتندُبَهم الى قتالى؟" قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين، وحسن الظن بصفحه وتفضّله. قال: "فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك، وولّاك الطلب بثأرك ومن قتـل من أهل بيتك ! " ثم دعا له بخلعة فخلعها عليـه ، وحمله على مراكب، وأمره بالمسير الى حُلوان ، وولّاه ما وراء بابه .

أنظر الى ذلك كله ، فانك تستطيع أن تقتنع معنا، بأن لسوء التـدبير حظا غير قليـل فى خِذلان الأمين وضَياع ملكه .

⁂

(ط) مظـاهر الثـورة وخطـاؤها :

على أن هنـاك ظاهرة فى الجيش الأمينى والأطراف الأمينية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها، يجدر بنا أن نقيّـدها لك، ولو «على الهامش» كما يقولون . ذلك أن الزّواقيـل، واللصوص، والثوار، لعبوا دورهم الخطـير، كما أن الفوضى ضربتْ

بجرانها على كل البقاع الأمينية ، ولم يكن ثمّة من طاعة ولا نظام، لا فى الجند الأمينى ولا فى قادة الجند الأمينى !

وقد كان هناك خطباء، كما كان فى الثورة الفرنسية . وإن الطبرى ليحدثنا أن محمد بن أبى خالد قام بباب الشام، فقال : أيها الناس ! والله ما أدرى بأيّ سبب يتأمر الحسين بن علىّ علينا ! ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا سنًّا، ولا أكرمنا حسبًا، ولا أعظمنا منزلةً . وإن فينا من لا يرضى بالدنيّة ولا يُقاد بالمخادعة ! وإنى أولكم نقضا لعهده، وإظهارا للتغيير عليه والانكار لفعله ، فمن كان رأيه رأيى، فليعتزل معى . وقام أسد الحربىّ فقال : يامعشر الحربيّة ! هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد نمتم وطال نومكم، وتأخرتم فقدّم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوامٌ بذكر خلع محمد وأسره، فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه .

يحدثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدثنا بأن شيخا كبيرا ، من أهل الكفاية، قد أقبل على فرس، فصاح بالناس : اسكتوا ! فسكتوا ؛ فقال : أيها الناس ! هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ! قال : فهل قصّر بأحدٍ منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عزل أحدًا من قوّادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! . قال : فما بالكم خذلتموه وأعنتم عدوه على اضطهاده وأسره ! أمَا والله ما قتل قومٌ خليفتهم قطُّ إلا سلّط الله عليهم السيفَ القاتلَ والحتفَ الجارفَ ! انهضوا الى خليفتكم وادفعوا عنه، وقاتلوا من أراد خلعه والفتكَ به ! — .

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب، وتحريق وتخريب، وفتنة شعواء، وقتل ودماء، فإنا نترك الكلمة فى ذلك لشعراء العصر، مما أثبتناه لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فلتراجع ثمّة .

(ى) قتل الأمين :

ولقد ضيّق طاهرٌ وهرثمة على الأمين الخناق، وفكرا فيمن يتسلم الأمين ليكون له قصبُ السّبق . وإنه لمن المؤلم حقا أن ترى الأمين وهو يقبل أولاده . ومن المؤلم أن

تسمعه وهو يقول : «وددت أن الله قتل الفريقين جميعا ! . فما منهم إلا عدوٌّ مَنْ معى ومن علىّ ، أما هؤلاء فيريدون مالى ، وأما أولئك فيريدون نفسى ! » وقال :

تفرَّقُوا ودعُـــونى * يا معشـــرَ الأعوانِ
فكلُّكم ذُو وجـوهٍ * كثيرةِ الألـــوانِ
وما أرى غـــيرَ إفكٍ * وتُرَّهـاتِ الأمانى
ولستُ أملك شـيئا * فسـائلوا خُـــزّانى
فالويلُ لى ما دهَانى * من نازلِ البستانِ

وانه لمن المؤلم حقـا أن يتفقا على أن يأخذ أحدهمـا بدنه ، والآخر خاتَم الخـلافة وشاراتها ! ومن المؤلم حقا أن تختم حياته بمأساته المروعة .

الفصل الرابع

الخليفـــة المـــأمون

توطئة — السياسة الداخلية — ملخص الحالة العامة فى المدة الخراسانية — المدة البغدادية : ثورة نصر ابن شبث ، الزط ، ثورة مصر ، بابك الخرمى ، مذاهب ونحل ، افتراضات — السياسة الخارجية : غزوة المأمون للروم — كلمة ختامية .

(أ) توطئـــــة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله الفخرى وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل الخلفاءِ وعلمائهم ، وحُلمائِهم وحكمائِهم ، أو أنه كان دَيِّنا ، عارفا بالعلم ، فيه دهاء وسياسة أو أنه كان فَطِناً ذكيا ، أو أنه كان كاملا عالما جوادا ، عظيم العفو ، ميمون النَّقيبةِ ، حَسَن التدبير ، جليل الصنائع ، لا تخدَعه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، علمُه بما بعُد عنه كعلمه بما حضر ، أو أنه كان متصفا بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحية ، ولأن خطتنا فى كتابتنا ، ومنهجنا فى بحوثنا ، أن نترك للحوادث الكلمة الفاصلة فى تحليل صفاته ، اتباعا للطريقة التحليلية التى اتبعناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلفنا لك القول فى بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصّلنا لك ما كان من أمر النزاع بين الأخوين ، ووصلنا بك الى مأساةِ تلك الحرب الشعواء والفتنةِ العمياء ، ألا وهى قتل محمد الأمين فى ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة والآن نتقدم الى القول بأن المأمون بُويع له بالخلافة العامة فى ذلك التاريخ ، واستمر كذلك الى أن تُوُفِّىَ غازيا فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ . فتكون خلافته ، قد أنافت على عشرين سنة . أقام منها فى خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقرّ الخلافةِ العباسيةِ .

فيمكننا اذًا أن نَقسِم كلامَنا عن حكم المأمون الى مدّتين: المدّةِ الخراسانيةِ، والمدّةِ البغداديّة. وفى بيان هاتين المدّتين، بيانٌ لحالة السياسية الداخلية فى عصره ؛ وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن :

⁂

(ب) السياسة الداخلية :

١ — ملخص الحالة العامة فى المدّة الخراسانية

اطلعنا فى دور النزاع بين الأخوين على شيءٍ غيرِ قليل من تصرّفات الفضل بن سهل وتدبيراته، ووقفنا على أثره العظيم فى الدولة ؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهَرْثمة بن أعين، فى حروبهما للجيوش الأمينية .

ونتساءل الآن، بعد أن تمّ الأمر للمأمون وحزبه، وخلا الجوّ الى حدّ كبيرٍ للفضل ابن سهل، أمِن المعقول أن تستطيع هذه الشخصية البارزة، الفارسيّة المَنْبِتِ والنّزعة، ذات البيتِ الكبيرِ، والحُماة والأصدقاء، والعُفاة والأنصار، أن تحتمل أن يكون الى جانبها شخصيّاتٌ بارزة من العرب كهرثمة بن أعين، وأبطالٌ من ذوى الفضل العظيم والدور الأوّل فى النجاح كطاهر بن الحسين ؟ .

نحن نعلم ما كان من أبى مسلم الخراسانىّ مع أمثاله من القادة والكُماة، كما نعلم ما كان نصيبه من الخليفة المنصور. نعلم ذلك، كما نعلم الكثير من أمثال ذلك. وإنه ليلوح لنا، من غير أن نعدو الصواب كثيرًا، أنه فى مقدورنا أن نجيب عن تساؤلنا هذا. إن المعقول، فى طبيعة هذه الشخصيات الفذة، فى تلك الأزمان المطلقة الحكم، أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها، ليكون ذلك لأطماعها ممهّدا، ولخُطَطِها معبّدا.

يلوح لنا أنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ذلك. اذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل مع الظاهرين وأصحاب الكلمة فى الدولة ؛ فإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حزبه، يكون مهدّدا، اذا بقى طاهر وهرثمة فى العراق، فاستصدر أمرين

ملكيين : أولهما بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح بجهود طاهر، وقيادته الحكيمة، وإخلاصه للقضية المأمونية . ينبئنا بأنه نَصَّبه على كُوَرِ الجبال وفارس، وعلى الأهواز والبَصْرة، وعلى الكوفة والحجاز واليمن؛ كما ينبئنا بأنه ولى طاهرا الموصلَ والجزيرةَ والشام والمغربَ . ولكى يتمّ الأمر بابعاده، كتب اليه أن يسلّم الحسن بن سهل جميع مابيده من الأعمال، وأن يبادر فى الشخوص الى الرقّة لمحاربة نصر بن شَبَث . وثانيهما الى هَرْثمة ابن أعين يكلّفه به أن يشخص الى خراسان .

ولنتساءل الآن : هل كان من المصلحة السياسيّة، هذه الصدمة العنيفة لزعيمين قويين، أحسنا البَلاء فى الدولة، ولهما مكانتهما، ولهما حزبهما ؟ وهل كان من المصلحة السياسية إخلاءُ العراق، وهو مصدرُ الشقاق والنفاق والعصيان والعدوان، من هرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية، أن يترك المأمون مسألة، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هرثمة وطاهر، تمرّ هكذا، فيستغلّها الدعاة على ملكه من بنى هاشم ممن لم يكن لهم حظٌّ فى دولته، ومن غير بنى هاشم ممن يودّون زوال الملك الهاشمىّ، فيقول — فيما يقولون عنه — إنه غُلِب على أمره، أو أنّ الفرس ملكوا زمامه، أو أنّ الفضل بن سهل أنزله قصرا فحجبه عن رجالات دولته، وأن السلطان ومقاليد السلطان، قد نُزِعت منه ؟ .

نعود نتساءل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طبعا، لا سيما أنه لم تسكن الفتن والثورات بعدُ فى الأقطار المأمونية . ولكنّا نميل الى اعتقاد أن المأمون كان مرغما على الوقوع فى هذه الغلطة السياسية، وهو ذلك السياسىّ المحنّك والداهية القدير، كما رأيت وكما سترى فى موضعه؛ لأن لظروف الأحوال نصيبًا فى ذلك التصرّف منه ومن غيره ممن يكون فى مكانه؛ ولأنه ربما تحاشى بتصرّفه ذلك خَطَرًا أجسمَ، وأوسع نِطاقا، وأبعدَ مدًى، وهو خطر إغضاب الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فان هذه التصرفات التى كانت من الفضل بن سهل، وإقرارَ المأمون لها، وبقاءَ المأمون، بعد أن تم له الأمرُ، فى مَرْو دون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة فى شيعة المأمون وأنصاره من جهة، وفى أعدائه والراغبين عن سلطانه من جهـة أخرى . ذلك بأن أنصار المأمون وقواده، ونخص بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كَسَر قلوبَهم وفَلّ من عزائمهم، أن يكون جزاؤهم على فوزهم وحسن بلائهم وإخلاصهم، تلك التصرفات السيئة التى كانت نصيبَهم من المأمون ومن حاشية المأمون .

هذا كان أثرها فى شيعته وخاصة أنصاره. وأما غير هؤلاء، فقد جعلت هذه التصرفاتُ ألسنتهم تنطلق باتّهام المأمون بأنه يميل الى الخراسانيين، وأنه أصبح آلةً فى أيديهم يحرّكونه كما يشاءون وقد حدَث من جرّاء هذه الإشاعات وفتور همة أنصار المأمون الذين لم يجازوا الجزاء الأوفى، أن اضطربت الأمورُ، وكثُرت الفِتَنُ، ووجَد أعداءُ المأمون الفرصةَ سانحةً لتحقيق أطماعهم. ومن تلك الفتن ما يحدّثنا التاريخ عنه: من خروج محمد بن إبراهيم العلوىّ المعروف بابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتـدبير أمره رجلٌ من رجالات هَرْثمة بن أعين وكبار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعطاه من رزق: هذا الرجل هو أبو السرايا السرىّ بن منصـور، وكان هو الخارج على المأمون فى الواقع لا ابن طباطبا وقـد بلغ من أمره أن ضَرب الدراهم وجنّد الجنود، حتى اضطُرّ الحسنُ بن سهل أن يسترضى هرثمة، ويَستعينَه، ليكفيَه شر هذا الخارج القوىّ .

ويظهر أنّ موت الزعماء، كان طِلَّسْمًا من الطلاسم، أو سرًّا من الأسرار، أو صـناعة من الصـناعات الخفيـة فإنا نجد أن محمد بن ابراهيم هـذا، الذى سَمَتْ منزلتُه بين أتباعه، وعظُمت طاعتهُـم له، قد مات، بعـد أن كُتِب النصرُ للقائم بتدبير أموره على سليمان بن جعفر وَالِى الكوفة من قِبَلَ المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولّى مكانه غلاما أمرد حَدَثًا، هو محمد بن محمد بن زيد العلوىّ .

وتعالَ معى لننظر فى حوادث سنة تسع وتسعين ومائة ، ففيها ما يكشف القناع عن أمورٍ جسام ، تُفيدنا فى تفهُّم الروح الحزبية بين العلويين والعباسيين وتُفيدنا أيضا فى إماطة اللثام عن سبب هامّ من الأسباب التى يرجع اليها تبرُّم بعض الوُلاة الكُفَاة بدولة الفضل بن سهل وانفراده هو وجماعته بمراتب الدولة ووظائفها .

تعالَ ننظر فى حوادث تلك السنة، فنجد فيها أن هرثمة جدّ فى طلب أبى السرايا صديقِه بالأمس ومُنازلِه اليوم، حتى وصل الى قصر ابن هُبَيرة ، فكانت بينهما وقعةٌ شديدة، قُتِل فيها من أصحاب أبى السَّرايا خلقٌ كثير، أليس فى هذا ما يقنعك بأن إيماضةَ رضًا وابتسامةَ تشجيع ، لرجل من رجالات الدولة ، كافيةٌ لأن ينهض فيحارب زميله ويقاتل خِدْنه . ثم تجد فى تلك السنة فيها أن محمد بن محمد وثب، ومعه الحزب الطالبى ، على دُور بنى العبّاس ودُور مَواليهم وأتباعهم بالكوفة، فانتهبُوها وخرّبوها، وأخرجوهم من الكوفة، واستخرجوا الودائع التى كانت لهم عند الناس فأخذوها ، وعمِلوا فى ذلك عملًا قبيحا . وتجد كذلك فيها أن مسرورًا الكبيرَ الخادمَ الرشيدىّ ، قد حجّ تلك السنة فى مائتى فارس من أصحابه ، وأنه عبّى لحرب من يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيين ، وأنه قال لعامل مكة داود بن عيسى : أقِمْ لى شخصَك أو شخص بعض وَلَدك وأنا أكفيكَ قتالَهم ! فقال له داود : لا أستحِلّ القتالَ فى الحَرَم، والله لئن دخلوا من هذا الفجّ، لأخرُجَنّ من الفج الآخر . فقال له مسرور : تُسلِّم ملكَك وسلطانَك الى عدوّك ومن لا تأخذُه فيك لومةُ لائم فى دينك ولا حُرَمك ولا مالِك ! قال له : أىّ ملك لى ! والله لقد أقمتُ معهم حتى شِخْتُ، فما وَلّونى ولاية، حتى كبِرتْ سنّى، وفَنِى عمرى، فولونى من الحجاز ما فيه القوت، إنما هذا الملك لك ولأشباهك! فقاتل إن شئت أو دَعْ !

هذه حالة نفسية لبعض الولاة العرب ، قد يكون من النفع أن نُلاحظ تبرمها وسخطها من سياسة العصر ، أو من الهيمنة الفارسيّة على شتّى أُمور الدولة عامة والحسبيات منها خاصة فى ذلك العصر . وربما كانت هذه الحالة النفسية تمثّل لك حالاتٍ كثيرةً من نفسيّات العرب لذلك العهد .

ثم لننظر فى حوادث سنة مائتين، فنجد أن زيد بن موسى الطالبى المعروف " بزيد النار " كان بالبَصْرة، وإنما سُمّى " زيدَ النار " لكثرة ما حرّقه من دُور العباسيين وأتباعهم فى البصرة. وكان اذا أُتِيَ برجل من المسوّدة العباسيّة، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار. ونجد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبى قد خرج باليمن . ونجد أيضا أن الكعبة وخزائنها وأحجارها الكريمة، لم تسلَم من أبى السرايا وأتباعها العلويين، وكم حبس من العباسيين وكم آذى! حتى نَدَبَ محمدَ بن مَسْلَمة الكوفى لتولّى عذاب العباسيين، فأشرف فى ذلك، حتى سُمِّيت دارُه " بدار العذاب " . ونجد أيضا أن خارجيًا آخر، وهو حسن ابن حسين، أراد اقتفاءَ ما رَسَمه أبو السّرايا، فذهب الى عَلَوى وداعٍ محبَّبٍ معروفٍ فى مكة والمدينة، وهو محمد بن جعفر، ونَصّبه خليفةً اسمًا، وجعل السلطانَ بيده فعلا . ونجد فيها قبائح وفضائح لحسن بن حسين هذا، مع زوجةٍ قرشيّةٍ من بنى فِهْر، وزوجُها من بنى مَخزوم، ولها جمالٌ بارعٌ، فاغتصبها من زوجها . ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من علىّ بن محمد الخليفةِ المنصوب، مع ابن القاضى إسحاق بن محمد، وكان جميلا بارعا فى الجمال! .

نجد ذلك كله، ونجد الكثيرَ من أمثاله، مما أدى الى إثارة الرأى العام فى مكة، فاحتجوا، حتى ردّ الصبىّ لأبيه مُكرها مرغما! ونجد فيها أمثلة عدّة لاستلاب أموال الناس؛ كما نجد فيها رجلا عباسيا موتورا من العلويين، وهو محمد بن الحكيم، ممن كان الطالبيّون قد انتهبوا داره وعذّبوه عذابا شديدا، عثَر على محمد بن جعفر الطالبى الخليفة المنصوب، وقد طُرِد شرَّ طردة، وكان فى مقدوره أن يقتله فلم يفعل . فلنقيّد هذه الحادثة، فانها تنفعنا فى تفهّم السر الذى كان كثيرًا مايحدو بالمأمون الى احترام العلويين، وتقدير مكانتهم والعملِ على إرضائهم لأن لهم حرمة فى نفوس حزبٍ غير قليلٍ من الشعب. ونجد فى السنة ذاتها أن الحج قد تولّاه أكثر من شخص، لتعدد السلطات. فندب المأمونُ أبا اسحاق بن هارون الرشيد . ووجّه ابراهيم بن موسى الطالبى، الذى خرج

باليمن ، رجلا من ولد عَقيل بن أبي طالب ؛ كما وجه غيره من يمثله ، مما يدل على الفرقة والانقسام ، وعلى الفوضى والاضطراب . فلتعترف ذلك جيدا .

ويجدر بنا هنا أن نبيّن نتائج الحالة الحزبيـة بين الفريقين ، فقـد بَلَغ أبا اسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية التى أتت من اليمن للحج ، قد مرت بها قافلةٌ من الحاجّ والتجّار ، وفيها كسوة الكعبة وطيبها ، فاستلبتْ أموالَهم وطِيبَهم ، فنَدَبَ لهم محمدَ بنَ عيسى بن يزيد الجلوديَّ الذى أحدق بهـم فأسر أكثرهم ، وهرب من هرب منهم ، وأخذ منهم الطيبَ وأموالَ التجّار والحاجّ ، فوجه به الى مكة ، ودعا بمن أُسر من أصحاب العَقيـلىّ العَلوىّ ، فأمَر بهم فقنّع كلَّ رجل منهم عشرةَ أسواط ، ثم قال لهم : "اعزُبُوا يا كلابَ النار ! فوالله ما قتلكم وعر، ولا فى أسركم جمال". وخلّى سبيلهم . ولنلاحظ تسميته لهم "بكلاب النـار" !

وإنا نلخص لك الحوادث التى وقعت بعد أن قَمَع هرثمةُ ثورةَ أبى السَّرايا ، التى انتهت بقتله عام ٢٠٠ هـ . وإخماد فتنته ، معتمدين فى ذلك على الطبرى والأستاذ «ميور» خاصة :

لمـا قَمَع هرثمة ثورةَ أبى السرايا ، عاد الى نهروان ، دون أن يعرّج على والى بغداد ، وهناك وافاه أمرُ الخليفـة بتوليه حكم سوريا و بلاد العرب ، وكان قد اعتزم الذهابَ بعد ذلك الى «مرو» مباشرة ، ليكشفَ للخليفة عن حقيقةِ الموقف وحَرَجه ، الذى يخفيه عنه وزيره الفضـل ، بسبب بقاء الخليفة فى «مرو» وأن الغرب سينتقض عليـه سريعا ، ويخرج من يده اذا هو لم يبادر الى العودة الى بغـداد . فلما أحسّ الفضـلُ عزم هرثمةَ على القدوم فَطِن الى ما ينْويه ، فدسّ له عنـد المأمون ، حتى أوغَر صدرَه عليه ، وكادت السنة تنتهى قبـل أن يذهب هرثمة الى «مرو» . فلمـا ذهب خشى أن يكتم الفضـل خبر قدومه عن المأمون ، فدقّ الطبولَ عند دخوله المدينة . فلما علم الخليفةُ الموغَر الصدرِ بقـدومه أمر باحضاره ، فلما مَثَل بين يديه بالغ فى تقريعـه وتأنيبه على توانيه فى تسكين ثورة أبى السرايا ، وفى مخالفة ما أصـدره اليه من أمره بالذهاب الى ما ولّاه من أعمـال

وما كاد هـذا القائد يهمّ بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى هجم عليـه الحَرَسُ الذين أسرّ اليهم الفضـلُ أن يُغْلِظوا فى تعـذيبه، فانهالوا عليـه ضرباً ولَكْماً، على وجهـه وجسمه، ثم سحبوه بسرعة الى السـجن حيث مات به بعـد زمن قصـير، متأثرا بجروحه . ولقـد اعتقد عامّة الناس أن الذى أماته هو الفضل .

وهكذا انطوت صحيفـةُ هـذا الباسل العظيم الذى ذبّ عن مُلكِ المأمون، وكافح فى توطيد دعائم الدولة، من أفريقية الى خُراسان، والذى يرجع اليه الفضلُ الأكبر فى انتصار المأمون على أخيـه المخلوع . ومات هـذا القائد العظيم ضحيّةً للسـعاية ونكران الجميـل، كما مات أمثالُه من قبل من صناديد هـذه الدولةِ من جرّاء السعاية والمنافسـةِ، ومن جرّاء أعمال البِطانة ودسائس الحاشية .

ولنتساءل ما ذا كانت نتيجة قتل هرثمة ؟

يحدّثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوبا فى الغرب، وأن موته أحدث فتناً وقلاقل فى بغداد، وثارت الجنودُ فى وجه الحسن بن سهل، إذ عدُّوه آلةً فى يد أخيـه الفضـل الذى كانوا ينعتونه بالمجوسىّ . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، فلجأ الى «المدائن» ثم آرتدّ الى « وَاسِط » . وآستمرّت الفِتَنُ والقلاقلُ بعـد ذلك قائمةً ببغداد شهورا عدّة، نشطت فى خلالها عصاباتُ اللصوص وشراذمة الصعاليك، وشمّرتْ عن ساعدها فى أعمال النهب والسلب، حتى طغى سيلُ غاراتهم على تلك المدينـةِ المنكودةِ، التى أصبحت تحت رحمتهـم . ويحدّثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا فى ذلك إسرافا عظيما، مما فزِع له أعيانُ المدينة ووجهاؤها، فأجمعوا أمرهم على صدّ هؤلاء السِّفْلةِ الأشرار ودفع غائلتهم عن المدينة وأهلها. ولما تمّ لهم ما أرادوا، اختاروا من بينهم رجلين من ذوى الفضل والمكانة فيهم، وولّوهما تدبير الحكم، ريثما تستقرّ الحالُ ويعودُ الأمنُ الى نِصابه . ثم عَرَضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدى والبيعةَ له، فتأبّى عليهم، ولكنه عاد وقبِل أن يتولّى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تُوشك هذه السنةُ أن تنتهى حتى كان قوّاد الجند فى بغداد قد سئموا القتال،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالى فعاد الى بغـداد بعد أن أصدر عفوًا عاما ، ووعد بأنه يدفع للجنـد رواتبهـم عن ستة أشهر، وبأن يدفع كذلك لذوى المعاشات أرزاقهـم حسبما هو مُدرجٌ بقوائمهم .

***

ولنتساءل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهى على هـذه الشروط ، حتى عادت الفتنةُ والاضطراب أشدّ ممـا كانا عليه . ذلك بأن المأمون، لغرض سياسى ، أو لنزعة شيعية، أو لتقدير كفاية خاصة، استدعى واحدًا من سلالة سيدنا علىّ ، وهو «على الرضا» رضى الله عنه، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين، الى «مرو» ،واختاره وليًا لعهد الخلافة،مع أنه يكبره باثنتين وعشرين سنة . وربما كان المأمون فى رأيه هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذى زيّن له أن هذه أنجحُ وسيلةٍ لتسكين ثورة العلويّين فى الغرب . وربما كانت تنجحُ هذه الوسـيلةُ فى التوفيـق بين البيتين العلوىّ والعباسىّ ، قبل استفحال الخُلف بينهما . أمّا وقد استطار الشرُّ بينهم ، وقلّب بعضُهم لبعض ظهرَ المِجَنّ ، ولبِسوا جِلْدَ النَّمِر ، وتحفَّزوا للقتال ، وتداعَوْا للجِلاد ، فإن أمر الوِفاق بينهم صار حُلما ، وعاد الإقدام عليه سخفا وحماقةً مُهْلِكة ! .

وما ذا ترتّب على إسناد ولاية العهد لفرد من العلويّين ؟ .

إن التـاريخ يحدّثنا أنه ترتّب على إسناد ولاية العهد لعلىّ الرضا أن أمر الخليفةُ وُلاتَه فى جميع أنحاء الدولة بأخذ البيعة لولىّ عهـده . ولكى يجعل المأمون الدولةَ تصطبغ بصبغة العلويين، خلع الشّعارَ الأسودَ، شعارَ العباسيين، وارتدى الشعارَ الأخضَر، شعارَ الشّيعة، وأمرَ عُمّالَه بالاقتـداء به . وفى أواخر هذه السنة تَلقَّى الحسنُ بن سهل من أخيـه الفضلِ أمرًا بإعلان ذلك وتنفيـذه، فكان لذلك الأمرِ أسوأُ أثرٍ فى أهل بغـداد، إذ وقع عليهـم كالصاعقة، لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة ويمقُتُونهم، وكذلك شَعَر العباسيون بأن الضربة موجّهةٌ للقضـاء على خِلافتهم ، فشَقُّوا عصا الطاعة، وهَمُّوا بخلع المأمون واختيار خليفـة

ســواه ، ولم يعارض زعماءُ البيت الملكىّ من العباسيين فى ذلك . فلم تأت آخر جمعة من هــذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهــدىّ على المنابر خليفة بدلًا من المأمون ؛ وسرعانَ ما بُويع له بالخلافة . وكان ابراهيم بارعا فى الموسيقى والغنـاء والشعر، ولكن كانت تنقصه المؤهِّلات التى يستطيع بها أن يضطلع باعباء الملك التى أُلقيت على عاتقه ، والتى ناء بحملها مدّة سنتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نَشِب القتالُ بين جنود المأمون وجنود ابراهيم المغتصب للخلافة ؛ فاضـطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرتد الى وَاسِـط مرّة أخرى ،وخُيِّل اليه أنه اذا جارى أهلَ الكوفة فى مُيُولهم الشيعية، يستطيع أن يضمَّها اليه ، وبدأ ذلك بأن ولّى عليها أحدَ إخوة علىّ الرضا ولم يدر أن التوفيق بين عائلتى علىّ والعباس فى مدينــة كهذه متقلبــة الأهواء، ضربٌ من المستحيل ، فان أهلَها كانوا على اسـتعدادٍ، فى أوّل أمرهم ، للقاء الحسن كقائدٍ من صميم العلويين ، ولكنهم انتقضوا عليــه باعتباره الوالىَ الفارسىَّ من قبَـل المأمون ؛ وعلى ذلك قامت الثوراتُ فى هذه المدينةِ أيضا كما قامت فى غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

إن التاريخ يحدّثنا أنه بينما كان الغربُ غارقًا فى لجج هــذه الفوضى ، حدث فى مَرْو تغييرٌ جديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبــه فى آخر الأمر، لحرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن الغريب أن أوّل من نبّه الخليفةَ الى هــذا الخطر المُحْـدِق به ، وبعرش آبائه وأجداده ، هو علىّ الرِّضا نفسه ، فتبين المأمون أنّ ولايتــه للعهد كانت شؤما على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سيء الى أسوأ ، زُهَاءَ عام منذ توليه .

ويحدّثنا التاريخ أن عليًّا الرضا خلا بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكاتِمُه حقيقةَ الحـال ، ويخفى عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسحور ، وأن الخلافة توشك أن تُفلت من يده بين ابراهيم والعلويين ،وأن الحسين

أخا الفضل يعمل فى القضاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك القائد الباسل الذى يستطيع أن يقود سفينة الدولة الى شاطئ النجاة منبوذ فى سوريا .

وقد أيّد هذه الحقائق للأمون جماعة من قوّاد الدولة وزعمائها ، بعد أن أمّنهم المأمون من غضب وزيره ، ونصحوا اليه بأن خير علاج لسلامة الدولة أن يعجل بالعودة الى بغداد ، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحة هَرْثَمة ، التى جاء من أجلها منذُ سنتين ليُسرّها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فأيقن المأمون أخيرا أن استسلامه للفضل وانقياده له ، كانا سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات ، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى بغداد ، وما كادوا يَحُلّون بسَرَخْس وهم فى طريقهم الى بغداد ، حتى وجدوا الفضل قتيلا فى حمّامه ، وكان الفضل ، قبل ذلك قد اضطهد جماعةَ القوّاد والزعماء الذين لشفوا أمره عند الخليفة ، فوعد الخليفةُ بمكافأة لمن يأتيه بالقتلة ، ولما قبض عليهم دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة ، ولكن لم يُغْنِهم دفاعُهم شيئا ، وضُربت أعناقهم ، وبعث الخليفة برءوسهم الى الحَسَن بن سَهْل مشفوعةً بكتاب تعزيةٍ منه ، ووعده فيه بأنه سيستوزره خلفًا من أخيه ، وبلغ من عطف الخليفة عليه ، أو من سياسته وحكيم تدبيره ، أن عقد زواجه من ابنته بُورَان ، التى كانت اذ ذاك فيما قيل طفلة فى الحول العاشر من عمرها ، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك . وفى الوقت نفسه زوج إحدَى بناته لعلىّ الرِّضَا الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ، كما زوج بنتا له أخرى من ابن علىّ الرضا ، وكذلك ولّى أحدَ إخوة علىّ الرضا إمرةَ الحج . وبهذه المصاهرة تمّتْ مظاهر حسن العلاقات وتوثيق العُرَا بينه وبين الحزب العلوىّ . وكانت هذه المصاهرة فى ذاتها تصرفًا سياسيا آية فى الحكمة والسداد .

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك انه فى أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل بطُوس فى فصل الخريف ، وهناك مات على الرضا فجأةً ، وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه فى أكلة عنب، فدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشـيد، فاهتزت الدولة لموته الفجائى الذى جاء عقب مقتل الفضل، وإنه لمن المعقول فى مثل هذه الأحوال أن تنتشر الاشاعات، وتكثر الأراجيف فى سبب موته . كما أنه من المعقول أيضا فى مثل هـذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل : إن المأمون دسّ له السمّ فى العنب، بَيْدَ أن الرعاية التى أظهرها المأمون لعلىّ الرضا، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهةَ عن الخليفة .

إنا لا نمنعك من أن تفترض من جهة أخرى : أن الفضل وعليا كانا عقبة كَأْداءَ فى سبيل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتُهما، ويجوز لك أن تذهب فى التدليل على أن المأمون كان يعدّ عليا عقبة فى سبيل إرضاء أهالى بغداد، إلى أنه فى الوقت الذى كتب فيه كتاب تعزية الى الحسن بن سهل يَنْعَى فيه موتَ علىّ أرسل كتابا آخر الى أهل بغداد يقول لهم فيه : إن عليا الذى أظهروا سخطهم وتبرُّمهم من إسناد ولاية العهد له قد قَضَى، فلا شىء اذاً يمنعهم الآن من العودة الى طاعته وموالاته .

على أنا لا نجاريك فى هذا الافتراض، لمـا بيّناه لك من ناحية، ولأن نفسية المأمون وخلقه، مما ستقف عليه قريبا، لممـا يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا .

أما فيما يختص بكتاب المأمون الى البغداديين بشأن موت علىّ الرضا فنقول لك : إنه و إن لم يُحْدِث أثره المطلوب تمـاما فى نفوس البغداديين، لأنهم اجابوا عنه بكتاب جافٍّ فاترٍ، إلا أنه قد خطا به خُطْوةً مّا فى سبيل استمالة أهـل بغداد، وفى هذا الوقت أخذ أنصار ابراهيم القلائل ينفضون من حوله، لضعفه وسوء تدبيره فى إدارة الحكم، وتخلّى عنه جنودُه، ولم يتقدموا لمدافعة جنود المأمون، وسقطت المدائن التى كان فيها مقرّ خلافتـه، فى أيدى جنود المأمون، وساءت أحواله، واضطرب نظام ملكه فى فصل الشتاء . ولمـا دنا قوّاد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، خرج اليهم قوّاد المدينة و زعماؤها، يُظْهِرون ولاءهم وطاعتهم للمأمون .

وما كادت تنتصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة ، وحتى اختفى ابراهيم كما اختفى غيره، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون، وذلك بعد أن عاثت ماعاثت من ضروب الفوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريبا، وبقى مختفيا فيما يقال ثمانى سنين ثم قُبِض عليه متنكرا فى زى امرأة، ثم عفا عنه المأمون وسنذكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد

فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما خمدت ثورة بغداد ، وفر ابراهيم بن المهدى مختفيا، واستقر النظام وعاد أهلوها الى الطاعة والولاء لخليفتهم ، تقدم اليها المأمون مُتَّئِدا فى سيره، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمدائن التى يمر بها كى يعيد اليها الأمن ويقر فيها النظام ، فأقام فى جُرْجان شهرا كما أقام فى النَّهْرَوان ثمانية أيام، فخرج لاستقباله أهل بغداد، يتقدمهم أهل بيته وقواده ووجوه المدينة احتفاء بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرقَّة أن يوافيه فى النَّهْروان فوافاه بها، ثم تقدم بعد ذلك ودخل بغدادَ فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩م) .

وكان لا يزال الشّعارُ الأخضر، شعارُ العلويين الذى اتخذه المأمون وهو فى مَرْو، شعارَ الدولة ، فما زال به كبارُ قواده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشعارَ الأسود : شعار العباسيين . ويحدثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخُضْرة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوما ثم مُزِّقت، ثم خلع الخلَع السنيّة على من حضر من القوّاد والأشراف ورجالات الدولة، وعفا عن الفَضْل بن الرَّبيع وزيرِ الأمين، الذى كان اختفى بعد مقتله، ثم ظهر مساعدًا لابراهيمَ بن المهدىّ فى ثورته، وكذلك عفا عن عيسى وزيرِ ابراهيم، مع انهما كانا رأسيِ الفتنِ والقلاقلِ التى أثيرت على حكم المأمون، فكان موقفُ المأمون معهما غاية فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام فى جميع أنحاء الدولة، بدخول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نَصْر بن شَبَث خارجا فى سوريا، وكانت لاتزال مصر مسرحًا للفتن والقلاقل، وبَابَكَ الخُرَّمى يعظُم خطرُه فى شمال فارس، والزُّطّ لا يزالون يَعيثون فى الأرض فسادًا على الخليج الفارسىّ . وسنقصّ عليك فى موضعه ما وصلت اليه هذه الثورات وكيف أُخمِدت .

ثم ولّى المأمونُ طاهرًا حاكما على بغداد، وأقام ابنَه عبدَ الله واليا على الرَّقة خلفا من أبيه . غير أن المأمون لم يلبث أن تنكّر لطاهر وأظهر له الجَفْوة . ثم نرى بعد قليل أن طاهرا ولّى حاكما على خُراسان .

وقد كنا نكون فى حيرة من أمر هذا التنكر الفجائى من الخليفة على رجله العظيم من غير سببٍ ظاهر، ثم ينتهى ذلك بأن يكون حاكما على خراسان، لولا أن ابن طيفور يروِى لنا أسبابَ كل هذا فى قصة مُمْتعة ملخصها : أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم فى حاجة، وكان المأمون فيما قبل فى مجلس شراب، فأمر له برِطْلين من النبيذ ثم بكى المأمون وتَغَرْغَرتْ عيناه، فقال له طاهر : يا أمير المؤمنين لم تبكى لا أبكى الله عينك ! فوالله لقد دانت لك البلاد، وأذعن لك العباد، وصرتَ الى المحبة فى كل أمرك؛ فقال : أبكى لأمرٍ ذِكرُه ذلّ، وستره حزن، ولن يخلو أحد من شَجَنٍ : فتكلمْ بحاجة إن كانت لك . فما زال طاهرٌ بعد ذلك يتخذ الوسائل الى معرفة السبب حتى وُفّق بالمال الى إغراء ساقى المأمون أن يتعرّف كُنْهَ ذلك السببِ . فلما تغدّى المأمون ذاتَ يوم قال لساقيه : يا حسين، اسقِنى، قال . لا والله لا أسقيك أو تقولَ لم بكيتَ حين دخل عليك طاهر ! قال : يا حسين، وكيف عُنِيت بهذا حتى سألتنى عنه ؟ قال : لغمّى بذلك؛ قال : هو أمرٌ إن خرج من رأسك قتلتُك، قال : ياسيدى، ومتى أخرجتُ لك سرًا ! قال : إنى ذكرت محمدا أخى، وما ناله من الذِّلّة فخنقتنى العَبْرة، فاسترحتُ الى الإفاضة . ولن يفوت طاهرًا منّى ما يكره . قال : فأخبر حسينٌ طاهرًا بذلك، فركب طاهر الى أحمد

ابن أبي خالد — وهو وزير المأمون — فقال له : إن الثناء منّي ليس برخيص، وإن المعروف عندي ليس ببضائع، فغيّبني عن عينه . فقال له : سأفعل فبكّر عليّ غدا . قال وركب ابن أبي خالد الى المأمون، فلما دخل عليه قال له : ما نمتُ الليلة ؛ فقال له : ولِمَ ويحك! قال : لأنك ولّيت غسّانَ خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس، (١) فأخاف أن يخرج عليك خارجةٌ من الترك فيصطلمه ؛ قال : لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه، قال : فمن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ؛ قال : ويلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الضامن له ؛ قال له : فأنفذه ؛ قال : فدعا بطاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون، فيما ذكر الرواة، لم يكن مطمئنا، مع ضمان وزيره لطاهر، الى تعيينه حاكما على خراسان، فان بعض الرواة يقول : ان المأمون أسرّ الى خصيّ له أمين بمرافقة طاهر، حتى اذا رأى منه خروجا دسّ له السمّ .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولّى شؤون خراسان، وأدارها بحزم وسَدادِ رأي، حتى ظهر منه ما كان يخشاه المأمون، من خروج وعصيانٍ، فقد أسقط اسمَ المأمون من خطبة الجمعة، وذكر دعاء مبهما لنصرة الدين ، فأنفذ عينُ المأمون عاملَ البريد فورا بكتابٍ الى المأمون، يخبره فيه بما وقع من طاهر، ثم نرى المأمون يتوقع مجيء كتاب آخر وينتظره بفارغ الصبر في اليوم التالي لورود الكتاب الأول ، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا ينعَى طاهرا الذى وجِد ميتا في فراشه .

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شيء من الغموض في هذه الناحية من عصر المأمون، وأن تصرّفات المأمون مع طاهر، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نماشي الأستاذ « ميور » الذى يرى أن على هذه الحوادثِ جميعها غِشاء من الغموض كثيفا .

---

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشبعهم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولّى مكانه ابنه طلحة، وأن يستبق ابنه عبد الله واليا على الجانب الغربىّ من الخلافة، ليقمع ما فيه من ثورات، ويسكن مابه من اضطراب . ثم أرسل وزيره مع طلحة ليقوّى دعائم سلطانه فى ولايته، فشخص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بحملةٍ موفقةٍ على بعض العصاة، ثم قفل راجعا الى بغداد مزوّدا — فيما يقول الرواة — بهديةٍ نفيسةٍ له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكاتبه بأخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم .

أما طاهر الذى توفى فى فراشه، وربما كان الذى يعلم سرّ وفاته قبل سواه هو المأمون وبطانته، فقد قدّمنا لك شيئا فى كلمتنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وخبرته بالحروب، ولا يقلّ خطره فى تدبير الحكم وشؤون السياسة عن خطره فى الحرب، وكان مع ذلك مشغوفا بالعلم والأدب، مشجعا لأربابهما، حاثّا على تعلمهما . وليس أدلّ على تبريزه فى العلم والأدب، وخبرته بشؤون السياسة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذى كتبه الى ابنه عبد الله . ولسنا نرى ما نقدّم به اليك هذا العهد، خيرا من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتفائه به، واستنساخه، ثم ارساله الى عماله فى الولايات . قال ابن طَيْفور : لما عهد طاهر بن الحسين الى عبد الله ابنه هذا العهد، تنازعه الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرِئَ عليه وقال : ما بقّى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسةِ وإصلاح الملك والرعية وحفظِ البيعة وطاعةِ الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدّم فيه، وأمر أن يُكتب بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ولمحاربة نصر بن شَبَث لما رآه فيه من حزم وفطنةٍ وكفايةٍ وحسن بلاء . وكان عهد أبيه اليه قانونا يطبّقه على نفسه أحزم تطبيقٍ، وكان لا يُورد شيئا فى شأن من شؤونه أو يُصْدِره إلا على منهجه وفى حدود إرشاداته .

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التى لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره، وقد أثبتناه فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى المجلد الثالث فراجعـه .

٣ — ثورة نصر بن شبث

أما نصر بن شَبَث ، الذى وجّه عبد الله بن طاهر لمحاربته بعـد أن وجّه اليه أبوه، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة ، وكثرتِ الأراجيف، ونشط أعداء المأمون خاصـة والعباسيين عامة لبقاء المأمون فى مرو بعيـدا عن عاصمـة الملك وحاضرة الخلافة .

وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصـيرَ غيرها من الثورات، التى خَمَدَت بسرعة، لولا أن طاهرا لم يَجِد فى محاربته . وقد ذُكر أنه قال للحسن بن سهل حينما ندبه للخروج الى محاربة نصر بن شـبث : حاربتُ خليفة، وسُقْت الخلافة الى خليفة، وأُؤمر بمثل هذا ! وإنما كان ينبغى أن توجه لهـذا قائدا من قوادى ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا فر كالمنهزم أمام نصر بعد معارك حامية بين جنديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقى فى يده من البلاد أن يغير نصر عليها .

ويظهر أن ما يقـوله بعض المؤرخين من أن فتور طاهر فى محاربة نصر بن شبث ، يرجع الى الصدمة التى صدمه بها آل سهل : حين حرموه من ثمار فتوحه فى العـراق، له حظ كبير من الحق ، فاننا لا نسـيغ عجز طاهر عن مناهدة نصر ، واخضاعه، مع ما هو معروف عنـه من الدهاء، والبصر بالحرب، وحسنِ تعبئته للجيوش، ووضع أدقّ الخُطَط لحملاتها، ومع أن وراءه الدولةَ تمُدّه بما يحتاج اليه من جند وسلاح ومال .

ومهما يكن من شىء فقـد كثُف أنصار نصر وعظُم خطره ، حتى ذهب اليه نفر من شيعة الطالبيين فقـالوا له : قد وَتَرْت بنى العباس وقتلت رجالهم، فلو بايعت لخليفة لكان ذلك أقوى لأمرك ! فقال : من أىّ الناس؟ فقالوا: تبايع لبعض آل علىّ بن أبى طالب،

فقـال : أُبايع بعض أولاد السُّوداوات فيقول إنه خلقنى ورزقنى ! قالوا : فتبايع لبعض بنى أميـة ؛ قال : أولئك قوم قد أَدْبر أمرُهم ، والمُدْبِر لا يُقْبِل أبدا ، ولو سلّم علىّ رجل مدبر لأعدانى إدباره ، وإنما هواى فى بنى العباس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدّمون عليهم العجم . فتأمل قوله هذا طويلا ، فهو يُميط لنا اللثام عن حقائق يجب أن نقف عليها .

يروى لنا التاريخ أن عبد الله بن طاهر ، الذى نَهد لمحاربة نصر بن شَبَث كتب الى المأمون يعلمه أنه حصرَه ، وضيّق عليـه ، وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبَـه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمانٍ ، فكتب اليـه أمانا نسخته : «أما بعد ، فان الإعذار بالحق حجـةُ الله المقرون بها النصر ، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصـول بها العز . ولا يزال المُعـذِر بالحق ، المحتجّ بالعدل ، فى استفتاح أبواب التأييـد ، واستدعاء أسباب التمكين ، حتى يفتـح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكّن وهو خير الممكّنين . ولستَ تعـدو أن تكون فيما لهجت به ، أحدَ ثلاثة : طالبَ دين ، أو ملتمِسَ دنيا ، أو متهوّرا يطلب الغَلَبة ظلما ، فان كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنمْ قبولَه إن كان حقا ، فلعمرى ما همتُه الكبرى ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال . وان كنتَ للدنيا تقصد ، فاعلمْ أمير المؤمنين غايتك فيها ، والأمرَ الذى تستحقها به ، فان استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك ؛ فلعمرى ما يستجيز منع خَلْق ما يستحقه وإن عظم . وإن كنت متهوّرا فسيكفى الله أميرَ المؤمنين مؤنتك ، ويعجلُ ذلك كما عجل كفايتَه مؤنَ قومٍ سلكوا مثـل طريقك ، كانوا أقوى يدا ، وأكثف جندا ، وأكثر جمعا وعددا ونصرا منك ، فيما أصارهم اليه من مَصارع الخاسرين ، وأنزل بهـم من جوائح الظالمين . وأمير المؤمنين يختم كتابَه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صـلى الله عليه وسلم ، وضمانه لك فى دينه وذمتـه الصفح عن سوالف جرائمك ، ومتقدّمات جرائرك ، وإنزالُك ما تستأهل من منازل العـز والرفعة ، إن أنبتَ وراجعت إن شاء الله ، والسلام» .

وقد ذهب عبد الله بن طاهر الى وجهه فى محاربة نصر، ولبث فى مناهدته، حتى اضطره الى التسليم نحو خمس سنين، وفى اثناء هذه المدة سعى المأمون الى إخماد الثورة من طريق الصلح، فندب جعفر بن محمد العامرى، ليؤدى رسالة منه الى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والجنوح الى السلم.

وقد كاد يتم الصلح بين الفريقين، وتحقن الدماء، ويذهب عن الناس فى تلك النواحى ما أصابهم من فزع وهلع، لولا خنزوانة[1] فى رأس نصر قابلتها أخرى، فيما يقول الرواة، فى رأس المأمون، حالتا دون هذه الغاية السامية: ذلك بأن نصرا قبل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطأ بساطه. فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال: لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيت الى بيع قميصى حتى يطأ بساطى! ثم كتب اليه المأمون بعد ذلك كتابا هذه نسخته:

أما بعد، فانك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلها وطيب مرتعها، وما فى خلافها من الندم والخسار. وان طالت مدة الله بك، فإنه إنما يملى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه، لتقع عبره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك، لما رجوت أن يكون لما أكتب به اليك موقع منك، فان الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك فى مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك[2]، من خطائك منى، فبأى أول أو آخر أو سطة أو إمرة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله، وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبيت آمنا أو مطمئنا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا، فوعالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعا، وبها خانعا، لتستوبلن وخم العاقبة، ثم لأبدأن بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان اذا لم تقطع،

(١) الخنزوانة: الكبر.

(٢) استنقاذك من الهلكة.

كانت فى الأرض فتنة وفسادا كبيرا، ولأطأت بمن معى من أنصار الدولة كواهل رَعَاع أصحابك، ومن تأشّب (١) اليك من أدانى البلدان وأقاصيها، وطغامها (٢) وأوباشها، ومَنْ انضوى الى حوزتك من خُرّاب (٣) الناس، ومَنْ لفظه بلده ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر، والسلام .

ثم أخذ عبد الله يجدّ فى محاربته وحصره حتى ضيق عليه، واضطره الى طلب الأمان، وقد احتفى بنصر، وهو ذاهب الى بغداد خاضعا للخليفة، احتفاء عظيما، بَيْدَ أنّ جماعة ممن كانوا ناقمين على المأمون، لم يَرُقهم أن ينتهى الخلاف بينه وبين ثائر قوى، فأرادوا أن يكدّروا صفاء السرور فدبروا مؤامرة، وهى أن يقطعوا جسر الزوارق، عند اقتراب نصر بموكبه الحافل، فقبض عليهم، ولأمر ما كان المأمون، على غير عادته، قاسيا فى عقابهم. فقد جاء بزعيمهم ابن عائشة، فيما قال الرواة، وهو من بنى العباس، ووضعه على باب داره، فى أشعة الشمس المحرقة ثلاثة أيام، ثم أمر بضربه بالسياط ثم أمر بضرب عنقه مع كثير ممن كانوا معه .

نقول لأمرٍ ما كان المأمون قاسيا فى عقابهم، لأن الرجل الذى يصل به عفوه وحلمه الى أن يعفو عن ابراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع وغيرهما، من أصحاب الكبائر وممن كادوا له حقا، وسعوا فى ضياع ملكه، واستلاب عرشه، لا بد أن يكون الدافع له الى القسوة فى عقاب هؤلاء الأشخاص حاجةٌ فى نفسه عَمِيت علينا . ونحن نعترف بأن المصادر التى بين أيدينا لم تفسر لنا تفسيرا مقنعا، السرّ فى هذا الاشتطاط وهذه المبالغة فى العقوبة من المأمون الوديع الحليم .

على أن هذه الحادثة تحتاج الى تحقيق دقيق ولم تُتِحْ لنا المصادر الحاضرة القيامَ بتعرّف وجه الحق فيها . ولا نستبعد البتة أن يكون المأمون منها براءً . وليت أعضاء المجمع العلمى العربى وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يعنون بتمحيص مثل هذه النقط المهمة فى تاريخ أزهى عصورنا الاسلامية .

(١) أى اختلط بك وانضم اليك . (٢) الطغام : أوغاد الناس . (٣) جمع خارب وهو اللص، وخصه الأصمعى بسارق الابل .

٤ — الـزط

أما الزُّطّ ، فهم المعروفون بالنَّورة[١]، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء القوم فى سلك أصحاب الثورات ، أو الخارجين على الخليفة ، لنحلةٍ دينية ، أو مذهبٍ سياسىّ ، وانما هم طائفة من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى ، قد وُجدوا به حين اضطراب الأمن فى أطراف الدولة ، وضعف سلطان الحكومة ، وانصراف القائمين بتدبير الشؤون العامة ، الى أمر الفتنة القائمة بين الأمين والمأمون ، التى انتهزها الزط وأمثال الزط فرصة للسلب والنهب والعَيْث فى الأرض فسادا ، فتجمعوا واستولوا على طريق البصرة ، فهم بقُرصانِ البحر وقطّاع الطرق أشبه منهم بالثائرين وأصحاب المبادئ ! .

ويظهر أنهم ، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الخضرى بك ، كانوا اذا أحرجهم الجند ، تفرّقوا فى تلك الفيَافِى ، فاننا نرى المأمون يكلّف غير مرة أكثر من قائد أمرَ القضاء عليهم ، ثم نراهم لا يزالون يعيثون فى الأرض فسادا ، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم ، الذى كلف أحد قوّاده : عُجَيف بن عَنْبَسة القضاءَ عليهم ، فاهتم عُجيف بحربهم ، وضيق عليهم طريق البر والبحر ، وحصرهم من كل وجه ، ثم حاربهم وأسر منهم نحو خمسمائة رجل ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة ، وقطع رءوس الأسرى وبعث بالرءوس جميعا الى المعتصم ، وجدّ فى حربهم حتى اضطرهم الى التسليم ، فاذا عِدَّتُهم سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأة وصبىّ ، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم حملهم فى السفن

---

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «إن النورقبيلة من القبائل الأسيوية كالقاجار الذين نسميهم الغجر والتاتار أو التتر ، وهم يعرفون بالشلخت فى النمسا وألمانيا ، وفى بلاد الانكليز اسمهم جبسون ، ويسميهم الترك باسم (قبط) وفريق منهم يسمى سنجانه وهم سكان تراقيا ، وفى مصر يسمون تارة غجرا وتارة حلبا» .

الى بغداد، فمرّوا على المعتصم بأبواقهم وهيئتهم الحربية، ثم نُقلوا آخر الامر الى قرية تسمّى عين زربة (١) .

وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٤١ هـ فى عهـد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة هذه، فأخذت من كان فيها أسيرا من الزط مع نسائهم وذراريهم ودوابهم .

٥ — ثورة مصـــر

أما مصر، فقد كانت مسرحا للقلاقل والفتن، وكان رأسُ الفتنة وزعيمها عبيـد الله ابن السَّرِىّ بن الحكم الذى عظم خطره باشتغال عبـد الله بن طاهر بمحاربة نصر بن شبث وإخضاعه، ومما زاد فى اضطراب النظام فى مصر قدومُ جماعةٍ من آفاقِ الأندلس الى الاسـكندرية ، يحدّثنا عنهـم الطبرى بقوله : حدّثنى غير واحدٍ من أهل مصر أن مراكبَ أقبلتْ من بحر الروم، من قِبَلِ الأندلس ،فيها جماعة كبيرة،أيام شُغل الناس قبلَهم بفتنة الجَرَوىّ وابن السَّرِىّ، حتى أرسَوْا مراكبَهم بالاسكندرية، ورئيسهم يومئذ يُدْعى أبا حَفْص، فلم يزالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر .

ويحـدّثنا عن الفتنة التى كانت بمصر بقوله : قال لى يونس بن عبد الأعلى : قدم علينا من قِبَلِ المشرق فتًى حَدَثٌ — يعنى عبدَ الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالبٌ ، والناس منهم فى بلاء، فأصْلح الدنيا، وأمَّن البرىء، وأخاف السقيم، واستوثقتْ له الرعيةُ بالطاعة .

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر فى مصر، فان التاريخ يحدّثنا أنه لما انتهى أمر نصر بن شَبَث، كما قـدّمنا، كتب المأمون الى عبـد الله يأمره بالتوجُّه الى مصر لإخماد ما فيها من فتنة، فذهب اليها، وجادّ الثائرين القتالَ، حتى اضطرهم جميعا الى طلب الأمان، فأجابهم اليه .

(١) ضـبطها ياقوت بفتح الزاى وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة وقال إنها بلد بالثغر من نواحى المصيصة بناها الرشيد سنة ١٨٠ هـ وندب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم إياها .

واما الأندلسيون الذين حضرت جماعة كبيرة منهم الى الإسكندرية، فقد طلبوا الأمان، على أن يرتحلوا عنها الى بعض أطراف الروم، فرحلوا الى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها.

وأما ما كان من ابن السري، فانه طلب الأمانَ الى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف، وانهزامه شرَّ هزيمة.

ولما أخمدت الفتنة فى مصر، وبلغ المأمونَ الخبرُ، كتب الى عبد الله يهنئه، وجعل فى أسفل كتابه أبياتا من الشعر، إن ثبت صدورها من المأمون حقا، ولم تكن من وضع القصّاص والرواة، فانها تعتبر آية فى كرم أخلاق المأمون. وقد ذكرناها فى علاقة المأمون مع عماله.

وقد كتب اليه أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئه بهذا الفوز كتابا بليغ اللفظ، رشيق الأسلوب، هذه نسخته: بلغنى، أعزّ الله الأمير، ما فتح الله عليك، وخروجُ ابنِ السَّرِى اليك. فالحمد لله الناصرِ لدينه، المعزِّ لدولة خليفته على عباده، المُذلِّ لمن عَنَدَ(١) عنه وعن حقه، ورَغِب عن طاعته، ونسأل الله أن يُظاهِر له النعم، ويفتح له بلدانَ الشِّرك، والحمد لله على ما وَلِيَك مذ ظَعَنْتَ لوجهك، فإنا ومَنْ قبلَنا نتذاكر سيرتَك فى حربك وسلمك، ونُكثِر التعجُّب لما وُفِّقتَ له من الشدّة والليان فى مواضعهما، ولا نعلم سائس جُند ورعيّة عَدَل بينهم عدلَك، ولا عفا بعد القُدرة عمن آسفه(٢) وأضغنه عفوَك، ولقلما رأينا ابنَ شرف لم يلقِ بيده متكلا على ما قدمتْ له أبوّته، ومَن أُوتِى حظًّا وكفايةً وسلطاناً وولايةً، لم يُخلِد الى ما عفا له حتى يَخلَّ بمُساماة ما أمامه، ثم لا نعلم سائسا استحق النُّجح لحسن السيرة، وكفّ معرّة الأتباع استحقاقك، وما يستجيز أحد ممن قِبَلنا أن يقدّم عليك أحدًا يَهوِى عند الحاقّة والنازلة المُعضلة، فَلْيهنِكَ منّة الله ومزيدُه، ويُسوِّغك

(١) عند عن الشيء: مال عنه وعدل.

(٢) آسفه: أغضبه.

اللهُ هذه النعمة التى حواها لك ، بالمحافظة على مابه تمّتْ لك ، من التمسك بحبل إمامك ، ومولاك ومولى جميع المسلمين، وملّاك و إيّانا العيش ببقائه، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعنـد من قِبلَنا مكرمًا مقـدّما معظّما، وقد زادك الله فى أعين الخاصـة والعامة جلالة وبجالة ، فأصبحوا يَرجُونك لأنفسهم ويُعدُّونك لأحداثهم ونوائبهم، وأرجو أن يوفقك الله لمحابّه، كما وفق لك صُنْعَه وتوفيقــه ، فقــد أحسنْتَ جِوَار النعمة، فلم تُطْغِـك ولم تَزِدْكَ إلا تذلّلا وتواضعا، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك، والسلام .

وقد خرج المأمون الى مصر فى ١٦ الحجة ســنة ٢١٦ هجرية ، أثر شخوصه الى دمشق للمرة الثانيــة . وكان خروجه الى مصر ، فيما يقول الرواة ، لإخماد ما قام فيها من فِتَنٍ واضطرابات، وذلك أن أهالى الوجه البحرى خرجوا ومعهم أقباطُ البـلاد على عيسى بن منصور عاملِ مصر، لسوء سِيرته فيهم، ولقُبح صَنِيعه معهم .

ويحـدّثنا التاريخ أن عيسى هـذا قد بَذَل ما فى مقــدوره لإخماد الفتنة والقضاء على الثورة، فلم يحالفه الظفَر، وأخرجه الثوار أقبح مُخرَج من البلاد، فقدِم القائدُ التركىُّ المعروف بالأفشين وعمِل على قمْع الفِتنة و إخمـاد الثورة، وقتل مَقْتلةً ذريعةً من الأهلين، فسكنت الفتنةُ الى حين .

ثم عادت الفتنــة ثانيــة واندلع لهيبها، واستدعت خطورتُها قدومَ المأمون الى مصر، فجاء اليها، ونظر فى شَكاةِ الأهلين، وعمِــل على إنصافهم، وسَخِط على عيسى بن منصور، ونَسَب اليه والى سيّء أعماله كلَّ ما حَدَث فى طول البلاد وعَرْضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثــورة المصرية لم تُخمَــدْ تمــاما ، وأنها تطلّبت من المأمون ، الى جانب ما أظهره من رغبــة فى إحقاق الحق و إجراء العدل، شيئا من الحزم واستعمال القوّة ، فجاد الثائرين القتالَ ، حتى أذعنوا أخيرا : ويقول المؤرخون : إنه لبث فى مصر أربعين يوما أو يزيد ، إذ قدمها فى الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ وبقى بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قضى هذه المدّة، الى جانب اشتغاله بحرب أهلها، بالتنقّل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سَنْجَار وحُلوان وغيرهما) .

ومن أعمـاله فى مصر تعمير مقياس النيـل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه الفسطاط . وعاد المأمون أخيرا الى دِمشق بعـد أن شهد المصريين وحربَهم وعدمَ احتمالهمْ ظلمَ الحكام والوُلاة .

٦ — بابك الخــرّمى

يخبرنا المؤرّخون أن بابك الخرمىّ، قد ظهر من كورة فى شمال بلاد فارس تُسمى «البذ»، وقد كان خروجه للدعوة إلى مذهبه الإباحىّ سنة ٢٠١ هـ، وكان المأمون لا يزال فى «مرو» قبـل أن ينتقل الى عاصمة ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة بابك عنيفةً، طِوَالَ عهد المأمون، وصدرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانىّ المروزىّ، فى كتاب الانساب "الخرّمىّ[(١)] هـذه النسبة الى طائفـة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدينيـة، قوم يدينون بمـا يريدون ويشتهون، وإنمـا لقبوا بذلك لاباحتهـم المحرّمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعـل مايتلذذون به، فلمـا شابهوا فى هـذه الاباحة المَزْدَكِيَّة من المجوس، الذين خرجوا فى أيام قُبَاذ وأباحوا النسـاء كلهنّ وأباحوا سائر المحـرمات، الى أن قتلهـم أنو شِروان بن قباذ، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية" .

وقبل أن نخوض فى تفصيـل حوادث هـذا الرجل، وما بذله المأمون، ثم المعتصم فى قتاله، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأفشين قائد المعتصم التركى سنة ٢٢١ هـ — قبـل كل هـذا، نحب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم فى فهرسـته عن مذهب الخرّمية البابكية وما يتعلق به، لتكون على بصيرةٍ من مذهب الرجل، وما كان يدعو اليـه من نِحلةٍ وبِدْعة .

(١) جاء فى القاموس وشرحه : « خرمة » كسكرة قرية بفارس منها بابك الخرمىّ الطاغية الذى كاد أن يستولى على الممالك زمن المعتصم . ثم قال : وتخرّم الرجل دان بدين الخرّمية أصحاب التناسخ والحلول والاباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخرمية صنفان : الخرمية الأولون ، ويُسمون المُحَمِّرَة ، وهم منتشرون بنواحى الجبـال فيا بين أَذْرَبيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وهَمَـذان ، ودِينَوَر ، وفيا بين أصفهان و بلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس فى الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطة ، وصاحبهم مزدك القديم ، أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساة والاختلاط ، وترك الإستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركةٌ فى الحُرَم والأهل لايمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . ومع هـذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتـل و إدخال الآلام على النفوس . ولهم مـذهب فى الضِّـيافات ليس هو لأحدٍ من الأمم : اذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شىء يلتمسه كائنا ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذى ظهر فى أيام قباذ بن فيروز وقتله أَنُوشِرْوان وقتل أصحابه . وخبره مشهور معروف . وقد استقصى البلخىّ أخبار الخرميـة ، ومذاهبهم ، وأفعالهم ، فى شربهم ولذاتهم وعباداتهم ، فى كتاب "عيون المسائل والجوابات" ولا حاجة بنا الى ذكر ما قد سبقنا اليه غيرنا »

«فأما الخرمية البابكية ، فان صاحبهم بابك الخُرَّمى . وكان يقول لمن استغواه : إنه إله . وأحدث فى مذاهب الخرميـة القتل والغصب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له فى بدء أمره حتى صار إمام هذه النحلة التى تنسب اليه نقلا عن واقد بن عمرو التميمى الذى عمل أخبار بابك ، فقال : وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهّانا ، نزع الى ثغر أذربيجان ، فسكن قرية تدعى «بلال أباد» من رُستاق (ميمند) ، وكان يحمل دهنه فى وعاء على ظهره و يطوف فى قرى الرستاق ، فهوى امرأة عوراء ، وهى أم بابك ، وكان يفجُر بها برهةً من دهره ، فبينما هى وهو مُتبذان عن القرية ، متوحِّدان فى غَيْضةٍ ، ومعهم شراب يعتكفان عليه ، إذ خرج من القرية نسوة يستقين المـاء من عين فى الغيضة ، فسمعن صوتاً نَبَطيا يُتَرَنَّم به فقصـدن اليه ، فهجمن عليهما ، فهرب

عبد الله وأخذن بشعر أم بابك، وجئن بها الى القرية وفضحنها فيها . قال واقد : ثم إن ذلك الدهّان رَغِب الى أبيها، فزوجه منها فأولدها "بابكا" . ثم خرج فى بعض سفَراته الى جبل سيلان واعترضه من استقفاه وجرحه فقتله، فمات بعد مُدَيْدَة. وأقبلت أم بابك تُرضع للناس بأجرة، الى أن صار لبابك عشر سنين، فيقال: أنها خرجت فى يوم من الأيام تلتمس بابكا، وكان يرعى بقرًا لقوم، فوجدته تحت شجرة قائلًا وهو عُرْيان، وإنها رأت تحت كل شعرة من صدره ورأسه دما، فانتبه من نومه، فاستوى قائما وحال مارأت من الدم فلم تجده قالت : فعلمت أنه سيكون لابنى نبأٌ جليل .

«قال واقد : وكان أيضا بابك مع الشبل بن المنق الازدى برستاق سراة، يعمل فى سياسة دوابّه، وتعلّم ضرب الطُّنْبو ر من غلمانه، ثم صار الى تبريز من عمل أذر بيجان، فاشتغل مع محمد بن الرواد الأزدى نحو سنتين ، ثم رجع الى أمه ، وله ثمان عشرة سنة ، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو : وكان بجبل البذ وما يليه من جباله رجلان من العلوج، متحرمين ولهما جِدَةٌ وثروة ، وكان متشاجرين فى التملك على من بجبال البذ من الخرمية ليتوحد أحدهما بالرياسة ، يقال لأحدهما « جاويدان بن سهرك » ، والآخر غلبت عليه الكنية يعرف « بأبى عمران » وكانت تقوم بينهما الحرب فى الصيف ، ويحول بينهما الثلوج فى الشتاء لانسداد العقاب . فإن جاويدان ، وهو أستاذ بابك ، خرج من مدينته بألف شاة، يريد بها مدينة زنجان من مدائن ثغور قزوين، فدخلها وباع غنمه وانصرف الى جبل البذ، فأدركه الثلج والليل برستاق ميمند، فعاج الى قرية "بلال أباذ"، فسأل جريرها إنزاله ، فمضى به ، بالاستخفاف منه بجاويدان، فأنزله على أم بابك وما تستبيت من ضَنْك وعُدْم ، فقامت الى نار فأججتها ، ولم تقدر على غيرها ، وقام بابك الى غلمانه ودوابّه يخدمهم وأسق لهم الماء، وبعث به جاويدان، فابتاع له طعاما وشرابا وعَلَفا واتاه به، وخاطبه وناطقه، فوجده، على رداءة حاله وتعقّد لسانه بالأعجمية، فهما ، ورآه خبيثا شهما، فقال لأمه : أيتها المرأة! أنا رجل من جبل البذ، ولى به حالٌ ويَسار، وأنا محتاج

الى آبنـك هذا، فادفعيه الىّ لأمضى به معى، فأوكّله بضـياعى وأموالى، وأبعث بأجرته اليك فى كل شهر خمسـين درهما؛ فقالت له: انك لشبيه بالخير، وان آثار السعة عليك ظاهرة، وقـد سكن قلبى اليك، فأنهضه معـك اذا نهضت. ثم إن أبا عمران نهض من جبـله الى جاويدان فحاربه فهزِم، فقتل جاويدان أبا عمران، ورجع الى جبله وبه طعنةٌ أخافتـه، فأقام فى منزله ثلاثة أيام ثم مات. وكانت امرأة جاويدان تتعشق بابكا، وكان يفجُر بها، فلما مات جاويدان، قالت له: إنك جَلْدٌ شهم! وقد مات! ولم أرفع بذلك صوتى الى أحد من أصحابه، فتهيأ لغد، فانى جامعتُهم اليك، ومُعلمتهم أن جاويدان قال: انى أريد أن أموت فى هـذه الليـلة، وإن روحى تخرُج من بدنى وتدخل فى بدن بابك وتشترك مع روحه، وانه سيبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلغْه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وانه يملك الأرض، ويقتُل الجبـابرة، ويردّ المزدكية، ويَعِزّ به ذليلكم، ويرتفع به وضـيعكم؛ فطمع بابك فيما قالت له، واستبشر به وتهيأ له. فلمـا أصبحت، تجمّع اليهـا جيش جاويدان، فقالوا: كيف لم يدعُ بنا ويُوصِ الينا! قالت: ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرّقين فى منازلكم من القرى، وأنه إن بعث وجمعكم انتشر خبره، فلم يأمن عليـكم شِرّةَ العرب، فعَهِدَ الىّ بما أنا أؤدّيه اليكم ان قبِلتموه وعملتم به؛ فقالوا لها: قولى ما عَهِد اليك، فانه لم تكن منا مخالفة لأمره أيام حياته، وليس منا مخالفةٌ له بعد موته؛ قالت: قال لى: إنى أموت فى ليلتى هذه، وان روحى تخرُج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى، وقد رأيت أن أملّكه على أصحابى، فاذا متُّ فاعلميهم ذلك، وإنه لا دينَ لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى؛ قالوا: قد قبِلنَا عهدَه اليك فى هذا الغلام! فدعت ببقرة فأمرت بقتلها وسلخها وبَسْط جلدها، وصيّرت على الجلد طستاً مملوءاً خمرا وكسّرت فيـه خُبزا، فصـيّرته حوالى الطست، ثم دعت برجل رجل فقالت: طَإ الجلد برجلك، وخذ كسرةً واغمِسها فى الخمر وكُلْها، وقل: آمنتُ بك يا رَوحَ بابك كما آمنتُ بروح جاويدان، ثم خذ بيد بابك فكفِّرْ عليها وقبِّلها، ففعلوا ذلك الى وقت ماتهيأ لها فيه طعام، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقعدته على فراشها وقعدت معه ظاهرةً لهم ، فلما شربوا ثلاثاً ثلاثاً ، أخذتْ طاقةَ ريحان ، فدفعتها الى بابك ، فتناولها من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهضوا وكفّروا لها رضًا بالترويج ، والمسلمون غريبهم ومواليهم .

* *

وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن النديم وغيره ، عن نشأة بابك ومذهبه وتعاليمه : إن الباعث الذى دفعه الى الخروج ، غير البواعث التى دفعت نصر ابن شَبَث فى الشأم ، وابراهيم بن المهدى فى بغداد ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا فى الكوفة ، وغيرهم : ممن كانوا منقادين بفكرة سياسية أو عامل جنسى ، وانما كان خارجا على النُظُم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهة نظر بغداد فى قتاله ومطاردته .

أجل ! لم تكن الغاية فى نظر بغداد من قتاله ، إخضاعَه لسلطان الخلافة ، حتى اذا أتيح لها إخضاعه رضيت عنه وكفّت القتال دونه ، وانما كانت الغاية التى ترمى إليها القضاء على مذهبه وتعاليمه الضارة بنُظُم الحياة والاجتماع .

وربما جاز لنا أن نقول : إن موقفه من الخلافة الاسلامية فى ذلك العصر أشبه شيء بموقف البلاشفة من الأمم المتحضرة فى عصرنا الحاضر .

وهاك ما فعله الخليفة المأمون مع بابك والبابكيين ، بعد ما عاثوا فى الأرض فسادا وأخافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمونُ لمحاربتهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيىٰ بن معاذ ، فكانت بينهما وقعة ، لم يُتَح الفوزُ فيها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسىٰ بن محمد ، فولّاه أرمينيةَ وأذربيجان ومحاربةَ بابك ، فنُكِب وفُشل . ثم وجّه اليه صَدَقة بن على المعروف بزريق ، وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافى ، فأسره بابك . ثم بعث اليه محمد بن حُمَيد الطوسى ، فقتله بابك سنة ٢١٤ هـ بهشتادسر وفض عسكره ، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه .

وهكذا كان أمر بابك : كلما وُجِّهت اليه حملةٌ هزمها ! لمكانه الحصين، وقوته الكبيرة، وشدة تأثيره فى قلوب أتباعه وأنصاره . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانشغاله بمناوأة الروم، حتى اذا شعر بدنو منيته كتب فى وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : «والخرّمية فاغزهم ذا حزامةٍ وصرامة وجَلَدٍ، واكنُفه بالأموال والسلاح والجنود، من الفرسان والرجالة، فان طالت مدّتهم، فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمَل فى ذلك مقدّمَ النية فيه، راجيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك، وكثر الداخلون فى مذهبه، فى أول عهد المعتصم (سنة ٢١٨ هـ). وما زال به المعتصم يجرّد اليه الحملات تلو الحملات، حتى انتهى أمره فى سنة ٢٢١ هـ بأسره وقتله « بسرّمن رأى » ، هو ورهطا من أتباعه، على يد قائد المعتصم التركىّ العظيم حيدر بن كاوس الأشروسنى المعروف بالأفشين .

* * *

٧ — مذاهب ونحل

ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن هذا العصر من العصور الاسلامية، قد كثر فيه الاختلاط بين أمم الشرق والغرب، فظهرت فى العالم الاسلامى مقالات دينية وفلسفية كثيرة غريبة، أشار اليها مؤرّخو الآراء والمذاهب، تجد طرفا منها فى فهرست ابن النديم، وطرفا فى كتب « الملل والنحل » ، وطرفا فى كتاب الأستاذ «برون» الذى وضعه عن « تاريخ الفرس الأدبى » ففيه شىء عن المانية[1] وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعرّى عند هذه الآراء والمذاهب فى « رسالة الغفران » وقفة ممتعة .

---

(١) المانية واتباعها يقال لهم المانوية هى النحلة التى أتى بها مانى من وجود إلهين إله الخير وإله الشر ، وكان وجوده قبل الاسلام بمدة طويلة، وقد اعتبر زنديقا وقتل وسلخ وحشى جلده وعلق على أحد أبواب نيسابور ويعرف بباب مانى، ولكن نحلته لم تكن تعدم أنصارا بعد موته، فكانت تظهر ويتبعها أناس فى فترات مختلفة :

وكم لظلام الليل عندك من يد ＊ تخبّر أنّ المانوية تكذب

وقاك ردى الأعداء تسرى إليهم ＊ وزارك فيه ذو الدلال المحجب

على أنا لا نحب أن نَعرِض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل ؛ لأنا نُحس إحساسا صادقا ، وربما كنا فيه على حق ، أن الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال غامضا ، لقلة النصوص وعدم غَنَاء المصادر وكفايتها . ونظنّ أن الاحتياط فى مثل هذا الموقف أسلم وأبقى . وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقا ، أن يتجرّد لمثل هذا البحث الممتع النافع ، بعض الذين يُعْنَون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية فى الاسلام .

*
* *

٨ — افتراضات

أمّا وقد انتهينا من كلمتنا الموجزة عن السياسة الداخلية فى عصر المأمون ، فقد حق علينا أن نتساءل : لماذا مكث المأمون شطرًا طويلا من سنى حكمه فى خراسان دون بغدادِ عاصمة الخلافة الاسلامية ؟

أمّا أن نزعم لك أنا سنجيبك إجابة دقيقة مقنعة ، فهذا ما لا نقبله لك ولا لأنفسنا . لأن المصادر التى بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب فى ذلك .

إذن فسنقدم لك آراءً لنا فى هذا الصدد ، يجدر بنا أن نعتبرها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل .

نفترض أن الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل ، وخَوَلَهُم حولَهُم وسلطانُهم سلطانهم ، آثروا بقاء المأمون فى "مرو" عاصمة خراسان حيث تجبى أموال الدولة اليه ، ليكون نصيبُ البقاع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوفر .

ونفترض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساسا ، ربما كان صادقًا ، أن كِبَار رجالات الدولة من العرب القاطنين بغداد ، لم يكن هواهم مع دولته الفارسية الطابَع والميول ، وأنهم كانوا لذلك يخشون النزوحَ الى بغداد قبل لَمّ شعثهم وتقوية سلطانهم .

ونفترض أنهم آثروا القرب من الولايات التى تمدّهم بجندها ورجالها ، كما آثروا أن يكونوا فى أوساطهم الفارسية التى من مصلحتها نصرة المأمون وتوطيد دعائم ملكه ، والعمل على خذلان مناوئيه .

هذه افتراضات رأينا أن نقدها لك لتتأمل فيها . فربما كان بعضها سائغا معقولا ؛ على أن تكون حذرا كل الحـذر ، فلا تتورّط فى اعتبار كل فرض سائغ معقول ، لازمَ الوقوع فى التاريخ . فكثيرا ما يقع فى التاريخ غير المعقول من الحوادث !

* * *

(ج) السياســـة الخارجيــــة :

نعتقد أن الوقت لم يَأْنِ بعـدُ ، لدرس السياسـةِ الخارجيةِ فى أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التى تناقلها المؤرخون، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التى كانت العلاقات متصلة بينها و بين المسلمين، كما كانوا متأثرين بالحرص على رفع شأن الدولة الاسلامية، والتنويه بمجدها وسلطانها؛ فاضطرّها هذا كله الى الغلوّ حينا، والى التقصير حينا آخر .

ولم يظفر البحث بعدُ بنصوص تاريخيةٍ واضحةٍ معاصرةٍ، كتبت فى غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) جادّون فى التنقيب على النصوص والآثار التى تجلو تاريخ هـذه الدولة فى القرون الوسطى فهم لم يصلوا بعدُ ، الى شىء ذى غَناءٍ فيما يَمَسّ علاقتها بالدول الاسلامية . فأما الأمم الشرقيـة الأُخَر التى كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنـا شيئا ؛ أو لم نظفَـرْ من آثارها التاريخيـة بشىءٍ ذى قيمةٍ . واذًا فنحن مضطرون الى أن نعتمد اعتمادا مؤقتا، ملؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العـــرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية فى عصر المأمون كانت تنقسم الى قسمين متمايزين : الأوّل سياسته مع دولٍ إسلاميةٍ مستقلةٍ عن الخلافة . والثـانى سياسته مع دولٍ أجنبية غير إسلامية .

وليس هناك شكٌّ فى أن سياسة المأمون، مع الدول الاسلامية المستقلة، كانت واضحةً بيِّنة الأسلوب ؛ فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائما أن المسلمين جميعا يجب أن يُذْعِنوا لسلطانها، وإذاً فلم تعترف، فى وقتٍ من الأوقات، باستقلال الأمويين فى الأندلس، ولا الأدارسة فى المغرب الأقصى، وانما اعتبرتهم بُغاةً، وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها، فعلا أو اسما، فاضطرت الى أن تتقيهم من ناحيةٍ، وتؤلِّب عليهم من ناحيةٍ أخرى .

على ذلك نستطيع أن نفهم تشجيعها دولة بنى الأغلب فى إفريقية وعطفها عليها؛ فقد كانت هذه الدولة تستمتع بشىءٍ من الاستقلال غيرِ قليل ، وتظفر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامىّ الذى يردّ عن الخلافة غاراتِ هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نستطيع أن نفهم هذا ، وأن نفهم أيضا ما نلمحه لمحا فى القصص من اتصال علاقات ودّية بين بغداد وملوك الفرنج الذين كانوا يناوئون بنى أمية فى الأندلس .

أما القسم الثانى من السياسة الخارجية، فينقسم أيضا الى قسمين : أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان المسلمين، كالترك والديلم . وهذه السياسة واضحة أيضا ، على قلة النصوص، فقد كانت سياسة توسع وبسطٍ للسلطان، ولكن فى احتياطٍ وتحفظٍ ومصانعة . وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذ، تسلك فى استغلالها واتقائها عند الحاجة ، طريقا كلها حكمة وفطنة . فبينما نراها تهاجم فتفتح وتأسر، نراها مرة أخرى موادعة محالِفة مستخدمة . وهى تستفيد فى الحالين . ولكنك تعلم حق العلم ما أنتجته هذه السياسة ، آخر الأمر ، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعبثهم بعظمة الخلافة .

والقسم الثانى هو سياسة الخلافة مع قياصرة « قسطنطينية » . وهذا القسم هو الذى نستطيع أن نقول ، فى غير تردّدٍ، انه احتاج حقا الى جهود الخلفاء وكفاياتهم . فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينية» و«دمشق» أيام الأمويين وبينها وبين «بغداد» أيام العباسيين، شديدة الاضطراب والتعقد، لاتكاد تستقر على حال، وانما هى حربٌ حيناً وسلمٌ حينا آخر.

ومهما يكن من شيء، فقد كانت القاعدة الأساسية لهذه السياسة، أن الحرب هى الحال الطبيعية بين الدولتين، فأما السلم فحال عارضة؛ ولذلك كانت تسمى دائمـا هدنةً. وربما كان من المعقول أن تقول: إن أصحاب «قسطنطينية» و «بغداد» كانوا يضطرون اليها اضطرارا.

غزو المأمون للروم

قدمنا لك فى الكلام عن بابك الخرمى أن المأمون أرسل اليه آخر حملة، بقيادة محمد ابن حميد الطوسى سنة ٢١٢ هـ، وأن هـذه الحملة باءت بالهزيمة والفشل، كما باء غيرها، ممـا سبقها من حملات، وأن المأمون انصرف عن بابك مؤقتا، لاشتغاله بغزو الروم الذين يعلل بعضهم سبب تحفز المأمون الى غزوهم، بعد أن ظل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء ست عشرة سنة، بما تأكده المأمون من مشايعتهم لبابك وإمدادهم إياه بالمعونة.

ويقول الأستاذ «ميور»، فى بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة والروم، وعدم انتهاز المسلمين فرصـة الثورة، التى نشبت فى بلاد الروم بين «توماس» و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى: "إنه لا شك أن تريث العرب عن اقتحام بلاد الروم، فى ذلك الوقت، يرجع الى أن بطـريق أنطاكية ببـلاد سوريا، كان قد توج توماس امبراطورا، ولو نجح فى تأميره وسلطانه، لكفى العربَ مؤونةَ القتال، ولكان توماس هـذا تابعا لخليفة المأمون".

على أن المأمون قد شخص سـنة ٢١٥ هـ الى بلاد الروم ليغزوها سالكا اليهـا طريق الموصـل، ثم منبج، ثم دابق، ثم أنطاكية، ثم المصيصـة، ومنها خرج الى طرسوس، وهى الثغر الاسـلامى، ومن طرسوس دخل بلاد الروم، فى منتصف جمـادى الأولى (يوليو سـنة ٨٣٠ م)، ففتح وغنم كثيرا من الحصون، ثم شخص الى الشام. وورد عليه

فى دمشــق الخبر بأن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكرّة الى بلاد الروم، وكان الظفَر والتوفيق حليفَه فى هذه الكَرّة أيضا .

وفى المدّة التى قضاها المأمون بين مصر ودمشق، بدأت المناوشات بين عمّــاله وملك الروم ، ثم اشتدّت حتى اضطُرّ الى أن يشخَصَ الى بلاد الروم للمرّة الثالثــة، وهى المرّة التى تُوفّى فيهــا .

وفيما هو سائر إليها ، معتزما تحقيق خطةٍ رسمها لنفسه ، إذ يقول : أُوجّه الى العرب، فآتى بهــم من البوادى ، ثم أُنزلهم كل مدينــةٍ أفتتحها ، حتى أضرب الى القسطنطينية، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل اليــه كتاب مولاه، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهــذه نسخته، فيما يقول الرواة العرب : "أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظّهما، أولى بهما فى الرأى ممــا عاد بالضرر عليهما . ولستَ حَرِيًّا أن تدعَ لِحَظٍّ يصل الى غيرك حظًّا تحوزه الى نفسك ، وفى علمك كاف عن إخبارك .وقد كنتُ كتبتُ اليك، داعيًا الى المسالمة، راغبًا فى فضــيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كلّ واحدٍ لكل واحد وليا وحزبًا، مع اتّصال المَرَافق، والفسْح فى المتاجر، وفكّ المستأسر، وأمن الطرقِ والبَيْضة. فان أبيتَ، فلا أدِبّ لك فى الخَمَر[1]، ولا أزخرف لك فى القول، فإنى لخائضٌ اليك غمارَها، آخذٌ عليــك أسْدادَها ، شانٌّ خيلَها ورجالَها . وان أفعلْ فبعد أن قدّمتُ المعذرَة، وأقمتُ بينى وبينك عَلَمَ الحجة . والسلام " .

أما ردّ المأمون عليه فيقول المؤرّخون العرب إنّ نسخته كانت : "أما بعد، فقد بلغنى كتابك فيما سألتَ من الهدنة، ودعوتَ اليه من الموادعة، وخلطتَ فيه من اللين والشدّة، مما استعطفتَ به من شرح المتاجر، واتصالِ المرافق، وفكّ الأسارى، ورفع القتل والقتال. فلولا ما رجعتُ اليــه من إعمــال التؤدة والأخذِ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألّا أعتقد

---

(١) الخمر : (بالتحريك) ما وارى الشخص من شجر وغيره . يقال : دب له فى الخمر اذا تخفى له ليختله .

الرأىَ فى مستقبلة إلا فى استصلاح ما أوثر فى مُعْتَقَبه ، لجعلتُ جواب كتابك خيلًا تحمل رجالًا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثُكلكم ، ويتقربون الى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شَوْكتكم ، ثم أُوصل اليهم من الأمداد ، وأُبلغ لهم كافيًا من العُدّة والعَتاد ، هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرّتهم عليكم ، موعدُهم إحدى الحُسْنَيَيْنِ : عاجلُ غَلَبة ، أو كريم مُنْقَلَب . غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يُثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية ، والشريعة الحنيفيّة ؛ فان أبيت ، ففِـدْية توجب ذِمة ، وتثبت نَظِرة . وان تركت ذلك ، ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراقِ فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى » .

*

(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاجلتِ المنيةُ المأمون ، دون تحقيق خطتِه ، بموضع يقال له « البـدَندون » بين « لؤلؤة » و « طَرَسُوس » . وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ ﻫ وسنه ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون وولاته ، فيقول اليعقوبىّ : وكان الغالب عليه فى خلافته ذو الرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن يوسف . وكان على شُرْطته العباس بن المسيَّب بن زهير ، ثم عزله وولّى طاهرَ بن الحسين ، ثم عبدَ الله بن طاهر الذى استخلف اسحاق بن ابراهيم ببغداد ، فوجه اسحاق بأخيه خليفة له على شرطته . وكان على حرسه شَبيب بن حُميد بن قَحْطَبة ، ثم عزله وولّاه قُومَس ، واستعمل مكانه هَرْثمة بن أعْين ، ثم عبد الواحد بن سلامة الطحلاوى ، قرابة هرثمة ، ثم علىّ بن هشام ، ثم قتله وولّى عُجَيف بن عَنْبسة . وكانت حِجابتُه الى أحمد ابن هشام ، وعلىّ بن صالح صاحب المصلّى . قال : وخلّف من الولد الذكور ستة عشر

ذكرا، وهم محمد، واسماعيل، وعلىّ، والحسن، وابراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، واحمد، والعباس، والفضل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر، وهو ابن معللة وتوفى فى حياته، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادىّ .

أما صاحب « نهاية الأرب » ، فقد ذكر فى الجزء العشرين من كتابه : أن حُجّابه هم عبد الحميد بن شَبَث ، ثم محمد وعلى ابنا صالح مولى المنصور ، ثم اسماعيل بن محمد بن صالح . وذكر أن قُضاته هم : محمد بن عمر الواقدىّ، ثم محمد بن عبد الرحمن المخزومىّ، ثم بشر ابن الوليد . وكان نقش خاتمه، فيما ذكره المسعودىّ فى التنبيه والإشراف : « الله معه عبد الله به يؤمن » .

⁂

وقد يكون من المفيد لنا ، من وجهة نظر التاريخ المصرىّ ، أن نقف على ولاة مصر وقضاتها فى عهد المأمون ، وذلك ييسره لنا كتابان مُمْتِعان وافيان فى هذا الموضوع ، وهما كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى الأتابكى وكتاب « الولاة والقضاة » الذين وليا أمر مصر وقضاءها للكِنْدىّ . ونحن ذاكرون لك هؤلاء الولاة والقضاة على وجه الاختصار :

أما الولاة فهم : مالك بن دلهم، وحاتم بن هرثمة، وجابر بن الأشعث، وعباد بن محمد، والمطلب بن عبد الله، والعباس بن موسى، والسرىّ بن الحكم، وسليمان بن غالب، ومحمد السرىّ، وعبيد الله بن السرىّ، وعبد الله بن طاهر، وعيسى بن يزيد، وعمير بن الوليد، وعبدويه بن جبلة .

ولقد حدثنا المؤرخون فى أيامه عما سمى فى مصر بالبدع المأمونية الأربع : فالبدعة الأولى منها هى لبس الخُضْرة وتقريبُ العلويّة وإبعادُ بنى العباس . والثانية القول بخلق القرآن . والثالثة ما كتبه المأمون الى نائبه ببغداد أن يأخذ الجند بالتكبير اذا صلّوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون فى هذه السنة وهى سنة ٢١٥ هـ «المُتعة» فقال الناس : هـذه بدعة رابعـة ، وبعد ولاية ابن جبلة هـذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن عبد الله، وشهرته كيدر، والمظفر بن كيدر .

أما قضاة مصر فى عهـده فهم : عبد الرحمن العمرى ، وهاشم بن أبى بكر البكرى ، وابراهيم بن البكاء ، ولهيعة بن عيسى الحضرمى ، والفضـل بن غانم ، وابراهيم بن اسحاق العارى ، وعطاف بن غزوان ، وجعله عبد الله بن طاهر على المظالم ، وبعدئذ ولى القضاء من قبله عيسى بن المنكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أمّا معاصروه ، فقد كان يعاصره فى الأندلس الحَكَم بن هشام ، ثالث أمراء بنى أمية ، ثم ابنه عبد الرحمن . وفى عهدهما سمعنا رأى الأندلس ، فى القول بخلق القرآن ، فقد قال أبو خلف المعافرى :

لَا والذى رَفَـع السما * ءَ بلا عمـاد للنظـرْ
ما قال خلقٌ فى القُرا * نِ بخلقه الا كَفَر
لكن كلام منزّلٌ * من عند خلّاق البشر

وكان يعاصر المأمون فى بلاد المغرب الأقصى : ادريس بن ادريس بن عبدالله ، ثم ابنه محمد بن ادريس . ويعاصره فى إفريقيا من بنى الأغلب : عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم ، فاتح صِقلّية . ويعاصره فى فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم «لويز الأول» الملقب باللين . ويعاصره فى القسطنطينية « ليون الأرمنى » و « ميخائيل» الملقب بالتمتام ، ثم ابنه «توفيل» .

أما صفته فهى ، كما ذكرها صاحب «نهاية الأرب» ، « كان المأمون ربعة ، أبيض ، طويل اللحية ، رقيقها قد وخطه الشيب . وقيل : كان أسمر ، تعلوه صفرة ، أجْنى ، أعْين ، ضيق الجبهة ، بخدّه خال أسود» وكذلك وصفه الطبرى وغيره .

ولما حضرته الوفاة أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلل بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس بأن الثانى كان متغيبا عنه ساعة وفاته .

ولقد أثبتنا لك فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث وصيته التى أوصى بها حين مماته ، لقيمتها التاريخية ، ولأنها توضح بعض آرائه ، وتفصح عن السر فى بعض تصرفاته ، فراجعها ثمة .

الفصل الخامس

الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون

تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبى خالد — وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكثم — وزارات أخرى — الجند والقواد فى عصر المأمون — القضاة وديوان المظالم .

(أ) توطئـــة :

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكانتها فى العصر العباسى ، فقد تعرض لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ «برون» فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى ، والمؤرخ ابن طباطبا فى الآداب السلطانية ، وانما قصارى ما نرمى اليه ، كتابة فذلكة موجزة عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى نقف بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع ، عن العصر الذى تصدرنا للكتابة عنه ، ومكانة رجالاته البارزين فيه ، فنقول :

١ و ٢ — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن

يحدثنا التاريخ أن أول وزراء المأمون الفضلُ بن سَهْل ، وهو من رجال جعفر البرمكى ، فلا غرو اذا نزع فى سياسة الملك منزعَ البرامكة ، ولا غرو اذا ائتمّ بهم وتلا تِلْوهم فى تدبير أمور السلطان ، ولا غرو اذا كانت دولة بنى سهل غرّة فى جبين الدهر ، ودرّة على مَفْرِق العصر ، لأنها كانت ، كما يقول الفخرى ، مختصرَ الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فان المظان التاريخية والأدبية تحدثنا أن جعفرا البرمكىّ لما عزم على استخدامه للأمون ، وصفه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشـيد : أوصلْه الىّ ، فلما وصل اليه أدركتْه حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرَ منكِرٍ

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمير المؤمنين، إن من أعدلِ الشواهد على فَرَاهة المملوك أن يملك قلبَـه هيبةُ سيده، فقال الرشيد : لئن كنت سكتَّ لتصوغ هـذا الكلام، فلقد أحسنت، وان كان بديهةً إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعـد ذلك عن شيء إلّا أجابه بما يصدِّق وصفَ يحيي له .

ويروى لنـا أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ، وهو كما تعلم، شيخ من مَشْيَخةِ الأدب والبيان فى عصرنا المأمونى، فى كتابه «الحيوان» : أن جعفرا الضبي، وصف الفضل بن سهل بقوله : أيها الأمير ، أسكتنى عن وصفك تَسَاوِى أفعالك فى السؤدُدِ، وحيَّرنى فيهـا كثرةُ عددها، فليس الى ذكر جميعها سـبيل، وإن أردتُ وصفَ واحدة ، اعترضتْ أختُها إذ لم تكن الأولى أحقَّ بالذكر، ولستُ أصفها إلا باظهار العجز عن وصفها .

ويقول ابن طباطبا : إن الفضل كان سخيا كريما، يجارى البرامكة فى جوده، شـديد العقوبة، سهل الانعطاف، حليا بليغا ، عالمـا بآداب الملوك، بصـيرا ، جيـد الحَدْس ، محصِّلا للأموال، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفضـل بن سهل يتشيّع كمذهب غالب الفـرس، وكانت له إصابة حسنة، بعـلم النجوم كما أسلفنا لك القول فى كلمتنا عن المأمون فى صِباه، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسـين علىّ بن أحمـد السلامى فى تاريخ ولاة خراسان : أن المأمون لمـا عزم على إرسال طاهر بن الحسين الى محاربة أخيه محمد الأمين، نظر الفضلُ بن سهل فى مسألته، فوجد الدليـل فى وسط السماء، وكان ذا يمينين، فأخبر المأمون بأن طاهرا يظفـر بالأمين ويلقَّب بذى اليمينين، فتعجب المأمون من إصابة الفضل ولقَّب طاهرا بذلك .

وكان الفضـل بن سهل شبيها بأساتذته البرامكة فى رِفْد الشـعراء، وتشجيع الشعر ، وكان منتجعَ القُصّاد منهـم قبل وزارته، فان كتب الأدب تحدثنا أن مسـلِم بن الوليد ، قال فيه حين ذاك، وكان من ندمائه وسمّاره :

وقائــلٍ ليستْ له همــةٌ * كلا ولكن ليس لى مالُ
وهمة المُقْــتِرِ أمْنيَــةٌ * هَوْنٌ على الدهرِ وأثقالُ
لا جِدَةٌ يَنْهَض عزمى بها * والنــاس سُؤَّال وبُخَّالُ
فاصبر على الدهرِ الى دولة * يرفع فيهــا حالك الحــالُ

ويقول لنا الفخرى : إن الفضــل لمــا علتْ حالُه وتولّى الوزارة ، قصــده مسلم بن الوليد، فلما رآه سُرَّ به، وقال له : هذه الدولة التى يرفع فيها حالك الحال، وأمر له بثلاثين ألف درهم، وولّاه بريد جُرْجان، فاستفاد مِنْ ثَمّ مالًا طائلا .

ويحدثنــا ابن خِلِّكان : أن الفضل بن سهل، قال يوما لثُمَامةَ بن الأشْرَس المتكلم المعروف : ما أدرى ما أصنع بطلّاب الحاجات، فقــد كثُروا علىّ وأضجرونى! فقال له : زُلْ عن موضــعك ، وعلىّ ألّا يَلْقاكَ أحدٌ منهــم ! فقال : صــدقت ! وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بخراسان وأشْفَى على التّلَف ، فلما أصاب العافية ، جلس للناس فدخلوا عليــه وهنئوه بالسلامة وتصرّفوا فى الكلام ، فلمــا فرغوا من كلامهم أقبــل على الناس وقال : إن فى العِلَل لنِعَمًا لا ينبغى للعقلاء أن يجهلوها : تمحيص الذنوب، والتعرّض لثــواب الصــبر، والإيقاظ من الغفلة ، والإذكار بالنعمة فى حال الصحة ، واســتدعاء التوبة، والحضّ على الصدقة .

وقد مدحه جماعة من أعيان الشعراء، وفيه يقول ابراهيم بن عباس الصُّولىّ :

للفَضْــل بن سهل يدٌ * تقاصرَ عنها المَثَــلْ
فنــائلُهــا للغــنى * وسَــطْوتُها للأجلْ
وباطنُهــا للنَّــدَى * وظــاهرُها للقُبَــلْ

ويقول ابن خلكان : إنــ ابن الرومىّ أخذ من قول الصُّولى هــذا مِدحتَــه التى صاغها فى الوزير القاسم بن عُبَيد الله التى فيها :

أصبحتُ بين خَصَاصة وتجمُّل * والحرّ بينهما يموت هزيلا

فامدُدْ الىَّ يدًا تعوّد بطنُها * بذلَ النوال وظهرُها التقبيلا

وفيه يقول آخر :

لعَمْرُك ما الأشراف فى كل بلدةٍ * وان عَظُموا للفضلِ إلا صنائعُ

ترى عظماءَ الناس للفضل خُشَّعًا * اذا ما بدا والفضلُ للهِ خاشع

تواضع لما زاده اللهُ رفعةً * وكلُّ جليلٍ عنده متواضعُ

وحكى الجهشيارى : أن الفضل بن سهل أصيب بابن له يقال له العباس فجزع عليه أشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوى وأنشده :

خيرٌ من العباسِ أجرُك بعدَه * واللهُ خيرٌ منكَ للعبّاسِ

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :

لو نطق الناسُ أو أنْبَوْا بعلمهمُ * ونبّأتْ عن معالى دهرِك الكتبُ

لم يبلغوا منكَ أدنى ما يمتّ به * اذا تفاخرتِ الأملاكُ وانتسبُوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم .

وانه ليلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين كانوا يمتدحون البرامكةَ — وما أكثرهم — هم بأنفسهم الذين امتدحوا آلَ سهل ، واتخذوا منهم برامكة آخرين . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم فى امتداحهم واظهار قوتهم واستفحالِ سلطانهم ، بعض الأثر فى نكبتهم ، لأنه غير معقول ألبتةَ أن يمرّ على المأمون قول مثل قول القائل :

أقمتَ خلافةً وأزلتَ أخرى * جليلٌ ما أقمتَ وما أزلْتَا

من غير أن يترك فى نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال فى نفس الرشيد ، ومهما قيل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعة صدره فان النفس الانسانية هى هى .

وقد مرّ بك فيما أجملناه لك من الحوادث التى وقعت فى حكم المأمون، أنه جعل فى سنة ٢٠١ هـ علىّ بن موسى العلوى ولىّ عهد المسلمين والخليفة من بعده، وسمّاه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه أمر جنده بطرح السواد ولبس الخُضرة وبيّنا ما كان لذلك من ثورات وفتن لم تهدأ إلا بعد أن عاد الى مقرّ ملكه، وأعلم آله وأنصارَه بوفاة الرضا، وعاد الى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ونريد الآن أن نشير هنا الى ما كان من الفضل بن سهل فيما نحن فى صدده، ونعتمد على ما رواه الطبرىّ، قال : إن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلوىّ أخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قُتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وإن أهل بيته والناس قد نَقَمُوا عليه أشياء، وإنهم يقولون : إنه مسحور مجنون، وإنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمّه ابراهيم بن المهدى بالخلافة، فقال المأمون : انهم لم يبايعوا له بالخلافة، وانما صيّروه أميرا يقوم بأمرهم، على ما أخبر به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذَبه وغشّه، وأن الحرب قائمة بين ابراهيم والحسن ابن سهل، وأن الناس يَنْقِمون عليك مكانه ومكانَ أخيه، ومكانى ومكانَ بَيْعتك لى من بعدك، فقال : ومن يعلم هذا من أهل عسكرى ؟ فقال له : يحيى بن مُعاذ، وعبد العزيز ابن عِمْران، وعدّة من وجوه أهل العسكر، فقال له : أدخلهم علىّ حتى أسائلهم عما ذكرت، فأدخلهم عليه، وهم يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وموسى، وعلى بن أبى سعيد، وهو ابن أخت الفضل، وخَلَف المصرىّ، فسألهم عما أخبره، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمانَ من الفضل بن سهل، ألّا يَعْرِض لهم، فضمن ذلك لهم، وكتب لكل رجل منهم كتابا بخطّه ودفعه اليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن، وبيّنوا ذلك له، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقوّاده عليه فى أشياء كثيرة، وبما موّه عليه الفضلُ، من امر هَرْثمة، وأن هرثمة انما جاء لينصحه وليبيّن له ما يعمل عليه، وانه ان لم يتدارك أمرَه خرجت الخلافةُ منه ومن أهل بيته، وإن الفضل دسّ الى هرثمة من قتله، وأنه

أراد نصحه، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى، وافتتح ما افتتح، وقاد اليه الخلافة مَزْمومةً حتى اذا وطّأ الأمر أُخرج من ذلك كلّه، وصيِّر فى زاوية من الأرض بالرَّقّة، قد حُظِرت عليه الأموال حتى ضعُف أمرُه، فشغَب عليه جندُه، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملكَ ولم يُجترأ عليه بمثل ما اجتُرِئ به على الحسن بن سهل، وان الدنيا قد تفتّقتْ من أقطارها، وان طاهر بن الحسين قد تُنوسى فى هذه السنين، منذ قُتل محمد فى الرقة، لا يستعان به فى شىء من هذه الحروب، وقد استعين بمن هو دونه أضعافا، وسألوا المأمونَ الخروجَ الى بغداد، فان بنى هاشم والموالى والقوّاد والجند لو رأوا غرَّتك سكنوا الى ذلك، وبخَعوا بالطاعة لك. فلما تحقق ذلك عند المأمون، أمر بالرحيل الى بغداد. فلما أمر بذلك علم الفضلُ بن سهل ببعض ذلك من أمرهم، فتعنّتهم حتى ضرب بعضَهم بالسياط وحبس بعضا ونتَف لِحَى بعض، فعاوده علىّ بن موسى فى أمرهم، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم، فأعلمه أنه يُدارِى ماهو فيه، ثم ارتحل من مَرْو، فلما أتى سَرَخْس، شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو فى الحَمَّام فضربوه بالسيوف حتى مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خَلَتَا من شعبان سنة ٢٠٢ فأُخذوا، وكان الذين قتلوا الفضل من حَشَم المأمون، وهم أربعة نفر: غالبٌ المَسْعودى الأسود، وقُسْطَنْطِين الرّومى، وفَرَجُ الدَّيْلَمِى، وموفّق الصَّقلِّى، وقتلوه وله ستون سنة وهرَبوا، فبعث المأمون فى طلبهم وجعل لمن جاء بهم عشرةَ آلاف دينار، فجاء بهم العباس بن الهَيْثَم بن بُزُرجَمْهر الدِّينَوَرِىّ، فقالوا للمأمون: أنت أمرتَنا بقتله، فأمر بهم فضُرِبتْ أعناقهم، وقد قيل: إن الذين قتلوا الفضل، لما أُخذوا سألهم المأمون، فمنهم من قال: إن على بن أبى سعيد بن أخت الفضل دسَّهم، ومنهم من أنكر ذلك. وأمر بهم فقُتلوا، ثم بعث الى عبد العزيز بن عمران وعلى وموسى وخَلَف، فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشىء من ذلك، فلم يقبل ذلك منهم، وأمر بهم فقُتلوا، وبعث برءوسهم الى الحسن بن سهل فى وَاسط، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صيّره مكانه. وتزوج المأمون من ابنته بُوران، وأظهر الحسن فى حفلة

زواجها من الكرم الخارق ، والجود الحاتمى ، ما دعا المأمون الى أن نسبه فيه الى السَّرَف، ولقد قدِمَ على الحسن بن سهل شاعر يلتمس صِلته وعارفته ، فآشتغل عنه مُدَيدةً فكتب اليه :

المـال والعقل مما يُستعان به * على المُقَام بأبواب السلاطين
وأنت تعلم أنى منهما عَطِلُ * اذا تأملتــنى يابن الدَّهَاقين
أمّا تدلّك أثوابى على عَدَمى * والوجهُ أنى رئيسٌ فى المجانين
والله يعلم ما للمُلْكِ من رجل * سواكَ يصلح للدنيـا وللدين

فقيل : إن الحسن أمر له ، بعشرة آلاف درهم ، ووقّع فى رقعته :

أعجلتَنـا فأتاك عاجلُ بِرّنا * قُلًّا ولو أنظرتَنـا لم يُقْلَلِ
فخذ القليل وكُنْ كأنك لم تَسَلْ * ونكون نحن كأننـا لم نُسْأَلِ

ويظهر لنا ممـا قرأناه عن الحسن بن سهل فى أمالى أبى على القـالى وغيره من مظان الكتب الأدبية، أن له بصرا بالأدب عظيما، ومكانة فى الكتابة سامية، ولحظا بأفانين القول ومَناحيه وفيرا .

فقد رُوى عنه أنه كتب الى محمد بن سَمَاعةَ القاضى: «أما بعد، فانى احتجتُ لبعض أمورى الى رجلٍ جامع لخصال الخير، ذى عفةٍ ونَزَاهة طُعْمةٍ(١)، قد هذّبتـه الأخلاق ، وأحكمتـه التجارب ، ليس بظَنِين فى رأيه ، ولا بمطعونٍ فى حسبه ، إن آؤتمن على الأسرار قام بهـا ، وان قُلّد مُهمّا من الأمور أجزأ فيه ، له سنٌّ مع أدب ولسان ، تُقعِـده الرزانة ، ويسكّنه الحلم ، قد فُرَّ عن ذكاء وفطنة ، وعضّ على قارحة من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السَّكتة ، قـد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحُمِد فيها ، له أَنَاة الوزراء ، وصَوْلة الأمراء ، وتواضع العلمـاء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نَصيبَ يومه بحرْمان غده ، يكاد يسترق قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه وحسنِ بيانه ، دلائلُ الفضل عليه

(١) الطعمة بضم الطاء وكسرها : وجه الكسب الطيب أو الخبيث .

لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعًا بما استُنهض ، مستقلاً بما حُمّل ، وقد آثرتك بطلبه ، وحَبَوْتُك بارتياده ، ثقةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تأتّيك » .

ويقول ابن طباطبا : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس منزلةً عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان اذا حضر عنده طاوله فى الحديث ، وكلما أراد الانصراف منعه ، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقلت عليه الملازمة ، فصار يتراخى عن الحضور بمجلس المأمون ، ويستخلف أحد كتّابه ، كأحمد بن أبى خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عَرَضتْ له سَوْداءُ كان أصلها جَزَعَه على أخيه ، فكانت سببَ انقطاعه فى داره واحتجابه عن الناس ، وقد هجاه حين ذاك بعض الشعراء فقال :

تولَّتْ دولةُ الحسن بن سهل * ولم أبْلُلْ لَهَاتِى من نَدَاها
فلا تجزعْ على ما فات منها * وأبكى الله عينَىْ مَنْ بكاها

وقد قرأنا فى كتاب الأغانى ما يستدل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوَساطة فى العفو عن ابراهيم بن المهدى ، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابنته هى التى طلبت العفو عنه ، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . وتفصيل الرواية : أن الحسن بن سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب فقال له : بحياتى وبحقّ عليك يا أبا محمد إلّا شربتَ معى قدحًا ، وصبَّ له من نبيذه قدحا ، فأخذه بيده وقال : من تحب أن يغنّيك ؟ فأومأ الى ابراهيم بن المهدى ، فقال له المأمون : غنّه ياعمّ ، فغناه : * تسمعَ لِلحَلْىِ وَسْواسًا اذا انصرفتْ * يُعَرِّض به ، لما كان لَحِقَه من السَّوْداء أو الاختلاط ، فغضبَ المأمون حتى ظنّ ابراهيم أنه سيُوقِع به ، ثم قال له : أبيتَ إلّا كُفْرا ، يا أكفر خلقِ الله لنِعَمِه ، والله ما حقَن دمَك غيرُه ، ولقد أردتُ قتلك ، فقال لى : ان عفوتَ عنه فعلتَ فعلا لم يسبقك اليه أحد ، فعفوتُ والله عنك لقوله ، أفحقُّه أن تُعَرِّض به ! ولا تدَعُ كيدَك ولا دَغَلَك ! أَوَ أَنِفْتَ من إيمائه اليك بالغناء ! فوثَب ابراهيمُ قائما وقال : يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث ظننتَ ولستُ بعائد ، فأعرض عنه .

✦

٣ ــ وزارة أحمــد بن أبى خالد

يظهــر أن المأمون كان قد صُــدِم صدمةً عنيفة، من وزارة الفضــل بن سهل ومن أخيه، لاستبدادهما بحَلِّ الأمور من دونه، ويظهر أنه فكّر جدّيا فى ألّا يستوزر بعد الفضل أحدا، ويقال : إنه لمـا دعا إليه أحمد بن أبى خالد ــ وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبيد الله، كاتبِ المهــدى ووزيره ــ قال له : إنى كنت عزمت ألّا أستوزر أحدا، ثم عرض عليــه الوزارة، فتنصل أحمد منها، وقال يا أمير المؤمنين : أعفنى من التسمِّى بالوزارة، وطالِبنى بالواجب فيها، واجعلْ بينى وبين العامة منزلة يرجونى لها صــديق، ويخافنى لها عدوّى، فما بعد الغايات إلا الآفات .

وتدل هــذه المناقشة، وإن كانت قصيرة، على أن أحمد بن أبى خالد قد وجد العبرة فى تاريخ الفضــل بن سهل، وأمثاله، فرأى أن يكون مقتصدا فى مكانته وسلطانه، وقد اعجب المأمون بكلامه واستوزره .

وسترى فى كلمتنا المجملة التى عقدناها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبيــة، طرَفا من تصرّفات أحمــد بن أبى خالد، وحسن تخلصه، فى حادثة عمرو بن مَسْعدة، وكيف كان شجاعا وصادقا، وكيف كان مخلصا للمأمون، عاملا على إصلاح ما بينه وبين رجالات دولتــــه .

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الاسلامية : إن المأمون لمـا ولّى طاهرَ ابن الحسين خراسان، استشار فيه أحمد بن أبى خالد، فصوّب أحمد الرأى فى توليةِ طاهر، فقال المأمون لأحمــد : إنى أخاف أن يغدُر ويخلع ويفارق الطاعة، فقال أحمد : الدَّرْك فى ذلك علىّ ــ ويجب أن نشير هنا الى ما جاء بكتاب عيون الأخبار عن دقة المأمون فى مثل هــذا الموقف، فان المعلّى بن أيوب أحد المعاصرين يحدّثنا عن ذلك بقوله : سمعت المأمون يقول : من مدح لنا رجلا، فقد تضمّن عيبَه ــ فولاه المأمون، فلما كان

بعد مدة، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب اليه كتابا يتهدده فيـه؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيـه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبي خالد : أنت الذى أشرتَ بتولية طاهر، وضمنت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة ، فوالله لئن لم تتلطف لهـذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا ضربتُ عنقك؛ فقال أحمد : يا أمير المؤمنين، طِبْ نفسًا، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه . ثم إن أحمـد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا ، فيها كَوَاميخُ مسمومة، — وكان طاهر يحب الكامَخَ [1] — فأكل منها فمات من ساعته [2] .

فان صحت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورجاله لم يكونوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التذرع الى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم .

قال الفخرى : إن احمد بن أبي خالد لمـا تولّى طاهر خراسان، حسّب هذا الحساب، فوهب له خادما وناوله سمّا، وقال له : متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم فى بعض ما يحب من المآكل ، فلمـا قطع طاهر خطبة المأمون جعـل الخادم له السم فى كامَخ ، فأكل منه فمـات فى ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته الى المأمون بعـد أيام ، فكان ذلك ممـا عظم به أمر أحمـد بن أبي خالد . فتأمل طريقة التخلص من الزعمـاء فى ذلك الحين، ولاحِظْ كيف كانت عندهم خاتمة الحياة لمن يتبرمون لهم من كبار القواد والوزراء . ولتعلل بعـد ذلك لِمَ أقفرت البلاد من قادتها وكُمَاتها ، ولِمَ أضْحت الكلمة النافذة فيما بعـد للغلمة الأتراك وغيرهم من الغرباء ! .

وكان أحمـد بن أبي خالد، الى جانب كفايته، وبصره بالأمور مصابا بالشَّرَه . وقد قال أحد المعاصرين — لمـا ناقب المأمون أحمد بن أبي خالد هذا — : ما أظن أن الله خلق

(١) هو إدام يؤتدم به وقيل هو خبز بخل . معرب كامه بالفارسية وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهى الطعام .

(٢) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «يلوح لى أن هذه الحكاية مصنوعة فكيف يجترئ أحمد بن أبي خالد على هـذا الأمر وهو يعلم مكانة عبد الله بن طاهر ومكيدته وأنفته وحسن تأتيه للأمور . فهل يأمن أن يعتريه عبد الله بما يوبقه ويعجل هلاكه . وبعدفهذه الرواية تناقض الرواية الأخرى . وهى أن صاحب البريد كتب الى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدعاء له وكتب إليه فى اليوم الثانى بموته»

فى الدنيا نفسا أنبـل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لمـاذا ؟ قال : لأنه عرف نفس الرجل — يعنى أحمد بن أبى خالد — وشَرَهَه فكان اذا وجّهه الى رجل برسالة أو فى حاجة، قال : ائته بالغَـدَاة واخلعْ ثيابَك واطمئنّ عنـده، فان انصرفتَ وقد قمتُ فاكتبْ الى بجواب ما جئتَ به فى رُقْعة وادفعْها الى فتح يوصلها الىّ .

ومما ينسب اليـه أنه ولّى رجلا كُورةً عظيمة القـدر بخوان فَالُوذَج أهداه اليـه .

وقيـل : إن جماعة من أهل كورة الأهْواز شكَوْا عاملا كان عليهم، فعُزِل وصار الى مدينة السّلام، فتكلموا فيـه، فأُنهى خبرُهم الى المأمون، فأحضَرهم وخَصْمَهم، وأمر أحمد بن أبى خالد بالنظر فى أمورهم، فقال رجل من خصوم العامل : يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداءك، تقدّمْ الى أحمدَ ألّا يقبلَ من هذا الفاجر هديةً حتى يقطع أمرَنا، فوالله لئن أكل من طعامه رغيفا ومن فَالُوذَجه جامًا، ليُدْحِضَنّ اللهُ حجّتنا على يديه، وليُبطِلَنّ حقّنا على يديه . فكان من جرّاء ما قاله متكلم الجماعة أن المأمون طلب اليهـم أن يحضُروا اليه يوم الأربعاء، لينظر فى شكايتهم بنفسه، وكان من جراء مثل هذه الشكاوى وما قيل فى ابن أبى خالد من أنه « يقتـل المظلوم ويُحيى الظالم بأكلة » أن أجْرَى المأمون عليـه فى كل يوم ألف درهم لمـائدته، لئلا يَشْرَهَ الى طعام أحد من بِطانته أو من طعام الناس .

ومن طريف حوادثه مع المأمون — وهى تؤيد لنا صحة ما يُرْمَى به من هـذه الناحية وتدل على اقتناع المأمون بإصابته بها — ما يرويه لنـا ابن طيفور فى تاريخه، قال : «حدّثنى بعض أصحابنا قال : قال المأمون يوما لأحمد بن أبى خالد : أَغْدُ علىّ باكرًا لأخذ القصص التى عندك، فانهـا قد كثرتْ لنقطعَ أمورَ أصحابهـا، فقد طال انتظارهم إياها . فبكّر، وقعد له المأمون، فجعل يَعْرِضها عليـه ويوقّع عليها، الى أن مرّ بقصـة رجل من الزّيديين يقال له فلان اليزيدىّ فصحّف، وكان جائعا فقال : الثّريدىّ ؛ فضـحك المأمون، وقال : يا غلام ! ثَريدةً ضخمةً لأبى العباس، فانه أصبح جائعا ! فخجل أحمد، وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين، ولكن صاحب هذه القصة أحمق، وضع نِسْبتَه ثلاث

نقط ؛ قال : دَعْ هذا عنك فالجوع أضرّ بك حتى ذكرت الثريد ، فجاءوه بصَحْفة عظمة ، كثيرة العُراق[١] والودك ، فاحتشم أحمد ، فقال المأمون : بحياتى عليك ! لمَّا عدَلْت نحوها ، فوضع القصص ومال الى الثريد ، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليه ، فلما فرغ دعا بطَسْت فغسل يده ورجع الى القصص ، فمرّت به قصة فلان الحِمْصى ، فقال : فلان الخَبيصى ! فضحك المأمون ، وقال : يا غلام ! جَاماً ضخما فيه خَبِيصٌ[٢] ، فان غداء أبى العباس كان مبتورا ، فخجل أحمد ، وقال : يا أمير المؤمنين ، صاحب هذه القصة أحمق ! فتح الميمَ فصارت كأنها سنتان ! قال : دع عنك هذا ، فلولا حمقه وحمق صاحبه لمتّ جوعا ؛ فجاءوه بجام خبيص ، فخجل ، فقال له المأمون : بحياتى عليك إلّا ملْت اليها ! فانحرف فانثنى عليه ، وغسل يده ، ثم عاد الى القصص ، فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

« و بعد » فانا نستنبط — من هذه الرواية ومما جرى من الحديث بينه وبين المأمون فى شأن أكلة ابن أبى خالد عند دينار بن عبدالله التى كلفت المأمون ألف ألف[٣] — شَرَه هذا الوزير الجليل . ويجدر بنا أن نقيد هنا ملاحظة أخرى ، وهى طول احتمالِ المأمون ، وكبير جلده ، وقوة اصطباره ، على مطالعة شكاوى الجمهور ومظالمهم ، غير مكترثٍ لألم الجوع ولا جانح الى الرغد والراحة ، فى سبيل نظرها و إنصاف أصحابها .

على أن هذه الهَنَة فى هذا الوزير وإن كانت عائبة للرجل ناقصة من كرامته ، فكفايته مقطوع بها . وليس أدلّ على عظيم قدره ، وسمو مكانته ، من حضور المأمون جنازته ، وصلاته بنفسه عليه ، وقوله عنه ، بعد أن دُلّى فى حُفْرته وترحم عليه ، أنت والله كما قال القائل :

أخو الجِدّ إن جدّ الرجالُ وشمّروا * وذو باطلٍ ان كان فى القوم باطلُ

---

(١) العراق : جمع عرق وهو القطعة من اللحم وهو أحد الجموع النادرة (وقد عدّ هذه الجموع ابن السكيت فى لسان العرب مادّة عرق فراجعها) . والودك : الدسم .

(٢) نوع من الحلوى .

(٣) أنظر هذه الحكاية فى تاريخ بغداد لابن طيفور ص ٢٢٢ — ٢٢٤

٤ — وزارة أحمـــد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبى خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما كنا سنعقد له بحثا خاصا فى قسم الآداب والعلوم، فستجد ثَمَّةَ طرفا عن حياته وأثره .

٥ — وزارة يحيى بن أكثم التميمى

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكثم . وهو من أصحاب ثُمَامة بن أشرس المتكلِّم المعروف، ولاه المأمون وظيفتى الوزارة وقاضى القضاة .

ولم أجد اختلافا قويا، هو اختلاف النقيضين، كاختلاف القدماء فى يحيى بن أكثم . ولما كان له مظهر بارز فى الدولة المأمونية من الوجهة العلميـــة والأدبية — لأنه كان، كما يقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه، متفننا فيها: فكان اذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، واذا رآه يحفظ الحديث سأله فى النحو، واذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام، ليقطعه ويُخْجِله — آثرنا أن نلمَّ بحياته وأقوالِ الناس فيه من قادح ومادح، ونبين قدره على وجه الإجمال لا التفصيل. وسنورد كلامنا فيه أيضا فى قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .

٦، ٧، ٨ — وزارات أخرى

وقد ذُكر أن المأمون استوزر، بعد من قدّمناه لك، أبا عَبَّاد ثابتَ بن يحيى بن يَسَار، وأبا عبـد الله بن يَزْدَاد ، وقد ألممنا فى سيرتيهما بمن سبقهما، كما أنه ذُكر أنه استوزر عمرو بن مَسْـعدة وهو صِنْو أحمـد بن يوسف نباهةً وكِفَايةً وكِتَابة . وإنا لا نرى مَدْعاة لاثبات ما هو من لون واحد، ففى ذلك إضاعة للوقت وتكرار للقول .

(ب) الجند والقوّاد فى عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وتحوّلهم ، منذ العهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أنا نحيلك مع ذلك الى ما جاء بالجزء الأول من تاريخ التمدين الاسلامى فى هذا الباب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندى الراجل ، وهو مثل « النفر » فى النظام العسكرى الحديث ، هو ٢٤٠ درهما فى السنة ، فضلا عن حصته فى الغنائم عند الغزوات . و يظهر أن حصة الجنود من الغنائم كانت قد حبست عنهم ، حتى ردّها عليهم الأمين سنة ١٩٨ هجرية ، فأصاب الرجل ستة دنانير .

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما فى الشهر ، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة .

أما القوّاد العظام فى هذا العصر ، فانا نكتفى بما وقفتَ عليه أثناء النزاع بين الأخوين ، لأن من التكرار فى القول أن نعيد هنا ما قلناه هناك .

(ج) ديوان القضاء والمظالم والحسبة :

ستقف من بحوثنا التى أفردناها لتحليل أخلاق المأمون على شىء من سلطان القضاة فى ذلك العهد . ونحيلك هنا الى المحاضرة القيمة التى ألقيت فى المجمع العلمى بدمشق عن تاريخ القضاء فى الاسلام ، كما نحيلك الى الفصل المُسْهَب الذى أفرده فى هذا الموضوع صاحب التمدين الاسلامى .

ويكفينا هنا أن نقول : إن نظام الحكم أو الفصل فى الدعاوى ، فى ذلك العهد ، كان متشعبا بقدر ما كان محكما ، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة ، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، فى هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يجوز لك، أن تفترض الى حدّ ما ، أن ديوان المظالم كان يشبه فى بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كمحاكم الاستئناف والنقض والابرام، كما يشبه الى حدٍّ غير قليل المجالس التأديبية .

وانا نحيلك هنـا الى الفصول الممتعـة التى أفردها أبو الحسن على بن محمـد بن حبيب المـاوردى فى كتابه القيم "الأحكام السلطانيـة" فقـد عالج فيهـا الكلام عن القضـاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاة المظالم وما يختصـون به أيضا، وكذلك عن ولاة الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب فى نهاية الجزء السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما راتب القضاة فنقول : إن راتب القاضى بلغ فى أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم فى الشهر، أى حوالى ٢٧٠ دينارا . وهذا الراتب فى ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة فى ذلك العصر، وقد كنا نودّ أن نختص الولاة ورواتبهم بكلمة لولا أن المصادر فى ذلك تنقصنا . وفيما بيناه عن القضـاة مقياسٌ لمن كان فى مكانتهم ولمن كان أرفع منهم أو أقلّ مرتبـة . فعليك أن تفكر وتقارن .

الفصل السادس

خلاصة الحياة السياسية والاجتماعيـة

توطئة — نكبة الوزراء — الاستصفاء — ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم — الخراج فى عهد المأمون — الخراج فى عهـد المعتصم — السعايات والجاسوسية — الدعاوة (البروباجنـدا) — صعوبة مهمة المـؤرخ .

(أ) توطئـــة :

أما أثر المـال فى النفوس ، وأثر الأحزاب السياسـية ، وكيف تغيرت وجهات النظر فى كثير من الأمور الدينية ، فانك قد وقفت على شىء من ذلك فيما سردناه لك .

على أنا نظن أنه قد آن لنـا أن ندوّن بعض ملاحظاتنا فى هـذا العصر ، وآن لنا أن نتكلم عن نصيب الوزراء والقوّاد والزعماء فى هـذه الدولة ، التى كان للوزراء والقوّاد والزعماء الأثر الكبير فى تدعيم بنيانها ، وتقوية أركانها ، وتشييد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

نريد أن نلاحظ أن حيـاة الوزراء وحياة القوّاد والزعمـاء كانت تنتهى ، فى الغالب ، بنكبتهم فى حياتهم ، أو استصفاء أموالهم .

ومع أنا نحيلك الى بعض المصادر القيمة فى هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، لأبى الحسن الهلالىّ بن المُحَسِّن بن ابراهيم الصَّابى الكاتب ، والى ما كتب من الفصول فى غيره ، نريد أن نلاحظ أن جُلّهم قد نكَبه خليفتُه ، مثـل نكبة المنصور لأبى مسـلم ، وعبد الله بن على ، وأبى سَلَمَة الخَـلّال ، وأبى الجهـل ، ونكبته لأبى أيوب الموريانى ، ونكبة الربيع بن يونس الذى سمّه الهادى ، ونكبة المهدى ليعقوب ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمأمون لمن رأيت .

نلاحظ ذلك . ونلاحظ أن غدر الخلفاء بوزرائهم فى ذلك العهد قد لاكته الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ، فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلبُ من جزع يطيرُ * اذا ما قيل قــد قُتِل الوزيرُ
أمـيرَ المؤمنين قتلتَ شخصا * عليــه رحَاكمُ كانت تدور
فمهــلًا يا بنى العباس مهــلا * لقد كُوِيتْ بغدركم الصدورُ

كما نلاحظ أيضا تنصّــل شخصيات عظيمة من قبول الوزارة فى ذلك العهــد ، لمــا عهدوه من وَخم عواقبها ، وسوء مَغَبَّة الاضطلاع بها . فقد ذكر ابن طيفور أن ثُمَــامة ابن أشْرَس المتكلّم المعروف، قال : لمــا قُتــل الفضلُ بن سهل بعث الىّ المأمون وكنت لا أنصرفُ من عنده إلّا الوَقْعةَ الى منزلى، ثم يأتينى رسوله فى جَوْف الليل فآتيه، وكان قد أهّلَنى لمكان الفضل بن سهل من الوزارة، فلما رأيته قد ألحّ علىّ فى ذلك تعاللتُ عليــه ؛ فقال لى : إنما أردتك لكذا وكذا، فقلت : يا أمير المؤمنين، إنّى لا أقوم بذلك، وأحرِ بى أن أضنّ بموضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزولَ عنده ، فانى لم أر أحدا تعرّض للخدمة والوزارة، إلا لم يكن لتَسْــلَمَ حالُه ولا تدومَ منزلته . ورشّح له أحمدَ بن أبى خالد الأحول . ثم انظر الى اعتلاله عليــه مرة أخرى حينما رشّح له يحيى بن أكثم ؛ فانك توقن معنا بنفور رجال الدولة من الوزارة، وهربهم من شَرَكها وسوء عُقْباها .

(ج) الاستصفاء :

هم ينفرون من الوزارة ، لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . وينفرون منها، لأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان، فى الغالب، الى الاستصفاء والاغتصاب .

ولقد عمّ الاستصفاء سائرَ رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت، بتوالى الأيام ، المصدرَ الأوّل لتحصيل المــال .

فالعامل يستصفى مما للرعية ، والوزير يستصفى مما للعمال ، والخليفة يستصفى مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشئوا للاستصفاء ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يُتداول بالاستصفاء كما يتداول بالمتاجرة .

أما أنواع الاستصفاء ومقاديره فى ذلك العصر ، فنترك الكلمة فى هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالمأمون ، قال : « تأملتُ ما صار الى السلطان من مالى ، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وحسَبتُ ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهرى بن الجَصّاص فكان مثل ذلك . فكأنه لم يخسر شيئا ، لأنهم كانوا يقبضون بالاستصفاء ويدفعون بالاستصفاء . واذا استصفى أحدهم من مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجّلا ، أجّلوه بالباقى وساعدوه على تحصيله أو جمعه برد جاهه وتغيير زيّه ، و إنزاله فى دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التدخّل فى جمع الأموال من الناس .

وتعدّدت أسباب الاستصفاء وجهاته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب غرضةً له . وهاك بيانا لما قبضه ابنُ الفرات من الاستصفاء ، على أيام الراضى بالله ، ننشره لك لتكون أنموذجا لأنواع الاستصفاءات ومقاديرها :

دينار	
٧٣٠٠	من أحمد بن محمد بن ابراهيم البَسْطامى ، عن النصف مما بقى عليه من استصفائه فى سنة ٣٠٠ هـ .
١١٠٠٠	من على بن الحسين الباذبينى الكاتب ، عما تولاه من الموصل .
٣٠٠٠٠	« محمد بن عبد الله الشافعى ، عما تصرف فيه لعلى بن عيسى .
٨٠٠٠٠	« محمد بن على بن مُقْلة ، عما تصرف فيه .
١٠٠٠٠٠	« محمد بن الحسن المعروف بأبى طاهر .
١٣٠٠٠	« الحسن بن أبى عيسى الناقد ، عما ذكر أنه وديعة لعلى بن عيسى .
٤٠٠٠	ومنه أيضا صلحا عن نفسه .
٢٠٠٠٠	من ابراهيم بن أحمد المادرانى .
٢٦٥٣٠٠	

دينار	
٥٢٩٤٦٨٠	ما قبله
١٠٠٠٠٠٠	ومنه أيضا .
١٠٠١٠٠٠	من أبي بكر محمد بن على المادرائى .
١٠٠٠٠	ومنه ايضا .
٧,٣٠٥,٦٨٠	
درهم	
٥٠٠٠٠	من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام .
٢٠٠٠٠٠	« على بن الحسن الباذينى ، صلحا عما تصرف فيه بالموصل وقتل .
١٠٠٠٠٠	« أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الجرجرای ، عن ضمان الباق من استصفاء أبي ياسر إسحاق بن أحمد .
١٠٠٠٠٠	« عبيد الله بن أحمد اليعقوبى .
١٠٠٠٠٠	« الحسن بن ابراهيم الخرائطى ، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .
١٠٠٠٠٠	« الحسين بن على بن نصير أخى نصير بن علىّ .
٢٥٠٠	« على بن محمد بن أحمد بن السُّمان ، عن ورثة قرقر .
١٠٠٠٠	« أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرجانى ، عن ضياع على بن عيسى .
١٣٠٠٠٠	« الحسين سعد بن القُطْرُبّلى .
١٥٠٠٠٠٠	« محمد بن أحمد .
٣٠٠٠٠٠٠	« أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .
٥٠٠٠٠	« أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .
١٣٠٠٠٠	« سليمان بن الحسن بن مخلد .

ومن المعقول أن نستنبط من ذلك أن الوزير أو العامل ، لابد أن يَجْنَح الى الرشوة ، فيعوّض المال الذى سيستصفَى منه ، والثروة التى ستغتصَب منه . ومن المعقول أيضا أن نعلّل لِمَ تعددت الثورات فى بعض الولايات ، ولِمَ كثرت الشكايات من بعض الولاة فى ذلك العهد ، وإنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء باثبات شكَايات العامة

دينار	
٢٦٥٣٠٠	ما قبـــله
٣٦٣٣٠	من عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى ، عن بقية استصفاء والده .
١٠٠٠٠	« أحمد بن يحيى بن حالى الكاتب عن مصلحةٍ وجبتْ .
٦٠٠٠	« ابراهيم بن أحمد بن أدريس الجَهْبذ ، عن صلحه .
٤٠٠٠	« محمد بن عبد السلام بن سهل ، عما عنده من الوديعة لمحمد بن على وابراهيم بن أحمد المـادرائى .
٤٠٠٠٠	« عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله ، عن صلحه .
١٠٠٠٠	« محمد بن عبد الله بن الحارث ، عن صلحه .
٢٥٠٠٠٠	« محمد بن أحمد بن حَمَّاد ، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .
١٥٠٠٠	« ابراهيم بن أحمد المـادرائى ، عن الباقى عليه من جملة خمسين ألفًا .
٣٠٠٠	« أبى عمر محمد بن أحمـد الصباح الجرجراى ، عن ضمانة البـاقى على أبى العباس أحمد بن محمد بن على المعروف بقرقر .
٧٠٠٠٠٠	« على بن محمد بن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠	« هارون بن أحمد الهمذانى .
٢٠٥٠	« عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
١٥٠٠٠	« عبد الله بن زيد ، صلحا عن نفسه .
٦٠٠٠٠	« على بن مأمون بن عبـد الله الاسكافى كاتب ابن الحوارى وقُتل .
٧٠٠٠٠٠	« يحيى بن عبد الله بن إسحاق ، عما تصرّف فيه مع حامد .
١٣٠٠٠٠٠	« حامد بن العباس ، وقُتل .
١٥٠٠٠٠	« محمد بن محمد بن حمدون الواسطى .
٣٢١٠٠٠	« أبى الحسن على بن عيسى .
١٠٠٠٠٠	« ابراهيم بن يوحنا جهبذ حامد بن العباس .
١٢٠٠٠٠٠	« أبى محمد الحسن بن أحمد المـادرائى .
٥,٢٩٤,٦٨٠	

وأسباب ثوراتهم، فقـد عثرنا بين السـطور على العبارة الآتيـة فى الجزء الثـانى من اليعقوبى، نثبتها لك بنصها : « أخذ الرشيد العمال والتُّنَّاء[١] والدَّهَاقين[٢] وأصحاب الضياع والمبتاعين للغـلات والمُقَبِّلين[٣]، وكان عليهم أموال مجتمعة، فولّى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم ابن سام، فطالبهم بصنوف من العذاب، وكان ذلك سنة ١٨٤ واعتل الرشيد فى تلك السنة علة شديدة وشفى منها، فدخل اليـه الفضيل، فرأى الناس يعذَّبون فى الخراج، فقال : ارفعوا عنهم، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عذّب النفس فى الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر بأن يرفع عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة»[٤] .

ويجوز لنا أن نستدل من هذه العبارة ومما ذكره الطبرى وسواه : من تخفيض بعض الخلفـاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعيـة أو زيارة ملكية، على أن العمال كانوا يجنحون الى الشـدة والعسف وجمع المـال بشتى الوسائل، وكل ذلك من جراء النظـام المتبع معهم كما أسلفنا . فتأمل كيف يكون عسف الولاة للرعيـة بسبب عسف الملوك للولاة والعمال .

يعسفون[٥] ويظلمون، والرعية وحدها هى التى تحتمل وتصبر . بيـد أن التاريخ يحدثنا دائمـا، فى كافة الدول وكافة الأجيـال، أن نهاية هـذا الاحتمال وذلك الصبر هى يقظة الأمم وانتباهها، ونهضة الشعوب ونضوجها، ورفضها فى إباء وشمم وفى عقيدة وإيمان، وفى شجاعة وحرية، وفى تصميم وقوة إرادة، احتمالَ أمثال هـذه الأدران والمآثم، وتلك الإساءات والمظالم، ممن تسلموا مقاليد الرعية : من الحكام وذوى السلطان .

---

(١) التناء (وزان سكان) جمع تانئ، والتانئ : الدهقان . أنظر القاموس . (٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التاجر أو رئيس الاقليم وهو فارسى معرب . (٣) هم ملتزمو جباية الخراج للولاة . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار أن عمل الرشيد هـذا لم يكن من قبيل الاستصفاء، وإنما هو من قبيل الإعنات فى استيفاء الحقوق . (٥) يلاحظ الأستاذ النجار أيضا أن كل ما ذكر فى هذا الباب لا يتناول زمن المأمون وإنما كان ذلك بعده . والرشيد لم يحفظ عليه إلا استصفاء البرامكة حين نكبهم وأن المأمون رفعت اليه رقعة فيها أن فلانا مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المـال يبلغ الملايين من الدراهم فكتب فى الرقعة : هذا قليل لمن تقلب فى دولتنا وطالت خدمته لنا فبارك الله لورثته فيما ترك لهم .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نقيد ملاحظة أخرى، وهى نتيجة لازمة من نتائج الاستصفاء والاغتصاب . تلك الملاحظة هى استفحال ثروة الخلفاء طبعا ، واستفحال ثروة كبار رجالاتهم والمقربين من أفراد البيت الملكى من بطانة وحاشية، واستفحال بذخهم، واستفحال أعطياتهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدرا منظما فى هذا الموضوع ، وخاصةً فى العصر المأمونى، فقد عثرنا فى كتاب لطائف المعارف للثعالبى، أن « المكتفى » وهو قريب الصلة بعصر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

دينار	
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	من العين والورق والأوانى المعمولة .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الفرش .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الكُراع والسلاح والغلمان .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	الضياع والعقار والأملاك .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	الجوهر والطيب وما يجرى معهما .

ومن المعقول أن نتخذ من حالة هذا الخليفة العباسى مقياسا لغيره، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطانا وأكثر أعوانا، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنا، ليسا بأقل منه بالثروة مكانا !

أما ثروة كبار رجالهم ، فإنا نذكر لك هنا على سبيل المثال نصًّا هامًّا ، يصح أن نتخذه أساسا لتقدير ثروة أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو النص الذى رواه سَهْل بن هارون أحد المعاصرين خاصا بثروة البرامكة . وكلامه حجة لا محالة، لأنه الى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على مَا جَرَيَاتِ الأمور وبواطنها فى ذلك العهد ، فقد كان يشغل وظيفةَ خازن دار الحكمة فى أيام المأمون . قال : « ... وأمر الرشيدُ بضمّ أموالهم ،فوجد من العشرين ألف ألف

التى كانت مبلغ جِبايتِهم ، اثنىْ عشرَ ألف ألف مكتوبٌ على بِدَرها صكوك مختومة تفسيرها رقمها، حبوابها، فما كان منها حِباءٌ على غَريبة أو استطرافِ مُلْحة تصدّق به يحيى، وأثبت ذلك فى ديوانها، على تواريخ أيامها، فكان ديوانَ إنفاق واكتساب فائدة، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألفا ، الى سائر ضياعهم وغلاتهم ودُورهم ورِياشهم والدقيق والجليل من مواعينهم ، فانه لا يصف أقلّه، ولا يَعرف أيسره، إلا مَنْ أحصى الأعمال، وعرف منتهى الآجال » .

ويجوز لنا كذلك أن نستخلص مما صرف على زواج بُورَانَ بالمأمون ، مبلغَ ثروة الحسن بن سهل . كما يجوز لنا أن نتبين مقدار ثروة عبد الله بن طاهر من رواية صاحب النجوم الزاهرة الخاصة بإحدى مواقفه فى الكرم . ومؤداها : أنه افتدى الأَسْرى من الترك بنحو ألفى ألف درهم . ثم انظر ما رواه المسعودى فى مُرُوجه خاصًا بما فعله ابراهيم بن المهدى، فى زيارة للرشيد له، اذ اصطنع له طَاهِيه جملةَ أطعمة فخمة، وكان من جملتها جامُ سمك مقطّع ، فاستصغر الرشيد قِطعَه ، واستفسر منه عن حقيقتها ، فأجابه ابراهيم بن المهدى : يا أمير المؤمنين، هذه ألسنةُ السمك . وقدرت نفقة ما فى ذلك الجام بألف درهم !

ثم انظر بذَخَهم فى لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ما كانوا يلبسونه فى المنادمة ، من مختلف الثياب وغاليها . ونريد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من مخلّفات بعض المعاصرين من الخلفاء والقوّاد ، ليكون مثالا تقريبيا لحالة مَنْ لم يصل الى علمنا خبره . فقد ذُكر أن ما خلفه المُكْتفِى من الألبسة هو :

عـدد	
٤٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات .
٦٣٠٠٠	« الأثواب الخراسانية المَرْوِيّة .
٨٠٠٠	« الملاءات .

عدد	
١٣٠٠٠	العمائم المروية .
١٨٠٠	الحُلَل الموشّاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٠٠٠٠	البطائن التى من كِرْمان فى أنابيب القصب .
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمنية .

وذكروا أن ذا اليمينين توفى وفى خزانته ألف وثلثمائة سراويل دبيق لم يستعملها . وقيل إنهم وجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراويل دبيق .

وقد اطلعنا فى الجزء العشرين من « كتاب نهاية الأرب » على أن ملك التُبَّت قدم على المأمون، ومعه صَنَمٌ من ذهب على سرير من ذهب مرصّع بالجوهر، فأسلم الملك، وأخذ المأمون الصنم وأرسله الى الكعبة . وطالعنا فيه أيضا أن ملك الهند أهدى اليه هدية نفيسة، وكتب اليه معددا أمواله وثروته، مما يدل على بذخ العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البذخ فى ذلك العصر، حتى أصبحنا نرى أبا العَتاهِيَة مثلا، وهو المعروف ببخله، يهدى الى الرشيد، فى سبيل طلبه لعُتْبة، ثلاثَ مَرَاوِحَ، وكان العباسيون قد تفننوا فيها وفى المَذَابّ التى اختُرِعتْ فى أيامهم، وكتب على كل مروحة بيتا، قال فى مجموعها :

ولقد تنسّمتُ الرياحَ لحاجتى * فاذا لها من راحتيه شَمِيمُ
أعلقتُ نفسى من رجائك ماله * عَنَقٌ يحثُّ اليك بى ورَسِيمُ
ولربما استيأستُ ثم أقول لا ، * إن الذى ضمن الرياح كَرِيمُ

ولعلك اذا تذكرت أمر سُفُن الأمين وبذخه و إسرافه مضافا اليه ماذكرنا هنا وغيره، تؤمن بما نقول من بذخ العصر واستفحال ثروته . على أنا قد عثرنا على مصدرين، ننشرهما مع الحيطة والحذر، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاول بيانَ الجباية فى أيام المأمون، ويتضمن الثانى حالتها فى أيام أخيه المعتصم . مفترضين فى كلتا الحالتين جوازَ المبالغة

فى التقدير ، ذلك لأن ديدن المؤرخين القدماء ، أن يجنحوا فى الغالب الى المبالغة والغلو . وإنا مع افتراضنا المبالغة فى التقدير فى المصدرين، نرى مع ذلك أن أى تقدير متواضع للخراج، فى ذلك العصر ، لابد أن يكون عظيما ودالًّا على الثروة والغنى والبذخ .

(ﻫ) الخراج فى عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخى يدل على مقدار الجباية الخراجية فى جميع الأقاليم التى كانت تحت حكم الدولة العباسية ، وهو الثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى تاريخه، وقد أحببنا، لما فى ذلك الثبت من الفائدة، أن ننقله عنه . وها هو ذا :

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض	
	درهم		
السواد	٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠	حلة نجرانية
		٢٤٠	رطلا من طين الختم
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠		
كور دجلة	٢٠٨٠٠٠٠٠		
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠		
الأهواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	قارورة ماء ورد
		٢٠٠٠٠	رطل زيت أسود
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠	٥٠٠	ثوب متاع يمانى
		٢٠٠٠٠	رطل تمر
مكران	٤٠٠٠٠٠		
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	١٥٠	رطل عود هندى
سجستان	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠	ثوب معين
		٢٠	رطل من الفانيد

(تابع) الخراج فى عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	درهم	
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠ برذون ١٠٠٠ رأس رقيق ٢٠٠٠٠ ثوب متاع ٣٠٠٠٠ رطل إهليلج
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ شقة إبريسم
قومس...	١٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والريان ودماوند ...	٦٣٠٠٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى ٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام
الرى	١٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
همدان	١١٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رطل رب الرمانين ١٢٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة...	١٠٧٠٠٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤٠٠٠٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤٠٠٠٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ١٢٠٠٠ زق عسل ١٠ بزاة ٢٠ كساء

(تابع) الخراج فى عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض	
	درهم		
		٢٠	قسط مخفور
		٥٣٠	رطل رقم
		١٠٠٠٠	رطل من المسايج السرماهى
أرمينية	١٣٠٠٠٠٠		
		١٠٠٠٠	رطل صونج
		٢٠٠	بغل
		٣٠	مهرا
برقة	١٠٠٠٠٠٠		
إفريقية	١٣٠٠٠٠٠٠	١٢٠	بساط
المجموع	٣١٨٦٠٠٠٠٠	درهم	
	من الدنانير		
قنسرين	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠	حمل زيت
دمشق	٤٢٠٠٠٠		
الأردن...	٩٧٠٠٠		
فلسطين	٣١٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	رطل زيت
مصر	٢٩٢٠٠٠٠		
اليمن	٣٧٠٠٠٠		سوى المتاع (الذى لم يذكر)
الحجاز	٣٠٠٠٠٠		
	٤٨١٧٠٠٠	دينار وتساوى ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره فى ذلك العصر	
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢٢٥٥٠٠٠		
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨٦٠٠٠٠٠		
الجملة	٣٩٠٨٥٥٠٠٠	درهم	

(و) الخراج فى عهد المعتصم :

أما جبـاية الدولة فى أيام المعتصم فهاك هى نقلا عن قدامة بن جعفر ، كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشـعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصـلا باعتبار طساسيج السواد ، أى نواحيه فى الشرق والغرب :

اسم الناحيـة	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
طساسيج السواد فى الجانب الغربى :			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
« قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
« بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهرسير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك...	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الخراج فى عهد المعتصم

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الغربى :			
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سورا و برنسيا	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلى	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيلحين...	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد...	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغاريقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الراذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجللتا...	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠

(تابع) الخراج فى عهد المعتصم

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكُر	مقدار الشعير بالكُر	الدرهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
الذيبين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج براز الروذ...	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا وبكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصلة...	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٦٠٠ كُر حنطة و ١٢٣٩٢١ كُر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم، فقد قال فى ايراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كُر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كُرا ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم» وقد قال المرحوم جرجى بك زيدان : ولعلّ سبب هذا الفرق خطأ فى قراءة بعض الأعداد، على أن الفرق على كثرته لا يعتدّ به فيما نحن فيه . بقى علينا أن نحوّل الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحوّلها باعتبار ثمن الكُرّين المقرونين من الحنطة والشعير ٦٠ دينارا والدينار على صرف ١٥ درهما بدينار فبلغ ذلك

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة :

٨٠٩٥٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقا
١٠٠٣٦١٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤٤٥٧٦٥٠	درهما

هـذا هو ارتفاع السواد ، فلنتقـدم الى إيراد جبايات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهى مع السواد :

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السـواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبـله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	الرى ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر ...	١٨٢٨٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠	جرجان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان ...	٩٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان... ...	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان...	٩٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفة...	٥٠٠٠٠٠٠	قردى وبذيدى	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعـة	٩٦٣٥٠٠٠
همـدان	١٧٠٠٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	طرون	١٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مضر	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات ...	٢٩٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠	المجمـوع	٣١١٥٨١٣٥٠
نقل بعـده	٢٤٢٢٥٧٦٥٠		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبايات سائر الأقاليم

أقاليم المغرب	دنانير	أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠	ما قبله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جند حمص	٢١٨٠٠٠	الحرمين	١٠٠٠٠٠
« دمشق	١١٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
« الأردن	١٠٩٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠
« فلسطين...	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصر والاسكندرية... ...	٢٥٠٠٠٠٠	المجموع	٥١٠٢٠٠٠
نقل بعده ...	٣٥٩٢٠٠٠		

وإذا ما حولنا هذه الدنانير الى دراهم ، باعتبار الدينار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .

* * *

(ز) السعايات والجاسوسية :

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالقيد ، وهى انتشار السعايات والدسائس فى ذلك العصر انتشارا مروعا . ولعل سبب ذلك جنوح العباسيين الى استعمال الجواسيس والرقباء بكثرة هائلة . فانظر مثلا ما جاء فى الجزء العشرين من كتاب « نهاية الأرب » عن المأمون إذ يقول : إنه كان يحب سماع أخبار الناس حتى جعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز وسبعمائة عجوز . فتأمل جاسوسية العصر التى لا يبعد البتة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة !

وبعد ، فمهما يكن من افتراضك للمبالغة والغلو فيما يرويه لنا صاحب نهاية الأرب ، فان اطلاعك على كتاب ابن طيفور الذى كان معاصرا لكثير من رواته ، والذى كان

قريب العهد بالمأمون وعصره . يقنعك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد، كثرة قد تهولك حقا وتدهشك صدقا ! ! .

وقد سبق أن قلنا إن جل الساسة العباسـيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار، ويحبون الرجل الكُتَمَة القُفَلَة . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . وانك اذا نظرت الى قول المأمون : « تحتمل الملوك كلَّ شيء إلا ثلاثة : إفشاء السر، والقدح فى الملك، والتعرّض للحرم» علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم، وأنها فى المنزلة الأولى من اعتبارهم، واستطعت أن تعلل لم كانت خططهم غير واضحة ولا جلية، وربما كانت مُعَمَّاة مبهمة .

⁂

(ح) الدعاوة "البروپاجندا" :

وهناك مسألة أخرى نحـدثك بها ، وهى جديرة بالملاحظة قمينـة بالبحث، تلك هى عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إتقانهم لأمرها وعلمهم بأفانينهـا ووقوفهم على نُظُمها ، بالغا مبلغا عظيما ، إذ كان فى مُكْنتهم وطوع بنانهـم، أن يصوّروا الحق باطلا والباطل حقا . وإن فيما رواه الطبرى وغير الطبرى عن سنى حياة المأمون ، واستخدامه للرقاع تعلّق على ظهر من يُقتـل أو يُعاقب من رجالات دولته، الغنيةَ والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وانّا نسوق اليك مثلين لتأييد ما ذهبنا اليه :

فقد ذكر الطبرى أن المأمون لـما قتل علىَّ بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلّق على رأســه ليقرأها الناس، فكُتب ـ وقد ذكرنا هـذا الكتاب فيما سبق لمناسـبة أخرى ـ : « أما بعـد ، فان أمير المؤمنـين كان دعا علىّ بن هشام فيمن دعا من أهـل خراسان ، أيام المخلوع ، الى معاونته والقيام بحقـه ، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعـاونة ، فرعَى أمير المؤمنين ذلك له ، واصـطنعه ، وهو يظن به تقوى الله .

وطاعته، والانتهاء الى أمر أمير المؤمنين فى عمل إن أسند اليه فى حسن السيرة وعفاف الطُّعْمة. وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه، فولاّه الأعمال السنية، ووصله بالصلات الجزيلة التى أمر أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم، فمدّ يده الى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة، فباعده عنه وأقصاه، ثم استقال أميرَ المؤمنين عَثْرَتَه، فأقاله إياها، وولاه الجبل وأَذْرَبيجان وكور أَرْمِينِيَة، ومحاربةَ أعداء الله الخونة، على ألّا يعودَ لما كان منه؛ فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة، وعَسَف الرعية، وسفك الدماء المحرّمة، فوجه أمير المؤمنين عُجَيف بن عنبسة مباشرا لأمره، وداعيا الى تلافى ما كان منه، فوثب بعجيف يريد قتله، فقوّى الله عجيفا بنيّته الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه. ولو تم ما أراد بعجيف لكان فى ذلك ما لا يُستدرك ولا يُستقال، ولكنّ الله اذا أراد أمرا كان مفعولا. فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله فى علىّ بن هشام، رأى ألّا يؤاخذَ من خلفه بذنبه، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يجرى عليهم، مثلَ الذى كان جاريا لهم فى حياته. ولولا أن علىّ بن هشام أراد العُظْمَى بعجيف لكان فى عداد من كان فى عسكره ممن خالف وخان، كعيسى بن منصور ونظرائه والسلام».

فأنت ترى من هذا الى أية درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعاوة «البروباجنده» المأمونيـــة!

ولا غرو فقد أفادت المأمون أيما إفادة. وقد كان المسلمون، بسبب نشاط العباسيين فى الدعوة لأنفسهم، أطوعَ لهم مما كانوا لبنى أمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبق أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح. وغُرِسَ فى أذهان الناس، بتوالى الأزمان، أن الخليفة العباسىّ اذا قُتِل اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القَطْر وجفّ النبات! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاوة لأنفسهم، واهتمامهم أيما اهتمام بتبرير تصرفاتهم وتزكية أعمالهم.

ثم انظر ماذا حصـل لابراهيم بن المهدى ، تر أن الدعوة المأمونيـة أبتْ إلا أن يقعد فى دار المأمون لينظر اليه بنو هاشم والقوّاد والجند ، وصيّرَّ الدعاةُ المِقنَعَة التى كان متقبًا بها فى عنقه، والملحفةَ التى كان ملتحفًا بها فى صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أُخذ .

وانظر أخيرا — رعاك الله ووفقك — الى ما يحدّثنا به أحمـد بن أبى دُوَاد عن كلمة المأمون فى هذا الصدد، قال : « قال لى المأمون : لا يستطيع الناسُ أن يُنصفوا الملوكَ من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحُماتهم وكُفاتهم، وبين صنائعهم وبطانتهم ، وذلك أنهم يرون ظاهرَ حرمة وخدمةٍ واجتهادٍ ونصيحة ، ويرون إيقاع الملوك بهـم ظاهرا، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبـةً فى ماله أو رهبـةً فى بعض مالا تجود النفوس به ؛ ولعل الحسد والملالة وشهوة الاستبدال اشتركت فى ذلك . وهناك خيانات فى صلب الملك أو فى بعض الحُرَم ، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعـامة موضعَ العورة فى الملك ، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بمـا يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه، لمـا فى ذلك من الفساد على علمـه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة» .

⁂

(ط) صعوبة مهمة المــؤرّخ :

والحق أنها مهمة صعبةٌ أن تستكشف حقيقةَ الظالم من المظلوم، والغالبَ من المغلوب، والهادى والضالّ، فى هذه الدولة التى لعبت فيها الأقلام والألسنة دورا عظيما. ولولا ما جنحنا اليـه من الاطّلاع على شتى المصادر، وقضينا فى ذلك تمهيـدا طويلا ودرسًا مملًّا متعبا، فطالعنا أقوال الأحزاب المتضاربة، ووازنّا بين كلمة هذا ودفاع ذاك، لمـا كنا بالغين بعض ما بلغناه من إماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية . وفى هـذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة، وآن لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية .

الفصل السابع

شخصية المأمون

توطئة — كرمه وسخاؤه — كيف ملك المأمون قلوب بطانته — قدره لرجال دولته — قدره للشجاعة الأدبية — عدله وانصافه — عفوه — بصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مذهبه الدينى — كلمة ختامية .

(ا) توطئة :

نريد هنا أن نحلل أخلاق المأمون ، ونريد أن نستقصى كل ما قيل عنه وأن ندرس شتى نواحيه الخُلُقية بما تستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . وسنعتمد فيما سنكتبه على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ونرجو أن نوفق فيما سنعانيه .

(ب) كرمه وسخاؤه :

يقول صاحب النجوم الزاهرة : انه لم يفرّق ملك ولا سلطان فى يوم واحد مثل ما فرّقه المأمون يوم ولّى ولده العباس على الجزيرة ، اذ أمر لكلٍّ من المعتصم والعباس بخمسمائة ألف دينار ، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر أن المأمون كان من أكثر خلفاء العباسيين جودا وأبسطهم يدا ، وأسخاهم نفسا ، بعد أن نرى كتبَ التاريخ والأدب مفعمةً بما كان له من حوادث غريبة فى السخاء والجود .

والذى يتتبّع ما ذكره المؤرّخون من حوادث جوده وفيض إنعامه ، يرى أن كرم المأمون وسخاءه يرجع الى عناصر مختلفة فى نفسه ، فمنها ما يرجع الى ما فى فطرته من أريحيّة واهتزاز للمعروف ، ومنها ما يرجع اليه كسياسىّ يريد أن يظفر و يتملك القلوب ، و يوطّد أركان سلطانه بالمال .

ونحن اذا نظرنا الى الدوحة الهاشمية التى تفرّع عنها المأمون، وأنه نشأ فى حجر الخلافة فى النعيم والترف، ومن هـذا شأنه قلّ حرصه على المـال، واذا نظرنا أيضا الى أنه خاض معمعةً سياسيةً وحربية كان المـال من أفعل آلاتها وأبعدها أثرا — وقد بيّنا لك فى العصر الأموى ما كان للمال من أثر قوى فى إقامة سلطان بنى أمية وتوطيده — لم نرغلوّا كبيرا فيما أترعت به كتبُ الأدب والتاريخ من حوادث جود المأمون وكرمه . ولننظر فيما يرويه لنا ابن طيفور فى هذا السبيل، فانه قال : إن المأمون لمـا فتح « حصن قُرّة » وغنم ما فيـه اشترى السَّبْىَ بستة وخمسين ألف دينار، ثم خَلَّى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا .

وهاك مثالًا مما يصح أن يكون من آثار أريحيّة المأمون و إرادته توطيد سلطانه :

يحدّثنا ابن الأثير والطبرى ، أن العبسىّ صاحب اسحـاق بن ابراهيم قال : كنتُ مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المـال عنده حتى أضاق وشكا ذلك الى أبى اسحاق المعتصم؛ فقال له : يا أمير المؤمنين ، كأنك بالمـال وقد وافاك بعد جُمْعة ، وكان قد حَمَل اليـه ثلاثين ألف ألف ألف(1) درهم من خراج مايتولّاه له . قال: فلما ورد عليه ذلك المـال، قال المأمون ليحيي بن أكثم : أخرج بنا ننظر الى هذا المـال ، قال : فخرجا حتى أصحرا ووقفا ينظرانه ، وكان قد هُيِّئ بأحسن هيئـة وحُلِّيت أباعرُهُ وأُلبست الاحلاس الموشّاة والجلال المصبغة وقُلِّدت العِهن ، وجُعلت البِدَرُ بالحرير الصينى الأحمر والأخضر والأصفر، وأبديت رءوسُها ، قال : فنظر المأمون الى شىء حسن ، واستكثر ذلك فعَظُم فى عينـه ، واستشرفه الناس ينظرون اليه و يعجبون منه ، فقال المأمون ليحيى : يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين الى منازلهم ، وننصرف بهذه الأموال وقد ملكناها دونهـم ، إنّا إذًا للئامٌ! ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له : وَقِّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها، قال: فوالله إن زال كذلك حتى فرّق أربعة وعشرين ألف ألف درهم، ورجلُه فى الركاب، ثم قال: ادفع الباقى الى المعلّى يعطى جندنا . قال العبسى . فجئت

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار: « أحسب أن ألفا زائدة فى عباراتهم المنقولة لأن حساب ذلك يؤول الى مليارين من الدنانير، وغلة بنى العباس فى عشر سنوات لا تفى بذلك، فكيف بمصر وحدها » .

حتى قمتُ نُصْب عينه، فلم أردّ طرفى عنها لا يلحظنى إلا رآنى بتلك الحال ، فقال يا أبا محمد : وقّع لهذا بخمسين ألف درهم من ستة آلاف الألف ؛ قال : فلم يأت علىّ ليلتان حتى أخذت المال » .

ومما يدل على كرم نفسِ المأمون وحُسْنِ تبسّطهُ، ما رواه القاسم بن محمد الطيفورى، قال: "شكا اليزيدىّ الى المأمون خَلّةً أصابته ودَيْنا لحقه؛ فقال : ما عندنا فى هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ماتريد؛ فقال : يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد ضاق علىّ، وإن غُرَمائى قد أرهقونى؛ قال : « فَرُمْ لنفسك أمرا تنلْ به نفعا ؛ فقال : لك منادمون فيهم مَن إن حركتَه نلتُ منه ما أحبّ ، فأطلق لى الحيلةَ فيهم ؛ قال : قل ما بدا لك؛ قال : فاذا حضروا وحضرت فمُرْ فلانا الخادم أن يُوَصّل اليك رقعتى، فاذا قرأتها فأرسل الىّ : «دخولُك فى هذا الوقت متعذر، ولكن اختر لنفسك من أحببت» . قال: فلما علم أبومحمد بجلوس المأمون واجتماع ندمائه اليه وتيقّن أنهم قد ثَمِلوا من شربهم، أتى الباب فدفع الى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها، فأوصلها الى المأمون، فقرأها فاذا فيها :

يا خيرَ إخوانى وأصحابى * هذا الطُّفَيْلِىّ لدى البابِ
خُبِّرَ أن القوم فى لذّة * يَصْبو اليها كلّ أوّابِ
فصيِّرونى واحدًا منكمُ * أو أخرِجوا لى بعضَ أترابى

قال: فقرأها المأمون على من حضره، فقالوا: ما ينبغى أن يدخل هذا الطفيلىّ على مثل هذه الحالة؛ فأرسل اليه المأمون : « دخولك فى هذا الوقت متعذر ، فاختر لنفسك من أحببت تنادمه » . فقال : ما أرى لنفسى اختيارًا غير عبدالله بن طاهر؛ فقال له المأمون: قد وقع اختياره عليك فسرْ اليه؛ قال : يا أمير المؤمنين، فأ كون شريك الطفيلىّ؛ قال : ما يمكن ردّ أبى محمد عن أمرين، فان أحببت أن تخرُج وإلا فافتدِ نفسَك . فقال : يا أمير المؤمنين، له علىّ عشرة آلاف درهم ! قال : لا أحسَبُ ذلك يُقنعه منك ومن مجالستك؛ قال : فلم يزل يزيده، عشرة عشرة، والمأمون يقول له : لا أرضى له بذلك،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون : فعجِّلها له ؛ قال : فكتب له بها الى وكيله ، ووجّه معــه رسولا . فأرسل اليه المأمون : « قَبْضُ هذه فى هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة » .

ويتجلّى سخاء المأمون، مع الوفاء وطيب النفس، فى موقفه مع غلام سَعِيد الجوهرى الذى كان قد لزّ بالمـأمون فى الكُتّاب ، فكان اذا احتاج المأمون الى محْو لَوْحه بادر اليـه فأخذ اللوح من يده فمحاه وغلب على غلمـان المأمون ومسـحَه وجاء به فوضـعه على المنديل فى حجره . فلما سار المأمون الى خراسان وكان من أخيه محمد الأمين ما كان ، خرج اليــه غلام سعيد هــذا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيدى ، فلما رآه عرفه ، فدخل فأخبر المأمون ، فقال له مستبشرا بقدومه : لك البشرى ! ثم أذِن له فدخل عليه ؛ فضحك اليه حين رآه ، ثم قال : أتذكر وأنت تبادر الى محو لوحى ! قال : نعم يا سيّدى . فوصله بخمسمائة ألف درهم .

وانظر فيما يحدّثنا به الطبرى عن محمـد بن أيوب ، قال : إنه كان بالبصرة رجل من بنى تميم وكان شاعرا ظريفا ، خبيثا ماكرا ، وكنت أنا وَالِىَ البصرة آنس به وأسـتحليه ، فأردت أن أخدعه وأستنزله ، فقلت له : أنت شاعر ، وأنت ظريف ، والمأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟ قال : ما عندى ما يُقِلّنى ، قلت : فأنا أعطيك نجيباً فارها ونفقـةً سابغة وتخرج اليه وقـد امتدحته ، فانك إن حَظِيت بلقائه ، صِرْتَ الى أُمْنيتك ؛ قال : والله أيها الأمير ، ما إخالك أبعدتَ ، فأعدّ لى ما ذكرت ؛ قال : فدعوت له بنجيب فاره ، فقلت : شأنك به فامتَطِه . قال : هذه إحدى الحُسْنَيَيْن ، فما بال الأخرى ؟ فدعوت له بثلثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسبك أيها الأمير قصّرتَ فى النفقة ، قلت : لا ، هى كافية إن قصرتَ عن السَّرَف ، قال : ومتى رأيتَ فى أكابر سَعْد سرفا حتى تراه فى أصاغرها ! فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزةً ليست بالطويلة ، فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء علىّ ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ؛ قال :

وكيف؟ قلت: تأتى الخليفة ولاتثنى على أميرك! قال: أيها الأمير أردتَ أن تخدعنى فوجدتنى خداعا ! أما والله ما لكرامتى حملتنى على نجيبك ولا جُدْتَ لى بمالك الذى ما رامه أحد قط إلا جعل الله خدّه الأسفل ، ولكن لأذْكُرك فى شعرى وأمدحك عند الخليفة ، افهم هـذا، قلت : قد صدقتَ ، فقال : أمّا اذ أبديتَ ما فى ضميرك، فقد ذكرتك وأثنيت عليك، قلتُ: فأنشدنى ماقلتَ، فأنشدنيه، فقلت: أحسنتَ، ثم ودّعنى وخرج، فأتى الشأم واذا المأمون «بسَلَغُوس» . قال : فأخبرنى، قال : «بينا أنا فى غزاة قُرّة، قد ركبتُ نجيبى ذاك، ولبست مُقَطَّعاتى وأنا أروم العسكر، فاذا أنا بكهلٍ على بغل فاره، ما يقرّ قراره ولا تدرك خُطاه، قال: فتلقانى مكافحةً ومواجهة وأنا أردّد نشيد أرجوزتى، فقال : سلام عليكم ! بكلام جَهْوَرِيّ ولسانٍ بسيط، فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! قال : قف إن شئتَ، فوقفت، فتضوّعتْ منه رائحة العنبر والمسك الأذْفر، فقال : ما أوّلك؟ قلت : رَجُلٌ من مُضَر، قال: ونحن من مضر. ثم قال : ثم ماذا ؟ قلت: رجل من بنى تميم، قال : وما بعد تميم ؟ قلت : من بنى سَعْد، قال هيه ! فما أقدَمك هذا البلد ؟ قال : قصدت هـذا الملك الذى ما سمعت بمثله أندى رائحةً ، ولا أوسع راحةً ، ولا أطول باعا، ولا أمدّ يفاعا، قال : فما الذى قصدته به؟ قلت : شعر طيّب يلذّ على الأفواه وتقتفيه الرواة ويحلو فى آذان المستمعين، قال : فأنشِدْنيه، فغضبتُ وقلت : ياركيك ! أخبرتك أنى قصدت الخليفة بشعر قلته ومديح حبّرته، تقول أنشدنيه! قال : فتغافل والله عنها وتطامَنَ لها وألغى عن جوابها ، قال : وما الذى تأمُل منه ؟ قلت : ان كان على ما ذُكر لى عنه ، فألف دينار قال : فأنا أُعطيك ألف دينار إن رأيتُ الشعر جيّدا والكلامَ عذبا ، وأضع عنك العناء وطولَ الترداد ، ومتى تصل الى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل ! قلت : فلى الله عليك أن تفعل، قال : نعم، لك الله علىّ أن أفعل، قلتُ : ومعك الساعة مال؟ قال : هذا بغلى، وهو خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره، قال : فغضبت أيضا وعارضنى نَزَق سَعْد وخفّة أحلامها، فقلت : ما يساوى

هـذا البغل هذا النجيب، قال : فدع عنك البغل، ولك الله عليّ أن أعطيك الساعة ألف دينار، قال : فأنشدته :

مأمونُ يا ذا المِنَنِ الشَّرِيفَهْ * وصاحبَ المَرْتَبَةِ المُنِيفَهْ
وقائدَ الكَتِيبةِ الكَثِيفَهْ * هَلْ لك فى أُرْجُوزَةٍ ظَرِيفَهْ
أَظْرَفَ من فقه أبى حَنِيفَهْ * لا والذى أنتَ له خَلِيفَهْ
ماظُلِمَتْ فى أرضنا ضَعِيفَهْ * أَمِيرنا مُؤْنَتُه خفيفَهْ
وما اجْتَبَى شيئا سوى الوَظِيفَهْ * فالذئبُ والنعجةُ فى سَقِيفَهْ
* واللصُّ والتاجرُ فى قَطِيفَهْ *

قال : فوالله ماعدا أن أنشدتُه، فاذا زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق، يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال : فأخذنى أُفْكَلٌ(١)، ونظر الىّ بتلك الحالة فقال : لابأس عليك أى أخى؛ قلت : يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداءك، أتعرف لغات العرب؟ قال إى لَعَمْرُ الله! قلت : فمن جعل الكاف منه مكان القاف؟ قال : هذه حِمْيَر؛ قلت : لعنها الله ولعن من استعمل هـذه اللغة بعد اليوم ! فضحك المأمون وعلم ما أردتُ، والتفتَ الى خادم الى جانبه فقال : أَعْطِه ما معك، فأخرج الىّ كيسا فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال : هاك، ثم قال : السلام عليك ومضى، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم نفسه فان ابن طيفور يحدّثنا أن مُخارقا قال : كنّا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعَرِيبُ معنا، فقال : غَنِّ يامخارق، فقلت : أنا محموم، فقال : ياعريب جُسِّيه، فرفعت يدها الى عضدى، فقال لها المأمون : قد اشتهيته، تحبين أن أزوجك ؟ قالت : نعم! فقال مَن تريدين؟ قالت : هذا، وأَوْمَأَتْ الى محمد بن حامد، فقال : اشهدوا أنى قد زوجتها منه . ثم انظر ما يستطرد به مخارق من أن المعتصم لما وَلِيَ، كتب الى اسحاق ابن ابراهيم : أن مُرْ محمد بن حامد أن يُطَلِّق عَرِيبا، فأمره فأبَى، فكتب اليه : أن

(١) أفكل : رعدة وقشعريرة .

آضربْه، فضربه بالمقارع حتى طلقها . ففى هـذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تنظير فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانتــه واقتفاؤهم أثره، وترسُّمهم خطواته ، فانّ الحـديث فى ذلك يطول ، وقصارانا أن نحيل الى ما فعل طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وغيرهما، فاطلب ذلك فى مظانّه .

« وبعــد » فانه لمن الجميل الممتع حقا أن يكون الملك كريما بسجيتّه ، جَوّادا بنزعته ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أن يكون من وراء فواضله وإنعاماته تشجيع الكفايات على الظهور ، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات ، والمواهب والعبقريات ، على التبريز والإحسان، والإجادة والإتقان، خدمة لبنى الإنسان، ورفعة للأوطان .

(ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانتــه :

نريد أن نترك الكلمة فى تصوير هذه الناحيةِ ، لمـا يَرويه لنا ولاةُ المأمون أنفسُهم ، فقد قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبى طالب ، وكذا كان أبوه قبله ، فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هـذا القول ؛ فدسّ اليه رجلا ثم قال له : امض فى هيئة القُرّاء والنسّاك الى مصر ، فادعُ جماعةً من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ، واذكر مناقبَه وعلمَه وفضائله ، ثم صِرْ بعد ذلك الى بعض بطانةَ عبد الله بن طاهر ، ثم ائتِه فادعُه ورغّبه فى استجابته له ، وابحَثْ عن دفين نيّته بحثًا شافيا ، وأتنى بما تسمع منه . قال : ففعل الرجل ما قال له وأمره به ؛ حتى اذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام ، قعد يومًا بباب عبــد الله بن طاهر ، وقد ركب الى عُبيد الله بن السّرىّ بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كمّه رُقعةً فدفعها اليه ، فأخذها بيــده ، فمـا هو إلا أن دخل فخرج الحاجبُ اليه ، فأدخله عليــه ، وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجليه وخُفّاه فيهما ، فقال له : قد فهمتُ ما فى رُقعتك

من جملة كلامك، فهاتِ ما عندك؛ قال: ولى أمانُك وذمةُ الله معك؟ قال: لك ذلك. قال: فاظهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزهده؛ فقال له عبدالله: أتُنصفني؟ قال نعم؛ قال: هل يجب شكرُ الله على العباد؟ قال نعم؛ قال: فهل يجب شكرُ بعضِهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضُّل؟ قال نعم؛ قال: فتجيء الىّ وأنا فى هذه الحال التى ترى: لى خاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبـول، ثم ما التفتُّ يمينى ولا شمالى وورائى وقدّامى، إلا رأيت نعمـةً لرجل أنعمها علىّ ومنـّةً ختم بها رقبتى ويدًا لائحةً بيضاء ابتـدأنى بها تفضُّلاً وكرما، فتدعونى الى الكفر بهـذه النعمة وهذا الاحسان! وتقول اغدر بمن كان أوّلاً لهذا وآخرا! واسعَ فى إزالة خَيْطِ عُنقه وسَفْك دمه! تراك لو دعوتنى الى الجنـة عِياناً من حيث أعلم أكان الله يحبّ أن أغدُر به وأكفُرَ إحسانه ومنـّه، وأنكث بيعته! فسكت الرجل؛ فقـال له عبـد الله: أمَا إنه قد بلغنى أمرُك، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسَك، فارحَلْ عن هذا البلد، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك، وما آمنُ ذلك عليك، كنتَ الجانىَ على نفسك ونفس غيرك. فلما أيس الرجل مما عنده جاء الى المأمون فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غَرْسُ يدى، وإلْفُ أدبى، وتِرْبُ تلقيحى، ولم يُظْهِر من ذلك لأحدٍ شيئا ولا علم به عبـدُ الله إلا بعـد موت المـأمون.

وانظر الى تلك النصيحة التى تقـدّم بها عبدُ الله بن طاهر لمنصـور بن طلحة، ينهاه عن الكلام فى الإمامة اذ يقول: "إنمـا نبت شعرُنا على رءوسنا بنى العباس". ثم انظر الى ما كتبه المأمون الى عبد الله المذكور:

أخى أنت ومولاىَ * ومَنْ أشكرُ نُعماهُ
فما أحببتَ من أمرٍ * فإنّى الدهرَ أهواه
وما تكرَه من شىءٍ * فانى لستُ أرضاه
لك اللهُ عـلى ذاك * لك اللهُ لك اللهُ

وانظر الى ما رواه الطبرى عما قاله عبد الله بن طاهر وهو مُحَاصر بمصر عُبَيدَ الله ابن السرى إذ قال :

بَكَرَتْ تُسْبِلُ دمعا * أن رأتْ وَشْكَ بَرَاحِى
وتبدَّلْتُ صَقِيلًا * يمنيًا بوِشَاحِى
وتماديتُ بسيرٍ * لغدوٍ ورواح
زعمتْ جهلًا بأنى * تَعِبٌ غيرُ مُراح
أقصِرِى عنِّى فإنى * سالكٌ قصدَ فلاحى
أنا للمأمون عبدٌ * منه فى ظلِّ جَناح
إن يُعافِ الله يومًا * فقريبٌ مُستراحى
أو يكن هُلك فقُولى * بعويلٍ وصِياح
حلّ فى مصرَ قتيلٌ * ودَعِى عنك التَّلاحى

ألا يجوز لنا أن نستخلص مما قدمناه لك أن المأمون كان محبوبا عند بطانته ! ولسنا ننفى بذلك أن الأمين لم يكن محبوباً ، وأن موته آلم أهل بغداد وجندها ، ولا ننكر أن بعضا من جند طاهر بن الحسين انضم الى الأمين طمعاً فى ماله وحبا فى سخائه مما بيّناه لك فى موضعه ، ولكنا الآن بموقف الذين يحللون أخلاق المأمون ، وفى عنقنا ألا نترك ناحية من نواحيه من غير أن نَفِيها حقَّها من البحث ، ونعطيها نصيبها من الاستقراء .

« وبعد » فانه مما لا مندوحة للمليك عنه أن يكون وادعا محببا الى بطانته وحاشيته ، باحسانه اليهم ، وتعهده إياهم بعطفه ورعايته ، وأن يحدب عليهم ويرعاهم بعناية تشملهم ألطافها وتقلد أعناقهم مننها ، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقّهم من شخصه الجليل ، إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتبايُنِ مراتبها ، وهو عظيم التَّبِعة أمام الله والتاريخ عمن تملّك عليهم وتولّى أمر دنياهم وآخرتهم .

*

(د) تقــديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقا من أخيه الأمين ، فى كفاية بطانتــه ، وقُدرةِ قادته ، وحزمِ مشــيريه ، وبَصَرِ وُلاته . وكان ، مع ظفرِه بالناصحين من خاصته ، كثير التأمل لما يجرى فى ملكه من مظاهر الضعف والقوّة ، حريصا على تدبر ما يمرّ به من مختلف الشــؤون ، فى تعرّف الشخصيات القوية التى يرجو أن يستند اليها الملك ويتأيد بها النظام .

ولقــد حدّثنا الطبرىّ فى تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق فى قلبي أمرٌ أنا مفكر فيه منذ مدّةٍ طويلة ، وإنما بسطتك فى هذا الوقت لأُفشيَه اليك ؛ فقلت : قل يا سيدى يا أمير المؤمنين ، فانما أنا عبدك وابن عبدك ؛ قال : نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعــة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يُفْلِح أحدٌ منهم ؛ قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ، وعبــدُ الله ابن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُرَ مثلُه ، وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطانُ منك أبدًا ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثلُ محمد! وأنا فاصطنعتُ الأفشين ، فقد رأيتَ الى ما صار أمرُه ، وإشناس ففَشِــل رأيُه ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيفا فلا مُغْنى فيــه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك ، أُجيب عن أمان من غضبك؟ قال : قل ؛ قلت : يا أميرالمؤمنيــن ، أعزك الله ، نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعُها ، واستعمل أميرُ المؤمنين فروعا لم تُنجِب ، إذ لا أصول لهــا . فقال : يا إسحاق ، لمقاساةُ ما مرّ بى فى طول هذه المدّة أسهلُ علىّ من هذا الجواب .

ولقد كان المأمون ، الى جانب هــذه الخبرة بمــا يحتاج اليه من صفوة الرجال ، بصيرا بمــا فى مملكته من ألوان المكر وصنوف الرياء . فقد حدّثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدى ، قال : قال المأمون يوما ، وفى مجلســه جماعة ، هاتوا مر عسكرنا مَنْ يطلب ما عندنا بالرياء ؛ قال : فقال كل واحد بما عنده : إما أن يقول فى عدوّ بمــا يقدح فيه ، أو يقول

بما يعلم أنه يسرّ خليفته، فلما قالوا ذلك، قال : ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتى، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهلِ الرياء، حتى والله لو كان قد أقام فى رَحْلِ كل واحد منهم حولا محرما ما زاد على معرفته . قال : فكان مما حفظت عنه فى ثَلْبِ أصحابه أن قال، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس : تسبيح حُمَيد الطوسى، وصلاة مَخْطبة، وصيام النوشجانى، ووضوء المِرِّيسى، وبناء مالك بن شاهى المساجد، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر، وجمع الحسن بن قريش اليتامى، وقصص منجا، وصدقة علىّ بن الجنيد، وحملان إسحاق بن إبراهيم فى السبيل، وصلاة أبى رجاء الضحى، وجمع علىّ بن هشام القصاص، قال : حتى عددنا جماعة كثيرة، فقال لى رجل من عظماء العسكر، حين خرجنا من الدار، بالله هل رأيتَ أو سمعتَ بملك قط أعلمَ برعيته ولا أشدّ تنقيرا من هذا ؟ قلت : اللهم لا ! فحدثت بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم، فقال : وما تصنع بهذا، قد شهدتُ رسائله الى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء، يخبر بمعايبهم رجلا رجلا، حتى لهو بها أعلمُ منهم بما فى منازلهم . وإن فى ذيوع هذه الأخبار عن المأمون دليلا على عنايته بنشر دعوة الملك الموطد الذى ييئس المخاتلون من التنكر له والخروج عليه، فان ظهور الملوك بالنَّفاذ الى سرائر الرعية، يزيدهم قوةً الى قوة، وسلطانًا الى سلطان .

وإنا اذا نظرنا الى من استوزره وأعلى مكانه واستخلصه لنفسه من رجالات دولته وقواد ملكه، لم نتردد فى الحكم للمأمون، وأنه كان الموفّق المسدد فى اختيار أهل الكفايات والنبوغ .

وقد كان، الى جانب هذا، يقدُر الكفاية فى خصومه . ونظرةٌ فيما رواه ابن طيفور عن الحسن بن عبد الخالق خاصًا برأى المأمون فى الفضل بن الربيع، وهو الذى تعلم مقدار إساءته اليه، تدلك على هذا ؛ فقد قال المأمون فى معرض الحديث عن الفضل : « كان يدبِّر الخطأ فيقع صوابا، ويبعث بالجيش الضعيف فيقع به النصر، وأدبِّر أنا فيقع بغير ذلك . فلما وقفت على البصيرة من أمرى، وفكرت فى نفسى، وعملت بالأحزم

فى ذلك، ملت الى الحزم فوردتُ العراقَ . وإن الفضلَ بن الربيع بقيّة الموالى . فلا تخبره بذلك عنى، فانى أكره أن يبلُغه عنى ما يسرّه» .

ويؤيد صحة هذه الرواية ماذكره بِشْر السّلمانى- من المعاصرين اذ يقول: «سمعت أحمد ابن أبي خالد يقول : كان المأمون اذا أمرَنا بأمر فظهر من أحدنا فيـه تقصيرٌ، يقول : « أترون أنى لا أعرف رجلًا ببابى ، لو قلدتُه أمورى كلّها لقام بها ! » فقال بشر : فقلت لأحمد بن أبى خالد : يا أبا العباس، مَنْ يعنى؟ قال : الفضلَ بن الربيع .

ويظهـر أن خطة المأمون فى تقـدير الكفايات أنّى وُجدتْ، قد اتّبعها قادةُ المأمون نفســه . فان ابن طيفور يحدّثنا أنه لمـا وُلّى طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة أربع ومائتين، وكان عليها من قبلُ العباس بن المسيَّب بن زهير، كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع : « إنّ فى رأيك البركةَ، وفى مشورتك الصوابَ، فان رأيتَ أن تختار لى رجلين للجسر! » فكتب اليه ابن الربيع : «قد وجدتهما لك، وهما خيار السِّنْدى بن يحيى وعيّاش ابن القاسم » . فولّاهما طاهر الجسرين .

«وبعد» فانا نظن أن فى هذا القدر الكفاية لاثبات ما كان من تقدير المأمون ورجاله، لأهـل الكفاية والاقتدار، وحرصِهم على اسـتعمال أصحاب المواهب، والاستعانةِ بهـم وبكفاياتهم، فى خدمة الدولة .

(هـ) قـــدره للشجاعة الأدبيـــة :

كان المأمون يرضيه أن يكون الرجل نقىّ السريرة، رابطَ الجأش، يُقْـدِم على كلمـة الحـق غيرَ هيّاب . وقد حدّثنـا ابن أبى طاهر طيفور عمن روى عنه قال : « حدّثنى أحمـد بن أبى خالد الاحول بخراسان، فيما كان يخبرنى به عن كرم المأمون وفضـله واحتماله وحسنِ معاشرته، أنه سمع المأمونَ يوما، وعنـده علىّ بن هشـام وأخواه أحمـد والحسـين، ذَكَرَ عمرو بن مسعدة فاستبطاه، وقال : أيحسَبُ عمرو أنى لا أعرف أخبارَه

وما يُحكى اليه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم بَعثه ألا يسقط علىّ منه شىء ! ونهض وانصرفنا فقصدت عمرا من ساعتى ، فخبّرته بما جرى ، وأُنسيتُ أن أستحلّه من حكايته عنّى . فراح عمرو الى المأمون ، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمرٍ مهمّ ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له . فخبّرنى عمرو أنه لما دخل عليه وضع سيفه بين يديه ، وقال يا أمير المؤمنين ، أنا عائذ بالله من سخطه ، ثم عائذٌ بك من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقلُّ من أن يشكونى أمير المؤمنين الى أحد أو يُسِرّ علىّ ضِغْنا يبعثه بعضُ الكلام على إظهاره ما يظهر منه ! فقال لى : وما ذاك ؟ فخبّرته بما بلغنى ولم أسمّ له مُخبِرى ، فقال لى : لم يكن الأمر كما بَلَغك ، وإنما كانت جملة من تفصيلٍ كنتُ عَلَى أن أخبركَ به ، وإنما أخرَجَ منى ما أخرج معنىً تجارَيْناه ، وليس لك عندى إلا ما تُحبّ ، فليُفرِخ رُوعُك وليَحْسُنْ ظنُّك ، فأعدت الكلام ، فما زال يسكّن منى ويطيّب من نفسى ، حتى تحلّل بعضُ ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضمّنى الى نفسه ، وقبلت يده ، فأهوى ليعانقنى فشكرته ، وتبيّنت فى وجهه الحياء والخجل مما تأدّى الىّ . قال أحمد : فلما غدوت على المأمون ، قال لى : يا أحمد أمَا لمجلسى حرمةٌ ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحُرَم إلا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم تَرضَوْن بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأيّةُ معاملة يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلام لا أعرفه ، قال : بلى ، أمَا سمعتَ ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو ! ذهب بعضُ من حضر من بنى هاشم فخبّره به ، فراح الىّ عمروٌ مُظهرًا منه ما وجب عليه أن يُظهره ، فدفعتُ منه ما أمكن دفعُه ، وجعلت أعتذر اليه منه بعذرٍ قد تبين فىّ الخجل منه ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلّم به إلّا كذلك يتبين فى عينيه وشفتيه ووجهه ، ولقد أعطيتُه ما كان يقنع منى بأقلّ منه ، وما حدانى عليه إلا ما دَخَلنى من الخَساسة ، وإنما كان نَطَق به اللسانُ عن غير روية ولا احتمال مكروه به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أخبرتُ عمرا به لا أحدٌ من ولد هاشم ، فقال : أنت ! قلت أنا ! فقال : ما حَمَلك على ما فعلتَ ؟ فقلت : الشكرُ لك والنصحُ والمحبة لأن تتمَّ نعمتُك على أوليائك وخَدَمك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء

والبعـداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمـل ومكانه من رأى أمير المؤمنـين، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منـه شـيئا، نخبّرته به ليُصلحه ويقوّم من نفســه أوَدَها لسـيده ومولاه، ويتلافى ما فرّط منه ولا يُفسده مثله ولا يبطل العناء فيه، وإنمـا كان يكون ما فعلت عيبًا، لو أشعتُ سرًّا فيه قدحٌ فى السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ قد استتبّ، فأما مثلُ هذا فما حسبته يبلُغ أن يكون ذنبا علىّ؛ فنظر الىّ مليًّا ثم قال: كيف قلت؟ فأعدتُ عليه، ثم قال: أعِدْ، فأعدت الثالثة، فقال: أحسنتَ والله يا أحمد! لَمَا خبّرتنى به أحبُّ الىّ من ألف ألف وألف ألف وألف ألف، وعقد خِنْصَره وبِنْصَره والوُسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلنفيك عنّى سوءَ الظن وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لى بمال.

وهذه الشجاعة من أتبـاع المأمون تدلنا على ما كان فيــه من الاستعداد لقــدر كرائم الخـلال. فلو أنه كان معروفا بالاستبداد لمـا أمكن هذه النفوس أن تبلغ ما كانت تطمح اليه مِن النبل والكرامة. وفى استماعه لاحتجاج جليســه حرصٌ على استبقائه واستكناه ما فى نفســه، فضلا عما يتوقعه من عواقب هـذا التشجيع المقصود، من التفاف حول شخصــه، وتفانٍ فى الوفاء له، وإمعانٍ فى خدمته وخدمة بلاده، خدمةَ الحرّ لحرّ بباعث وجدانىّ، لاخدمة العبد للسيد بعامل الإرهاب والإكراه. ولن تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والاكراه، ولن تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع العسف والإعنات، وانمـا يكون ذلك جميعه بحسن الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء النفوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشماخ، قال: "قال لى المأمون وعنده الزيْدىّ والقَنَّنىّ مولى الخَيْزُران، واسماعيل بن نَوْبَخْت، وتذاكروا الشعراء، فقالوا: النابغة، وقالوا: الأعشى، وخاضوا فيهم، فقال: لا أشْعَرُهم إلا واحدًا كان خليعا: الحسنَ بن هانئ؛ فقالوا:

صدق أميرُ المؤمنين ؛ قال : الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة ؛ فقالوا : فبم قدمته؟ قال بقوله :

يا شـقيقَ النفس من حَكَمِ * نِمتَ عن ليـلى ولم أنمِ

ثم لم يسبقه الى هذا البيت أحد :

ثم دبّتْ فى عروقهـمُ * كَدَبيب البرء فى السَّقَمِ

وفى عبارة «الصـدق على المناظرة أحسنُ من الصـدق على الهيبة» دلالة على رغبتـه فى إحياء الغرائز الأدبيـة التى تُميتها المصانعة، ويَقْبُرها الرياء . ولا يفوتنا أن نشـير الى أن تقـديمه ابن هانئ ، لتجويده فى وصف الراح، له دلالتـه وله مغزاه ؛ فهو يدلّ، الى حد غير قليـل، الى جانب ما علمناه عن المأمون، أصيدَ الهمة، مستحصَدَ العزم، على أنه كان فى أوقات أنسـه ومرحه الرجل المرح الطروب، الذى يتذوّق المعانى الفرحة، وما لها من مجاملات وأفانين .

« وبعـد » فإن تربيـة الشعوب على قدر كرامتها الخاصـة ورفعة شأنها بين الأمم ، لتتطلّب تعهـدًا خاصا ممن يتولّى أمرها فى هـذا السبيل ، فيعمل على أن يُحِسّ الافـرادُ والحكامُ، ممن هم فى عنقه وتحت هيمنته، مالهم من مكانةٍ ومنزلة، وما لآرائهم وتصرّفاتهم من احترام وقدر ، أخذا لهم بالشجاعة فى المجاهرة بمعتقداتهم ، وتنميةً للروح الذى تفيـده هذه الألفاظ : « حرية . إخاء . مساواة » فى نفوسهم . وإن فى انتهاجهم هذا السبيلَ لأجلّ خدمةٍ لممالكهم وشعوبهم وعروشهم .

(و) عــدله وإنصافه :

كان المأمون عدلا منصفا الى حدّ بعيد . وقد عَرَّف فيه الناس هذه الخَلّة ، فكانوا يطَمعون فى أنصاره والمقربين اليه، ويجهرون بالشكوى من كل مَنْ يسوءهم طمعُه أو ينفُذُ اليهم عُدْوانُه .

حدّث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب بالشمّاسيّة وخلفَ ظهره أحمد بن هشام ، فصاح به رجلٌ من أهل فارس : اللهَ اللهَ يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمنى واعتـدى علىّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ؛ فلما جاز الموضع بغُدْوة التفت الى أحمد ؛ فقـال : ما أقبحَ بنا وبك أن تقفك وصاحبَك هذا رءوس هذه الجماعة ، ويقعد فى مجلس خَصْمك ، ويُسْمَع منه كما يُسمع منك ، ثم تكون محقًّا ، ثم تكون مبطلا ، فكيف إن كنتَ فى صفته لك ، فوجّهْ اليك من يحوّله من بابنا الى رحلك ، وأنصِفْه من نفسك وأعطه ما أنفق فى طريقه الينا ، ولا تجعل لنـا ذريعةً الى ما تكره من لائمتك ، فوالله لو ظلمتَ العبّاسَ ابنى كنتُ أقلّ نكيرًا عليك من أن تظلم ضـعيفا لا يجدنى فى كل وقت ، ولا يَخْلُوا له وجهى ، وسيما من تجشّم السفر البعيد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة » .

قال المحدّث المعاصر : فوجه اليـه أحمد فجاء به وكتب الى عامله يرد عليه ما أخذ منـه ، ويشتمه ويعنّفه ، ووصل الرجلَ بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من يومه .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كوقفه مع موسى بن الحسن ، وإنصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبى العباس الطُّوسى ، وموقفه مع النصرانى الذى من أهل كَشْكَر[1] .

ثم انظر موقفه المشرّف له وللقضاء فى أيامه ؛ فقد قالوا : إن رجلا دخل على المأمون ، وفى يده رقعةٌ فيها مظلمةٌ من أمير المؤمنين ، فقال : أمظلمةٌ منى؟ فقال الرجل : أفأُخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك ! قال : وماهى ظلامتك؟ قال : إن سعيدا وكيلك اشترى منّى جواهر بثلاثين ألف دينار ؛ قال : فاذا اشترى سعيدٌ منك الجوهر تشكو الظلامة منى ! قال نعم ، اذ كانت الوكالة قد صحّت له منك ! قال : لعل سعيدًا قد اشترى منك الجوهر وحمَل اليك المـال أو اشتراه لنفسه . وعليه فلا يَلزمنى لك حقّ ولا أعرف لك ظلامة ؛ فقال له (بعد كلام طويل) : إن فى وصية عمر بن الخطاب لقُضاتكم "البيّنةُ على من ادّعى ، واليمينُ على من أنكر" قال المأمون : إنك قد عدمتَ البينة ، فما يجبُ لك إلا حَلْفةٌ ، ولئن حلفتُها لأنا

(١) أنظر هذه الحكاية فى الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٠١

صادق اذ كنتُ لا أعرف لك حقًّا يَلْزَمنى ؛ قال : فاذًا أدعوك الى القاضى الذى نصبتَه لرعيتك ؛ قال : نعم ! ياغلام ، علىّ بيحيى بن أكثم ، فاذا هو قد مَثَل بين يديه ، فقال له المأمون : اقضِ بيننا ! قال : فى حكم وقضية ! قال نعم ؛ قال : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء ، قال : قد فعلت ؛ قال : فانى أبدأ بالعامة أوّلا ليصلُح المجلسُ للقضاء ، قال : افعلْ ؛ ففتح الباب وقعد فى ناحيةٍ من الباب وأذن للعامة ، ثم دُعِى بالرجل المتظلّم ، فقال له يحيى : ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخَصْمى أميرِ المؤمنين المأمونِ ، فنادى المنادِى ، فاذا المأمون قد خَرَج ، ومعه غلامٌ يحمل مصلًّى حتى وقف على يحيى وهو جالس ، فقال له : اجلسْ ، فطرح المصلّى ليقعد عليها ؛ فقال له يحيى : يا أميرَ المؤمنين ، لا تأخذ على خَصْمك شَرَفَ المجلس ، فطُرِحَ له مصلًّى آخر ، ثم نَظَر فى دعوى الرجل ، وطالبَ المأمونَ باليمين فحلف ، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه ؛ فقال له المأمون : ما أقامك ؟ فقال : إنى كنت فى حق الله جل وعز حتى أخذته منك ، وليس الآن من حق أن أتصدّر عليك ، ثم أمر المأمون أن يحضر ما ادّعى الرجل من المال ، فقال له : خذه اليك ، والله ما كنتُ أحلف على فَجْرة ثم أسمح لك فأفسد دينى ودنياى ، والله يعلم ما دفعتُ اليك هذا المال إلا خوفًا من هذه الرعيّة ، لعلها ترى أنى تناولتُك من وجه القدرة ، وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمة القضاء فى تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من يمت الى الخلفاء لشعائره وأحكامه . ولا نستبعد البتة صحة تلك الرواية ، لأن تصرفات المأمون العباسى تجعلنا نقرّها ونؤمن بصدقها من جهة ، ولأنا قرأنا شبيهاتها من جهة أخرى ؛ فقد قيل : إن ابراهيم بن المهدى تنازع وابن بختيشوع الطبيب ، بين يدى أحمد بن أبى دُواد فى مجلس الحكم فى عَقار بناحية السواد ، فأربى عليه ابراهيمُ وأغلظ ، فأحفظ ذلك ابنَ أبى دواد ، فقال : يا ابراهيم اذا نازعتَ فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمنّ أنك رفعتَ عليه صوتا ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أممًا وريحُك ساكنة ، وكلامك

معتدلا، ووفّ مجالس الخليفة حقوقها : من التعظيم والتوقير ؛ والاستكانة والتوجّه الى الواجب ؛ فان ذلك أشكلُ بك وأشمل لمذهبك فى محتدك وعظيم خطرِه، ولا تعجلَنّ فربّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثًا، والله يعصمك من خطل القول والعمل ، وأن يتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم ؛ فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى، أمرتَ بسَدَاد وحَضَضْتَ على رشاد، ولستُ عائدا لما يَثْلِم مُروءتى عندك ويُسقطنى من عينيك ويُخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار، فهأنذا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذارَ مقرٍّ بذنبه معترِف بجُرْمه، ولا يزال الغضب يستفزّنى بمواده فيردّنى مثلُك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا منك، وقد جعلتُ حقّى من هذا العَقَار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأَرْش الجناية عليه، ولم يتلَف مالٌ أفاد موعظة، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فترى مما قدّمناه لك مبلغ سلطان القضاء وحرمته عند البيت المالك .

وقد يكون أجمل من هذا كله — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائىّ الذى تقدّمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم ابنه العباس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسَعْه إلا أن يعدَها الإنصافَ بأبيات رقيقة على الوزن والقافية، وكانت تلك الأبيات فى خفتها وجودة الخاطر بها فى ساعتها بردا وسلاما على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشَّيْبانى : جلس المأمون يوما للمظالم، فكان آخرُ من تقدّم اليه، وقد همّ بالقيام، امرأةٌ عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رَثّة، فوقفتْ بين يديه، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون الى يحيى بن أَكْثم، فقال لها يحيى : وعليكِ السلام يا أَمَةَ الله، تكلّمى فى حاجتكِ، فقالت :

يا خيرَ منتصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ * ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو اليك عَمِيدَ القوم أرملةٌ * عدا عليها فلم يُتْرَكْ لها سَبَدُ
وابتزّ منّى ضِياعى بعدَ منعتها * ظلماً وفُرّق منّى الأهلُ والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

في دونِ ما قلتِ زال الصبرُ والجَلَدُ * عنّي وأقرحَ منّي القلبُ والكبدُ
هذا أذانُ صلاةِ العصر فانصرفي * وأحضرى الخصمَ في اليوم الذي أَعِدُ
والمجلسُ السبتُ إن يُقضَ الجلوسُ لنا * نُنصِفْكِ منه والا المجلسُ الأحدُ

فلما كان اليومُ الأحدَ جلس، فكان أوّلُ من تقدم اليه تلك المرأةَ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال : وعليكِ السلام، أين الخصم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأتْ الى العباس ابنه، فقال لأحمد بن أبي طالب : خُذْ بيده فأجلسْه معها مجلسَ الخصوم، فجعل كلامُها يعلُو كلامَ العباس، فقال لها أحمد ابن أبي طالب : يا أمةَ الله، إنكِ بين يدى أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأميرَ، فاخفِضى من صوتك، فقال المأمون : دَعْها يا أحمد، فان الحق أنطقها وأخرسه ! ثم قضى لها بردّ ضيعتها اليها، وظلم العباسَ بظلمه لها، وأمر بالكتابِ لها الى العامل ببلدها، أن يوفّر لها ضيعتَها ويحسن معاونتَها وأمر لها بنفقة .

وبعد فان المؤرّخ المنصف، لجدير به أن يقف أمام هذه المُثُل العليا وقفةَ احترام واجلال، وعظةٍ واعتبار، وأن يرغب رغبة صادقة في إذاعة هذه المُثُل ونَشْرها، والعمل على تداولها وذكرها، لأنها قدوة صالحة لحَمَلة التِّيجان، في إنصاف زميلهم الانسان . وإن قُدْس العدالة لواجبٌ احترامُه، وأحقُّ الناس باحترامه هم الوُلَاة وحَمَلة التيجان، وإن في شعور الرعية وعامة الناس بأنهم وحُكّامَهم سَوَاسِيَةٌ، لمدعاةٌ للرضا والاغتباط، والإمعان في خدمة الأوطان، والذّبّ بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .

***

(ز) عفـــوه :

كان المأمون مَضْرب المثل في العفو، حتى لقد كان يَخشى أن لا يُؤْجر عليه، اذ صار فطْرةً فيه، وأطرفُ أنواع عفوه تغاضيه عما كان يحدُث في قصره .

قالت شُكْرُ مولاةُ أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، سمعت المأمون أمير المؤمنين : وكانت عنده أم جعفر، فدعا بمقَارِيضَ[١]، فقال الغلام : قد ذُهِبَ بالمقَارِيض الى الشَّمَّاسية، ثم قالَ ياغلام : بُلَّ لنا الخَيْشَ فَوْقُ[٢]، فقال الغلام : لا، قال : يُبَلّ، فقالت أم جعفر : سبحانَ الله يا أميرَ المؤمنين! ، ما هذا! وأنكرتْ أن يكون سأل عن شيئين فلم يُعملا، فقال المأمون : من قدرت على عقوبته، لسوء فعله، وقبيح جُرْمه، فقدرتُك عليه كافيتُك نصراً لك منه، ولا معنى لعقوبة بعد قدرة، الحلمُ عن الذنب أبلغ من الأخذ به .

وهو هنا يعلّل العفو تعليلا مقبولا جديرا بأن يكون درسا فى الأخلاق .

ثم انظر مبلغ عفوه وحلمه وسماحةِ نفسه، فيما يرويه أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور فى كتابه، قال : « كان للمأمون خادم يتولّى وضوءه، فكان يسرق طِساسَه، فبلغ ذلك المأمونَ فعاتبه، ثم قال له يوما وهو يوضئه : وَيْحَك! لِمَ تسرق هذه الطِّسَاسَ، لو كنتَ اذا سرقتَها أتيتَني بها اشتريتُها منك، قال : فاشترِ هذا الذى بين يديك، قال : بكم؟ قال بدينارين، قال المأمون : أعطوه دينارين، قال : هذا الآن فى الأَمَان .

ومهما يكنْ على هذه الرواية من مَسْحَة المبالغة، أو أنها أُقصُوصةٌ أكثر منها حقيقةٌ، فان طبيعة المأمون وسجيته، وجُنُوحه الى العفو، وأخذَه بالحلم، لمَا يؤيّد لُبَابها وعُصَارتَها، ويقرّر جوهرَها وخلاصتَها، ولمـا يصدق فيه قول مَنْ قال له :

أميرَ المؤمنين عفوتَ حتى ٭ كأن الناسَ ليس لهم ذنوبُ

أما حديثُ حلمه مع عمه ابراهيم بن المهدى فمتعارف مشهور، ومُذَاع مذكور، فقد أبى ابراهيمُ أن يبايعه، ثم ذهب الى الرَّىّ، وادّعى فيها الخلافةَ لنفسه، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما، والمأمون يتوقع منه الانقياد الى الطاعة، والانتظام

(١) جمع مقراض وهو ما يقطع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقص .

(٢) العادة كانت جارية فى العراق أن يوضع الخيش فوق سطح المنزل ويبل وقت الحر ليكون تأثير الشمس واقعا عليه دون السقف وهكذا كانت تفعل ملوك فارس . فلما كان زمن المأمون عمل بطانة للسقف استغنى بها عن الخيش وبله وهى ما نسميه (بغدادلى) وفى بعض البلاد يسمى المأمونى .

فى سلك الجماعة ، حتى يئس من عَوْده ، فركب بخَيْـله ورَجْله ، وذهب الى الرى وحاصر المدينة وافتتحها ، فهرب ابراهيم وتنكَّر ثم أُخذ بعد لأْيٍ ، وقدم الى المأمون فى زى امرأة ، فلما مَثَل بين يديه ، سلَّم عليه بالخلافة ، فقال المأمون : لاسلَّم الله عليك ، ولاحيَّاك ولا رعاك ! فقال ابراهيم : مهلًا يا أمير المؤمنين ! ان ولىَّ الثأر محكَّمٌ فى القِصَاص ، ولكن العفو أقربُ للتقوى ، ومن تناوله الاغترارُ بما مُدّ له من أسباب الشقاء ، أمكن عَادِيَةَ الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلّ ذى ذنب ، كما جعل كلَّ ذى ذنب دونَك ، فان أخذت فبحقِّك ، وإن عفوتَ فبفضلك ، ثم أنشد :

ذَنْبِى اليـكَ عظـيمٌ * وأنت أعظمُ منـه
فَخُـذْ بحقِّك أوْلَا * فاصفحْ بفضلك عنه
إن لم أكنْ فى فعالِى * من الكِرَام فكُنْـهُ

فقال المأمون : شاورتُ أبا اسحاق والعباسَ فى قتلك ، فأشارا به ، فقال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال المأمون : قلت لهما : نبدؤه باحسان ، ونَسْتأمره فيـه ، فإن غيَّر فالله يغيِّر ما به . قال : أمّا أن يكونا قد نصحا فى عظيم بما جرت عليه السياسة فقد فعلا ، وبَلَغا ما يلزمهما ، وهو الرأى السـديد ، ولكنك أبيتَ أن تستجلب النصر إلّا من حيثُ عوّدك الله ، ثم استعبر باكيًا ، فقال له المأمون : ما يُبكيك؟ قال : جَذَلًا اذ كان ذنبى الى من هذه صفته فى الإنعام . ثم قال : إنه وإن كان قـد بلغ جرمى استحلالَ دمى ، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلّغانى عفوه ، ولى بعدهما شـفاعة الاقرار بالذنب ، وحق الأبوّة بعـد الأب ، فقال المأمون : يا ابراهيم ، لقد حُبِّب الىّ العفو حتى خِفْتُ ألا أُوْجَرعليـه . أمَا لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة ، لتقربوا الينا بالجنايات ! لا تَثْريبَ[1] عليك ، يغفر الله لك . ولو لم يكن فى حق نسـبك ، ما يبلغ الصفحَ عن جرمك ، لبلّغك ما أمّلتَ حسنُ تفضـلك ولطفُ توصّلك . ثم أمر بردّ ضِيَاعه وأمواله ، فقال ابراهيم :

(١) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .

رددتَ ما لى ولم تبخـــل علىّ به * وقبل ردِّك مالى قد حقَنْتَ دَمِى
وقام علمُك بى فاحتجّ عنــدك لى * مقامَ شاهــدِ عَدْلٍ غيرِ متَّهــم
فلو بذلتُ دمى أبْغِى رضـاك به * والمـالَ حتى أسُلَّ النعلَ من قدمى
ما كان ذاك سوى عَارِيّة سلفت * لو لم تَهَبْها لكنتَ اليــوم لم تُلَم

« وبعــد » فشدّ ما يحتاج الولاةُ والقادة والزعماء، الى خَلّة العفو والاحسان، فى حزم وحسن موٰاناةٍ، ليَسْتَلُّوا من القلوب عداوتَها، وليستأصلوا من النفوس سَخِيمتَها، وليضمنوا من الرعية والأتباع الاخلاص المحض والود الصحيح .

(ح) احــتماله :

ومن الدلائل على صـلاحية المأمون لمـا أعدّته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذى لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو خُلُق يراه البعض سمـاحة ، ونراه من المأمون سياسة ، هى من الصميم فى آداب الملوك ، و إنه ليحتمل ، حتى لتحسبه من الغافلين ، ولكن الرجل كان يعرف أن للملك مصاعب ومتاعب ، أقلها مداراة النـاس ، والنزول لهم عن بعض ما يشتهون .

روى بعضهم عن قُثَم بن جعفر أنه قال : قال المأمون فى يوم الخميس ، وقد حضر الناس الدار لعلى بن صالح : ادْعُ اسماعيل قال : فخرج ابن صالح ، فأدخل اسماعيلَ بن جعفر ، وأراد المأمون اسماعيل بن موسى ، فلما بَصُر به من بعيد ، وكان أشدّ الناس له بغضا ، رفع يديه مادّهما الى السماء ، ثم قال : اللهم أبْدِلْنِى من ابن صالح مطيعا فانه لصداقته لهذا آثر هواه على هواى ، قال : فلما دنا اسماعيلُ بن جعفر ، سلم فردّ عليه ثم دنا فقبّل يده ، فقال : هات حوائجك ، قال : ضيعتى بالمُغِيثَة ، غُصِبتُها وقُهِرتُ عليها ، قال : نأمر بردّها عليك ، ثم قال : حاجتَك ، قال : يأذن لى أمير المؤمنين فى الحج ، قال : قد أذنَّا لك ، ثم قال : حاجتك ، قال : وَقْفُ أبى أُخرِج من يدى وصار الى قُثَم والقاسم ابْنَى جعفر ، قال : فتريد ماذا؟ قال : يردّ الىّ ، قال :

أمّا ما كان يُمكّننا من أمرك فقد جُدْنا لك به، وأمّا وقفُ أبيك فذاك الى ورثته ومواليه، فان رَضُوا بك واليا عليهم وقيّا لهم رددناه اليك، وإلا أقررناه فى يد من هو فى يده،ثم خرج، فقال المأمون لعلى بن صالح : مالى ولك عافاك الله،متى رأيتنى نَشِطْتُ لاسماعيل بن جعفر وعُنيت به وهو صاحبى بالأمس بالبصرة ! قال : ذهب عن فكرى يا أمير المؤمنين، قال : صدقت، لعَمْرى ذهب عن فكرك ما كان يجب عليك حفظه، وحفظ فكرُك ما كان يجب عليك ألّا يخطُر به، فأما اذْ أخطأتَ فلا تُعْلِم إسماعيل ما دار بينى و بينك فى أمره . فظنّ علىٌّ أنه عنى بقوله هـذا اسماعيل بن موسى ، فأخبر اسماعيلَ بن جعفر القصة حرفا حرفا ، فأذاعها ، و بلغ الخبرُ المأمونَ فقال : الحمد لله الذى وهب لى هذه الأخلاق، التى أصبحتُ أحتمل بها علىّ بن صالح وابن عمّران وابن الطُّوسىّ وحُمَيد بن عبد الحميد ومنصور ابن النُّعمان ورعامش .

« و بعد » فالاحتمال خلة محبّبة الى النفوس ، تدعو الى الوفاق والوئام ، وهى بالملوك أولى وأجدر لمكانهم من الزعامة والقيادة ، ولمنزلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل سجية تحببهم الى الناس، وتكون قدوة يترسّمها مَنْ عداهم ممن يتصرفون فى شؤون العباد ومستقبل البلاد .

⁂

(ط) بصره بالأدب :

سترى فيما نعرض له ، فى القسم الأدبى، من آثار المأمون وكتابته، مبلغ تبريزه فى الفنون الأدبية ، وتملكه أعنة البلاغة ، وحسن تصريفه لكل أفانين الثقافة العربية، الى جانب حسن تصريفه، لشتى أمور ملكه .

والآن – وسبيلنا تحليل شخصية المأمون، نرى من الواجب لتوفية البحث حقه من مختلف وجوهه، أن نشير الى كلفه بالأدب، مفترضين على كل حال ، ما قد يكون بمثله ، من تشيع المغالين من الولاء له ، وماقد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله، لن يؤثر فى اللب والجوهر، وهو أن المأمون كان أديبا، عالما بأفانين القول ومناحيه، وليس ذلك ببعيـد، على من تتلمذ على شيوخ الأدب العربى، كسيبويه واليَزيدى ويحيى بن المبارك بن المُغيرة، الذى أخذ العربيـة عن أمثال أبى عمرو ابن العَلاء وابن أبى اسحاق الحَضْرَمى، وأخذ اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذى ألف كتابا فى النحو لبعض أولاد المأمون.

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيما إفادة.

قال عِمارة بن عَقيل : أنشدتُ المأمونَ قصيدةً مائة بيت، فأبتدئُ بصـدر البيت، فيُبَادِرُنى الى قافيته كما قفَّيته، فقلت : والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها منّى أحد قط! فقال هكذا ينبغى أن يكون، ثم قال لى : أمَا بلغك أن عمر بن أبى ربيعة أنشد عبدَ الله بن عباس قصيدته التى يقول فيها * تَشُطّ غدًا دارُ جيراننا * فقال ابن عباس * وللدَّارُ بعد غدٍ أبعدُ * حتى أنشده القصيدة يقفيها ابن عباس ثم قال : أنا آبنُ ذاك. ورووا أن المأمون قال :

بعثتُك مُرْتادا ففـزتَ بنظـرة * وأغفلتنى حـتى أسأتُ بك الظنَّا
فناجَيتَ مَنْ أهـوى وكنتُ مباعَدا * فياليت شـعرى عن دنوك ما أغْنى
أرى أثرًا منـه بعينيـك بيِّنًا * لقـد أخذتْ عيناك من عينه حسنا

ومهما قيل إن المأمون أخذ هذا المعنى من العبّاس بن الأَحْنف الذى يقول :

إن تَشْقَ عينى بها فقد سَعِدَتْ * عينُ رسـولى وفزتُ بالخـبر
وكلّمـا جاءنى الرسـولُ لهـا * رَدَّدْتُ عهـدا فى عينه نظـرى
خذ مقلتـى يا رسـولُ عاريةً * فانظـرْ بهـا واَحتكمْ على بصرى

فان شـعر المأمون يدل فى جملته، على تذوقه الحسنِ، بالشعر الحسنِ، والخيال الحسنِ. ثم لتنظر معى فى الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السِّمْط وعِمارة بن عَقيل، فان أولهما يقول لعمارة : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ فقال عمارة : ومن يكون أعلم منه؟ فوالله إنا لننشده أوّلَ البيت فيسبقُنا الى آخره، قال عبـد الله : إنى أنشـدته بيتا أجدتُ فيه فلم يتحرك له، فقال عمارة : وما هو؟ قال :

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلا ⁕ بالدين والناسُ بالدنيا مَشَاغِلُ

فقال عمارة : والله ما صنعتَ شيئا ! هل زدتَ على أن جعلتَه عجوزا فى محرابها ، فاذا مَن الذى يقوم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها ، وهو المُطَوَّق بها ؟ ألا قلتَ كما قال جدى جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو فى الدنيا مضيعٌ نصيبَه ⁕ ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغلُهْ

فقال عبد الله : الآن علمتُ أنى قد أخطأت .

ولقد كان المأمون واقفا أتم وقوف وأكمله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع حسن بصر ، وأتمّ حذق ، وأدقّ تفهم ، يدلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزار الضرير الشاعر قال : قال لى علىّ بن جَبَلة : قلت لحُمَيد بن عبد الحميد : يا أبا غانم ، قد امتدحتُ أمير المؤمنين بمدح لا يُحْسِن مثلَه أحد من أهل الأرض ، فاذكُرنى له ، فقال : أَنْشِدنيه ، فأنشدتُه ، فقال : أشهد أنك صادق ، فأخذ المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا غانم ، الجواب فى هذا واضح ، إن شاء عفونا عنه ، وجعلنا ذلك ثوابا لمديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفى أبى دُلَف القاسم بن عيسى ، فان كان الذى قال فيك وفيه أجودَ من الذى مدحَنا به ، ضربنا ظهره وأطلنا حبسَه ، وإن كان الذى قال فينا أجود أعطيتُه بكل بيت من مديحه ألف درهم ، وإن شاء أقلناه ، فقلت : ياسيدى ، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك ! فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة فى شىء ، فاعرضْ ذلك على الرجل . قال على بن جبلة : فقال لى حُمَيد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحبّ الىّ ، فأخبر المأمون ، فقال : هو أعلم ، قال حُمَيد ، فقلت لعلىّ بن جَبَلة ، الى أى شىء ذهب فى مدحك أبا دلف وفى مدحك لى ؟ قال : الى قولى فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دُلَف ⁕ بين مُبْداه ومُحْتَضَرِهْ

فإذا ولّى أبو دلف ⁕ ولّت الدنيا على أثَرِهْ

والى قولى فيك :

لولا حُمَيد لم يكن * حَسَبٌ يعدّ ولا نسبْ
يا واحد العرب الذى * عزّتْ بعزته العــربْ

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قرابة دِعْبل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيَسُومنى المأمونُ خطـةَ عاجز * أوَ ما رأى بالأمس رأسَ محمد
يُوفِى على هَامِ الخلائف مثلَ ما * تُوفِى الجبالُ على رءوس القَرْدَدِ (١)
ويَحِـلّ فى أكناف كل ممنَّـع * حتى يذلّل شاهقا لم يُصْـعَد
إن التِّراتِ مسهِّد طُلّابهـا * فاكْفُفْ لُعابَك عن لعاب الأسود

فلم يتقدّم المأمون بإيذاء دعبل، وكل مافعل أن قال : هو يهجو أبا عبّاد، ولا يهجونى. يريد حِدَّةَ أبى عباد .

وكان بصيرا بأخبار العرب ، واقفا على تاريخ مجاويدهم وغطاريفهم، فقد ذكر عِمَارة ابن عَقِيل قال : « قال لى المأمون يوما، وأنا أشرب عنـده، ما أخبثك يا أعرابىّ، قال قلت : وماذاك يا أمير المؤمنين، وهَنَّأَتْنِى نفسى، قال كيف قلت :

قالتْ مُفَــدّاةُ لما أن رأتْ أرقِى * والهمّ يعتـادُه من طيفِــه لَمَمُ
نَهَبْتَ مالَكَ فى الأدنَيْن آصِرةً * وفى الأباعد حتى حَقّــك العــدمُ
فاطلبْ اليهم ترى ماكنت من حسن * تُسْدِى اليهم فقــد باتت لهم صِرَمُ (٢)
فقلتُ عَذْلَكِ قد أكثرتِ لائمتى * ولم يَمُتْ حاتمٌ هزلًا ولا هَرِمُ

فقال لى المأمون : أين رميتَ بنفسك الى هَرِم بن سِنَان سيد العرب، وحاتم الطائى . فعلا كذا وفعلا كذا وأقبل يَتَنَالُ (٣) علىّ بفضلهما، قال : فقلت ياأمير المؤمنين : أناخير منهما، أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

---

(١) القردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض . (٢) الصرم : جمع صرمة وهى القطعة من الإبل نحوالثلاثين .
(٣) يعدّد محاسنهما و يذكرها .

ثم انظر بلاغته ومتانة عبارته، فى مشافهاته ومبادهاته . فقد روى ابراهيم بن عيسى قال : لما أراد المأمون الشخوص الى دمشق هيأتُ له كلاما، مكثت فيه يومين وبعض آخر، فلما مثلتُ بين يديه، قلت : أطال الله بقاء أمير المؤمنين فى أدوم العز وأسبغ الكرامة، وجعلنى من كل سوء فداه، إن مَنْ أمسى وأصبح يتعرف من نعمة الله ــ له الحمد كثيرا ــ عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحسن تأنيسه له ، حقيقٌ بأن يستديم هذه النعمة، ويلتمس الزيادة فيها، بشكر الله، وشكر أمير المؤمنين ــ مد الله فى عمره ــ عليها . وقد أُحبّ أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله، أنى لا أرغب بنفسى عن خدمته ، أيده الله بشىء من الخَفْض والدَّعة، إذ كان هو أيده الله، يتجشَّم خشونةَ السفر، ونَصَبَ الظَّعْن، وأولى الناس بمواساته فى ذلك، وبذل نفسه فيه أنا، لِمَا عرّفنى الله من رأيه ، وجعل عندى من طاعته ، ومعرفة ما أوجب الله من حقه ، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمنى بلزوم خدمته ، والكَيْنونة معه فعل . فقال لى المأمون مبتدئا من غير تروية : لم يعزم أمير المؤمنين فى ذلك على شىء ، وإن آستصحب أحدا من أهل بيتك، بدأ بك وكنت المقدّم عنده فى ذلك، ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه، وإن ترك ذلك فمن غير قِلًى لمكانك، ولكن بالحاجة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداؤه أكثر من ترويتى .

قال أبوالعتاهية : وجه الىّ المأمون يوما، فصرتُ اليه، فألفيته مُطرقا مفكرا، فأحجمت عن الدنو منه فى تلك الحال ، فرفع رأسه، فنظر الىّ ، وأشار بيده أن آدْنُ، فدنوت . ثم أطرق مليا، ورفع رأسه، فقال : يا أبا اسحاق، شأن النفس الملل، وحب الاستطراف، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . قلت : أجلْ يا أمير المؤمنين . ولى فى هذا بيت قال: ما هو؟ قلت :

لا يُصْلِح النفسَ إذ كانت مدبرة * إلا التنقلُ من حالٍ الى حال

ثم انظر الى بلاغة المأمون، التى كانت سليقة فيه، وإن نزلت بساحته الهموم والفوادح، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب بابنة له ، كان يجِدُ عليها وَجْدا شديدا . فجلس وأمر أن

يؤذن لمن بالباب، فدخل عليــه العباس بن الحسن العلوى، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك معزّين، ولكن أتيناك مقتدين . ثم قال : يا أمير المؤمنين، إن لسانى ينطلق بمدحك غائبا . وأحبّ أن يتزيّد عنـك حاضرا ، أفتأذن فأقول ، قال المأمون : قل فانك تقول فتحسن ،وتشهد فتزين ، وتغيب فتؤتمن ، فقال العباس له ،وصدق فيما يقول ، : ياأميرالمؤمنين ما أقول بعد هذا ! لقد بلغتَ من مدحى مالا أبلغه من مدحك .

وانظر الى حلاوته فى بلاغتــه ، وفراهته فى طُلاوته ، ومتانتــه فى عبارته ، حين نصح لابنه العباس فقال له : ينبغى يا بنىّ لمن أسْبغ الله عليــه نِعَمه ، وشَرَكه فى ملكه وسلطانه ، وبسط له فى القدرة ، أن ينافس فى الخـير ، بما يبقى ذكره ، ويجب أجره ، ويرجى ثوابه . وأن يجعـل همته فى عدل ينشره ، أو جور يدفنــه ، وسنّةٍ صالحة يحببا أو بدعة يميتها . أو مكرمة يعتقدها ، أو صنيعة يسديها ، أو يدٍ يودعها ويوليها ، أو أثرٍ محمود يتبعه .

ويقول لنا الجاحظ فى البيان والتبيين : كان سهل بن هارون شـديد الإطناب فى وصـف المأمون بالبلاغة والجهارة ، وبالحلاوة والفخامة ، وجودة اللهجة والطلاوة . ويقول ثُمامة بن أشْرَس النميرى : ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون . وإن فيما ذكره ابن الجوزى والعاملى وغيرهما فى طرب المأمون للطُّرَف واللغة ، لمـا يثبت بصره بالأدب وحذقه للغـة ، وتمكنه فى النحو . وإنا نختتم كلمتنا هـذه بمـا قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مَسْعدة ويحيى بن أكْثم فانها فى السِّماك بلاغة ودقة معنى وحلاوة أسلوب وسمو سجايا وحسن تدبير ونضوج دُرْبة ،ولا يقولها إلا من كان الى جانب ما وصفناه حمال أعباء، نهاضا ببزلاء[1]،قصيا مَرْمَى همتــه ، رفيعا مَنَاطُ عزمتــه ، وهى مع كل ذلك من عَفْو الخاطر، ونتاج البديهة .

قال : « اعتبروا فى علوّ الهمة بمن ترون من وزرائى وخاصتى ، إنهـم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم . إنه مَنْ تبع منكم صِغارَ الأمور ، تبعه التصغير والتحقير وكان

---

(١) يقال : هو نهاض ببزلاء، أى صاحب همة يقوم بالأمور العظام .

قليلُ ما يَفتقد من كبارها أكثرَ من كثير ما يستدرك من الصّغار ، فترفعوا عن دناءة الهمة ، وتفرّغوا لجلائل الأمور والتـدبير ، واستكفُوا الثّقات ، وكونوا مثـلَ كرام السّباع التى لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها . واعلموا أن أقدامكم ان لم تتقدم بكم ، فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يغنى الولىُّ عنكم شيئا ما لم تعطوه حقَّه . وأنشده :

نحن الذين اذا تَحمّط عُصْبةٌ ⁕ من مَعْشرٍ كنّا لها أنكالَا
وترى القُـرُومَ مخالةً لقرومنـا ⁕ قبـل اللقاء تُقطّـر الأبوالَا
نَرِدُ المنـيّة لا نخاف ورودَها ⁕ تحت العَجاجة والعيونُ تلالَا
نعطى الجزيلَ فلا تُمنُّ عطاءنا ⁕ قبـل السؤال ونحمل الأثقالَا
واذا البلاد على الأنام تزلزلتْ ⁕ كنا لزلزلة البـلاد جبالَا

«وبعـد» فشدّ ما يروق الرعية تبريزُ ولاتها فى البلاغة والبيان ، وشدّ ما يُثلج الأفئدة ويقرّ العيون تملكهم لأعنّة القول ، واطلاعهم على الغُـرَر والمُلَح وتشجيعهم لذوى الاحسان .

وجميـل جدا أن تنشر الكفايات ، وأن يتخذ الولاة من كلمة المأمون : «إن وزرائى والله ما بلغوا مراتبهم عنـدى إلا بأنفسهم» سـنة يترسّمونها ، وقاعدة يتبعونـها ، وحكمة يذيعونها لترتفع النفوس وتسمو النزعات ولينال الاحسانَ أهلُ الاحسان .

(ى) علم المـأمون :

كان المأمون وافر العلم ، غزير الاطلاع وليس ذلك بعزيز على خليفة ملأ عصرَه بأنواع المعارف الانسانية ، ونفخ فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يَسِمَه بسمته ، وأن يرجع فضلَ الحضارة العباسية اليه .

ولكن المأمون فى علمه وثقافته لم يقف عنـد حدّ الثقافة الذاتية ، وإنما وجّه حرصه الى أن يثير فى نفوس أصحابه كوامن الرغبـة الى التعمق فى الدرس ، والشوق الى إدراك حقائق الأشياء ، وكانت له فى ذلك طريقة معروفة ، هى توجيه السَّمَر والحديث الى فنون

العلم، وضروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المـائدة يفتح لجلسائه أبوابا من القول ما كانت تخطر لهم ببال .

قال جعفر بن محمـد الأَنماطي : إن المأمون لمـا دخل بغداد، وقرّ بها قراره، وأمر أن يدخل عليـه من الفقهاءِ والمتكلمين وأهلِ العلم جماعةٌ، يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد فى صــدر نهاره على لُبُودٍ فى الشتاء وعلى حصيرٍ فى الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للمظالم فى كل جمعـة مرتين، لا يمتنع منه أحد، قال : واختـير له من الفقهاء لمجالسته، مائة رجل، فمـا زال يختارهم، طبقة بعـد طبقةٍ، حتى حصّل منهـم عشرة، كان أحمد بن أبى دُوَادٍ أحدهم، وبِشْرُ المَرِيسى . قال جعفر بن محمد الانماطى : وكنتُ أحدهم، قال : فتغدّينا يوما عنده، فظننت أنه وضع على المـائدة أكثر من ثلثمائة لون، فكلما وضع لون، نظر المأمون اليه، فقال : هذا يصلح لكذا، وهــذا نافع لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة، فليجتنب هــذا، ومن كان صاحب صَفْراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليـه السَّوْداء فليأكل من هذا، ومن أحبّ الزيادة فى لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة الغِذَاء فليقتصر على هــذا، قال : فوالله إن زالت تلك حالَه فى كل لون يقدّم، حتى رُفعتِ الموائد . قال فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين، ان خضنا فى الطب كنتَ جالينوس فى معرفته ! أو فى النجوم كنت هِرْمِس فى حسابه ! أو الفقـه كنتَ على بن أبى طالب صلوات الله عليـه فى علمه ! أو ذكرنا السـخاء فأنت فوق حاتم فى جوده ! أو ذكرنا صـدق الحديث كنت أبا ذرّ فى صــدق لهجته ! أو الكرم كنت كعب بن مامة فى إيثاره على نفسه ! قال : فسرّ بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد، إن الانسان إنما فُضّل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دمٌ أطيب من دم . وانك اذا قلت : إن يحيى بن أكثم، قد بالغ فى تجليـل المأمون، وغلا فى صفته، فأنا معك فى ذلك، ولكننى ألاحظ أن هــذا الغلو لا يخلو من أثارَةٍ من حق وصدق .

ولننظر معى نظرة مُستقْصٍ لاطلاع المأمون ، وتدفق المعانى اليه ، ومواتاة الأفكار له حينما ارتدّ رجل من أهل خراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدينة السلام، فلما أُدخل عليه أقبل بوجهه اليه ، ثم قال له : « أخبِرْنى : ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من ديننا ، فوالله لأن أستحييك بحق أحب الىّ من أن أقتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مسلما . فإن وجدت عندنا دواء دائك ، تعالجتَ به اذ كان المريض يحتاج الى مُشاورة الأطباء . فان أخطأك الشفاء ونبا عن دائك الدواء ، كنت قد أعذرتَ ولم ترجع على نفسك بلائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك الى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تُقصِّر فى اجتهاد ، ولم تدع الأخذ بالحزم » . فقال المرتد : « أوحشنى ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون : « فإن لنا اختلافين : أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز، والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفُتيا، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذّن مثنى وأقام فرادى لم يُؤَثِّم من أذن مثنى وأقام مثنى، لايتعايرون ولا يتعايبون، أنت ترى ذلك عيانا، وتشهد عليه بيانا، والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم، مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا، فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوارة والإنجيل متفقا على تأويله ، كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات، وينبغى لك ألّا ترجع إلّا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ،ولو شاء الله أن ينزّل كُتُبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ،ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دُفع الينا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البَلْوى والمحنة، وذهبت المسابقة

والمنافسة ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بَنَى الله جل وعز الدنيا» فقال المرتد : «أشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا!» قال : فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : «وفّروا عليه عِرْضه ، ولا تبرّوه فى يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوه إنه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه» .

وهـذا المنحى الذى نحاه المأمون ، فى إقناع ذلك المرتد يدلنا على ناحيتين من نواحى تفكيره :

الأولى : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وتدقيقه فى فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويكاد هذا التقسيم يَقضى على كل شُبْهة ، عند من يَرِيبهم هـذا النزاع الذى طال بين الفِرَق الاسلاميـة ، وتشعّبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية : تعمُّقه فى درس النفسيّات ، واستقصاء خلجات القلب ، وهجسات الضمير ، وذلك ظـاهر فى مراجعته لحيـاة الرجل الروحيّـة ، وتأمله لمـا أَلِفَته نفسُـه وسكن اليه وجدانه قبل إسـلامه ، فقد بنى على هـذه السابقة طريقة التآلف والتسامح التى قضى بها على مامُنِيَ به الرجل من الكفر بعد الإيمـان .

«وبعـد» فان المأمون فى علمه وعرفانه أهلٌ للاحتذاء والارتسام من أقرانه ، قَمِينُ بالتمثّل به والاقتفاء من أخدانه ، ليكون زمانهم غُرّة فى جَبين الدهر كزمانه ، وليكون نصيبهم نصيبه فى مهابته ورفعة شانه ، ورسوخ عَرْشه وقوة بنيانه .

(ك) احترامـه للدين :

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية ، يرى فيها صيانةً لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يَشْتَطّ فى ذلك ، فيعاقب على هَفْوة مَرّت عليهـا عشرات السنين ، وسنقصّ عليك حادثة ، هى دلالة على هذا الإسراف ، وهى أيضا عُنوان على ذوقه فى نقد

الشعر ، وإنا لنرجح أن للظرف الذى وقعت فيه هـذه الحادثة تعليلا لمـا اجترح فيها ، فلولا مجلس الغناء ولعبه بالنفس ، لمـا عزل قاضٍ لهفوة لفظية ، طال على عهدها الزمان ، واليك الحديث :

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حَشيشة محمد بن علىّ بن أمية بن عمرو قال : كنا قدام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى علُّويه :

بَرِئتُ من الإسلام إن كان ذا الذى * أتاك به الواشـون عنّى كما قالوا
ولكنهم لمـا رَأَوْكِ سريعـةً * إلىّ تَواصَـوْا بالنميمة واحتالوا

فقال : ياعلُّويَه ، لمن هذا الشعر؟ فقال : للقاضى ، قال : أىّ قاضٍ ويحك؟ قال : قاضى دمشق . فقـال : يا أبا اسحاق ، اعزله ، قال : قد عَزَلتُـه ، قال : فيُحضَر الساعة ، قال : فأحضر شـيخ مخضوبٌ قصـيرٌ ، فقال له المـأمون : مَن تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلانى ، قال : تقول الشعر؟ قال : قد كنتُ أقوله ، فقال : يا علُّويَهْ ، أنشِدْه الشعر فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالق وكل ما يملك فى سبيل الله ، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا فى زُهْد ، أو معاتبة صديق ، فقال : يا أبا اسحاق ، اعزلْه ، فما كنت أولّى رقابَ المسلمين من يبدأ فى هَزْله بالبراءة من الإسلام... ثم قال : يا علُّويَه ، لا تقل برئت من الاسلام ، ولكن قل :

حُرِمتُ مُناىَ منكِ إن كان ذا الذى * أتاكِ به الواشـون عنّى كما قالوا

وهذا الموقف من المأمون شبيهٌ كل الشبه بموقفـه مع يحيى بن أكثم وزيره وقاضيه ، حيث قال له المأمون : «لا أترك قاضيا يشرب النبيذ!» .

ثم لننظر ما يُرَوى عن سَعيد بن زِياد أحد المعاصرين ، فانه يدلّك على تقديس المأمون لآثار النبىّ واحترامه لها ، وتيمّنه بها ، مع وَرَع وخشوع ، فقد قيل : إنه لـما دخل المأمون دمشق قال له : «أرِنى الكتابَ الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم» ، فأراه سعيد إياها ، فقال له : «إنى لأشتهى أن أدرِىَ أىّ شىء هذا الغشاء على هذا الخاتم» فقال له أبو اسحاق :

حُلّ العُقْـدة حتى ترى ما هو فقال المأمون : ما أشـكُّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عقد هـذا العَقْد، وما كنت لأحلّ عقدًا عَقَده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال للواثق : خذه فضَعْه على عينيك، لعل الله أن يَشْفيك، وجعل المأمون يضعه على عينيه ويبكى .

على أنا نرى من الوفاء للنقد العلمىّ أن نحيل القارئ هنـا الى كلمتنا عن سياسـة المأمون، والى مذهبـه الدينىّ فى الاعتزال، كما نحيله الى مبحثنا فى الحياة العلمية والأدبية فى عصره، ونظنّ أنه سيلاحظ معنا أن هذه السذاجةَ الطيّبة، وذلك الإيمان الجليل فى تقدير المأمون للآثار النبوية لاتتفق فى حقيقة جوهرها مع ما أجمع عليـه المؤرخون فى سياسته، ولا مع اعتزاله أو توغّله فيما ترك الفلاسفة الأوّلون (١) ، ولا مع ما أخذ به المأمون بعض معاصريه من ألوان النقد فى شؤون دينهم ودُنْياهم .

والمأمون عند صحة هذه الرواية بين اثنين : إما أن يكون قوىّ العاطفة الدينية، رقيق الحس، يخضع لوجدانه وإيمانه؛ وإما أن يكون فى مثل هذه الأحوالِ رجلَ سياسةٍ ودهاءٍ، يحسب ألفَ حساب لعواطف الجماهير ويحترم مُيُول الجماعات الدينية .

« وبعـد » فالدِّين للديّان جلّ جلاله ، وأنعِمْ بالوُلَاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات .

⁂

(ل) سـيـاسـتـه :

ولقـد كان المأمون سياسيا فذّا ، وليس أدلّ على « دِبْلُوماطِيقيته » ، من خُطَّته التى لا نجد لهـا فى عصره ما هو أحكم منها ولا أسدّ، مع رُكُونه الى مُشاورة شِيعته وأنصاره اذا حَزَبَهُ أمر . ولا أدلّ على كِياسته وكبير مهارته من تصرّفاته مع سفراء أخيـه الأمين مما وقَفْتُك على طرف منه، فى فصل النزاع بين الأخوين .

---

(١) يقول الأستاذ الشيخ عبـد الوهاب النجار : « الاعتزال مذهب من مذاهب التوحيد أراد القائمون به تنزيه الله عن الأشباه فنفوا أن يكون لله صفات لئـلا يتعدّد القدماء، ثم انتقلوا الى الأفعال فنفوا أن يكون لله أثر فى فعل الشر فقالوا إن الله منزه عن الشر وإن الإنسان يخلق أفعال نفسـه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه الخ ما قالوا . وليس فى هذا ما ينافى إجلال المأمون لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان سياسيا فذًّا ، فى تزوجه من بُوران بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسىّ ، وفى تزويجه علىّ بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن على بن موسى ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلوىّ ، راميا بذلك كلّه الى ضمان تأييد الأحزاب له ، عارفا لنفسيّات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسيا فذًّا ، مصيبا لُبابَ الصواب فى قوله لأحمد بن أبى دواد عن أهل بغداد : «الناس على طبقاتٍ ثلاث فى هذه المدينة ، ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالمُ فليس يتوقع إلّا عفونا و إمساكنا ، وأما المظلومُ فليس يتوقّع أن يُنصَف إلا بنا ، ومَن كان لا ظالما ولا مظلوما فبيتُه يَسعه » .

وكان سياسيا فذًّا ، فى مداراته عمّاله ، وليس أدلّ على ذلك من تصرّفه مع ابراهيم بن السّندىّ صاحب الأخبار ، وقد رَفَع اليه خبرا عن حادثة بمصر ، فكذّبه عبد الله بن طاهر ، فعنّف المأمونُ السندىّ آلَمَ التعنيف ، أمام ابن طاهر ثم بعث اليه ، وقال له : « إنى آمر وأدارى عمّالى وعمالهم ، مداراةَ الخائف ، والله ما أجد الى حملهم على المَحَجّة البيضاء سبيلا ، فاعمَلْ بى على حسب ما ترانى أعمل ، وإن لم تسلمْ لك أيامُك ، ويَغَضّ دينُك » .

وكان سياسيا فذًّا ، حينما رَفع اليه صاحب خبره « إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رِقاعا ، فيها كلامُ السفهاء والسِّفْلة ، وفيها تهديدٌ ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظ ، الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره ، فكتب المأمون بخطه : «هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا خَرقُه ، فمُرْ أصحاب أخبارك ، متى وجدوا من هذه الرِّقاع رُقعة أن يمزّقوها ، قبل أن ينظروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم يُرَ لها أثر ولا عين» ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعالَ ننظرْ نظرة تحليلية قصيرة ، فيما يَرويه لنا زيد بن على بن الحسين ، قال : «لمّا كان فى العيد ، بعد قدوم المأمون سنة أربع ومائتين والمأمون يتغدّى ، وعلى مائدته طاهر بن الحُسين وسعيد بن سَلْم وحُميد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرّظه ، ويذكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجالسه ، اذ آنهملت عينا المأمون بالدموع ، فرفع يده عن الطعام ، فأمسك القوم حين راوْه بتلك الحال ، حتى اذا كَفّ ، قال لهم : كلوا ، قالوا : يا أمير

المؤمنين ، وهل نُسيغ طعاما أو شرابا وسيّدُنا بهذه الحال . قال : أما والله ما ذلك من حَدَث ولا لمكروه هَممتُ به بأحد ، ولكنه جنس من اجنـاس الشكر لله لعظمته ، وذكر نعمته التى أتمها علىَّ ، كما أتمهـا على أبوَىّ من قبـلى ، أما ترَوْن ذلك الذى فى صحن الدار ، يعنى الفضـلَ بن الربيع — قال : وكانت الستـور قد رفعت ، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهـم ، وكان يجلس الفضـل مع أصحاب الحرس — وكان فى أيام الرشـيد وحالُه حالُه يرانى بوجه أعْرِف فيه البغضاء والشنآن ، وكان له عنـدى كالذى لى عنـده ، ولكنّى كنت أداريه خوفا من سِـعايته وحَذَرًا من أكاذيبـه ، فكنت اذا سلّمت عليه ، فردّ علىّ أظَلُّ لذلك فرِحا ، وبه مبتهجا ، وكان صَغْوه الى المخلوع ، فحمله على أن أغراه بى ، ودعاه الى قتلى ، وحرّك الآخر ما يحرّك القَرابةُ والرحم الماسّة ، فقال : أمّا القتل فلا أقتله ، ولكنى أجعله بحيث اذا قال لم يُطَع ، واذا دعا لم يُجَب ، فكان أحسن حالاتى عنده ، أنْ وجّه مع علىّ بن عيسى قيدَ فضة ، بعد ماتنازعا فى الفضة والحديد ليُقيّدنى به ، وذهب عنـه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ فذاك موضعه من الدار بأخَسّ مجالسها ، وأدنى مراتبها ، وهذا الخطيب على رأسى ، وكان بالأمس نقف على هذا المنبر ، الذى بإزائى مرّة ، وعلى المنبر الغـربىّ أخرى ، فيزعم أنّى المأفون ولستُ بالمأمون ، ثم هو الساعة يقرّظنى تقريظَه المسيحَ ومحمدا عليهما السلام ، فقال طاهر بن الحسين : ياسيّدَنا ، فما عندنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دمائهما ، فخصّتتَمهما بالعفو والحـلم ! قال : فعلتُ ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُدّوا أيديكم الى طعامكم ، فأكل وأكلوا .

ألا يسوغ لنـا أن نستنبط ممـا قدمناه لك أن المأمون كان سياسيا ذَهنا ، حاذقا فى تصرفه مع الفضل ؟ ألم يكن للفضل مكانة عند الرشيد ، ونفوذ بَعيد المَدَى فى الدولة ؟ ألا يجوز أن سِعايته بالمأمون وأكاذيبَه عليه ، إن لم يُداره ، تجد آذانا مُصْغِية . وأنها قد تجرّ عليه من الشرور ماليس فى حاجة اليه ؟

ألم يكن خير سبيل لاتّقاء شانئه أن يداريه ، عملا بقول أبى الدّرداء « إنا لنبَشّ فى وجوه قوم وقلوبُنا تلعنهم » ؟

فهل ترى سياسة أحكم ، وبصرا بالأمور أتم ، من تصرف المأمون ومداراته ، ثم انظر ما كان من مداراته للفضل بن سهل ، كما صرح بذلك لولى عهده علىّ بن موسى الرِّضا ، ومداراته لطاهر بن الحُسين قاتِل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأمينية ، تؤمن معنا أن المأمون كان سياسيا ، ولعل لأطّلاعه على ماتُرجم من المؤلفات اليونانية والفارسية ، مع استعداده الخاص ونزوعه الى البحوث الكلامية عامةً ، وحبه للمشاورة واكتنافه بالرءوس المفكرة الناضجة ، لعل لهذا وأمثاله الفضلَ فى تكوين المأمون على مارأيتَ ، وتخريجه على ماشاهدتَ .

« وبعد » فإن للحياة تقاليدها ، وإن لسياسة الشعوب أسرارها ، كما أن للصراحة محامدها ، وللمداراة ضرورتها ، وأنعم بمن يضع الأمور فى مواضعها ، ويزن المواقف بميزانها ، ويَطبّ لكل حاجة دواءها وعلاجها .

(م) مذهب المأمون الدينى :

أمّا مذهب المأمون الدينى أو السياسىّ إن شئت ، وهل كان يميل للفُرْس حقا ويُؤْثرهم على غيرهم من العرب فى خدمة الدولة ، وهل كان شِيعيّا عَلويًّا ، أو معتدلا فى التشيّع ، أو معتزليّا ، فهذا بابٌ يستفيض القول فى شتّى نواحيه ، وتزدحم معانيه ، لاختلاف وجهات النظر فيه . ولعلك تبيّنت مما كتبناه عن المأمون السياسى ، بعضَ مايُساعدك على تفهّم مذهبه الدينىّ .

ولما كنا قد أرجأنا الكلام فى موضوع المِحْنة والقول بخلق القرآنِ الى قسم العلوم والآداب ، فنحن نَلفِت النظر هنا الى ذلك .

بيْدَ أنّا نرى من واجبنا أن نشير هنا ، الى أن المأمون كان محُوطا بشيوخ الأعتزال والكلام . أمثال ثُمامة بن أشْرَس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الأعتزال من يحيى بن المبارك مؤدِّبه ؛ فان ياقوتا الرومىّ قد ذكر

عنه ، فى الجزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتَّهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستبعد اذًا ، وصلتُه بالمأمون صلةُ الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثر بميله خصوصا ، أنه اتصل به منذ صباه فى أيام الرشيد . وكذلك كان محُوطا بشيوخ آخرين ، لهم آثارهم ومكانتهم فى الدولة ، مثل يحيي بن أكثم وغير يحيي بن أكثم .

وكان على ذلك ، متأثرًا بما تُرجِمَ من أخلاقيّات فلاسـفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وفنونهم . كما كان ، الى حدّ غير قليـل ، تحت سلطان الفرس ووزرائهم أمثـال الفضل بن سهل . وكان يحسب للعلويين حسابهـم ، وللعباسيين حسابهم . فلا غرو اذًا أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل فى تكييف مِزاجه الدينى . وقد يَفْتُر بعض هذه العوامل حينا وقد يشتد حينًا آخر ، طبقًا للأحوال .

هذا هو رأينا فى مذهبه الدينى أو السياسىّ على وجه عام . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد اتخذنا لأنفسنا خطّةَ الحَيْدة فى تدوين التاريخ ، من أن نُثْبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طَرَفا مما جاء منها فى هذا الصدد .

قال ابن الأثير فى كامله : «قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميلِ الى العلويّين ، والإحسانِ اليهم ، وخبرُه مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طبعًا لا تكلُّفا ، فمن ذلك أنه تُوُفِّيَ فى أيامه يحيي بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين العَلَوىّ ، فحضر الصلاةَ عليه بنفسه ، ورأى الناسُ عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولدًا لزينب بنت سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، وهى ابنة عمّ المنصور تُوفّى بعده ، فأرسل له المأمون كفنًا ، وسـيّر أخاه صالحًا ليصلّى عليه ويعزّى أمّه ، فانهـا كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فأتى اليها وعزّاها عنـه واعتذر عن تخلّفه عن الصلاة عليه ؛ فظهر غضبها وقالت لابن ابنها : تقدّم فصلّ على أبيك ، وتمثلت :

سَبَكْناه ونحسَـبُه لُجَيْنًا * فأبْدى الكيرُ عن خَبَثِ الحديد

ثم قالت لصالح : قل له يابن مَراجِل ، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعتَ ذيلك على فيك ، وعَدَوْتَ خلفَ جنازته .

ثم تَعَالَ معى نتدبّر ما يَرْويه لنا الثعلبيّ أحد المعاصرين ، قال[1] : سمعت يحيى بن أكثم يقول : أمرنى المأمونُ عند دخوله بغداد ، أن أجمع له وجوهَ الفقهاء وأهلَ العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائلَ ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس ، الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد ، كَرِه هذا المجلسَ الذى جعلناه للنظر طوائفُ من الناس ، بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم ، فطائفةٌ عابوا علينا ما نقول فى تفضيل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وظنّوا أنه لايجوز تفضيلُ علىّ الا بانتقاص غيره من السلف ! والله ما أستجيز أن أنتقص الحجاجَ فكيف السلفَ الطيّب ! وإن الرجل ليأتينى بالقُطَيعة من العُود أو بالخشبة أو بالشىء الذى لعلّ قيمته لا تكون إلا درهمًا أو نحوه ، فيقول : إن هذا كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قد وضع يَده عليه أو شرب فيه أو مسّه ، وما هو عندى بثقة ولا دليلَ على صدق الرجل ، إلا أنّى بفرط النيّة والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقلّ وأكثر ، ثم أضعه على وجهى وعينى ، وأتبرّك بالنظر اليه وبمسّه ، فأستشفى به عند المرض يُصيبنى أو يُصيب مَن أهتمّ به ، فأصونه كصيانتى نفسى ، وإنما هو عُود لم يفعل شيئا ، ولا فضيلةَ له يستوجب المحبّةَ ، إلا ما ذُكِرَ من مسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرْعَى حق أصحابه وحُرْمة مَن قد صحبه ، وبذَل ماله ودمه دونه ، وصبَر معه أيامَ الشدّة وأوقاتَ العُسْرة ، وعادَى العشائرَ والعمائرَ والأقاربَ ، وفارق الأهل والأولاد ، واغترب عن داره ليُعزَّ الله دينَه ويُظهِرَ دعوتَه ، يا سبحان الله ! والله لو لم يكن هذا فى الدِّين معروفا ، لكان فى الأخلاق جميلا ! وإن من المشركين لمن يَرْعَى فى دينه من الحرمة ما هو أقلّ من هذا . معاذَ الله ممّا نطق به الجاهلون . ثم لم تَرْضَ هذه الطائفةُ بالعيب لمن خالفها ، حتى نَسَبتْه الى البِدْعة فى تفضيله رجلًا على أخيه ونظيره ومَن

(١) هذه القطعة منقولة كما هى عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

يقاربه فى الفضل، وقد قال الله جلّ من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ثم وسّع لنا فى جهل الفاضل من المفضول، فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا اليه، إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة، فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل آمرؤ لو جهله جاهل رجونا ألّا يكون اجترح إثمـا . وهم لم يقولوا بدْعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وشكّ الآخر واحتجّ فى كسره وإبطاله من الأحكام فى الفُروج والدّماء، والأموال التى النظرُ فيها أوجبُ من النظر فى التفضيل . فيغلط فى مثل هذا أحد يعرف شيئا ، أوله رَوية أو حُسن نظر ، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط[1]، أو مُتّبِع لهواه ، ذابٌّ عن رياسة اعتقدها . وطائفةٌ قد اتّخذ كلّ رجل منهم مجلسًا، اعتقد به رياسةً، لعله يدعو فئةً الى ضرب من البدعة، ثم لعلّ كلّ رجل منهم يُعادى مَن خالفه فى الأمر الذى قد عقد به رياسةَ بدْعة، ويُشيط[2] بدمه، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك، إلا أن ذلك أمرٌ لا رياسةَ له فيه، فسالمه عليه وأمسك عنه ، عند ذكر مخالفته إياه فيه، فاذا خولف فى نِحْلته، ولعلّها ممّا وسّع الله فى جهله بها، أو فيما اختلف السلفُ فى مثله ، فلم يُعاد بعضُهم بعضا، ولم يَرَوْا فى ذلك إثما، ولعله يُكَفّر مخالفه ، أو يُبدّعه أو يَرميه بالأمور التى حرّمها الله عليه من المشركين دون المسلمين، بغيًا عليهم، وهم المترقّبون الفتَن، والراسخون فيها، لينهبُوا أموالَ الناس ويستحلُّوها بالغلبة، وقد حال العدلُ بينهم وبين ما يُريدون، يَزْأَرون على الفتنةِ زئيرَ الأُسْد على فرائسها . وإنى لأرجو أن يكون مجلسُنا هـذا — بتوفيق الله وتأييده، ومعونته على إتمامه — سببا لاجتماع هـذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين، إمّا شاكٌّ فيتبيّن ويتثبّت فينقاد طَوْعًا، وإما مُعاند فيرَدّ بالعدل كَرْهًا » .

ولقد همّ فى سبيل عَلَويّته هـذه أن يَلعنَ معاويةَ، وأن يكتب بذلك كتابا، يُقرأ يوم الدار، وحفْل الناس، فثناه عن ذلك يحيى بن أكثم، وقد يكون من الممتع الطريف حقا أن نذكر لك ما قاله يحيى وغيرُه، لنتبيّن نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله .

(١) الإلطاط : الاشتداد فى الأمر والخصومة . (٢) يشيط بدمه : يهدره .

قال يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هـذا، ولا سيّما أهـل خُرَاسَان ، ولا تأمن أن تكون لهم نَفْرة وإن كانت لم تَدْرِ ما عاقبتها، والرأىُ أن تَدَعَ الناسَ على ما هم عليه، ولا تُظْهِرَ لهم أنك تميل الى فِرْقة من الفِرَق، فإن ذلك أصلح فى السياسة، وأحرى فى التدبير . فركَنَ المأمونُ الى رأيه، ثم دخل عليه ثُمَامَةُ أحدُ المعاصرين، فقال له المأمون : يا ثُمامة، قد علمتَ ما كنا دبّرناه فى معاوية، وقد عارَضَنا رأىٌ هو أصلح فى تدبير المملكة، وأبقى ذكرًا فى العامّة، ثم أخبره أن ابن أكثم خوّفه إياها، وأخبره بنفورها عن هـذا الرأى ؛ فقال ثمـامة : يا أمير المؤمنين ، والعامة فى هـذا الموضع الذى وصفها به يحيى ! والله لو وجّهت إنسانا على عاتقه سواد، ومعه عصا لساق اليك بعصاه عشرة آلاف منها ! والله يا أمير المؤمنين، ما رضى الله جلّ ثناؤه أنْ سوّاها بالأنعام، حتى جعلها أضـلّ منها سبيلا؛ فقال تبارك وتعـالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ والله يا أمير المؤمنين، لقد مررتُ مُنذ أيام فى شارع الخُلْد، وأنا أريد الدار، فاذا إنسان قد بسَط كساءَه، وألقى عليـه أدوية، وهو قائم ينادى عليها : هـذا الدواءُ لبياض العين والعَشا والغِشاوَة والظُّلمة وضعف البصر، وإنّ إحدى عينيه لمطموسة، وفى الأخرى مُؤْسّى له، والناس قد انثالوا عليه وأجْفَلوا اليه يستوصفونه، فنزلتُ عن دابّتى ناحيـة ودخلتُ فى غُمَار تلك الجماعة فقلت : يا هذا، أرى عينَك أحوج هـذه الأعينِ الى العلاج وأنت تصف هـذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلِمَ لا تستعمله ؟ فقال : أنا فى هـذا الموضع منذ عشر سنين ما مرّ بى شيخ أجهـل منك، فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أين اشتكتْ عينى ؟ قلت : لا أدرى . قال : بمصر؛ فأقبلت علىّ تلك الجماعة فقالوا : صَدَق الرجل، أنت جاهل، وهمُّوا بى، فقلت : لا والله، ما علمت أنّ عينه اشتكت بمصر، فـا تخلّصت منهم إلا بهذه الحجة .

نريد بعـد ما قدّمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الدينى كان متمشيا تمـاما مع مذهبـه السياسىّ ، وإنه اذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التزوّج من هذا

الحزب وذاك، ومن إرضاء هذا الطرف وذاك، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدّى ذلك أن يكون من العلويين خليفة، ثم من العباسيين خليفة ما دامت بغيته متحققة من استتباب الأمن، وامتزاج الأحزاب، وتوحيد القوى، فكذلك كان يريد أن يتخذ من مذهبه الديني مذهبا وَسَطًا. ويخيّل الينا من النتائج التي وقفنا عليها من دراسة هـذا العصر أن المأمون لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسـية كما علمت من انتهاء حياة الرِّضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية.

وبعـد، فقد قلنا لك: إن الدين للديان جل جلاله، وأكبرنا وأكبرت معنا أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات، ويظهر أن المأمون لم يكن فيما رامه في هذا السبيل موفَّقا توفيقه فيما عداه، وأن له زَلَّة كان يحذُر ألّا يقع مثله في مثلها، وسترى ذلك موضّحا في الفصل الذي عقدناه عن «محنة القرآن».

(ن) كلمة ختامية عن المـأمون:

وإنا بعـد أن حللنا شخصية المأمون بما يجب من التفصيل والتوضيح، نرى من المستصوب أن نضم الى آراء المؤرّخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغـة في تمدحهم بفضـائله، رأى مؤرّخ متشرق عكف على دراسة عصر المأمون وهو السير وليم موير، فربمـا أفادنا كثيرا من ناحية استيعاب وجهات النظر عنـد الفرنجة من المؤرّخين، ذلك لأن الحقيقة العلمية لا تُخدم بمثل ما يخدمها تَبايُن الآراء واختلاف المصادر وتناقض الروايات. وليس من مهمّتنا أن نعرض للردّ على «السير موير» وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا.

قال الأسـتاذ موير في كتاب الخلافة في مختتم بحثه عن المأمون ما نترجمة لك بنصه: «فمما لا نزاع فيـه أن المأمون كان على وجه العموم متّصفا بالعدل والحلم، وإنما يؤخذ بأنه كان مُتقلبا في آرائه وشعوره، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية.

ويرجع السبب فى ذلك الى نزعتـه الفارسـية التى وَرِثها عن أمه ، والبيئة التى رُبِّى فيهـا من جهة ، والى غَرِيزة حبه للاستسلام بتأثير مَن حَوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أننا مع اعترافنا بعدله ، لا نستطيع أن نترِّهه عن الجنوح فى بعض الأحايين الى الجور واستعمال القسوة من غير مسوّغ ، فإنه قد تصرّف فى بعض الحوادث تصرّف الجبابرة والقُسَـاة من أسـلافه الذين أتَوْا من المنكرات ما سوّدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشيّة غريبة ، ذلك أن أبا دُلَف — وكان بطلا من أشراف العـرب وزعيما لإمارة همذان ، إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسـعا بين عشائرها وذوى البيوتات فيهـا — كان من الذين انضمّوا الى نصرة الأمين وشايعوه ، فلمـا قُتِـل وآستقل المأمون بالخـلافة ، أبى أبو دلف أن يدخل فى طاعته ، وآثر العودة الى مَسْقِط رأسـه فى فارس ، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة ، وغالى فى مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدّم عليهم ، فاغتاظ المأمون من الشاعر غيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصـد إهانته ، فأمر بتعذيبه وقتله شرّ قتلة ؛ ولكن لم يمض على ذلك غير قليـل من الزمن حـتى دخل أبو دلف فى طاعة المأمون فاحتفل به وقرّبه اليـه ، فان كان تجاوزه عن أبى دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صـدره ، فهذا التجاوز لا يغـيّر حكمنا عليـه بالقسوة الوحشـية فى قتـل ذلك الشـاعر الأعمى ، ولو أغضينا عن الشبهات التى حامت حول مقتل الفضل وموت علىّ الرضا غدرًا وغِيلة ، فاننا لا نستطيع أن نغضى عن معاملته الجائرة لابن عائشـة ، وما لقيه هَرْثمة وطاهر مع تفانيهما فى نصرته وتوطيد حكمه ، واضطهاده لكثير من أجلّاء المفكرين ، وأصحـاب الآراء المخالفـة لرأيه فى بعض مسـائل الدين ، فى مجلس المناظرة ، ممـا يدل على قسوته ، إلا أننا اذا راعينا طول مدّة حكمه وموقفـه النبيل فى عفوه عن الخارجين عليـه فى بغـداد ، نرى كِفّة عدله وحلمه أرجح من كِفّة جوره وقسوته ؛

وقصــارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الإجمــال من أزهى عصور التاريخ الاسلامىّ » اهـ .

*
* *

وبعــد ، فلقــد حللنا شخصية المــأمون الفــذة البارزة بمــا استحقته من الاستقصاء والاستيعاب . والدرس والتحليل ، وأعقبنا كل كلمــة عن سجاياه ما نعتــبره موضع العظة والاعتبار من دِراسة هذا العصر المُتْرَع بالمُثُــل العليا . ونأمل أن نكون قد وُفّقنــا فيما رُمناه من إصابة شاكلة الحقّ ولُبَاب الصواب .

الفصل الثامن

الحيـاة العلمية فى عصر المـأمون

توطئة — حركة النقل — الترجمة — كتب العصر — آثار النهضة المأمونية — القول بخلق القرآن .

(أ) توطئـة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولى الهيمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونيـة فى بغـداد، وكانت تعرف ببيت الحكمة، كما كان يتـولى تنظيم خزانة المأمون . وقيل : إن بيت الحكمة هـذا أنشئ فى الغالب أيام الرشيـد، حيث قد جمع له فيـه البرامكةُ من الكتب ما وُفّقوا اليه، هندية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيـل : إن يحيى بن أبى منصور الموصـلى المنجّم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد فى العصر المأمونى ، ومحمد بن موسى الخُوارَزمى صـاحب الأزياج وصورة الأرض، كانا من خزنة دار الحكمة المأمونية، كما كان جدّ أحمد الطيّبى المعروف بالصَّنَوْبَرِى الحلبى والفضل ابن نَوْبَخْت وأولاد شاكر وغيرهم من رِجالات بيتِ الحكمة فى العصر المـأمونى ، أو ممن كان يتردّد على هذه الدار للعمل فيها بصفةٍ رسميةٍ أو للمطالعة أو النسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسّابة المعروف علّان الشُّعُوبِىّ الفارسىّ الأصل، كان ممن ينسخ فى بيت الحكمة ، أو فى أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيـل : إن المأمون بعث الى حاكم صِقِلّيَة المسيحى أن يبادر بأن يرسل اليه مكتبة صِقِلّيَة الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، و إن الحاكم تردّد فى إرسالها، وكان بين الضنّ بها والحِرص عليها والخوف من القوة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى اليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها اليه ، فوالله ما دخلتْ هـذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها » فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علىّ : إن المأمون هو الذى جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التى نسبت اليه ، ودُعِيت الصورةَ المأمونيـة ، صوّروا فيها العالَم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن الى غير ذلك ، وهى أحسن مما تقدّمها من جغرافيـة بطلميوس ، وجغرافيـة مارينوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض ـ وقال الزهرى : إنهم كانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق ـ كتابا فى الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرّف الى البلاد والأمم ، التى أظلتها الراية العباسية ، هذا الى عنايته بالفلك ، وفلكيُّه الفزارىّ أوّل من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعُنِى بالطبيعة والرياضيات فوق عنايتـه بالطب ومعـرفة العقاقير والنبات والحيوان ، الى ما شاكل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس فى إدخال المدنية على دولة العرب ، وفتَح به المأمون باب العقل على مِصْراعيهِ فى كل مطلب وشأن .

قيـل هذا ، وقيل أكثر من هـذا ، مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريبية على كثرة الكتب فى العهد المأمونى ، ومما يشير الى عدم قلتها فى أيام مَن سبقه من الخلفاء العباسيين.

والآن يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذِه الكتبِ ؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة ؟ وما هى الحركة العملية المأمونية ، ومَن هم رجالها وما هى مؤلفاتها ؟ ؟

يحقّ لنا أن نتساءل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحق لنا أن نَعْرِض لهذه البحوث ، وأن نُوَضّح بعض ما كنا أجملناه فى كلمتنا عن الحياة العلمية فى العصر العباسىّ .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرهما ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبينته فيما وضحناه لك عند تعرّضنا لتحليل شخصية المأمون ، وحين تكلمنا عنه تلميذا ، وولى عهد ، وخليفة ، وأديبا ، وعالما ، وسياسيا ، وباحثا دينيا .

وأما أن المأمون أفاد عصره بمؤلفاته الخاصــة ، فهذا مالا ريب فيـه أيضا ، وهاك ابن النديم يحدّثنا فى فهرسته أن للمأمون من الكتب كتاب جواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسالته فى إعلان النبوّة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورجالاتها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدّثنا ابن أبى أصيبعة فى طبقاته عن أوكد الأسباب عند المأمون لاستخراج الكتب فيقول: قال يحيى بن عدى : قال المأمون : رأيت فيما يرى النـائم : كأن رجلا على كرسىّ جالسـا فى المجلس الذى أجلس فيه فتعاظمتُه وتهايبْتُـه وسألت عنه، فقيل لى هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شىء، فسألتـه . فقلت : ما الحسن؟ فقال : ما استحسنتْه العقول، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنتْه الشريعـة، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنه الجمهور . قلت : ثم ماذا؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب . فان المأمون، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون، فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القـديمة المخزونة فى بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجّاج بن مَطَر، وابن البِطْريق وسَـلْم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا ممـا وجدوا ما اختاروا . فلمّا حملوه اليـه أمرهم بنقله فنقل، وقد قيل : إن يوحنّا بن ماسَويه ممن نفـذ الى بلد الروم . وأحضر المأمون أيضا حُنَين بن إسحاق وكان فتىّ السنّ وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيّين الى العَرَبىّ وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره .

وممـا يحكى عنـه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقـله من الكتب الى العربى مِثْلًا بمثل . وقال أبو سليمان المنطقىّ : إن بنى شاكر، وهم محمد، وأحمد، والحسن، كانوا يرزقون جمـاعة من النَّقَلَة . منهـم حُنَين بن إسحاق، وحُبَيش بن الحَسن ، وثابت ابن قُرّة وغيرهم، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنَّقْل والملازمة .

ويقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى : إن العرب فى صدر الإسلام لم تُعْنَ بشىء من العلوم، إلا بِلُغَتِها ومعرفةِ أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب . فانها كانت موجودة عنـد أفراد منهم غيرَ منكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طُرًّا اليهـا . فهذه كانت حال العـرب فى الدولة الأموية . فلما أدالَ(١) الله تعالى للهاشمية، وصرفَ المُلْك اليهم ثابتِ الهممُ من غفلتها ، وهبّت الفِطَن من موتتها ، فكان أول من عُنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور، وكان مع براعته فى الفقه، كَلِفا بالفلسفة وعلم النجوم . ثم لمّـا أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرّشيد، تمم ما بدأ به جدّه المنصور ، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه، وداخَل ملوكَ الروم وسألهم صلته بمـا لديهم من كتب الفلســفة فبعثوا اليه بمـا حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطلميوس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مَهَرة التراجمة وكلّفهم إحكام ترجمتها . فتُرجمت له على غاية ما أمكـن، ثم حضَّ النـاسَ على قراءتها ورغّبهم فى تعليمها . وكان يخلو بالحكماء ويأْنَسُ بمناظرتهم، ويلتذّ بمذاكراتهم، علما منه بأن أهل العـلم هم صفوة الله من خلقه ، ونُخْبته من عباده، وأنهم صرفوا عنايتهم الى نَيْـل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يَرغب فيه الصّـين والترك ومن نزع منْزَعهم من التنافس فى دِقّة الصناعة العَمَليّـة، والتباهى بأخلاق النفس والتفاخر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تَشرَكُهم فيها وتَفْضُلُهم فى كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العـلم مصابيح الدجى، وسادة البَشَر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذى قيل إنه دفع بالمأمون الى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو، أو بعبارة علمية أدقّ، هذا الميل الى الفلسفة والمنطق عند المأمون، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عنيفة قوية . ويخيّل الينا أن المأمون لاتساع دائرة معارفه العامة، ورغبته فى القياس العقلى، وتأثره بمذهب الاعتزال كما سترى فى كلمتنا التى عقدناها لك فى القول بخلق القرآن،

(١) نقل الدولة اليهم .

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل فى انتشار حركة الترجمة والتأليف . وخاصة فى مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «ستتلانه» فى مفتتح محاضراته فى تاريخ المذاهب الفلسفيّة بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة فى عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأوّل من خلافة أبي جَعْفر المنصور الى وفاة هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحي بن البِطْريق مترجم المجسطى فى أيام المنصور . وجورجيس بن جبرئيل الطبيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفّع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسَوِيه ، وكان فى أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكّل، واعتنى فى الأغلب بالكتب الطبّية . وسَلَّام الأبْرَش، وكان فى أيام البرامكة . وباسيل المطران .

والدور الثانى، من وَلَاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠، وهى الطبقة الثانية من المترجمين، منهم يُوحَنّا بن البِطْريق . والحَجّاج بن مَطَر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا البَعْلَبَكّى وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ناعِمة الحِمْصىّ وعاش سنة ٢٢٠ . وحُنَين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حُنَين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قُرّة الصابى المتوفى سنة ٢٨٨. وحُبَيش بن الحسن، ويدعى حَبَش الأعْسم ابن أخت حُنَين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، وممّا ترجم فى هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وشىء من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حبيش، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مُتَرْجِمى هذه الطبقة، متّى بن يُونُس، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

يُذكر عنه أنه كان ببغداد بين سنة ٣٢٠ وسـنة ٣٣٠ . ومنهم سِنان بن ثابت بن قُرّة ، المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيى بن عدى وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو علىّ بن زرعة، من سنة ٣٣١ الى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الحِمْصى . وعيسى بن سهربخت ، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقيــة والطبيعية لأرسـطو، وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسى ويحيى النحوى وغيرهما اه .

وبعــد، فقد سبق لنا أن بينّا لك طَرَفا عن الحياة العلمية فى العصر الأموى وفى صدر العصر العباسى ، وآن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت فى علم الفلك أم الطب أم الفسفة، ترجمة وتأليفا فى العصر المأمونى ، معتمدين فى ذلك على الفِهْرِست لابن النديم، وطبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبِعة، وكتاب أخبار الحكماء للقِفْطى . وهاك بجملة منهم وهم : أحمد بن محمد بن كثير الفرغانى أحد منجّمى المأمون، وبَخْتِيشُوع جورجيس، وجبرائيل بن بختيشوع، وجبرائيل الكحال المأمونى، والحارث المنجّم صاحب الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن نَوْبَخْت ، وزكريا الطَّيْفُورى ، وسهل بن سابور ابن سهل المعروف بالكَوْسَج الذى كان يجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفورى، ثم سِنْد بن علىّ المنجم المأمونى، وسلمويه بن بنان صاحب المعتصم، وصالح بن بهلة الهندى صاحب الرشيد، والعباس بن سعيد الجوهرى المنجّم صاحب المأمون، وعبد الله بن سهل بن نَوْبَخْت المنجم المأمونى ، وأبو حفص عمر ابن الفَرُّخان الطبرى أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم النجوم، وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن من منجمى المأمون، وكان بنــوه الثلاثة فيما ذكره القفطى من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل، وموسى بن إسرائيل صاحب أبى اسحاق بن ابراهيم بن المهدى ، وما شاء الله المنجم اليهودى ، وميخائيل بن ماسويه، ويحيى بن أبى منصور المنجم المأمونى ، ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسنويه ونفطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب ، ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصرانى السريانى ،

وأبو قريش المعروف بعيسى الصيدلانى وغيرهم كآل ثابت وماسرجويه ، وآل الكرخى ، وابن دهن الهندى مدير بيمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم ينقل من الهندية الى العربية ، ومنكه طبيب الرشيد الهندى ، وكان ينقل من الهندية (السنسكريتية) وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر .

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العنيفة لخرجنا عن وضع كتاب فى العصر المأمونى ، الى وضع موسوعة أو معجم ، واذا لم نكتب عنهم فقد رُمينا بالتقصير المعيب ولم نصور العصر بما ينبغى أن يصور به ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن بختيشوع ، وقدرُه فى العصر قدره ومنزلتُه منزلته ، لتكون مثالا وتوضيحا لسواه من رجالات العلم فى ذلك العصر الغنى حقا ، والغنى برجالاته صدقا ، وستقف على هذه الكلمة فى موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

(ج) كتب العصر :

و إنا ننقل لك هنا طرَفا من أسماء الكتب التى تُرجمت فى ذلك العصر من اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانية ، واللاتينية ، والنبطية ، معتمدين فى ذلك على البحث الطريف الذى كتبه صاحب التمدّن الاسلامى ، ولخص فيه ما كتبه ابن النديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، منوهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفضل .

أولا – الكتب المنقولة عن اليونانية

(١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

(١) كتاب السياسة ... ... نقله حُنَين بن إسحاق

(٢) « المناسبات ... ... « يحيى بن عدى

(٣) « النواميس ... ... « حنين ويحيى

(٤) « طيماوس ... ... « ابن البطريق وأصلحه حنين

(١٨) كتاب المرآة ... ... نقله الحجاج بن مطر

(١٩) « أثولوجيا ... ... « « «

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده، كثاوفرسطس، وديدوخس برقلس، والاسكندر الافروديسى، وفرفور يوس، وأمونيوس، وتامسطيوس ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيى النحوى وغيرهم. ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة، وكلها فى الفلسفة وفروعها، وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها، فأغضينا عن ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست.

وذكروا لجالينوس فى جملة كتبه الطبية الآتى بيانها بضعة كتب فى الفلسفة والأدب، وهى كتاب ما يعتقده رأيا، ترجمه ثابت، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه، نقله توما وأصلحه حنين، وكتاب الأخلاق نقله حبيش، وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم، نقله حبيش، والمحرّك الأوّل لا يتحرّك، نقله حبيش وعيسى، وغير ذلك.

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط :

(١) كتاب عهد أبقراط ... ... نقله حُنَين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية

(٢) « الفصول ... ... « حنين لمحمد بن موسى

(٣) « الكسر... ... ... « « « « «

(٤) « تقدمة المعرفة ... ... « « وعيسى بن يحيى

(٥) « الأمراض الحادة ... ... « عيسى بن يحيى

(٦) « أبيذيميا ... ... « « « «

(٧) « الأخلاط ... ... « « « « لأحمد بن موسى

(٨) « قاطيطيون ... ... « حنين لمحمد بن موسى

(٩) « الماء والهواء ... ... « « وحُبَيش

(١٠) « طبيعة الانسان... ... ... « « وعيسى

(٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيي بن عدي
(٦) « التوحيـد ... ... « « « « «
(٧) « الحس واللذة ... ... « « « « «
(٨) « أصـول الهندسة ... « قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

(١) قاطيغورياس (المقـولات) ... نقله حنين بن إسحاق
(٢) كتاب العبـارة ... ... « « الى السريانية واسحاق الى العربية
(٣) تحليـل القياس ... ... « ثيادورس وأصلحه حنين
(٤) كتاب البرهان ... ... « اسحاق الى السرياني ومتى الى العربي
(٥) « الجـدل ... ... « « « « ويحيي « «
(٦) « المغالطات أو الحكمة المموهة « ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني ويحيي الى العربي
(٧) « الخطابة ... ... « إسحاق وابراهيم بن عبد الله
(٨) « الشـعر ... ... « أبو بشر من السرياني الى العربي
(٩) « السماع الطبيعي ... ... « أبو روح الصابي وحنين ويحيي وقسطا وابن ناعمة
(١٠) « السماء والعالم ... ... « ابن البطريق وأصلحه حنين
(١١) « الكون والفساد ... ... « حنين الى السرياني واسحاق والدمشقي الى العربي
(١٢) « الآثار العـلوية ... ... « أبو بشر ويحيي
(١٣) « النفس ... ... « حنين الى السرياني واسحاق الى العربي
(١٤) « الحس والمحسوس ... ... « أبو بشر متى بن يونس
(١٥) « الحيوان ... ... « ابن البطريق
(١٦) « الحروف أو الإلهيات ... « اسحاق ويحيي وحنين ومتى
(١٧) « الأخلاق ... ... « اسحـاق

كتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهي : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب النبض، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والأمراض ، تعرّف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب الحمايات، البُحْران، أيام البحران، تدبير الأصحّاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها حنين بن إسحاق الى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النبض الكبير، وكتاب تدبير الأصحّاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبيش، أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية، فإليك أسماءها مع أسماء ناقليها :

الكتاب	الناقل
(١) التشريح الكبير	حُبَيش الأعسم
(٢) اختلاف التشريح	» »
(٣) تشريح الحيوان الحيّ	» »
(٤) » » الميت	» »
(٥) علم أبقراط بالتشريح	» »
(٦) الحاجة الى النبض	» »
(٧) علوم أرسطو	» »
(٨) تشريح الرحم	» »
(٩) آراء أبقراط وأفلاطون	» »
(١٠) العادات	» »
(١١) خصب البدن	» »
(١٢) المنيّ	» »
(١٣) منافع الأعضاء	» »
(١٤) تركيب الأدوية	» »
(١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة	» »
(١٦) » » الكبيرة	» »
(١٧) الحث على تعليم الطب	حُبَيش الأعسم
(١٨) قُوى النفس ومزاج البدن	» »
(١٩) حركات الصدر	نقله أصطفان وأصلحه حنين
(٢٠) علل النفس	أصطفان وأصلحه حنين
(٢١) حركة العضل	» » »
(٢٢) الحاجة الى النفس	» » »
(٢٣) الامتلاء	» » »
(٢٤) المرّة والسوداء	» » »
(٢٥) علل الصوت	حُنَين
(٢٦) الحركات المجهولة	»
(٢٧) أفضل الهيئات	»
(٢٨) سوء المزاج المختلف	»
(٢٩) الأدوية المفردة	»
(٣٠) المولود لسبعة أشهر	»
(٣١) رداءة التنفس	»

(٣٢) الذبول	حنين	
(٣٣) قوى الأغذية	»	
(٣٤) التدبير الملطف	»	
(٣٥) مداواة الأمراض	»	
(٣٦) أبقراط فى الأمراض الحادّة	»	
(٣٧) الى تراسو بولوس	»	
(٣٨) الطبيب والفيلسوف	»	
(٣٩) كتب أبقراط الصحية	»	
(٤٠) محنة الطبيب	»	
(٤١) أفلاطون فى طيماوس	حنين واسحاق	
(٤٢) تقدمة المعرفة	عيسى	
(٤٣) الفصد	عيسى وأصطفان	
(٤٤) صفات لصبي يصرخ	ابن الصلت	
(٤٥) الأورام	» »	
(٤٦) الكيموس	ثابت وحبيش	
(٤٧) الأدوية والأدواء	عيسى	
(٤٨) الترياق	ابن البطريق	

وهناك كتب فى الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها . وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتابا لروفس من أهل أفسس كان قبل جالينوس ، ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذُكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهى كتاب الأدوية المستعملة، نقله أصطفان بن باسيل . وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى ابنه أسطاث نقله حنين، وكتاب الى أبيه أونافيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زربى ، ويقال له السائح فى البلاد لسياحته فى طلب العقاقير والحشائش، كتابٌ فى الحشائش سيأتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

و يشتمل النظر فى ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات، وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب أقليدس ، منها أصول الهندسة ، نقله الحجاج بن مطر نقلين الهارونى والمأمونى ، ونقله اسحاق بن حنين ، وأصلحه ثابت بن قرة، ونقله أبو عثمان الدمشقى، ولا يزال هذا الكتاب باقيا الى الآن . ومن كتب أقليدس التى لم يعرف مترجموها كتاب

الظاهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيق، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب أرخميدس، وهى عشرة ولم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيـوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وقطع الخطوط، والنسبة المحدودة، والدوائر المماسة، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالاوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندسـة، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوذى، صاحب كتاب المجسطى الشهير، وقـد تقدّم خبر نقـله وتفسيره على يد يحيى البرمكى . ولبطليموس أيضا كتاب الأربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصـفة الأرض ، نقله ثابت الى العـربى نقلا جيدا، ولبطليموس ١٥ كتابا أُخر فى الجغرافيا وغيرها، لم يعرف ناقلوها .

(٦) أبرخس ، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحـدود ، وكتاب قسمة الأعداد لم يعرف ناقلهما .

(٧) ذيوفنطس، له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف ناقله .

وهنـاك كتب عديدة فى الرياضـيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها ، منهـا : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس، وكتاب العمل بذات الحلق، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالاسطرلاب، وكلها لثاون الاسكندرى .

أضف الى ذلك كتب الرياضة التى تقدّم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبةً فى إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نُقل للمسلمين من كتب الموسيق عن اليونانية كتاب الموسيق الكبير لنيقوماخس الجهراسينى، وكتاب الموسيق المنسوب لأقليدس، وقد تقـدّم ذكره،

ومقالات فى الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الريموس، وكتاب الايقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالأرغن البوقى، والأرغن الزمرى، لمورطس .

ونقل لهم من كتب الميكانيكات غير ما جاء فى كتب أرخميدس ، كتاب الحيل الروحانيـة ، وكتاب رفع الأثقال لأيرن، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا ، وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس .

ثانيـا ــ الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية فى النهضة العباسية من قبيل الآداب والأخبار والسير والأشعار و بعضها فى النجوم ممـا نقله آل نَوْبَخت وعلىّ بن زياد التميمىّ وغيرهم . أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربية فهى مع أسماء ناقليها .

(١)	كتاب رستم وأسفنديار	جبلة بن سالم
(٢)	« بهرام شوس	« «
(٣)	« خداينامه فى السير	عبد الله بن المقفع
(٤)	« آيين نامـه	« «
(٥)	« كليلة ودمنة...	« «
(٦)	« مزدك	« «
(٧)	« التاج فى سـيرة أنوشروان ...	« «
(٨)	« الأدب الكبير	« «
(٩)	« الأدب الصغير	« «
(١٠)	« اليتيمة	« «
(١١)	« هزار أفسانه...	لم يذكر ناقـله
(١٢)	« شهريزاد مع أبرويز...	« «

(١٣) كتاب الكارنامج أنوشروان... ... ... لم يذكر ناقــله

(١٤) « دارا والصنم الذهب... ... ... » »

(١٥) « بهرام ونرسي ... ... » »

(١٦) « هزاردستان ... ... » »

(١٧) « الدب والثعلب ... ... » »

(١٨) ســير ملوك الفرس ، وهي غير كتاب ، ترجم أحدها محمـد بن جهم البرمكي ، وآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الأصفهاني ، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني .

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس — وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي — كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إلياذة هوميروس، وقد تضمنت تاريخ الفرس القـديم، نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الأصبهاني نثرا للملك المعظم عيسى الأيوبي . أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسـية كتبا أخرى تاريخية وأدبية وخصوصا مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .

ثالثا — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغـة الهندية (السنسكريتية) كثيرا من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمـار والتواريخ . والكتب الطبيـة المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من أخبارها إلا القليل، لأن بغداد كانت في إبّان الزهو العباسي ، كعبة العلماء والأطباء والتجار والسيّاح من كل الملل . وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند اليها . وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم : "كنكه" و "بازيكر" و "قليرفل" و "سندباز" وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السِّيَر أنهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الأصل ؛ فانك اذا راجعت مثلا قانون ابن سينا

أو الملكى للرازى أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأيتهـم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن الهنود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشى أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفى كتاب الهند كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسى جماعة من علماء الهند فى الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كنكه الهندى ، وهو من متقدميهم وأكابرهم ، وخصوصا فى علم النجوم فضلا عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب النموذار فى الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرانات الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب يجرى مجرى الكناش ، وكتاب فى التوهم ، وكتاب فى إحداث العالم والدور فى القرآن ، ومنهم أيضا صنجهل وباكهر ، وغيرهما .

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم فى النجوم والطب الى اللغة العربية ، إما رأسا أو بوساطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتابُ من الهندى الى الفارسى ، ثم ينقل من الفارسى الى العربى ، منها كتاب سيرك الهندى ، وقد نقله من الفارسى الى العربى عبد الله بن على . وكتاب آخر فى علامات الأدواء ، ومعرفة علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكى بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحارّ والبارد ، وقُوَى الأدوية . وكتب أخرى فى فروع الطب .

ومن مشهوريهم منكه الهندى المتقدم ذكره بين المترجمين . وقد أتى بغداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقا واسعا . وكان منكه يعرف الفارسية أيضا ، فكان ينقل من الهندى الى الفارسى ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندى ، جاء العراق فى أيام الرشيد أيضا ، ونال شهرة واسعة

وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به ، فان لم يكونوا نقلوا شيئا من كتبه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شيئا من آراء الهند فيه .

ومن مشهوريهم أيضا شاناق، وله كتاب فى السموم خمس مقالات، نقله من اللسان الهندىّ الى الفارسىّ منكه الهندى، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم البلخىّ بنقـله الى العربىّ ، ثم نُقل للمأمون على يد العباس بن سـعيد الجوهرى مولاه . ولجودر الحكيم كتاب فى المواليد نقل الى العربىّ أيضا .

ومن الكتب الطبية التى نقلت من الهنـدية الى لسان العـرب فى العصر العباسىّ غير ما تقدّم ذكره :

(١) كتاب سسرد فى الطب نقله منكه .

(٢) « أسماء عقاقير الهند نقله منكه لاسحق بن سليمان .

(٣) « استانكر الجامع « ابن دهن .

(٤) « صفوة النجح « «

(٥) « مختصر الهند فى العقاقير لم يذكر ناقله .

(٦) « علاجات الحبالى للهند « « «

(٧) كتاب روسا الهنـدية فى علاجات النساء لم يذكر ناقله

(٨) « السكر للهند « «

(٩) « التوهم فى الأمراض والعلل « «

(١٠) « رأى الهند فى أجناس الحيّات وسمومها « «

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير فيه، وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدّم، وكان لنقل هـذا الزيج تأثير فى علم النجوم عنـد العرب، وقد قلّدوه وألّفوا على مذهبه . فمن ألّف على هـذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارىّ، وحبش بن عبـد الله البغدادىّ،

ومحمد بن موسى الخوارزمى وغيرهم . والفزارى أول من عمل إسطرلابا فى الاسلام . وما من فلكى من فلكيى المسلمين أراد التوسع فى علم النجوم إلا طالع كتبهم، إما فى اللغة الهندية أو فى ترجمتها الى العربية . وأكثر المسلمين عناية فى ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم، أبو ريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم، ثم ألف كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات، ومنها كثير فى علوم الهند إما ترجمةً أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التى ألفها فى هذا الصدد قوله : وعملتُ فى السند هند كتابا سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود فى حساب التنجيم جاء ماتم منه ٥٥٠ ورقة . وهذّبت زيج الاركند وجعلته بألفاظى اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا فى المدارين المتحدين والمتساويين، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زيج من أزياجهم وليس بمعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرةً فى الحساب والعد بأرقام السند والهند فى ٣٠ ورقة وكيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب، وتذكرةً فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفى راسيكات الهند وترجمة ما فى ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة فى تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة فى الجوابات على المسائل الواردة من منجمى الهند . ومقالة فى حكاية طريقة الهند فى استخراج العمر . وترجمة كلب باره، وهى مقالة للهند فى الأمراض التى تجرى مجرى العفونة وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن الهنود أهل علم ورأى فى النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما نُقل الى العربية منها : كتب الهند فى الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات :

(١) كتاب كليلة ودمنة، وقد نُقل عن طريق الفارسية كما تقدم، وبعد نقله الى العربية

نظموه شعرا كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمه فى العربية أبان بن عبـد الحميد ابن لاحق بن عفير الرقاشى وعلى بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البـد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهنـد والصين (٨) كتاب هابل فى الحكمة (٩) كتاب الهند فى قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهنـدى فى الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهنـد (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا فى الحكمة .

ومـا نقله العرب عن الهنود: كتاب فى الموسيق اسمه فى الهندية «بيافر» ومعناه ثمـار الحكمة، وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم .

رابعـا ــ الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتبا كثيرة فلسفية وطبية نُقلت من اليونانى الى العربى بوساطة اللغة السريانية أخت النبطية أو هى عينها فلا نتعرض لذكرها ، وإنمـا نريد هنا الكتب التى كانت مكتوبة فى اللغة الكلدانيـة أو النبطية، ونُقلت الى العربية رأسا، ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب : (١) كتاب الفلاحة النبطية ، فانه فريد فى بابه، وقد نقله الى العربية أحمد بن على بن المختار النبطى، المعروف بابن وَحْشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمدَ أهلِ الزراعة الى أمدٍ غير بعيد ، وقد نُقِل الى اللغات الافرنجية ، ولولا نقله الى العربيـة لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته، فقد قال ابن وحشية، وهو يملى الكتاب على على بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : «اعلم يا بنى أنى وجدت هذا الكتاب فى كتب الكسدانيين (الكلدان أو النبط) يترجم معناه فى العربيـة كتاب فلاحة الأرض وإصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها، وكان هؤلاء الكسدانيون أشـد غيرةً عليها، لئلا يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يخفونه بجهدهم ، وكان الله عز وجل قد رزقنى المعرفة بلغتهم ولسانهم، فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل

متميز، فأخفى عنى علمه، فلما اطلعت عليـه لمته فى إخفاء الكتاب عنى، وقلت له : إنك إن أخفيتَ هـذا العلم دُثِر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر، وما يصـنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها، فهى عنده بمنزلة الحجارة والمدر، فصدّقنى فى ذلك وأخرج الىّ الكتب، فجعلت أنقل كتابا بعـد كتاب، فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناى البابلى فى معرفة أسرار الفلك والأحكام على حوادث النجوم، وهو كتاب عظيم المحـل، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه» الخ... . (٢) كتاب طرد الشياطين، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين فى الأصنام (٧) كتاب الإشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصـنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الأسمـاء، وأكثرها من نقل ابن وحشية، غير ما لا بدّ من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء .

خامسا — الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعـاليم اليهود وآدابهم المدوّنة فى التلمود وغيره من كتبهم قـد نُقِل الى العربية، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدونا على أنه مترجم، لأنهم كانوا ينقلونها شِفاها للصحابة وغيرهم على ما تقدّم، وربمـا دوّنوا منها شيئا وضاع، وأما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية، فترجمة أسفار التوراة، نقلها سعيد الفيومى المتوفّى سنة ٣٣٠ هـ، وهو أقدم من نقل التوراة الى العربية، مما وصل الينا خبره، وله أيضا شروح وتفاسير عليها .

ولا يبعد أن يكون قد نُقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها، وربما فات نَقَلَة الأخبار ذكر ما نقل عنها، وقد رأينا فى جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية، وأنه ترجم عدّة كتب، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية .

وأما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأسا ، فلا نشك فى أنهـم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بوساطة اللغة اليونانية ، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها ممـا برع فيه المصريون ، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى واليونانى معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هـذه هى بعض كتب العصر وكانت لهـا آثارها ونتائجها فى العقلية العربيـة أولا ، وفى المدنيـة العربية ثانيـا ، حتى أصبحنا نرى المأمون يُضرب به المثـل فى عِظَم الحركة العلميـة ، وحتى نرى «نولدكا» ومحررى دائرة المعارف البريطانيـة وغيرهم ، يمثلون المأمون بأنوشروان وغيره من خَدَمَة الإنسانية ورُسُل الثقافة العامّة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقـدّمين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية فى ذلك الحين ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا .

ويقول الدكتور «طوطح» فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إنه بينما كان شارلمـان يتعلم القراءة مكبًّا على مطالعة رسائله مع أترابه فى مدرسـة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أقضيتها هناك فى بغداد» . ويقول فى مكان آخر من رسالته القيّمة : «إن المأمون أوفد عَميـد بيت الحكمة الى بلاد اليونان لنقـل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى اللغة العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية ، وهى لا تخرج عمـا قدّمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف فى عصر المأمون . فنكتفى بما قدّمناه عن التبسط فى القول فى هذه الناحية الهامة حقا .

على أن لهذه النهضة المأمونيـة آثارها ونتائجها أيضا فى زيادة الثروة اللفظية فى اللغة العربية ، وقد بيّنا لك طرفا منه فى كلمتنا عن حالتها فى الصدر العباسى ، فلا حاجة اذاً بنا الى تكراره هنا ، وقصارى ما نقوله أنا نحيلك الى بعض المصادر القيّمة فيما نحن فى صدده من بيان تأثر اللغة بهذه النهضة التى تشبه فى كل وجوهها حركة التجديد «رينسانس» فى أوروبا ، وهى : كتاب خطى منسوب للجاحظ عن الألفاظ الفارسية فى اللغة العربية ، وبحوث العلامة

أنستانس الكرملى البغدادى فى السنة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية فى اللغة العربية، كما أحيلك الى بحوث «مجلة المجمع العلمى» فى شأن تفسير الألفاظ العباسية الواردة فى كتاب «نشوار المحاضرة» .

أما فن التاريخ والجغرافيا، فلم تبدأ العناية الجدية بهما إلا منذ أيام اليعقوبى، وابن خرداذبه(١) فى نهاية القرن الثانى .

وأما العلوم القرآنية وما تفرع عنها، فقد سبق أن أشرنا اليها فى بابها من العصر العباسى . ويظهر أن عناية المأمون بها لم تكن مثل عنايته بالفلسفة اليونانية، وما اليها، اللهم اذا كانت موجهة الى الناحية الاعتزالية الكلامية .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره فى الحياة العلمية والعقلية فى عصر المأمون .

(هـ) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير فى تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الجعد بن درهم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام، فأخذه وأرسله الى خالد القسرى، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبر هشاما فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله، فأخرجه خالد من الحبس فى وثاقه، فلما صلى العيد يوم الأضحى، قال فى آخر خطبته : انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم، فانه يقول : ما كلم الله موسى، ولا اتخذ ابراهيم خليلا، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا، ثم نزل وذبحه .

ويقول ابن الأثير فى حياة مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجعدى، ذهابه مذهب الجعد بن درهم فى القول بخلق القرآن، والقدر، وغير ذلك .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن، بدعة نبتت فى العصر الأموى، ثم لم تجد الجو الذى تنمو فيه وترعرع، حتى كان عصر المأمون فوجدت من شخصيته العالمة ومن نفوذه العظيم ونفوذ علمائه، خير متعهد لنمائها، حريص على نصرتها، شديد اليد بالبطش على مخالفيها .

(١) أنظر القاموس وشرحه فى مادة «روم» فانه ضبطه بالياء المثناة بعد الذال المعجمة وبعد الياء هاء .

ولعـلك تتساءل لم وَجَدَ القولُ بخلق القرآن من المأمون الصـدرَ الرحب والعاملَ على نصرته، ؟ وهل كان مُوَفَّقا فيما أخذه على عاتقه أو قد اشـتدّ به الغلوّ فى تأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد ؟؟ .

ونحن قبل أن نُجيبك عن هذه الأسئلة ،وقبل أن نَعْرِض للموضوع من وجهاته المختلفة، نريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» فى هذا الصدد، وهى وإن لم تكن تتفق مع وِجهة نظرنا فى هذا المبحث، تبين لنا وجهة نظر مُتَشَرِّق بحَّاثةٍ كبير فيما نحن بصدده .

يقول الأستاذ «ميور» فى الفصل الذى عقده عن المأمون فى كتابه الممتع "الخلافة" : «وفى الحق أن المأمون كان متعصِّبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شـديدَ الميل الى العلويّين،ونشأ عن ذلك فى السنوات الأخيرة من حكمه، مَزِيجٌ من حرية الأفكار والتعصّب. وكان المأمون فى بعض هذه المسائل واسع الحرّية حقا لدرجة مدهشة . وقد ألغى من بضع سنوات مضت، الامرَ الذى كان أسلافه قد أصدروه، يحرّمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير،وأباح للمسيحيين حرّية المناقشة فى أىّ الدِّينين أفضل: الإسلام أم المسيحية. غير أن ميوله الفارسية التى كان يجنح اليها دائما، دفعته أخيرا أن يناقش بحماسة فى نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرّية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء، وعلماء الدين من كل فئة ، وأباح لهم المناقشـة فى حضرته فى نظريّات كان البحث ممنوعا فيها ، كعلاقة الانسان بخالقه، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وأخيرا أعلن بتحوّله الى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة، فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر، وأن القرآن وإن كان وَحْيا إلا أنه مخلوق ، بدلا من العقيدة التى كانت لا تُنَازَع (1) وهى أن القرآن أزلىّ

(1) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « ما كان عند المسلمين عقيدة بهذا الوصف ولكن القول بخلق القرآن جاء بكرا لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا للتابعين قول ينافيه أو يوافقه فلما أغرم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء، جاءوا الى كتاب الله ينظرون فيـه حكم المقالة التى لا عهد لهم بها فلم يجدوا . فنظروا الى السـنة فلم يجدوا . والقوم فى ذلك العهد يردّون كل شىء الى الكتاب والسنة . فلما لم يجدوا فيهما حكما توقفوا فى هذا القول احتياطا لدينهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون . فلم يرض المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يرمون بهذا الاعتقاد أن مع الله قديما سواه وأنه يوجد موجود ولا أثر لله فى إيجاده ولج فى إعناتهم وتناولهم بالحبس والإيذاء» .

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليّا أشرف الخلق بعد النبي ، وعلى هذه النظريّة بُنِيت نظريّة الإمامة المقدسة أو الزعامة الدينية التي كانت تنتقل من عضو الى آخر من بيت علي . وبدأ فى تلقين النـاس أنه يوجد مصادر أخرى غير القـرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها فى مسائل الدين ، وفسّر القرآن تفسيرا من غير تقييد بلفظه ، وبذلك ذُلِّلت صعوبات كثيرة كانت تعترض حريّة التفكير أو تقف عثْرة فى تقدّم العمران . كإباحة شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة[(١)] . وعلى ممرّ السنين تحولت فكرة المأمون فى خلق القرآن من مجرّد رأى الى إعلانه المشئوم الذى حَمَل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدةً لهم . وقد أرسل الى والى بغداد ، وهو فى حملته الأخيرة على الروم ، أمرا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم فى هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجاباتهم ، وقد تأثر كثير من العلماء فى مجلس المناظرة الذى كان أشبه بمحكمة التفتيش ، حتى أظهروا القول بخلق القرآن ، إلا أن البعض بقي ثابتا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق ، كأحـمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي ، الذى حملوه مكبّلا بالحـديد الى معسكر الخليفة . ولقـد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُدِّدا بالقتل ، وأُرسِل عشرون منهم تحت خِفَارة حُرّاس لينتظروا فى "طَرَسُوس" عودة الخليفة من حروبه ، ولكن جاءتهم الأنباء فى أثناء سيرهم فى الطريق بموت المأمون . ولقد سوّدت أمثال هذه الفظائع سُمْعة المأمون فى سنوات كثيرة » اه .

ذلك هو رأى المتشرق « ميور » . ولنرجع الآن الى معالجة الإجابة عمـا تساءلتَ عنه ، فنقول : إنك جِدُّ عالِم بأن المأمون كان تلميذا ليحيى بن المبارك الزَّيْدى المتهم بالاعتزال . جِدُّ عالِم بصلته بثُمَامَة بن أشرس ، زعيم المذهب الثمامى فى الاعتزال ، وإعجابه به ، حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « قد رجع المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحمد بن دواد الحجة عليه فى ذلك بما ملخصه : أن زوجة المتعة ليست الزوجة التى يجب نفقتها وترث ويثبت نسب الولد منها كما هو شأن الزوجة الشرعية فهى ليست زوجة وليست ملك يمين والله تعـالى يقول : (والذين هم لفروجهـم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) فهى بما وراء ذلك ويكون زواج المتعة زنا — وعامة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة الرافضة » .

عليه الوزارة مرتين، كما أسلفنا لك القول فى باب الوزارة . جِدُّ عالمٍ بأن المأمون كان يعقد مجالس للكلام فى مختلف البُحُوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قرّب اليه كل متكلم حاذق، أو مُفكّر بصير بمداخل القول ومخارجه ، مثال أبى الهُذَيل العلّاف، وابراهيم ابن سيّار وغيرهم . وأنت جِدُّ عالمٍ بأن ثُمَامة والعلّاف وابراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال. أنت جدُّ عالمٍ بهذا كله، فلا غرو أنِ حَبَّب هؤلاء القوم الى المأمون مذهبهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معبّدة، لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التلميذ المتأثر بمذهب أستاذه آبن المبارك .

كل هذه العوامل كانت فى الواقع ناحية واحدة، ولها أثرها القوىّ فى تنمية النزعة، الاعتزالية فى نفس المأمون . بيد أن هنالك ناحية قوية أخرى لها أثرها القوىّ أيضا، تلك الناحية هى حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التى حببت الى المأمون الفلسفة وما الى الفلسفة، ووجّهت عنايته الى المنطق وما الى المنطق، وبعثت فى نفسه حبّ أرسطاليس ، حتى أصبح موضع تفكيره فى يقظته ونومه . وصفوة القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقلّ عن الأولى أثرا، فقد هيأت منه ذلك التسامح الذى يتبع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسترى فى أخذه بالقول بخلق القرآن الى أىّ مَدًى دفعت به حرّية التفكير حتى وصلت به الى ما يناقض حرّية التفكير، لأنه ليس من حرّية التفكير فى شىء تلك الطريقة الشاذة فى إلزام العلماء وجِلّة الفقهاء الأخذ بمذهبه . وليس من حرّية التفكير فى شىء تلك النتائج السيئة التى انتهت اليها مأساة القول بخلق القرآن، فى أيام المعتصم وأيام غير المعتصم .

وقد أثبتنا لك فى باب المنثور فى الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث مثلا مما كتبه المأمون الى وُلاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن، وهو كتابه الى اسحاق بن ابراهيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبرى مما حصل وقتئذ . فراجعهما ثَمّةَ .

الفصل الرابع

الحياة الأدبية فى عصر المأمون

توطئة : المحادثة أو لغة التخاطب ، الخطابة ، الكتابة ، مجالس المناظرة وأبهاء الأدب ، الشعر .

(أ) توطئة :

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور» ، مكانة رفيعة فى التاريخ العربى ، ولا سيما عصرنا المأمونى ، بناحيتيه العلمية والأدبية . ذلك لأن الرجل ، الى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب وبحوث المؤرخين العرب ، لم يترك مصدرا من مصادر المتشرقين أمثال : «نولدكه» و «كريمر» و «هرزلد» و «أمرز» و «بربياد» و «مينارد» و «جوج» وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيه . كذلك لم يترك مصدرا من مصادر التاريخ الفارسى ، وهو كما نعلم ، شديد الصلة بعصرنا المأمونى ، من غير أن يدرسه حق دراسته و يفهمه حق فهمه ، فطالع فيما طالعه فى ذلك الباب ، آثار «ماكولم» ، و «فرازر» و «برون» و «سيكس» و «جوجينس» وغيرهم .

من أجل هذا ومن أخذ ذلك المؤرخ البحاثة بالدقة فى كل ما تصدّر له ، جاءت جُلُّ بحوثه أفضل من سواه وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستبيح لأنفسنا أن ننقل اليك ما ذكره فى هذا الباب . قال : «كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة ، وكان أديبا مُولَعا بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرة أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر وحار فى سرعة بديهته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، إذ كان يقربهم اليه و يجزل لهم العطاء ، وكما كان عصره عامرا بالعلماء والأدباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء

كالبخارىّ ، والواقدىّ ، الذى نحن مَدينــون له بأوثق السِّــيَر عن حياة النبىّ ، والشافعىّ[(١)] وابن حنبل . وكان المأمون يُجِلّ علماء اليهود والنصارى ، ويَحتفِى بهم فى مجلسه ، لا لعلمهم فحسب ، بل لثقافتهم فى لغة العرب وحِذقهم فى معرفة لغة اليونان وآدابها . ولقــد أخرجوا من أديرة سوريا وآسـيا الصـغرى وسواحل الشأم وفلسـطين ، كتبا خطية فى الفلســفة والتــاريخ وعلم الهنــدسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها الى العربيــة بدقة وعناية عظيمة . وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب الى العالم الإسلامىّ . ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة الى اللغة العربية ، بل توسعوا وأضافوا اليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم . وأقاموا مرصدا فى «سهل تَدْمُر» مُجَهَّزًا بجميع الآلات التى تمكنهم من النجاح فى دراسة علمى الفلك والهندسة والتوسّع فيهما . وقد صنفوا كتبا فى الرحلات والتاريخ ، ولا سيما كتب الطب ، وعُنُوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهــة ، إلا أنهــا كانت أكثر ذيوعا وانتشارا ، كالتنجيم والكيمياء . وكان لجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر فى نهضة أوروبا التى كانت غارقة فى بحار الجهالة فى العصور الوسطى ، حيث أيقظتهم من غفلتهم وأنارت لهم سبل علومهم التى كانوا أغفلوها ، وهى علوم اليونان وفلسفتها» اهـ .

ويقول الأستاذ البحاثة "كرد على" فى بحث طريف له : إن عصر المأمون قد ازدان بكثير من حَمَلة الشريعــة والأدب ، منهم : يحيى بن أكثم ، وأبو محمد اليزيدىّ ، والحسن ابن زياد ، وأبو داود الطيالسىّ ، وأبو عُبَيد القاسم بن ســلام ، وابن الأعرابىّ ، والنضر ابن شُمَيل ، وأبو عمرو الشيبانى ، ومحمد بن عمر الواقدىّ ، وأبو عبيدة ، والفرّاء ، والأخفش ، والأصمعىّ ، والصغانىّ ، والضبىّ ، والشــافعى ، وابن سعد ، وأبو داود ، وابن أبى دواد ، وابن حرب ، وابن حنبل ، والجاحظ ، والقواريرى ، وقُتَيبة ، وســعدويه الواسطى ، وابن الجَعْد ، وابن عُلَيّة الأكبر ، وأبو نصر التمّــار ، وأبو مَعْمَر القَطِيعىّ ، وأبو العوّام البزّاز ، وابن شُجاع ، وبِشْر المَرِيسِىّ ، وبِشْر بن الوليــد ، وسَجّادة ، ومحمــد بن نوح ، وأبو هارون

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « لم يكن للشافعى إتصال بالمأمون » .

ابن البكاء، والهذيل محمد بن الهذيل، وأبو زكريا المري ومحمد بن مبشر، الى مئات غيرهم، كانوا فخر الدولة وعنوانَ نبوغ الأمة. أما الشعراء والكتّاب فكانوا طبقة عالية، كثيرة العدد كالحصى، جيدة المنحَى والأسلوب، تغلب الرقّة والجزالة على أهل هاتين الصناعتين. تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة، حتى غدا الشعر المدنى البديع ظاهرَ الاختلاف عن الشعر الجاهلى، بعيدا عن وصف الأطلال والدِّمَن والركاب، وطلب الثأر، والمفاخرات الفارغة. هذا، وكان الجمهور يُشارك الأدباءَ فى فهم الشعر، وقدَرَ الخطبَ والرسائل قَدْرها، فلم يكن الشعراء فى وادٍ والأمة فى آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، اذا قَرَض شعرا أو حبر خطابا، تتناقله الأيدى فى الحال، وتتعاوره الرواة فيفشو فى الأمصار. وهذا ما كان يزيد فى طلاوة أدب الأديب وشعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحثّه على تجويد مقاله. اه

وبعد، فقد بيّنا فى كلمتنا عن الحياة الأدبية فى صدر العصر العباسى ما أخذتْ تتحوّل اليه الآداب العربية عامة فى الألفاظ والأساليب والمعانى والأغراض، وبيّنا لك الأسبابَ التى كانت تبعث على هذا التحوُّل، من شدّة الامتزاج بين العناصر المختلفة التى خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيات جديدة، الى ما كان للعرب من ثقافة ومدنية، ومن اتساع السلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف همم أولى الفضل الى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوّعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيّناه لك، أن تنفرج جوانبها، لتسع هذه الأغراض، ولتقوم بحاجات الناس، طِبقًا لمقتضَيات العصر، وخضوعا لسنّة التحوّل.

بيّنا لك كلّ هذا. وقد يكون من التعسُّف أن نَعرِض لتحوّل الآداب فى أيام المأمون خاصّةً، فانه اذا افترضنا أن الآداب تحوّلت تحوّلا خاصّا فى أيام المأمون، فقد يكون من العسير تبيين هذا التحوّل وتحديد مداه، ذلك بأن تحوّل الآداب بطىءٌ، ولا يمكن

تبينه إلا بعد ظهور آثاره ظهورا لا سبيلَ الى الشك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية ، فانك تستطيع أن توقِّت الحوادثَ السياسية بالسنة بل بالشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك فى الآداب إلا بعشرات السنين .

إذًا رأيُنا فى الآداب لعصر المأمون هو رأينا فى الآداب لصدر العصر العباسىّ . وإنما الذى حدث أن السبيل التى سلكتها الآداب فى صدر العصر العباسىّ قد بلغت غايتها فى أيام المأمون ، فعصر المأمون اذًا هو الثمرة الناضجة لتَغَيُّرِ الآداب فى العصر العباسىّ ، أو بعبارة أخرى : يعتبر عصرُ المأمون العصرَ الذى بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقدور لها .

وسبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلا على هذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار فى المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغة التخاطب تنحدر مدارجةً عن الفصحى منذ الفتوح الإسلامية ، بسبب اتصال العرب بغير العرب ، ممّن دان لسلطانهم وانتظم فى مُلْكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعتنا فى الطبرىّ وفى غير الطبرى فى الفترة المأمونية ، أن بعض جُند خُراسَان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلا (بُسَرَ زبيدة) (ومكن) وغيرها من الألفاظ الفارسية التى أثبتها المؤرّخون .

وقد يكون من المُمتع حقا أن يُخصص باحث ممن لهم اطلاع على لغات البُلْدان التى فتحها العرب كتابًا لدراسة مبلغ تأثر اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب فى الأرجاء المختلفة . وقُصارى ما نقرّره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقا من أثر الفتوح سواء أكانت فتوحَ سيف أم فتوحَ ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغةِ اللسان ومَتانة اللفظ بقدر ما أغنت من ثروة ذهنية عظيمة .

وإنك اذا ذكرت ما كتبناه فى الفصل السادس وفى نظيره من كتابنا عن الصدر العباسىّ فى شأن ما زيد فى الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة فى ذلك العصر، وذكرتَ أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عُهِد اليهم بالترجمة والنقل والتحرير، اذا ذكرتَ هذا، الى جانب ما قدّمناه لك، فانك تسوّغ معنا ما نذهب اليه من القول بتأثر اللغة فى ذلك العصر.

وفى هذا القدر الكفاية، ولنتدرج الى ذكر كلمة عن الخطابة.

(ج) الخطابة :

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرةَ الناضجة للآداب العربية فى العصر العباسىّ، فهل كان الأمر كذلك فى الخطابة أيضا ؟

أنت تعلم أن قوة الشىء ترجع الى قوة عوامله وأسبابه. ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابية لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثَمّ لم تُماشِ الخطابةُ سائر أنواع الآداب فى سبيلها الى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع الى ضيق مجالها وضعف الحاجة اليها، فبعد أن كنا نراها فى العصر الأُموىّ، الوسيلةَ الى قمع الفِتَن وردّ البِدَع، ولسانَ الخليفة فى رعيته، والقائدِ فى جنده، والزعيمِ فى أتباعه، وبعد أن كنا نرى حظها فى عصر الانتقال وصدر العصر العباسىّ لا يقل عن حظها فى العصر الأُموىّ، لحاجة الدّعاية والزعماء اليها، أصبحنا نرى مجالها فى عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقصر على التهنئة والتعزية والخُطَب الدينية كالجمعة والعيدين. وضيقُ مجالها يرجع الى استغناء الخلفاء العباسيين وعُمّالهم وقوّادهم عنها بالمنشورات العامّة، حيث يتبسطون فيها ويضمنونها ما يريدون من أغراض، ثم تُتلى على مَن يُراد أن تُتلى عليهم. ولعل ذلك لاصطباغ الخلافة العباسية بالصبغة الفارسية، ولاحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولأن جُلّ عُمّال بنى العباس فى ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حظًّا عظيما من بلاغةِ القــول وحسنِ البيانِ ، فقــد كانت لا تزال بألســنتهم لُوثةٌ من العُجْمة، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفقها .

لعل لكل هــذا أو بعضه أثرا ما فى تضييق مجال الخطابة والاستغناء عنهــا بالرسائل والمنشورات العامة. ومهما يكن من شىء، فقد أُلقِيت فى عصر المأمون خُطَبٌ قليلة القَدْر والقيمة، ننشر لك منها على سـبيل المثال خطبتين : إحداهما للمأمون فى عيد الفطر، والأخرى تهنئة بمَقْدم المأمون الى بغداد .

خطبـــة المأمون :

ألَا وإن يومكم هذا يومُ عيدٍ وسنة وابتهال ورغبة، يومٌ ختم به الله صيام شهر رمضان، وافتتح به حجّ بيتــه الحرام، فجعله أول أيام شهور الحج، وجعلــه مُعَقِّبا لمفــروض صيامكم ومُتَنَفَّل قيامكم، فاطلبوا الى الله حوائجكم واسـتغفروه لتفريطكم، فانه يقال : لا كثير مع ندَم واستغفار، ولا قليل مع تمـادٍ وإصرار . اتقوا اللهَ عبادَ الله، وبادروا الأمرَ الذى لم يحضُر الشك فيــه أحدا منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فانه لا يستقال بعــده عثرةٌ، ولا تُحظَر قبلَه توبةٌ . واعلموا أنه لا شىءَ بعده الا فوقه، ولا يُعين على جَزَعه وعَلَزِه وكُرَبه، وعلى القــبر وظلمته، ووحشته وضيقه، وهول مطلعه ومسألة مَلَكَيْه، إلا العملُ الصالح الذى أمر الله به، فمن زَلّت عنــد الموت قدمُه، فقد ظهرتْ ندامتُــه وفاتته استقالتُــه، ودعا من الرَّجعة مالا يُجابُ اليه، وبذَل من الفِدْية مالا يُقبل منه، فاللهَ اللهَ عبادَ الله، كونوا قوما سألوا الرَّجعــةَ فأُعطُوها إذْ مُنِعها الذين طلبوها، فانه ليس يتمنى المتقــدمون قبلكم، إلا هــذا الأجل المبسوطَ لكم . فاحذروا ماحذّركم اللهُ منه، واتقوا اليومَ الذى يجمعكم الله فيــه لوضع موازينكم، ونشرِ صحفكمُ الحافظةِ لأعمالكم . فلينظر عبــدٌ ما يَضَــع فى ميزانه ممــا يثقُل به، ومما يُملِى فى صحيفته الحافظة لمــا عليه . ولستُ أنهاكم عن الدنيا بأكثر ممــا نهتكم به الدنيا عن نفسها، فان كلّ ما بهــا يُحذِّر منها ويَنْهى عنها، وكلُّ ما فيها يدعو الى غيرها. وأعظمُ ما رأته أعينكم من فجائعها وزوالهــا ذمّ الله لها والنهى عنها، فانّه يقول تبارك

وتعالى : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وقال ﴿إنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ . فانتفعوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله ، أدركتهم عصمةُ الله ، فحذروا مصارِعَها ، وجانبوا خدائِعَها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

خطبة التهنئة :

قال ابن أبى طاهر : دخل المأمون بغداد فتلقاه وجوهها ، فقال له رجل منهم : يا أميرالمؤمنين ، بارك الله لك فى مَقْدَمك ، وزاد فى نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ، تقدّمت مَنْ قَبْلَك ، وأتعبتَ مَن بعدَك ، وأيأستَ أن يُعايَنَ مثلُك ، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما يبقى فلا نرجوه ، فنحن جميعا ندعو لك ونُثْنِى عليك . خَصَبَ لنا جنابُك ، وعذب ثوابُك ، وحسُنت نظرتُك ، وكرُمت مقدرتُك ، جبرتَ الفقير ، وفككتَ الأسير ، والخيرُ بفنائك ، والشرُّ بساحة أعدائك ، والنصر مَنُوطٌ بلوائك ، والخِذْلانُ مع ألْوِيَة حُسَّادك ، والبِرُّ فعلك ، قد طَحْطَح عدوَّك غضبُك ، وهَزم مغايِبَهم مشهدُك ، وسار فى الناس عدلُك ، وشَسعَ بالنصر ذكرُك ، وسكّن قوارِعَ الأعداء ظَفَرُك ، الذهب عَطاؤُك ، والدواةُ رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .

* * *

(د) الكتابة :

قلنا فى كلمتنا عن الكتابة فى صدر العصر العباسى : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرناها هناك — دفعت الكتابة فتعدّدت أغراضها ، وتنوّعت أساليبها ، ومال الكُتّاب الى السهولة فى العبارة ، والتأنق فى اللفظ ، والجودة فى الرصف ، وأطالوا فى المقدمات ، وتوعوا المبدأ والختام ، والألقاب والدعاء ، ومالوا الى الغلوّ والمبالغة . ثم قلنا بعد كلام : أما الإطناب فى الكتابة فكان صفة غالبة فى كلّ ما شَمِل بَيْعةً ، أو عهدا ، أو احتجاجا ، أو انتصارا ، أو تقريرا لمذهب ، أو استهواء أودفعا لشبهة ، أوطلبا لنعمة ... الخ . وقد أثبتنا لك جملةً صالحة

من آثار العصر المأمونى ممـا يقوم حجة على ما ذهبنا اليـه . ونحيلك الى رسالة أبى الربيع محمـد بن الليث، الى قُسطنطين ملك الروم، والى رسالة يحيى بن زياد الحارثى فى تقريظ أمير المؤمنين الرشيد، وقد أثبتناهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور — فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى، كما أثبتنا لك فى الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالةً قيِّمة للمأمون تسمّى رسالة الخميس، كان بعث بها الى أهل خُراسان كمنشور من الخليفة، ورسالةً مُمْتِعة لسهل بن هارون خازن بيت الحكمة فى عهده، فراجع ذلك ثَمّة .

ولو قد ذهبنا نورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعَدَوْنا القصـد وأمللنا، فحسبنا ما أحلناك الى مراجعته الآن، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا اليه . وقد أوردنا هـذه الرسائل من غير أن نَعرِض لهـا بتحليل أو بيان . فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء .

*
* *

(هـ) مجالس المناظرة و"أبهاء" الادب والغِناء والمنادمة :

أما مجالس المناظرة ومكانتها السامية فى العصر المأمونى، فقد وقفت على طرف عظيم منه فى الفصول التى عقدناها لك عن المأمون وعلمه، وأدبه، ودينه، وسياسته . فمن نافلة القول وتكراره أن ننقلها لك هنا . وقصارانا أن نقول : إن المناقشات الحادّة بين سيبويه والكِسائىّ فى شأن مسألة نحوية، وبين الشعراء والأدباء فى تفضيل شاعر على شاعر، وبين السُّنّيين والمعتزلة فى القول بخلق القرآن، وأبْهاء الأدب عند الأمين والمأمون وأنصارهما، وأمراء العـرب كأبى دُلَف وعبد الله بن طاهر وغيرهما، لتدل أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة فى هذا العصر من مكانة، حتى أصبحت من أهم مميزاته وكُبْرَيات آثاره .

وأما المنادمة والغِناء، فقـد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادمة فى الصـدر العباسىّ . وقد آن لنا أن نُتمّ لك القول فى حالتها فى العصر المأمونىّ ،

ويحيلك فى الوقت نفسه الى كتاب حَلْبة الكُمَيت، والأغانى، ونهاية الأَرَب، وغيرها من كتب الأدب، فهى مُتْرَعة بأخبار الغناء والمنادمة، غنيةٌ بأخبار المنادمين والمغنين .

سئل إسحاق بن ابراهيم الموصلى عن رأيه فى حال المنادمة فى تلك الأيام، فقال عن الأمين: ما كان أعجب أمره كله، فأما تبذله فما كان يبالى أين قعد ومع من قعد، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائةُ حِجاب خرقها كلها وألقاها عن وجهه، حتى يقعد حيث قعدوا، وكان من أعطى الخلق لذهبٍ وفضة، وأنهبهم للأموال اذا طَرِب أو لَهَا. وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوِقْر زَوْرَق ذهبًا فانصرف به، وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحُملت أمامى. ولقد غنّاه إبراهيم بن المَهْدِىّ غناءً لم أرتضه، فقام عن مجلسه فأكبّ عليه فقبّل رأسه، فقام إبراهيم فقبّل ما وطِئت رجلاه من بساطه فأمر له بمائتى ألف دينار. ولقد رأيته يوما وعلى رأسه بعضُ غلمانه فنظر اليه، فقال: ويلك! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل، انطلق فخذ ثلاثين بَدْرة فاغسل بها ثيابك .

ولقد حدثنى عَلُّويه الأعسر، وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف عنه قال: لمّا أُحيط به وبلغت حجارةُ المَنْجَنيق بساطَه، كنا عنده، فغنّته جارية له بغناء تركت فيه شيئا لم تُجِدْ حكايته، فصاح: يازانية، تُغَنِّيني الخطأ! خذوها فحُملت، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المنادمة عند المأمون، فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهرا، لم يَسْمع حرفا من الغناء، ثم سَمِعه من وراء حجاب متشبّها بالرشيد، فكان كذلك سبْع حِجَج، ثم ظهر للندماء والمغنّين . قال: وكان حين أحبّ السماع ظاهرًا بعينه، أكبرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن ابراهيم المَوْصلى، فغمزه بعضُ مَن حضر وقالوا: ما يغادر تيهًا وبأْوًا، فأمسك عن ذكره . قال فجاءه زُرْزُر يوما، فقال له: يا إسحاق نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إسحاق: فغنّه بهذا الشعر :

ياسَرْحَةَ الماءِ قد سُدَّت موارِدُه * أمَا إليكِ طريقٌ غير مسدودِ
لحائمٍ حامَ حتى لا حَرَاكَ به * مُحَلَّأٍ عن سبيل الماء مطرودِ

فلما غنّاه به زُرْزُرُ أطربه و بهجه، وحرّك له جوارحه، وقال: ويلك! من هذا؟ قال: عبدك المجفو المُطَّرَح. ياسيدى إسحاق! قال يحضر الساعة! فجاءه رسوله، و إسحاق مستعدٌ، قد علم أنه إن سمع الغناء من مُجِيدٍ مُؤَدٍّ أنه سيبعث اليه، فجاءه الرسول، فحدّث أنه لما دخل عليه، ودنا منه، مدّ يده اليه، ثم قال: ادْنُ منى فأكبّ عليه، واحتضنه المأمونُ وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مُصْغِيا اليه، مسرورا به.

وحسبنا هذا القدر. وإن أردت زيادة و إفاضة فانا نُحيلك الى بعض أخبارها فى الجزء السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع.

* *
*

(و) الشـــــعر:

أشرنا فى كلمتنا عن حالة الشعر وفنونه فى صدر العصر العباسى، الى ما أخذ يتحول هو اليه أيضا، تبعا لمقتضيات العصر وظروف الزمان، ومسايرةً للحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولما جدّ على أحوال الناس ومعايشهم من الغنى والتّرَف، وما يستلزمه الغنى والترف من الاستمتاع بألوان اللهو واللذات، والافتنان فى بناء القصور والسفن و إنشاء الحدائق والمتنزهات. ولقد كان فى مرجونا أن نفرد لك فصلا خاصا نضمّنه ما كان من الخلفاء فى إقامة مبانٍ وقصور وحدائق ودُور، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقةُ عهد، و إنما ألجأتهم اليها المدنية والبَذَخ، وما أصابوه فيها من رَفَاهة عيش، وسعَة يد، ووفرة غنى. بيد أن ذلك يطول، ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القصد والإيجاز، مع الإلمام بكافّة النواحى لهذا العصر.

على أنه من الميسور لك أن تتصور مبلغ ماوصل اليه الخلفاءُ العباسيون وأمراءُ البيت المالك ورجالاتُ الدولة من الثروة والبَذخ، بما أومأنا اليه فى كلمتنا عن خراج الدولة، وما كان فيها من آستصفاءٍ وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادّةً عنيفةً، فقد اشتدت المُلاحاةُ بين شيعة العَلويّين والعباسيين، وبلغ النزاع غايتَه بين أصحاب المذاهب وزعماء الآراء. ولا تنس أن تضيف الى ما تقدّم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد فى أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة فى تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حدّ ما، مرآةً صادقة لأحواله وما كان يجرى فيه من شؤون .

أسرف الناس فى شرب الخمر فافتنّ الشعراء فى وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتخيّرَ الناس السُّقاة من الغِلْمان ومن فى زِىّ الغلمان، فوصف الشعراء السقاةَ وتغزلوا فى الغلمان . وولِع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجرى فى مجال الصيد . وآفتنّ الناس كما قلنا فى بناء القصور وغير القصور، ففتحوا المجال واسعا لخيال الشعراء فى شتّى الأبواب. واشتدت المنافسة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كلِّ فريق يَنْضَحون عن رأيهم ويؤيّدون مذهبهم . وألّف العلماء فى الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نَظْمَ الفقه والأخلاق والكلام. وهكذا تعدّدت أغراض الشعر وتنوّعت ألوانُه .

وتحضّر الناس فى بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية ، فرقّتْ طباعُهم، ولانت أخلاقُهم، ونبت عن الحُوشيّة أذواقُهم، فرقّ شعرُ أهل الحواضر، وسَلِست ألفاظه، وبعُدت من الحُوشيّة . وتُرجمتْ العلوم اليونانية وغيرُ اليونانية، من فلسفة ومنطق وأخلاق ، فكان لهذه العلوم أثرها فى تنظيم أفكار الشعراء ودقّة خيالاتهم .

ولو ذهبنا نُورد لك شواهدَ على كل هذا وغيره، لأطلنا وأمللنا . وإنما نُحيلك على آثار شعراء هذا العصر ، كأبى نُواس فى الخمر وكؤوسها ، وأوقات شرابها وسُقاتها، والغزَل

بالغلمان، والصيد، والطرد، ووصف مظاهر الحضارة العباسية. وكدعبل الخزاعى والسيد الحميرى فى النزاع السياسى بين العلويين والعباسيين. وكأبى العتاهيـة فى الأخلاق، وأبان ابن عبد الحميد فى نظم العلوم كالفقه وغير الفقه. وهذه الإحالة لا تمنعنا أن نورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية.

وهنا تعرض لنـا ملاحظةٌ نرى إيرادها حتما علينا، وهـذه الملاحظة هى أن الشـعر فى عصر المأمون كان مرآةً صادقةً للحياة وما يجرى فيها من شؤون الى حدّ ما.

نقول «الى حدّ ما». ويدفعنا الى هذا القول مُعْتَقَدُنا القوىّ الذى تكوّن لنا من دراستنا لُروح هذا العصر. ذلك بأنّا نرى كثيرا من شعراء الحاضرة المُجيدين فى هذا العصر وفى العصر الذى قبله، يَنْحَلُون نتائج أفكارهم وما تجود به قرائحُهم، شـعراءَ الجاهليـة وأعراب البادية. ونرى أيضا أن كِبار الرُّواة وأهلَ الأدب، يُنشِدُون الشعر الجيد لمُحْدَث، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابىّ، حتى اذا تبين لهم أنه لمُحْدَث أنكروه وازْوَرُّوا عنه.

هـذا يدلّنا على أن جماعةً قويةً يُعتدّ بها فى هذا العصر، كانت تَميل الى إيثار الشـعر القـديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشـعر الجديد. واذا كان هـذا حقا كان من الطبيعى أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية فى غير عصرهم، وأن يكونوا بأخيلتهـم فى غير حاضرتهم، لكى يَتملّقوا الرُّوح الغالبة و يَظْفَرُوا برضا العلماء. وقد يكون لهؤلاء العلماء والرُّواة حظٌّ كبير فى صرف أذهان الناس الى الشعر القديم.

وليس معنى ذلك أن شعر المحدَثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة فى النفوس.

لذلك نحن نميـل الى القول بأن خير من يمثّل هذا العصر أولئك المجدّدون الذين لم يتقيدوا ببكاء الأطلال، والحنين الى الرسوم، كأبى نواس وأضراب أبى نواس.

على أنه يجدر بنا أن نورد لك مثلين مما كانوا يتذوّقونه فى هذا العصر من شعر المحدثين، وما قاله أبو دُلَف ناعيا منهج التقعّر، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر فى شتى الأنحاء.

وقد نشرنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث أمثلة من شعر هذا العصر كما نشرنا لك تلك القصيدة التى أنشدها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرّضه فيها على قتل ابراهيم بن المهدى حين ظفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أشمته به بل أعفو عنه . وانظر الى مطلع القصيدة، تر الفلسفة اليونانية جاثمة فيه :

ألم تر أن الشىءَ للشىء علةٌ * يكون له كالنار تُقدح بالزّند

وكان للمأمون جارية تسمى عَريب، كانت تعشق جعفر بن حامد ، وكان يتعشقها، فلما وجدت من المأمون غفلةً ، وضعت على فراشها مثال رخام، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى جانب قصر المأمون . فصعِدَتْ الى السطح ونزلت فى زِنْبيل، فلما قضى نَهْمَتَه منها قعدت فى الزنبيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلبها المأمون قبل أن ترجع الى فراشها فلم يجدها، فعلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عَريبا * فعلتْ فعلا عجيبا
ركبتْ والليلُ داجٍ * مركبا صعبا مهيبا
فارتقتْ متّصلا بالنـ * ـجم أو منه قريبا
صبرتْ حتى اذا ما * أقصد النومُ الرقيبا
مثلتْ بين حشايا * ها لكى لا يستريبا
خَلَفا منها اذا نو * دِىَ لم يُلْفَ مُجيبا
ومضتْ يحملها الخو * ف قضيبًا وكثيبا
مُحّةٌ لو حُرّكت خفـ * ـتَ عليها أن تذوبا
فتدلّتْ للمحبّ * فتلقاها حبيبا
جَذِلًا قد نال بالد * نيا من الدنيا رغيبا
أيها الظبىُ الذى تسـ * ـحر عيناه القلوبا
والذى يأكل بعضا * بعضُه حسنا وطيبا

كنت نَهْبًا لذئاب ... فلقد أطعمتَ ذيبا
وكذا الشاةُ اذا لم ... يك راعيها لبيبا
لا يبالى وَبأ المرْ ... عَى اذا كان خصيبا
ولقد أصبح عبدُ ... الله كَشْخانًا(١) حَريبا
قد لعمرى لَطَم الخدَّ وقد شقَّ الجيوبا
وجرتْ منه دموعٌ ... بلَّت الذقنَ الخضيبا

ومما يعتبر من الهجاء السياسى قصيدة جحشويه الشاعر فى يحيى بن أكثم قاضى المأمون بالبصرة، إذ فيه أيضا هجوٌ لآل العباس وخلافتهم . قال :

أنطقنى الدهرُ بعد إخراسِ ... بحادثاتٍ أطلْنَ وَسْوَاسى
يا بؤسَ للدهر لا يزال كما ... يرفع ناسًا يحطُّ من ناس
لا أفلحتْ أمةٌ وحقَّ لها ... بطول لعنٍ وطول إتعاس
ترضى بيحيى يكون سائسَها ... وليس يحيى لها بسوّاس
قاضٍ يرى الحدَّ فى الزناء ولا ... يرى على من يلوط من باس
يحكم للأمردِ الظريف على ... مثلِ جُوَيْنٍ ومثلِ عَدَّاس(٢)
فالحمد لله قد ذهب الـ‍ـجود وقلَّ الوفاءُ فى الناس
أميرُنا جائرٌ وقاضينا ... يلوط والرأسُ شرُّ ما راس
لو قصد الرأسُ واستقام لقد ... قام على القصد كل مُرْتاس
ما أحسب الجورَ ينقضى وعلى النـ‍ـاس أميرٌ من آل عباس

وقد أثبتنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث مثلا آخر من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكثم ، فراجعه ثمة .

(١) الكشخان بفتح الكاف وبكسر : الديوث .

(٢) كذا فى تاريخ بغداد وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٦ : « مثل جرير ومثل عباس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحى العصبية بين القبائل وهو الى حدّ ما يعتبر من الشعر السياسى . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِم بن الوَلِيد فى هجاء قريش والافتخار بالأنصار، وردّ ابن قَنْبَر عليه . وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثانى للاطلاع عليه، لضيق المقام عن إيراده هنا .

وفى هذه القصة الآتية طَرَافة من الفِرَاسة فى العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهى :

قال أبو السَّمْراء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجّهين الى مصر، حتى اذا كنا بين الرَّمْلة ودِمَشْق، إذ نحن بأعرابى قد اعترض، فاذا شيخٌ فيه بقيةٌ، على بَعيرٍ له أَوْرَقَ، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام، قال أبو السمراء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرَّافِقى، وإسحاق بن أبى ربعى، ونحن نُسَايِر الأمير، وكنا يومئذ أَفْرَهَ من الأمير دَوَابَّ، وأجود منه كُسًا . قال: فجعل الأعرابى ينظر فى وجوهنا، قال : فقلت : ياشيخ، قد أَلْحَحتَ فى النظر! أعرفتَ شيئا أم أنكرته؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومى هذا، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم، ولكنى رجل حسن الفِرَاسة فى الناس جيد المعرفة بهم ؛ قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبى ربعى، فقلت : ما تقول فى هذا؟ فقال :

أرى كاتبًا دَاهِى الكتابة بيّنٌ ◦ عليه وتأديبُ العراق منيرُ
له حركاتٌ قد يشاهِدْنَ أنه ◦ عليمٌ بتقسيط الخراج بصيرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافقى فقال :

ومظهرِ نسكٍ ما عليه ضميرُه ◦ يحبّ الهدايا بالرجال مَكُورُ
أخال به جُبْنًا وبخلا وشيمةً ◦ تخبِّر عنه إنه لوزير

ثم نظر الىّ وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنسٌ ◦ يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راويًا ◦ فبعضٌ نديمٌ مرةً وسَمِير

ثم نظر الى الأمير وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المُرتجى سَيْبُ كفه * فما إن له فيمن رأيتُ نظيرُ
عليه رداء من جمال وهيبةٍ * ووجهٌ بإدراك النجاح بشير
لقد عُصِمَ الاسلامُ منه بذائد * به عاش معروف ومات نكيرُ
ألا إنما عبدُ الاله بن طاهر * لنا والدٌ برٌّ بنا وأميرُ

قال : فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه .

هذا ، وقد حدّث بعضهم قال : احتجّ أصحابُ المأمون عنده يوما ، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء ، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسْلم بن الوليد حيث يقول ؛ قال : ماذا قال؟ قال : حيث يقول ورَثَى رجلا :

أرادوا ليُخْفوا قبره عن عدوه * فطيبُ ترابِ القبر دلّ على القبر

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قُبُحَتْ مَنَاظِرُه فحين خبرته * حَسُنَتْ مناظرُه لقبح المَخْبَرَ

ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وتغزّل فقال :

هوًى يجدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لقًى(١) بينهما مُعذَّب

ومما كان يستحسنه المأمون من دِعْبِل الخزاعى هجّاء المأمون المعروف قولُه :

ألم يأنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوعُ
فقلتُ ولم أملك سَوابِقَ عَبْرةٍ * نَطَقْنَ بما ضمّتْ عليه ضلوعُ

---

(١) اللقى : الملق المطروح .

تبيّن فكم دارٍ تفرّقَ شملُها * وشمل شتيتٍ عاد وهو جميعُ
طِوالُ الليالى صَرْفُهن كما ترى * لكل أناس جَدبةٌ وربيعُ

وقد حدّث ابن طيفور عن مشيخته أن منصورا النَّمَرىّ، والحسن بن هانىء، وأبا العتاهية وأبا زغبة[1] اجتمعوا فتذاكروا أبياتا على وزن واحد، ففُضّل أبو العتاهية عليهم. فقال النمرى:

أُمَيْرُ كيف بحاجةٍ * طُلبتْ الى صُمّ الصخورِ
لله درّ عُداتكم * كيف انتسبْنَ الى الغرورِ
ولقد تبيتُ أناملى * يَجْنِينَ رُمّانَ النحور

وقال أبو العتاهية:

لهفى على الزمن القصيرِ * بين الخَوَرْنَق والسَّدِيرِ
إذ نحن فى غُرَفِ الجنا * نِ نَعُومُ فى بحر السرور

وقال الحسن بن هانئ:

وعظتْكَ واعظةُ القَتِير[2] * وعدتْكَ أبهةُ الكبيرِ
ورددتَ ما كنتَ استعر * تَ من الشباب الى المُعيرِ
ولقد تحلّ بعقوة[3] الـ * ألباب من بَقَر القُصُورِ
صُورٌ اليك مؤنثا * تُ الدَّلّ فى زِىّ الذكور
أُرْهِفْنَ إرهافَ الأعنّـ * ـة والحمائل والسُّيورِ
أصداغُهن معقربا * تٌ والشوارب من عَبِيرِ

قال المحدّث: ولا أحفظ ما قال أبو زغبة، ففضلوا أبا العتاهية، وأبو نُوَاس عندى أشعرهم.

(١) كذا فى تاريخ بغداد، وعلق عليه ناشره بأنه فى ديوانه: «ابن زغب».
(٢) القتير: الشيب.
(٣) العقوة: ساحة الدار.

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبى دُلَف قد قصّر فى أمره ، فبعث اليـه مَنْ عزله وقيّـده وحبسه ؛ فكتب الى أبى دلف من السجن كتابا تنطّع فيـه وقعّر وطوّل ؛ فكتب اليه أبو دلف :

يا صاحبَ التطويل فى كُتْبِهِ * وصاحب التقصيرِ فى فعـلِهِ
وراكبَ الغامضِ من جهله * وتارك الواضح من عَقْـله
لم يُخْطِ من ألزمه قيـدَه * بل صيّر القيـدَ الى أهـله
قيـده للحبس تقعـيرُه * فالقيـد لن يخرجَ من رِجْله
والله لا فارقـه قيـدُه * أو يَقْطعَ التقعيرَ من أصله

وفى الختام نرى لِزَامًا فى عنقنا ، أن نحيلك على ما قاله الشـعراء وصفًا لثورة بغـداد وحريقها ، وعلى رثائهم للأميـن ونمـاذج أخرى لمختلف مقولاتهم فى مختلف المناحى وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث فانها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشعر فى ذلك العصر، فراجعهْ ثمة .

الفصل العاشر

نماذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى

توطئة — جبرائيل بن بختيشوع — الجاحظ — أبان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيى بن أكثم القاضى — اسحاق بن ابراهيم .

(أ) توطئـــــة :

أعترفُ أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجالات العصر من النباهة والكفاية بمكان، وقد كان يحلو لى حقا ويسرنى أيما سرور لو اتسعتْ رسالتى للكتابة عن رجالات العصر من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكتاب وأطباء ومغنين ونُدماء، بَيْد أن ذلك يتطلب سعة لايحتملها هذا المقام .

على أنا قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن بختيشوع » من أطباء العصر، وعن « الجاحظ » من ملوك الكتاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أبان اللاحق » الشاعر وصاحب نظم كليلة ودمنة ، وعن « أحمد بن يوسف » الوزير المأمونى ومدبج رسالاته ، وعن « يحيى بن أكثم » قاضى قضاته وأخيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

ونعترف لك بأن فى كتابنا شيئا من التقصير نحسه ، وسببه حاجة هذه الموضوعات الى الإفاضة فى الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب مما لا قبل لرسالتنا به .

« وبعد » فلنبدأ بهذه النماذج فنقول :

(ب) جبرائيل بن بُخْتَيْشُوع الطبيب النسطورى :

لسنا نريد أن نستطرد فى الحديث عن بُخْتَيْشُوع الطبيب الشهير وإنما نريد أن نلم إلمامة به يتعرف منها القارئ ماكان للرجل من أثر فى عصره فنقول : إن هذه

الأُسرة هي الأسرة الوحيدة النّسطُوريّة، التي استقام دور عزّها ثلاثة قرون، كان لها خلالها حظّ وجاه، وكانت لأفرادها حُظْوة، فاستعملهم الخلفاء العباسيون، فانتفعوا من الخلفاء، ونفعوا الطب وغيرَ الطب من العلوم بآثارهم ومُنتَجات عقولهم .

أمّا هـذه التسمية فسريانية، وهى مركبة من لفظتين سريانيتين، بُخت ومعناه العبد، ويَشُوع ومعناه يسوع أى عبد يسوع، وكانت هذه الأسرة من مدينة جُنْدَيْسابُور، وأوّل من عرفه التاريخ منها هو ديورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع وكان يزاول مهنة الطب فبَرَع فيها، ونَبُهَ ذكره، وأقيم رئيسا لمستشفى مدينته حتى إن أبا جعفر المنصور قد أرسل وفدا من قِبَله الى جنديسابور يستدعيه إليه إذ كان قد انتابه مرض فعجزت عن شفائه نُطُس الأطباء فأبى بُختيشوع بادئ الرأى حتى اعتقله العامل، ولكن أعيان بلده من مَطَارِنَة وقَسَاوِسة وغير هؤلاء نصحوا له بأن يمتثل للأمر، فانقاد لنصيحتهم وولّى وجهه شَطْر دار السلام، ثم كانت له حُظْوة عند المنصور . وما كنّا لنستطرد فى الحديث عن هذه الأسرة، وإنّما سقنا هذه الكلمة لنأتى على شىء من أخبار أسرة جبرائيل، لنُظْهر ما لهذا الرجل من المكانة فى عالم الطب، وأنه من سُلَالة كانت تتوارث أخلافُها عن أسلافها هذه الصناعة .

نقول : إن جبرائيل هذا، قد نبغ على مثال ذَوِيه، وظهرت فيه عوامل الوراثة، فورث عن آبائه الصفات الأدبية، وبَرَع فى صِناعة الطب، وكان الى جانب هذا وديع الخلق، لطيف المَحْضر، كريم السّجايا، عُرف فى جوّ الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جعفر بن خالد بن برمك، بعد أن أَبَلّ من مرضه باعتناء بختيشوع، رغب اليه أن يبق معه طبيبا له، فاعتذر وأناب عنه ابنه جبرائيل هذا، فلقى منه كل رعاية . وكاشفه جعفر بداء خفىّ كان قد أصابه، فعالجه جبرائيل فى ثلاثة أيام، وشُفى جعفر فزادت مكانة جبرائيل عنده، وقرّبه منه فكان جليسَه، وكان نديمَه، وكان لا يفارقه ساعة واحدة . وحَدَث أن جارية من جوارى هارون الرشيد قد يبستْ ذراعُها، فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفة بعد أن

أخفق الأطباء فى معالجتها، فحباه بخمسين ألف درهم، وقد عَظُم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له الىّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأنى أقبل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى، وكان فى صحبة الرشيد أينما حلّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه الى الرَّقَّة وصار معه الى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرض جبرائيل على الخليفة أن يكون له خادما، فقبله ورحّب به، ولم يكن يأكل شيئا إلا باذنه، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل ولم يُطلق سَراحه حتى شَفَع فيه الحَسَن بن سَهل . وفى سنة ٢١٠ هـ — ٨٢٦ م مرض المأمون مرضا أعجز أطباءه وكان فى مقدّمتهم ميخائيل صِهر جبرائيل، فأخذ جبرائيل على نفسه شفاء المأمون، وكان مُوفّقا، فلم تمض أيام حتى شفى المأمون، فغمره بنعمائه واتخذه أنيسا ونديما، ولم يَقِف احترام المأمون لجبرائيل وإكرامه له عند هذا الحدّ بل قد عدّاه الى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره الى الموظفين والعمال والقوّاد، بأن يوقّروا جبرائيل ويُجلوه، وكان الرجل يتدخّل فى شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنَسيّة، وبتأثيره انتُخِب البطريرك جيورجيس المعروف بابن الصباغ فتولى الرّياسة الدّينية فى طائفته وهو فى سنّ الشيخوخة . ولما كانت سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م . مرض جبرائيل، واتفق أن الخليفة المأمون كان فى ذلك العهد قد سافر الى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمته، ولكنّه أناب عنه ابنه بختيشوع، ولم يرجع المأمون وبختيشوع من رحلتهما حتى كان جبرائيل قد توفى . فأقيم له مأتم حافل، قلّما كان لمثله فى ذلك العصر . ودفن فى مدفن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيرا، وملكا واسعا، فكانت له ضِيَاع بجُنْدَيْسَابُور والسوس والبَصرة والسَّواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهدايا الكثيرة فى المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة فى المطعم والمشرب قدّمها الى المأمون، وكتاب المدْخل الى صناعة المنطق ، ورسالة مختصرة فى الطب وهى مختصر تأليف ديروكوريدس وجالينوس وبولس الايجينى، وله أيضا كتاب فى صناعة البَخُور وقد نسب اليه السمعانىّ فى مكتبته الشرقية معجما سُريانيا على أن هذا مشكوك فى روايته .

* * *

(ج) الجاحــظ :

- «الكتاب وعاءٌ ملىء علماً، وظَرْف حُشى ظَرْفا، و بستان يُحمل فى رُدْن، وروضة تقلّب فى حِجْر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلامَ الأحياء، ولا أعلم جارا أبرّ، ولا خَلِيطا أنصف، ولا رفيقا أطوع، ولا معلّمـا أخضع، ولا صاحبا أظهر كِفَاية، وأقل جناية، ولا أقل إمْلالًا وإبْراما، ولا أقل خلافا و إجراما، ولا أقل غِيبَة، ولا أبعد من عَضِيهَة[1]، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا. ولا أقل صَلَفا وتكلّفا، ولا أبعد من مِرَاء، ولا أترك لشَغْب، ولا أزهد فى جِدَال، ولا أكفّ عن قتَال من كتاب. ولا أعلم قرينا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافأةً، ولا أحضر مَعُونة، ولا أقل مؤونة، ولا شجـرة أطول عمـرا، ولا أجمع أمرا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مُجْتَنًى، ولا أسرع إدراكا فى كل أوان، ولا أوجد فى غير إبَّان من كتاب. ولا أعلمُ نتاجا فى حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، و إمكان جوده، يجمع من التدابير الحسنة، والعلوم الغريبـة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والاخبار عن القرون المـاضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب».

بهذا الأسلوب الحسن فى مَنْحاه، الناصع البيان فى مَبْناه، الدانى القطوف، السـديد فى منهجه، العذب فى مورده: يخاطبنا شيخ الكتّاب غير مدافع، والمتفنن فى الرسالات غير منازع، أبو عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ بعبارات تُسْتساغ فى غير مؤونة ولا كدّ ذهن، وتُسْتوعب بلا إرهاق خاطر ولا إعنات روية. والجاحظ أيدك الله ليس وراء كتاباته — كما تعلم — مذهب لمستفيد، ولا مَرَاد لراغب. فِقَرُها متناسبة متراصفة، وألفاظها متنخلة متخيَّرة. وعباراتُها مُطَّردة منسجمة، وجملُها ممـا يُوطِّأ له مِهادُ الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهى — وأنت جِدُّ عليم — من ذلك النوع الذى يدخل الآذان بلا استئذان، لمكانها

(١) الكذب والنميمة.

من الألباب، وهو من أجل ذلك يتطلب منا درسا تحليليا مطوّلا، وليس هذا فى مقدورنا لتعدّد الموضوعات التى نعالجها، ولأنها تستلزم عناية ببحثها، والاشارة اليها، بقدر ما يتطلبه الجاحظ من عناية ودرس، فلنكتف بإلماعة موجزة عن حياة هذا النابغة الفذّ الذى تسنّم ذروة الكمال، وبلغ غاية النضج فى الأدب العربى وفنونه، وكان الى جانب هذا صاحب مذهب فى الاعتزال، هو المذهب الجاحظى، معتمدين فيها على ما كتبه ابن خلّكان وصاحب معجم الأدباء ومؤلفات الجاحظ نفسه .

نشـأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . ولم تكن أسرته برفيعة القدر ولا سامية المكانة، بل على النقيض كانت خدما وخَوَلا لمولاهم أبى القَلَمّس عمرو بن قلع الكِنَانىّ ثم الفُقَيمى النسّاب . وقد قيل : إن فزارا جدّ الجاحظ كان جمّالا ، وإن الجاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسمك بسَيْحان .

قال الجاحظ : أنا أَسَنّ من أبى نُوَاس بسنة، وُلدتُ فى أول سنة ١٥٠ هـ وولد فى آخرها . وانكبّ الجاحظ على العلم منذ طفولته انكبابا عظيما، وشُغف بالمطالعة والقراءة، وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هَفَّان أحد معاصريه : لم أرَ قطّ ولا سمعتُ من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فانه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يَكْتَرِى دكاكينَ الورّاقين ويبيت للنظر فيها، ثم ثنّى أبو هفّان بالفَتْح بن خاقان، وذكر بعده اسماعيلَ بن إسحاق القاضى .

سمع الجاحظ من أبى عُبَيدة، والأصمعىّ، وأبى زيد الأنصارىّ . وأخذ النحو عن صديقه أبى الحسن الأخفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون، والسَّرىّ بن عَبْدَويه، وأبى يوسف القاضى، والحجاج بن محمد بن حَمّاد بن سَلَمة . والكلامَ عن أبى إسحاق ابراهيم بن سَيّار النظّام المعتزلى النابه الذكر، وبه تأثر، وعليه تخرّج فى مذهبه فى الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا، وكان قُصارَى همّه، فى مَغْداته ومَرَاحه وبُكوره وآصاله، أن يحفظ كتاباً أو يفهم باباً، وكان العصر الذى فيه دَرَج ونما على ما علمتَ من غزارة المادة، وتعدّد التآليف، وازدحام المعارف، ووَفْرة مختلف الثقافات، فلا غَرْو اذا أخبرنا الجاحظُ عن نفسه بقوله: «لقد نسيتُ كنيتى، لقد تغيبت ثلاثة أيامٍ حتى أتيت أهلى فقلت لهم: بِمَ أُكْنى؟ فقالوا: بأبى عثمان».

ولا غَرْو اذا كان الجاحظ قد اتّصل بكثير من علماء ونوابغ عصره، وشَهيرى الكتّاب والمترجمين من فرس وسُرْيان، فتأثر بلا ريب ذَكاؤه بهذا الاختلاط، وطالَعَ جِماعَ ما تُرجم فى أزمان المنصور والرشيد والمأمون، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناما كان، حتى إنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر — كما قلنا آنفا — فكان لذلك من نوابغ العالم.

وغلب عليه أمران اثنان: الكلام على طريقة المعتزلة، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة. ولقد قضى عامّةَ عمره بالبصرة موفور الكرامة، مَحْبُوًّا من خلائق الله، سيّما رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعثمانية بالعطايا والمنح، لما كان يصنّفه لهم من الرسائل التى كان يتعمد فى كتابتها التشيّع لمذهبهم ومعاضدة مزاعمهم ونقض أقوال مخالفيهم. وكانت له مهارة فى التلاعب بعقولهم وابتزاز أموالهم، واقتدارٌ على التعبير فى كل ما يعالجه وفى كل موقف. وكان يحج كثيرا الى بغداد فى أواخر عصر المأمون وغيره، فكان المأمون يُرفِده. ثم انقطع الى الانتجاع الى محمد بن الزيات طَوَالَ وزاراته الثلاث، ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة حتى أُصيب بالفالج، فبقى مفلوجا حتى أسلم الروح.

ذكاؤه وخلقـــه:

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور ودقة العاطفة. وله فى ذلك نوادر هى من خوارق الطبيعة. وكان غريب الأطوار، به شذوذ فى أحواله وأطواره. ذلك لأنه كان يجمع بين الجدّ والفكاهة، حاضر النكتة، حاضر البديهة، سريع

الخاطر . وكانت به دُعَابة وتظرّف وتَمَاجُن . وكان لا يحتفل لما يأخذ الناسُ به أنفسهم وما يتواضعون عليه من العادات والرسوم وأنواع العصبية والمذهبية والجنسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليد ، سخيا سَمْحا ، ولطيف المَحْضَر ، خفيف الروح . وكان على ما به من دَمَامة ، غايةً فى الظَّرْف وحلاوة اللفظ ، وهو من أجل ذلك كان يجمع بين الضدّين .

اعتقاده ومذهبه :

قلنا إنه تخرّج على أبى اسحاق إبراهيم بن سيار النَّظَّام زعيم الفرقة التى تنسب اليه من المعتزلة ، وكان يلازم أستاذه هذا ويتوفّر على دروسه . فمن أجل ذلك كان الجاحظ معتزليا ، وزعيم الفرقة الجاحظية فى الاعتزال . وقد انتفع مواهبه وما حباه الله من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، فى ترويج مذهبه والدّعاوة له ، فكان لسانَ المعتزلة الناطق ، وسلاحَهم القاطع . وبرع فى الكلام ، وخلطه بالفلسفة اليونانية . ويرميه كثيرون بالضلالة ، وأنه مَاجِنٌ مِهْذار ، متناقض نقّال ، يتلاعب بالناس ، وينقض اليوم ما بناه أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخيّاط فى كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الرّاوندى العنيفة المرّة التى تناول فيها عقيدة الجاحظ بالتجريح الشديد .

ومما قاله أبو الحسن الخياط فيما يفنّد به هجمات ابن الراوندى : «وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولى من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحدًا منهم نصر الرسالةَ واحتج للنبوة ، بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كتابٌ فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة ، وكتبه فى تصحيح مجىء الأخبار مشهورة . وهل يُستدلّ على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشىء أوكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقِه إياه ! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهرى ، والمسعودى ، والبديع الهمذانى ، وأبى العباس أحمد بن يحيى ، وأبى العباس محمد بن يزيد المبرّد ، والفتح بن خاقان ، والرئيس أبى الفضل بن العميد وغيرهم شخصيةَ الجاحظ بما تستحقه من العناية والدرس ومن النقد والتقريظ ، مما لا نثبته لك هنا مخافةَ الإطالة والملل ، فلتراجع فى مظانّها ومواضعها .

علمــه :

يقول صاحب المعجم : «كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره، وعلا قدره، واستغنى عن الوصف» . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بفنون الكلام ، كثير التبحّر فيه ، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا . ولا غرو فان مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقا، غزير المادة، خِصْبَ الذهن، كثير المحصول العقلى، وقد أكثر التصنيف فى الأدب واللطائف والفكاهات، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السُّمّار .

ويقول الفتح بن خاقان فى كتاب له الى الجاحظ : «إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك، ويَهَش عند ذكرك، ولولا عَظَمتُك فى نفسه ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه، ولَغَصَبك رأيك وتدبيرَك فيما أنت مشغول به ومتوفّر عليه . ولقد كان ألقى إلىّ مِنْ هذا عنوانَه، فزدتُك فى نفسه زيادة كفّ بها عن تَجْشيمك، فاعرف لى هذه الحال واعتقدْ هذه المِنّة على كتاب «الرّد على النصارى» وافرُغْ منه وعجّل به إلىّ ، وكُنْ ممن جدا به على نفسه، وتنال مُشاهرتك . قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسُك . وقد قرأت رسالتك فى «بصيرة غنام»؛ ولولا أنى أزيد فى تَخيلك لعرّفتُك ما يعترينى عند قراءتها، والسلام» .

رسائله :

للجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها، منها : أنه كتب الى عبد الله بن خاقان فى يوم عيد : «أخّرتنى العلةُ عن الوزير، أعزه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ،

و يعمر ما أخلفت العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيدَ أعظمَ الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبّ ويُحَبّ له ، ويقبلَ منا ما نتوسل به الى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه ، ويمتّعه بصحة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه فى مَسَرّة نقصا ، ولا يقطَع عنه مزيدًا ، ويجعلنى من كل سوء فداءه ، فيصرف عيون الغِيَر عنه وعن حظّى منه » .

وكتب الى محمد بن عبد الملك الزيّات يستعطفه : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوّة الى حب الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفتُ ، أيدك الله ، أن أكون عندك من المنسوبين الى نَزَق السفهاء ، ومجانبة الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن آمرأ أمسى وأصبح سالمًا * من الناس إلا ما جَنَى لسعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دعا الناسَ الى ذمه * ذمُّوه بالحقّ و بالباطلِ

فان كنتُ اجترأتُ عليك ، أصلحك الله ، فلم أجترئْ إلا لأن دوامَ تغافُلك عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤيس من المكافأة . ولذلك قال عُيَيْنة ابن حِصْن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله : عمرُ كان خيرًا لى منك ! أرهبنى فاتّقانى ، وأعطانى فأغنانى . فان كنتَ لا تَهَبُ عقابى ، أيدك الله ، لخدمة سَلَفَتْ لى عندك ، فهَبْه لأياديك عندى ؛ فان النعمة تشفع فى النِّقمة . وإلا تفعل ذلك لذلك ، فعُدْ الى حسن العادة ، وإلا فافعَلْ ذلك لحسن الأُحدوثة ، وإلا فأْتِ ما أنت أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمِّد ، وتتجافَى عن عقاب المُصِرّ ، حتى اذا صرتَ الى من هفوتُه ذِكْر ، وذنبُه نسيان ومن لا يعرف الشكرَ إلا لك ، والانعامَ إلا منك ، هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم ، أيدك الله ، أن شَيْنَ غضبك علىّ ، كزَيْنِ صفحك عنى ، وأن موتَ ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك فِطْنةَ عليم ، وغَفْلَة كريم . والسلام » .

وللجاحظ رسائل فى الاستعطاف وشكوى الزمان آية فى البلاغة أثبتناها فى المجلد الثالث من هذا الكتاب .

وقد قال فيه بديع الزمان الهمذانى فى المقامة الجاحظية : «إن الجاحظ فى أحد شِقّى البلاغة يَقْطِف، والآخر يقف، والبليغُ من لم يُقَصِّر نظمُه عن نثره، ولم يُزْرِ كلامُه بشعره، فهل تَرْوُون للجاحظ شعراً رائقا؟ قلنا : لا . قال: فهَلُمُّوا الى كلامه، فهو بعيدُ الاشارات، قريبُ العبارات، قليـلُ الاستعارات، منقادٌ لعُرْيان الكلام يستعمله، نَفُورٌ من مُعْتاصه يُهْمِلُه، فهل سمعتم له لفظةً مصنوعة أو كلمةً غير مسموعة ؟ ".

شـــعره :

قيـل : إن للجاحظ شـعرا، ولكنا نظرنا فيما ينسبه له يموت بن المُزَرَّع وأبو العَيْناء وأبو الحَسَن البَرْمكى وغيرهم فوجدناه أقلّ طبقةً من بلاغته . فمما يُنسب اليه قوله :

يَطيبُ العيش أن تَلْقَى حكيما * غذاه العـلمُ والفهمُ المصيبُ
فيكشِفُ عنك حَيْرَةَ كل جهلٍ * وفضـلُ العـلم يعرفه اللبيبُ
سَقَامُ الحِـرْص ليس له شِفاءٌ * وداءُ الجهـل ليس له طبيبُ

مصـــنفاته :

صنف الجاحظ أكثر من مائتى كتاب . قال المسعودى : وكُتُب الجاحظ مع انحرافه تجلو صَدَأَ الأذهان ، وتكشِفُ واضحَ البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورَصَفها أحسن رَصْف ، وكساها من كلامه أحسنَ وأجزلَ لفظ . وكان اذا تخوّف مَلَلَ القارئ وسآمة السامع ، خرج من جِدّ الى هَزْل ، ومن كلمة بليغة الى نادرة طريفة . وله كتبٌ حِسان : فمنها «البيان والتبيين» وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار و بليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مُقتصر لاكتفى ؛ « وكتاب الحيوان » و « كتاب الطفيليين » و «كتاب البخلاء» . وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصـد منها الى تصعيب ولا الى دفع حق . ولا يُعْلَمُ ممن سَلَف وخَلَف أفصحُ منه .

وقال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلّمُ العقلَ أوّلا والأدبَ ثانيا .

أخباره :

حدثنا أبو معاذ عبدالله الخولى المتطبب قال : دخلنا يوما «بسرّمَنْ رأى» ، على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فُلِجَ ، فلما أخذنا مجالسنا ، أتى رسول المتوكل فيه ؛ فقال : ومايصنع أمير المؤمنين بشِقٍّ مائل ، ولُعاب سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون فى رجل له شقان ، أحدُهما لو غُرِزَ بالمسالّ ما أحسّ ، والشق الآخر يمر به الذباب فيُغوِّث ، وأكثرُ ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتاً من قصيدة عَوْف بن محلّم الخُزاعى . قال أبو مُعاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفاً دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلّم عليه عبدُ الله فلم يسمع ، فأُعْلِم بذلك ، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالا :

يابن الذى دانَ له المشرقان * طرًّا وقد دان له المغربان
إنّ الثمانينَ وبُلِّغتَها * قد أحوجتْ سمعى الى تَرْجمان
وبدّلتنى بالشَّطاط انحنا * وكنتُ كالصَّعْدة تحت السِّنان
وبدّلتنى من زَماع الفتى * وهمّتى همَّ الجبان الهِدان
وقاربتْ منى خُطًا لم تكن * مُقارَباتٍ وثنَتْ من عِنان
وأنشأت بينى وبين الورى * عَنانةً من غير نسج العَنان
ولم تدعْ فىَّ لمستمتِعٍ * إلا لسانى ، وبحسبى لسان
أدعو به الله وأثنى به * على الأمير المُصْعَبِيِّ الهِجان
فقرِّبانى ، بأبى أنتما ، * من وطنى قبل اصفرار البَنان
وقبل مَنعاىَ الى نسوةٍ * أوطانُها حرّانُ والرَّقّتان

والجاحظ ، أيدك الله ، قد جمع الى مواقفه الكبار فى الجدل والتناظر ، ومتانة الأسلوب وتدفقه ، وسمو المنحى وبلاغته ، وقوة اللفظ وفخامته ، جنوحًا عظيما الى الدُّعابة واللطائف والتندُّر والطرائف ، والمُلَح والنُّخَب ، والنكت مع الأدب ، مع خفة ظل ، وظَرْف روح حبّباه الى النفوس ، ومع نباغة وعبقرية جعلتاه فوق الهام والرءوس ، وعذوبة عبارة ، ومائية أسلوب ، كأنهما الراح فى الكؤوس !

ومن جملة أخباره أنه قال : ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآنى استبشع مَنْظَرى، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصَرَفنى، فخرجت من عنده، فلقيتُ محمدبن ابراهيم، وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام، فعرض علىّ الخروجَ معه والانحدارَ فى حَرّاقته، وكنا بسُرّ مَنْ رَأى، فركبْنا فى الحرّاقة، فلما انتهينا الى فم نهر القاطُول، ضرب ستارًا وأمرنا بالغناء، فاندفعتْ عوّادةٌ فغنّتْ :

كلّ يوم قطيعةٌ وعتابُ * ينقضى دهرُنا ونحن غِضابُ
ليت شعرى أنا خُصِصْتُ بهذا * دون ذا الخلق أم كذا الأحبابُ

وسكتتْ، فأمر الطُّنبورية فغنّتْ :

وارحمتا للعاشقينا * ما إن أرى لهم مُعينا
كم يُهجَرون ويُصرَمو * ن ويُقطَعون فيَصبِرونا

قال : فقالت لها العوّادة : فيصنعون ماذا؟ قالت : هكذا يصنعون، وضربت بيدها الى الستار فهتكته، وبرزتْ كأنها فِلْقة قمر، فألقت نفسها فى الماء، وعلى رأس محمد غلامٌ يضاهيها فى الجمال وبيده مِذَبّة، فأتى الموضعَ ونظر اليها وهى بين الماء وأنشد :

أنتِ التى غرّقتِنى * بعد القضا لو تعلمينا

وألقى نفسه فى أثرها، فأدار الملّاحُ الحرّاقةَ، فاذا بهما متعانقان، ثم غاصا فلم يُرَيا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرُهما، ثم قال : يا عمرو لَتُحدّثنى حديثًا يُسلّينى عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما، قال : فحضرنى حديثُ يزيد بن عبد الملك وقد قعد للمظالم يوما، وعُرِضت عليه القصصُ، فمرّت به قصةٌ فيها : « إن رأى أميرُ المؤمنين أن يُخرِجَ إلىّ جاريتَه فلانة حتى تغنّينى ثلاثة أصوات فعل» فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر مَنْ يخرج اليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسولَ رسولًا آخر، يأمره أن يُدخل اليه الرجلَ فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذى حملك على ما صنعتَ ؟ قال : الثقة بحلمك والاتكال على عفوك، فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحدٌ من بنى أمية إلا خرج، ثم أمر فأخرجت الجاريةُ ومعها عودها، فقال لها الفتى غنّى :

أفاطمَ مهـلاً بعض هـذا التدلّل * وإن كنت قد أزمعتِ صرمى فأجملى

فغنته، فقال له يزيد : قل. فقال : غنّى :

تألق البرقُ نجـدياً فقلتُ له * يأيها البرق إنى عنك مشغول

فغنته، فقال له يزيد : قل. فقال : يا مولاى، تأمر لى برطل شراب ! فأمر له به، فما استتمّ شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات، فقال يزيد : (إنا لله وانا إليه راجعون) أتراه الأحمق الجاهل ظنّ أنى أُخرج اليه جاريتى وأردّها الى ملكى ! يا غلمان، خذوها بيدها واحملوها الى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها، فانطلقوا بها الى أهله، فلما توسطت الدار نظرت الى حفيرة فى وسط دار يزيد قد أُعدّت للمطر، فجذبتْ نفسها من أيديهم وأنشدت :

مَن مات عشقاً فليمُتْ هكذا * لا خير فى عشـق بلا موت

فألقت نفسها فى الحفيرة على دماغها فماتت، فسُرِّىَ عن محمد وأجزل صلتى.

«وبعد» فان رسالتنا لا تسع التبسّط فى القول، ولاسيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ، التى تطلب كما قلنا رسالة مُسْهَبة، لمكانة الرجل. ففيما قدمناه لك عنه الغُنْيةُ والكفاية. ونرى واجبا علينا قبل أن نختم كلمتنا أن نحيلك هنا، على رسالة خطية منسوبة اليه عثرنا عليها بدار الكتب المصرية، قيل إنه كتبها عن بنى أميـة : وسبق أن أشرنا اليها فى كلمتنا عن العصر الأموىّ. وهى وحدها تنطق بوجهة نظر الرجل ومذهبه فى الاعتزال، وتشهد بطول باعه فى التبسط والإسهاب، مع فخامة اللفظ وحلاوته، وفراهة الأسلوب وطلاوته، وسموّ البيان ومكانته. وقد أثبتناها لك فى باب المنثور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث. فراجعها ثمة.

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحق :

هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير مولى بنى رقاش. كان بالبصرة، ثم رحل الى البرامكة ببغداد، فاتصل بهم ومدحهم ونال جوائزهم، ثم قويت الصلةُ بينهم

وبينــه حتى اتخذوه لهم معلمـا ونصيحا، يستشيرونه فى مهام أمورهم وتدبير شؤونهـم . وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له ، أن جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات لكن هــذا المنصب . جعله غَرَضًا لهَجْو الشعراء وذمّهم ، لأنه ليس فى مقدوره أن يرضيهم جميعا من جهــة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حَكَمًا من جهة أخرى .

وكان أبو نُواس من أشـدّ هؤلاء الشعراء نِقْمةً على أَبَان ، فان أبا الفرج الأصبهانى يحدّثنا أن أبا نواس لم يرضَ المرتبةَ التى جعله فيها أبان، فقال يهجوه بهذه الأبيات :

جالستُ يومًا أبانا * لادَرَّ دَرُّ أبانِ
ونحن حضـرُ رِواقِ الـ * أمير بالنَّهـروان
حتى اذا ما صَـلاةُ الـ * أُولَى دنتْ لأوان
فقـام مُنْـذِرُ ربّى * بالـبِرّ والإحسان
فكلمـا قال قلنـا * الى انقضاء الأذان
فقال كيف شـهدتُمْ * بذا بغـير عيان
لا أَشْهدُ الدهرَ حتى * تُعايِنَ العينان
فقلت سبحانَ ربّى * فقـال سـبحانَ مانى (١)

وبقية القصيدة فى ديوان أبى نواس .

فقال أبان يجيبه : —

ان يكن هــذا النُّـوا * سِىّ بلا ذنبٍ هجَـانَا
فلقـد ... ... حينًـا * وصَـفَعْناه زمانا
هانئ الجَوْنِ أبوه * زاده الله هَـوَانا
سائـلِ العبّاسَ واسمع * فيه من أمّك شانا
عجَنـوا من جُلّنارٍ * ليكيدوك عجَـانَا

(١) اسم لصاحب طائفة من الملحدين .

وجُلّنار هذه هى أم أبى نُوَاس، كان قد تزوجها العباس بعد أبيه . و ربما كان لباعث هذه المُهاتَرة بين أبى نُوَاس وأبَان أثر كبير فيما كان بين أبى نُوَاس والبَرامكة من كراهية وبغضاء، فان أبا نُوَاس كان معروفا بسمو المكانة فى الشعر، فلا يستطيع مثل أبَان أن يُنْزِله عن منزلته التى هو جَدِير بها، إلا اذا كانَ فى ذلك هَوًى للبرامكة، وقد يكون بوَحْى منهم . لكنّ أبا نُوَاس لم يجد مَصْدَرًا لحكم غير أبَان فَهَجَاهُ، ولم يكن هَجْوه أبَانَ لِيَشْفى غليله و إنما يَشفى غليله لو استطاع أن ينال بالهجو من يراهم خليقين بهجوه، وهم البرامكة! ولكنّه لا يستطيع أن ينالهم بالهجو، وهم أصحاب الدولة والسلطان .

كان أبَان شديد الإعجاب بنفسه، مُدِلًّا بعلمه وأدبه . والقصيدة التى قدمها للبرامكة، حين حاول أن يتصل بهم ، على زعم أن يكون له شفيع من ترغيبهم فيه ، تُعْطِينا صورة واضحة عنه . وهذه هى القصيدة : —

أنا مِنْ بُغْيَة الأمير وكَنْزٌ ◦ من كُنُوز الأمير ذو أرْباح
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ ◦ ناصحٌ زائدٌ على النُّصّاح
شاعر مُفْلِقٌ أخَفُّ من الرِّيـ ◦ ـشة مما يكون تحت الجناح
لى فى النّحو فِطْنَة وانْتِقادٌ ◦ أنا فيه قِلادةٌ بِوِشَاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلْـ ◦ ـم بقوىٍّ منوّر الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعـ ◦ ـر وقول النَّسيب والأمداح
وظريفُ الحديثِ فى كل فنٍّ ◦ وبَصيرٌ بتُرّهاتِ المِلاح
كم وكم قد خَبأْت عندى حديثًا ◦ هو عند الملوك كالتُّفّاح
فبمثلى تَخْلُو الملوك وتَلْهُو ◦ وتُناجى فى المُشْكِل الفَدّاح
أيْمَنُ الناس طائرًا يوم صيدٍ ◦ لغدوٍ دُعيتُ أو لرَوَاح
أبصرُ الناس بالجواهر والخيـ ◦ ـل وبالخُرّدِ الحِسانِ الصِّبَاح
كلّ ذا قد جمعتُ والحمدُ للّـ ◦ ـه على أننى ظريفُ المِزَاح

لستُ بالناسك المشمِّر ثوبيه ولا الماجنِ الخليع الوقَاح
لو رمى بى الأميرُ أصلحه الله رِماحًا تلمتُ حدّ الرِّماح
ما أنا واهنٌ ولا مستكينٌ * لسوى أمر سيّدى ذى السّماح
لستُ بالضّخم يا أميرى ولا القزْ * م ولا بالمُجَحْدَرِ الدَّحْداح
لِحْيةٌ جَعْدةٌ ووجهٌ صَبِيحٌ * واتّقادٌ كشُعْلة المصباح
إن دعانى الأميرُ عايَنَ منّى * شمّريًا كالبُلْبُلِ الصيّاح

على أن أبان ، مع إعجابه بنفسه ، و إدلاله بعلمه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يُسايِر كِبَار معاصريه من الشعراء ، كأبى نُوَاس وأضرابه ، فى قوة الشعر واختلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعلّ ذلك يرجع الى أنه كان ينقصه خِصْب النَّفْس ، وقوة الحِسّ ، والخيال المبدع للصور الشِّعْرية ، أى قوة الابتكار والاختراع ، فانّ هذه القُوَى جميعا لا بدّ منها للشاعر ، لكى يُحِسّ ويخترع ويصوّر . وهذا يفضى بنا الى إحدى نتيجتين : إمّا أن نشك فيما وَصَف به نفسه : من جمال الظَّرف ، وخِفّة الروح ، واتّقادِ الذّهنِ ، نشك فى اتصافه حقا بهذه الصفات ، التى تملأ النفس شعورا بما فى الحياة من صور للشّعر ، و إمّا أنه كان قصير الباع فى تصوير ما تُحِسّه نفسه . وكلا الأمرين يبعد البَوْن بينه و بين أبى نُوَاس وأضْراب أبى نُوَاس . ولئن نَقَصته القوى التى تمدّه بالصور الشعرية ، فقد وُفّق إلى فنّ جديد نحْسَب أنّه لم يُسبَق إليه ، وهذا الفن لا يضطره الى كدّ القريحة وإعمال الفكر فى تصيُّد المعانى الجميلة ، وإبرازها فى أثواب زاهية جذّابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من أن تكون لديه ملكة النَّظْم ووزنُ الكلام ؛ اذ المعانى بَيْن يديه ، لا يتكلف فى سبيلها سعيا ، أو كدّ قريحة . وهذا الفن الجديد هو النَّظْم التّعليمىّ ، وهو أن يَعْمد الشاعر الى كتاب معروف منثور فَينظِمَه ، أو إلى قواعِد عامة فى الشّريعة أو فى اللغة أو فى فرع من فروعهما ، فينظِمَها أيضا ، لِيَسْهل حفظها و يَقْرُب تناولها . وهذا ما فعله أبَان ،

وما جعلنا نُؤْثِره بالكلام، فإن هذا النوع من النَّظم ، يُمثِّل ناحيةً طَرِيفَة من نَواحِى الأدب الجديدة فى عصرنا المأمونىّ . فقد نكون مُقصِّرين كلّ التقصير، إذا أغفلنا ذكر مُبْدِعه ومُبْتَكِره . تقول « وهذا ما فعله أبَان » فإن الصّولىّ وأبا الفرج الأصفهانىّ يحدّثاننا بأن أبَانًا نَظَم للبرامكة كتاب كَلِيلة ودِمْنَة ، لِيَسْهُل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئا ، وقال له : يكفيك أن أحفظه فأكونَ راوِيَتَك . وقد نقل الأصفهانىّ من هذا الكتاب بيتين هما :

هذا كتاب أدبٍ ومِحنَهْ * وهو الذى يُدْعَى كليلَه دِمنَهْ
فيه ٱحْتِيالاتٌ وفيه رُشْدُ * وهو كتاب وضعته الهِنْدُ

وقد أبادت الأيّام هذا الكتاب، كما أبادت كثيرا غيره من الكتب العربية القيّمة ، حتى يَئِس الأدباء والمؤرّخون فى العصر الحديث، من العثور على شىء منه . وقد يكون من حسن الحظ أن نعلن سرورنا بأنّا قد وُفِّقنَا الى جزء كبير من هذا الكتاب ، فى جزء أو أوراق من جزء من كتاب الأوراق المنسوب للصُّولى، اذ عثرنا عليه بدار الكتب المصرية منذ أمد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وضعه العرب من الموسوعات والمَعْلَمَات . وسنذكر فى المجلد الثانى ما وجدناه فيه .

ويحدّثنا أبو الفرج بأنه عمل أيضا القصيدة التى ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق، وسمّاها ذات الحُلَل، ومن الناس من يَنسُبها الى أبى العَتَاهِيَة، والصحيح أنها لأبَان . وسياق أبى الفرج هذا ، لايدع سبيلا الى الشّك فى وجود هذه القصيدة ، ومع الأسف لم ينقل الينا منها شيئا .

ويحدّثنا الصُّولى بسنده أنّ أبَانًا، لما عمل كتاب كليلة ودِمْنَة شعرا، فى قصيدته المُزْدَوجة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيما ، فقيل له بعد ذلك : ألا تعمل شعرا فى الزهد ؟ فعمل قصيدةً مزدوجة فى الصيام والزكاة، وقد وجدت هذه القصيدة ،

وترجمتُها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقد نشرنا ذلك كله فى موضعه من المجلد الثانى .

*
* *

(هـ) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبَيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالى بنى عِجْل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وزّره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد ، فقد كان يتولى ديوان الرسائل له ، وكان معروفا بين أهل عصره بسمو المكانة فى العلم والأدب ، والكتابة والشعر . حكَى عن المأمون ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلىّ بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابته :

أما مكانته فى الكتابة فرسائله وتوقيعاته التى تحلّت بها صدور الأدب ، وتزيّنت بها كتب التاريخ ، تجعله فى مقدّمة الكتّاب ومن أئمتهم ، وهى بما فيها من جَوْدة وإحكام ، وتخيّر للألفاظ ، وسلاسة فى المعانى ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر ، وعلى أنه مالك أعنّة المعانى ونواصى الكلام . ولقد شَهِد له بالسَّبْق فى الكتابة والرسائل كبار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولى : لما مات أحمد بن أبى خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فيمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليه بأحمد بن يوسف ، وبأبى عباد ثابت بن يحيى الرازىّ ، وقال : هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرضيه ؛ فقال له : اخترلى أحدهما ؛ فقال الحسن : إن صَبَرَ أحمد على الخدمة ، وجفا لذّته قليلا ، فهو أحبّهما الىّ ، لأنه أعرف فى الكتابة وأحسنهما بلاغة ، وأكثر علما ! فاستكتبه المأمون .

وروى الصولى بسنده : أن الكتّاب اجتمعوا عند أحمد بن اسرائيل ، فذكروا الماضين من الكتّاب ، فأجمعوا أن أكتب من كان فى دولة بنى العباس : أحمد بن يوسف ،

وابراهيم بن العباس، وأن أشعر كتّاب دولتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الزيات، فابراهيم أجودهما شعرا، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى - أعزك الله - أن هؤلاء الكتّاب لم يقدموا أحدا من كتّاب دولة بني العباس على أحمد بن يوسف في الكتابة ، وإن قدموا عليه في الشعر . والحقّ أنّ نبوغه في الكتابة هو الذي كان سببا الى ظهوره ورفعته ؛ فقد رويِ العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا الى المأمون فأطالوا، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ! فوُصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك، فكتب :

«أما بعد، فإنّ المخلوع ، وإن كان قَسِيم أمير المؤمنين في النَّسَب واللُّحْمَة ، فقد فرّق حُكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين؛ قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه : ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله ؛ وكتبت الى أمير المؤمنين، وقد قَتل الله المخلوعَ وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجزله وعده، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شيء لمشيئته؛ وقد وجهت الى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالآخرة وهي البُرْدَة والقضيب ؛ والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهده ونكث عقده، حتى ردّ الألفة، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرضي طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدّمه .

وقيل : إن المأمون لما حُمِل رأس المخلوع اليه ،وهو بمرو، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر ابن الحسين، ليُقرأ على الناس فكُتبت عدّة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب، فلما عُرضت النسخة على ذى الرياستين، رجع نظره فيها، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك، ودعا بقهرمانه ،وأخذ القلم والقرطاس .

وأقبل يكتب بما يُفرّغ له من المنازل، ويعـد له فيها من الفُرُش، والآلات، والكسوة، والكُرَاع، وغير ذلك، ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له : اذا كان فى غد، فاقعد فى الديوان، وليقعد جميع الكتّاب بين يديك، واكتب الى الآفاق .

قيل : ومما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلات ببابه : «داعى نداك يا أمير المؤمنين، ومُنادى جَدْواك، جمعا الوفود ببابك يرجون نائلك المعهود، فمنهم مَن يمتّ بحُرمة، ومنهم من يُدِلّ بخدمة، وقد أجحف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعشهم بسيبه، ويحقق حُسن ظنهم بطَوْله، فعل إن شاء الله تعالى» . فوقّع المأمون : «الخير مُتَّبع، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبى الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر :

يَسقُط الطيرُ حيث يلتقط الحبّ وتُغْشَى منـازلُ الكرماء

فاكتب أسماءَ من ببابنا منهـم، وآحك مراتبهم، ليصل الى كل رجل قَدْرُ استحقاقه، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب، وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر :

فإنك لن ترى طـردًا لحــرّ * كإلصاقٍ به طَـرَفَ الهوان»

وقال ابراهيم بن العباس : سمعت أحمد بن يوسف يقول : أمرنى المأمون، أن أكتب الى النـواحى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد، فبِتّ لا أدرى كيف أفتتح الكلام، ولا كيف آخذ به، فأتى آتٍ فى منامى، فقال : قل : فإن فى ذلك أُنسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجّدة، ونفيًا لمكامن الرِّيَب، وتنزيها لبيوت الله عن وحشة الظُّلَم، فانتبهت وقد آنفتح لى ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه .

ومن رسائله أيضا : "لقد أحلّك الله فى الشرف أعلى ذروته، وبلّغك من الفضل أبعدَ غايتـه، فالآمالُ اليك مصروفة، والأعناق اليك معطوفة، عنـدك تنتهى الهِمَم السامية، وعليك تقف الظنون الحسنة، وبك تُثنَى الخناصر، وتُسْتَفتح أغلاق المطالب، ولا يُستَريث النُّجح من رجالك، ولا تعروه النوائب فى دارك" وإنا نحيلك على ما أثبتناه لك فى المجلد الثالث من آثاره الممتعة .

شــعره :

كان أحمـد بن يوسف شاعرا مُعرقًا فى الشعر كما كان مُعرقًا فى الكتابة، إلّا أن حظّه من الشـعر كان دون حظّه من الكتابة، فإن نُقّاد عصره لم يقدّموا عليـه أحدا فى الكتابة من كتّاب بنى العباس ووزرائهم، وقد قدّموا عليه كثيرا فى الشعر. وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجماع فريق من الكتّاب على سبقه فى الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولى بسنده أن قَعْنَب بن مُحْرِز الباهلىّ قال: كنا نقول لم يلِ الوزارةَ أشعر من أحمد بن يوسف، حتى وَلِيَ محمد بن عبد الملك، فكان أشعر منه!

ولم يكن المـدح كثيرا فى شـعر أحمد بن يوسف، فإنه كان بحكم مركزه كوزير للمأمون ورئيس ديوان رسائله، غير محتاج الى أن يتكسّب بشعره، أو يمدح الناس. ولذلك لانرى فى شـعره مدحا لغير المأمون وليّه وربّ نعمته. وكذلك كان هجاؤه قليـلا، فإن مروءته، وأدبه، ومركزه، واعتداده بنفسه، كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هَجّاء مُقذِعا، وإنما كان يُضطر أحيـانا الى ذمّ أعدائه ومنافسيه، فى غير إقذاع ولا فحش. فمن ذلك قوله فى سعيد بن سالم الباهلى وولده — وقد كانت بينهم و بينه عداوة — فذكرهم يوما فقال: "لولا أن الله عز وجل ختم رسالتــه بمحمد صلى الله عليه وسـلم، وكُتُبَه بالقرآن، لبعث فيكم نبىّ نَقمة، وأنزل عليكم قرآن غَدْر، وما عَسَيتُ أن أقول فى قوم، محاسنهم مساوئ السِّـفَل، ومساوئهم فضائح الأمم". وقال يهجوهم :

أبنى سَـعِيد إنكم من مَعْشر ٭ لا تُحسنون كرامــةَ الأضياف
قــومٌ لباهلة بن أعْصُر إن هُمُــو ٭ نَخَــروا حسبتهمو لعبــد مناف
مَطَلُوا الغداء الى العشاء وقرّبوا ٭ زادًا لَعَمْــرُ أبيــك ليس بكاف
بينــا أتاك أتاهــمُ كبراؤهم ٭ يَلْحَوْن فى التبـذير والإسراف
وكأننى لمــا حَطَطتُ اليهمــو ٭ رَحْــلى حططت بأبرق العــزاف

اخلاقه وسـيرته :

كان أحمـد بن يوسف فَطِنا ، بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ذكيّا سريع الخاطر ذا مروءة وكرم، وكان مع ذلك يضرب فى المجون واللهو بسهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبد الله بن طاهر حين خرج من بغداد الى خراسان لابنه محمد، وما وقع بين محمد هـذا و بينه بعد ذلك . قال عبد الله لابنه : إن عاشرتَ أحدا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإنّ له مروءة . فما عرج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شيء حتى هجم على أحمد بن يوسف فى داره، فأطال عنده، فَفَطِنَ له أحمد فقال : يا جارية غدّينا، فأحضرت طبقا وأرغفة نقيّة وقدّمتْ ألوانا يسيرة وحلاوة وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة فى زجاج فاخر وآنية حسنة وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يُشَرِّف عبده و يجيئه فى غَدٍ فأنْعِمْ بذلك . فنهض وهو متعجّب من وصف أبيه له ؛ وأراد فضيحته، فلم يترك قائدا جليلا ولا رَجُلا مذكورا من أصحابه إلّا عرّفهم أنه فى دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالغدوّ معه ؛ فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبتـه وأظهر مروءته ، فرأى محمد من النضائد والفُرُش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه، ونَصَب ثلثمائة مائدة وقد حُفَّت بثلثمائة وصيفة، ونقل الى كل مائدة ثلثمائة لون فى صحاف الذهب والفضة ومثارد الصين؛ فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل مَن بالباب؟ فنظروا، فاذا جميع مَن بالباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا؛ فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن! (كذا فى هذه الرواية كنّاه بأبى الحسن) فقال : أيها الأمير، ذاك قُوتى وهذه مروءتى .

أما اللهو والمجون فقـد كان حظّه منهما غير قليـل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل، حين شاوره المأمون فيمن يختاره، بعـد أحمد بن أبى خالد، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف و بأبى عباد ثابت بن يحيى الرازى ؛ فقال له : اختر لى أحدهما ؛ فقال الحسن : إنْ صَبَر أحمد وجفا لذّته قليلا فهو أحبّهما الىّ .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه، من الكتاب والشعراء والادباء، من ميل الى الغلمان ... ! لذلك لم يكن غَزَله بريئا، ولم يعالجه على أنه فنٌّ من فنون الشعر، وإنما كان غَزَله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه؛ فإنك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطنع الغزل فنًا من فنون الشعر؛ فقد كان موسى هذا فى ناحيته، وهو الذى قدّمه وخرّجه، وكان يرمى بما كان يُرْمَى به مما نمسك عن ذكره.

حدّث موسى نَفْسُه، فقال: وهب لى أحمد بن يوسف ألف ألف درهم فى مرّات.

وقد لامه محمد بن الجهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه؛ فكتب اليه أحمد ابن يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكفّ عن عذله. وقد أمسكنا عن ذكره أيضا لما فيه من مجون.

ومن غزله ما قاله فى محمد بن سعيد بن حماد الكاتب، وكان يميل اليه، وقيل عنه إنه كان صبيًا مليحا:

صَدَّ عنّى محمد بن سعيدِ * أحسنُ العالمين ثانىَ جِيدِ
صَدَّ عنّى لغير جُرْم اليه * ليس إلا لحُسْنه فى الصدود

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه، فنظر الى عارضه قد اختط فى خدّه، فأخذ رقعة وكتب فيها:

لحاكَ اللهُ من شَعْر وزادا * كما ألبستَ عارضه الحدادا
أغَرْتَ على تورّد وَجْنتيه * فصيَّرت احمرارهما سوادا

ورمى بها الى محمد بن سعيد، فكتب مجيبا: عَظَّم الله أجرك فىَّ ياسيدى وأحسن لك العوض منى ! !

وكان لظَرْفه وفطنته وبصره بالأمور موضعا لرضا المأمون وعطفه عليه. ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منه جعلته لا يتحرز فى كلامه كثيرا، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أتلف نفسه فى بعض سَقَطاته؛ فقد حُكى: أن المأمون كان اذا تبخر

طُرح له العود والعنبر، فاذا تبخر أمر باخراج المِجْمَرَة ووَضْعِها تحت الرجل من جلسائه إكراما له . وحضر أحمد بن يوسف وتبخر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع المجمرة تحت أحمد بن يوسف ، فقـال : هاتوا ذا المروءة ! فقال المأمون : ألنا يقال هـذا ؟ ونحنُ نَصِل رجلا واحدا من خدمنا بستة آلاف دينار ! إنمـا قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قـد اقتسمنا بخورا واحدا، يُحضَر عَنْبر! فأحضر منـه شيء فى الغاية من الجودة، فى كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تُطرح القطعة فى المجمرة يتبخر بها أحمد بن يوسف، ويُدْخِل رأسه فى زِيقِه حتى يَنْفَدَ بخورها، وفُعـل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة، وهو يستغيث و يصيح ، وانصرف الى منزله وقد احترق دماغه، واعتل ومات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها نَسيم ، لها من قلبه مكان خطير، فقالت ترثيه :

ولو أنّ مَيتاً هَابَهُ الموتُ قبـلَه * لمـا جاءه المِقدارُ وهو هَيُوبُ
ولو أنّ حيًّا قبـله هابه الردَى * إذًا لم يكن للارض فيه نصيبُ

وقالت أيضا ترثيه :

نَفْسِى فِدَاؤُكَ لَوْ بالناس كُلِّهِم * مابِى عليك تَمَنَّوْا أنهـم ماتوا
وللوَرَى مَوْتةٌ فى الدهر واحدةٌ * ولِى من الهمّ والاحزان مَوْتات

(و) يحيى بن أكثم القاضى :

هو أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن ينتهى نسبه الى أكثم بن صَيفى التميمى حكيم العرب المعروف .

عرف التـاريخ يحيى بن أكثم حَدَثًا فى مجلس سـفيان بن عُيينة ، المعروف بعلمـه ووَرَعه ونفوذه ، اذ يقول ابن خِلِّكان فى كتابه "وفيـات الأعيان" : ورأيت فى بعض المجاميع أن سفيان خرج يوما الى من جاءه يسمع منه وهو ضَجِر، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالستُ ضَمْرة بن سعيد وجالس هو أبا سـعيد الخدرى، وجالست عمرو ابن دينـار، وجالس هو عبـد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزُّهرى وجالس

هو أنس بن مالك، حتى عدّ جماعة، ثم أنا أجالسكم! فقال له حَدَثٌ فى المجلس : انتصف يا أبا محمد ، قال : إن شاء الله تعالى، فقال : والله لَشَقاءُ أصحاب أصحاب رسـول الله بك أشدّ من شقائك بنا! فأطرق سفيان وأنشد قول أبى نُوَاس :

خَـلِّ جَنبيـك لرام * وآمِض عنه بسلام
مُتْ بداء الصمت خيرٌ * لك من داء الكلام
إنما السالم من ألـ * ـجم فـاهُ بلجام

فتفرّق الناس وهم يتحدّثون برجاحة الحـدَث، وكان ذلك الحدث يحيي بن أكثم التميمى، فقال سفيان : هذا الغلام يصلُح لصحبة هؤلاء، يعنى السلاطين . اهـ

هـذا كل ما نعلمه عن حداثة يحيي بن أكثم . وهى حداثة تبشر بما سيكون لهـذا الناشئ من مكانة ونفوذ جديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر، وقوة قلب وسلاطة لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه، وقد جعلته حديث حاضرى مجلس سفيان، وحملت سفيان على أن يقول عنه : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاة الأحكام) !

لقـد صدّقت الأيام حَدْس سفيان فيـه ، فقد انخرط يحيي فى سِلْك القُضَاة صـغيرا لنجابته، ثم درج فى مناصب القضاء حتى تبوّأ أسمى مناصب الدولة، تبوّأ منصب قاضى القضاة ، ومنصب الوزارة للأمون ، منظورا اليـه فى كل ما تولّاه من المنـاصب بالتجلّة والإكبار من الخاصّة والعامة .

ونحن ذاكرون لك حياته وما تولّاه من مناصب، ومكانتَه العلمية والأدبية، وما كان متّصفا به من الحزم وحسن السياسـة ، وأقوالَ الناس فيه وفى أخلاقه ، ووجهةَ نظر كل فريق من الناس فيـه ، معتمدين فى ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية ، منبّهين على مايمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل .

أوّل عمل تولاه :

أما أوّل عمل تولاه فيحدّثنا عنه ابن طَيْفور بقوله : «قال حدّثنى أحمد بن صالح الأضجم، قال : هل تدرى ما كان سبب يحيي بن أكثم؟ قلت : لا وإنى أحبّ أن أعرفه .

قال : يحيى بن خاقان هو وصّله بالحسن بن سهل وقرّبه من قلبه وكثّره فى صدره، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون فغلب عليه . وحدثنى عبد الله بن أبى مروان الفارسىّ ، قال : كان ثمامة سبب يحيى بن أكثم فى قضاء البصرة مرّتين وسبب تخلصه من الخادم الذى أمر بتكشيفه بالبصرة ، ويقال : إنه قطع خُصْيَته فى تعذيبه بالقصب اه .

ويقول ابن خلكان فى سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يُوَلّى رجلا القضاء ، فوُصِف له يحيى بن أكثم فاستحضره ، فلما حضر دخل عليه ، وكان دَمِيم الخَلْق فاستحقره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى فقال : يا أمير المؤمنين سَلْنى إن كان القصد علمى لا خَلْق ؛ فسأله المأمون المسألة المعروفة فى الميراث بالمسئلة المأمونية ، وهى أبوان وبنتان لم تُقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلّفت من فى المسألة ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، الميّت الأوّل رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن خلكان بعد ذلك نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب : أنّ يحيى بن أكثم وُلى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة أو نحوها ، فاستصغره أهل البصرة فقالوا : كم سنّ القاضى ، فعلم أنه قد استصغر فقال : أنا أكبر من عَتَّاب بن أُسَيد الذى وَجّه به النبىّ صلى الله عليه وسلم قاضيا على مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من مُعَاذ بن جَبَل الذى وجه به النبىّ صلى الله عليه وسلم قاضيا على اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سُوْر الذى وَجّه به عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قاضيا على أهل البصرة ، فجعل جوابَه احتجاجا .

قد عَرَفتَ مما ذكرناه عن ابن طيفور المعاصر ليحيى وعن ابن خلكان أن بين روايتى المؤرّخين فى سبب اتصال يحيى بالقضاء خلافا ، فابن طيفور يروى لنا أنه اتصل أوّلا بالحسن بن سهل نائب الخليفة المأمون فى بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وابن خلكان يروى لنا أنه اتصل بالمأمون وبعد أن امتحنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يخيّل الينا أن كلتا الروايتين صحيحة، خصوصًا اذا ذكرنا مارواه ابن طيفور من أن ثمامة كان سبب يحيى بن أكثم فى قضاء البصرة مرتين، إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة فى المرّة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته فى المرّة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن خلكان فى تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجاجه عليهم بما فعله النبىّ صلى الله عليه وسلم وبما فعله عمر رضى الله عنه كان فى المرّة الأولى .

وبهذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرّخون من أنه عُزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب خادم بالقصب بعد تكشيفه حتى قطعت خصيته، ثم ما يذكرونه من أنه عُزل لقوله أبياتا من الشعر تغزّلا فى ابنى مسعدة، وكانا على نهاية الجمال .

ومهما يكن من شىء، فنحن نرجح أنه تولّى قضاء البصرة مرتين : الأولى عن طريق الحسن بن سهل ثم عزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا نقطع به، والثانية عن طريق المأمون .

بقى شىء آخر فيما يرويه ابن خلكان نريد أن نلفت النظر اليه، فقد يكون فيه شىء من التناقض أو السهو . ذلك بأنه يروى لنا أن يحيى حين وُلّى قضاء البصرة كانت سنه نحو عشرين سنة وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبىّ وعمر . وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهى لا تعدو أوائل القرن الثالث الهجرى، ثم يذكر بعد ذلك أنه توفّى بالرَّبَذَة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقيل غرة ثلاث وأربعين وعمره ثلاث وثمانون سنة . إذ مهما بالغنا فى سنه متمشين مع رواية ابن خلكان نقلا عن تاريخ بغداد من أنه تولّى قضاء البصرة وسنه نحو العشرين فلن نعدو به الستين إلا قليلا ، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين ما يقوله ابن خلكان من أنه توفّى وعمره ثلاث وثمانون سنة! ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن خلكان فى عمره حين الوفاة ، وفرضنا أيضا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولّى قضاء البصرة وسنه نحو

العشرين لكانت توليتـه قضاء البصرة فى النصف الأوّل من عهـد الرشيد لا فى عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليـه وخلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين .

ثم نرى يحيى بعـد أن عُزل من قضاء البصرة فى بغداد ثاويا فى دار شادها له صديقه الحميم ثُمامة بن أَشْرَس بحضرته ، وكان ثمامة بن أشرس هذا عالما متكلما سليط اللسان قوىّ الحجة ذا آراء فى الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمـامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محبّبا اليه ، موثوقا به منه ، فكان خير وسيلة لاتصال صـديقه يحيى بالخليفة المأمون ؛ ثم عرف المأمون ما فى يحيى من علم وذكاء وحزم فأدناه اليه وقرّبه منه وخصّه برعايته وعطفه حتّى غلب عليه دون الناس جميعا .

ويحدثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكثم قال للمأمون : أظهر لكل قاضٍ ماتريد أن تولّيه إيّاه وأْمُره بكتمانه ، ثم انظر أيفعل أم لا ، وَضَعْ عليهم أصحاب أخبار ، فقال له المأمون : أولّيك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يولّيه ، فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائها ، فذمّهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن الى البصرة ؟ قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتمان شىء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ؛ قال : صدقت وحمده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكثم كان قاضى القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل توَزّر له ؟ لم يذكره الفخرى فى وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنـه أن المأمون استوزره . فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر إذ يقول فى آخر وصفه لفضل يحيى بن أكثم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال ابن أكثم وما هو عليه من العـلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيي بن أكثم» . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على أنا قد عددناه من وزراء المأمون فى كلمتنا المجملة عن وزرائه .

ومهما يكن من شيء، فقد كان يحيي بن أكثم قاضى القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ فى الدولة، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكى تقدُر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيي بن أكثم نفسه . قال :

«بتّ ليلة عند المأمون فانتبه فى بعض الليل فظنّ أنى نائم ، فعطش ولم يَدْعُ الغلام لئلا أنتبه، وقام متسللا خائفا هادئا فى خُطاه حتى أتى البرّادة، فشرب ثم رجع وهو يُخفى صوته كأنه لصّ حتى اضطجع ؛ وأخذه سُعَال فرأيته يجمع كمه فى فمه كى لا أسمع سُعَاله ، وطلع الفجر فأراد القيام وقد تناومت فصَبَر الى أن كادت تفوت الصلاة، فتحركت، فقال : الله أكبر، ياغلام نبّه أبا محمد . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت بعينى جميع ما كان الليلة من صنيعك وكذلك جعلنا الله لكم عبيدا وجعلكم لنا أربابا » .

وهاك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُظوة يحيي لديه، وهى مَرْوية عن ثُمامة ابن أشرس صديق يحيي وثقة المأمون . قال ثمامة : « كان يحيي بن أكثم يماشى المأمون يوما فى بستان موسى والشمس عن يسار يحيي والمأمون فى الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيي وهما يتحادثان حتى بلغ حيث أراد، ثم كرّ راجعا فى الطريق التى بدأ فيها، فقال ليحيي : كانت الشمس عليك لأنك كنتَ عن يسارى وقد نالت منك، فكن الآن حيث كنتُ وأتحوّل أنا الى حيث كنتَ ؛ فقال يحيي : والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أقيك هَوْل المطلع بنفسى لفعلت ؛ فقال المأمون : لا والله ما بُدٌّ من أن تأخذ الشمس منى مثل ما أخذت منك ، فتحوّل يحيي وأخذ من الظل مثل الذى أخذ منه المأمون » اه .

ولم يزل فى هذه الرعاية من المأمون والحظوة لديه، يفوّض اليه المأمون جليل الأعمال ويرسله فى مهامّ الأمور، حتى كانت سنة ٢١٦هـ إذ نرى المأمون بمصر يَسْخَط على يحيي بن أكثم الذى كان فى حاشيته ويرسله مغضوبا عليه الى العراق ؛ ثم يبلُغ من حَنَقه عليه أن يكتب

فى وصيّته الى ولىّ عهده المعتصم محذّرا إياه من اصطناع الوزراء والركون اليهم ضاربا بيحيى ابن أكثم مثلًا فى سوء السّيرة وقَبيح الفعال . ونحن نلق على مسامعك ما كتبــه فى وصيّته متعلقا بيحيى : «ولا تتخذن بعدى وزيرا تُلق اليه شيئا، فقد علمتَ ما نكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته، حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى، فصرتُ الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الاسلام خيرا» .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكثم بعد ذلك ، وتتقلّب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله، فلما عُزِل القاضى محمد بن القاضى أحمد بن أبى دُوَاد فوّض ولاية القضاء الى القاضى يحيى وخلع عليه خمس خلع ،ثم غضب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وألزم منزله . ثم حجّ بعد ذلك وأخذ معه أخته واعتزم أن يجاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فبدا له فى المجاورة ورجع يريد العراق، فلما كان بالرَّبَذَة فى طريقه الى العراق وافتــه المنية يوم الجمعة منتصف ذى الحجة سنة أربعين ومائتين، وقيــل غرّة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قدّمنا لك ما ذكره ابن خلكان فى عُمْره حين الوفاة وشفعناه بما يمكن أن يكون فى كلامه من تناقض أو سهو أو تحريف .

كان يحيى بن أكثم فقيها عالمـا بالفقــه ، بصــيرا بالأحكام ، وقــد عدّه الدارقطنىّ فى أصحـاب الشافعىّ رضى الله عنــه، راويا للحديث ، آخذا بحظ كبــير من كل فنّ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويَرْوِى عنه الترمذى وغيره من رجال السُّنّة وحَفَظَة الحديث . وكانت له منزلة ساميــة لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . وممـا رفع منزلته لدى الناس جميعا موقفه المشهور، مع المأمون مما يدلّ على سعة علمه وقوّة حجتــه وعظيم جراءته . ذلك بأن المأمون رأى وهو فى طريقه الى الشام جواز نكاح المتعة فوقف له يحيى موقفا أكسبه حَمْدَ أئمة الدين وثناءهم عليه. ونحن نزجى اليك هذا الحديث نقلا عن ابن خلكان . قال : «حدّث محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون فى طريق الشام فأمر فنودى بتحليل المتعة، فقال يحيى بن أكثم لى ولأبى العيناء : بكّرا غدا اليــه فإن رأيتما للقول

وجها فقولا و إلا فأمسكا الى أن أدخل ، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك و يقول وهو مغتاظ: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضى الله عنه وأنا أنهى عنهما! ومن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه! فأومأ أبو العيناء الى محمد بن منصور وقال: رجل يقول فى عمر بن الخطاب ما يقوله نكلمه نحن! فأمسكا. فجاء يحيي بن أكثم فجلس وجلسنا. فقال المأمون ليحيي: مالى أراك متغيرا؟ فقال: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام ؛ قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا؛ قال: الزنا ؟! قال: نعم، المتعة زنا؛ قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يا أمير المؤمنين، زوجة المُتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين؛ وهذا الزُهْرِى يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها ؛ فالتفت الينا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهرىّ ؟ فقلنا: نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك رضى الله عنه؛ فقال: أستغفر الله! نادوا بتحريم المتعة فنادَوْا بها . " اه

أما آراء يحيي الكلامية فإن المؤرخ يقف أمامها موقف حيرة و إحجام، ويحتاج إذا أراد أن يبدى رأيا فيها الى شىء غير قليل من الأناة والرويّة . ذلك بأن يحيي كان يقف موقفا قريبا من الفتنة العنيفة التى كانت مضطرمة فى وقته، فهو قاضى قضاة المأمون، ومنزلته منه منزلة يُغبَط عليها، والمأمون زعيم القائلين بخَلْق القرآن، وهى بدعة اعتزالية، ثم هو فى الوقت نفسه مرضىّ عنه من الجماعة وأهل السنة، ثم نراه حينا يقف موقف المعارضة من صديقه

وحميمه ثُمَـامة بن أشرس المعتزلى وزعيم الطائفة الثمامية، معارضة تشتد فى بعض الأحيان الى المخاشنة والمهاترة . وأنت تعلم مَنْ هو ثمامة وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به، ثم تعلم ما كانت علاقته بيحيى نفسه وكم له من يَدٍ عليه . أضف الى كل هذا ما يرويه ابن خلكان من أنه كان يقول : القرآن كلام الله، فمن قال : إنه مخلوق يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . ولاحظ أن المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن مع ذلك إبداء رأى فى عقيدة يحيى الكلاميـة؟ وهـل يمكن أن تكون كل هذه الروايات صحيحة مع ما يبدو عليها من شبه تناقُض ؟

نظن أنه باستعمال شىء من التحليـل يمكن إبداء الرأى، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك بأن يحيى بن أكثم كان كَيِّسا حازما، خفيف الروح حُلْو اللسان، فاستطاع بذلك أن يدارى الناس جميعا، خاصّتهم وعامتهم، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حُوورَ وجُودِلَ فاشتد أحيانا فإنمـا يكون ذلك الى الحـد الذى لا يمسّ مكانتـه ونفوذه، فبقى فى حُظْوة لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل حظوة، وكان فى الوقت نفســه بموضع الكرامة والرضا من أهل السنّة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن نبدى شيئا فى رأيه . وكل ما يمكن أن يستنبط مما تقدم أنه كان حسن التقية، بارعا فى المداراة والمصانعة والرِّياء . وكانت هذه الخلّة من أظهر مُمَيِّزات العصر، فالخليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن عَبْرة استعبرها كانت إجابته : «قتلنى الله إن لم أقتل طاهرا»، ثم هو بعدُ يوصى صاحب أخباره بالرِّياء، ويعدد لنا أهل الرياء فى عصره، وهاك مثلا قاضى قضاته كما ترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن نستسيغ مشادّته العنيفة أحياناً فى محاورة صديقه ومصطنعه ثمامة بن أشرس، مع ما فى هذه المشادّة من نُكْران للجميل ومن تعريض نفوذه للضياع، دون أن يكون على خُلْف معه فى الرأى، ودون أن يميل الى صحة ما يرويه المؤرخون من أنه كان سليما من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة ؟

هذا ماىمكن أن تؤدى اليه المقدمات و إن كانت حياة يحيى والبيئة التى تحيط به تجعله الى الجانب الآخر أقرب . نريد من كل هذا أن نستنبط رأى يحيى الكلامىّ و إن كان وهو قاضى القضاة حريصا على أن يكون بنجوة عن منازعات الأحزاب الكلامية، إذ نظن أن الذى ينصح الى المأمون حين أراد أن يلعن معاوية، وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ فى حَفْل من الناس بقوله : «ياأمير المؤمنين إن العامة لاتحتمل هذا، ولا سيما أهل خراسان، ولا تأمن أن تكون لهم نَفْرة، وإن كانت لم تدر ماعاقبتها ، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفِرَق، فإن ذلك أصلح فى السياسة، وأحرى فى التدبير»[(١)] . نظن أن الذى يفعل ذلك هو من أحرص الناس .

هذا كله كان فى الفترة التى كان فيها متصلا بمناصب الدولة أو على أمل الاتصال بها . أما بعد أن سَخِط عليه المأمون وأقصاه من مناصب الدولة، وأوصى الى المعتصم بأن يتدرّع بالحذر منه ومن أمثاله، فقد ظهر يحيى بن أكثم معارضا عنيفا لبدعة خَلْق القرآن . ومن هنا نميل الى أن نفترض أن الجملة التى رواها ابن خلّكان صحيحة النسبة اليه، وأنها من آثاره بعد غضب المأمون عليه .

أدبه :

ذ كر أن يحيى بن أكثم كان فقيها بصيرا بالأحكام ، راويا للحديث، آخذا من كل فنّ بطرف، ويظهر أن حظّه من الأدب الإنشائىّ لم يكن كحظّه من غيره ؛ فإنه لم يؤثَر عنه فى المصادر التى بين أيدينا من القطع الرائعة النثرية أو الشعرية إلا أبيات من الشعر نُسبت اليه فى الغزل بالمذكر . من ذلك ما عزى اليه حين دخل عليه ابنا مَسعدة ، وكانا فى نهاية الجمال، وكانا كلما يمشيان فى الصحن أنشد قوله :

يازائرِينا من الخيامِ ٭ حيّاكم الله بالسلامِ

(١) هذه السياسة حازمة وهى التى يجرى عليها الملوك فى الدول التى فيها أحزاب مختلفة يكون الملك فوق الأحزاب منازعتها ولا يظهر ميله لحزب دون حزب .

لم تأتيانى وبى نهوض ۰ الى حلالٍ ولا حرامِ
يحزننى أنْ وقفتما بى ۰ وليس عندى سوى الكلامِ

ويقال : إن هذه الأبيات كانت سببا لعزله كما قدمنا .

ومما ينسب اليه من الشعر قوله فى غلام جميل كان يكتب بين يديه، فقرص القاضى خدّه، فخجل الغلام وطرح القلم من يده، فأملى عليه هذه الأبيات :

أيا قمرًا جمّشتُهُ فتغضّبا ۰ وأصبح لى من تيهه متجنّبا
اذا كنتَ للتجميش والعضّ كارها ۰ فكنْ أبدا ياسيّدى متنقّبا
ولا تظهر الأصداغَ للناس فتنةً ۰ وتجعل منها فوقَ خدّيك عقربا
فتقتلَ مسكينا وتفتنَ ناسكا ۰ وتترك قاضى المسلمين معذّبا

وقيل : إن هذه الأبيات قالها فى الحَسَن بن وَهْب وهو صبىٌّ، وقد لاعبه وجمّشه فغضب الحسن .

أخـــلاقه :

حسبُنا أن نذكر لك دلالة على ما لهذا الرجل من فطنة وحزم وتدبير وحسن سياسة أنه تملّك قلب المأمون، الذى قدّمنا لك عنه ما قدّمنا ، حتى غلب عليه دون الناس جميعا وكان مع ذلك مَهيبا، خفيفَ الروح ، سَليطَ اللسان ، قوىَّ القلب، سريعَ الخاطر. وحَسْبُك دلالةً على قوّة قلبه وسرعة خاطره ما رُوى من أن المأمون قال له معرّضا به : مَن الذى يقول :

قاضٍ يرَى الحدَّ فى الزناء ولا ۰ يرَى على مَنْ يلوطُ من بَاسِ؟

قال : أوَ مَا يعرف أمير المؤمنين مَن القائل ؟ قال : لا، قال : يقوله الفاجر أحمد بن نعيم الذى يقول :

لا أحسبُ الجَوْرَ ينقضى وعلى الأمة وَالٍ من آل عَبّاس

فأُفحِم المأمون خجلا وقال : ينبغى أن يُنْفَى أحمد بن أبى نعيم الى السِّنْد . وهذان البيتان من قصيدته التى قد ذكرناها فى الحياة الأدبية لعصر المأمون .

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبى دُوَاد ويحيى بن أكثم فى أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك فيقال: إن كليهما غلب على سلطانه فى عصره . ووصفهما بعض البلغاء وقد سئل عن أيّهما أنبل فقال: كان أحمد يَجِد مع جاريته وآبنته، ويحيى يَهزل مع خصمه وعدوّه .

سيرته :

أما سيرته فلم نر رجلا فى مركزه الدينى والآجتماعى حامت حوله الرِّيب والإشاعات مِثْل ما حامت حولَ هذا القاضى، ومع هذه الريب والإشاعات فقد كان مرعىَّ الجانب، موفورَ الكرامة. ويظهر أن جلّ الناس حتى أخصّ أصدقائه به، كانوا يَجنحون الى تصديق هذه الإشاعات، إلا أئمة الدين فقد كانوا يُكْبرونه وينكرون أن يكون لهذه الاشاعات ظلّ من الحق، فقد سئل أحمد بن حنبل عن هذه الإشاعات فأنكرها إنكارا .

ولعل الذى يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف، وإنكارهم ما ينسب اليه من إشاعات، موقف يحيى من المأمون يوم (المتعة) وغير يوم المتعة، مما جعله فى نظرهم بطلا من أبطال الدين، وخَليقا بمثله أن يكون بَنجوة من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدّثنا ابن خلكان نقلا عن ابن الأنبارى أنه قال لرجل كان يأنس به ويمازحه: ما تسمع الناسَ يقولون فىَّ؟ . قال: ما أسمع إلا خيرا، قال: ما أسالك لتزكّينى. قال: أسمعهم يرمون القاضى ... قال: فضحك وقال: اللهم غَفْرًا المشهور عنا غير هذا .

ويقال: إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأخلى له مجلسا وآستدعاه، وكان قد أسرّ الى غلام خَزَرِى أن يكون فى خدمتهما وحده، حتى اذا خرج المأمون عابث القاضى، فلما آستقر بهم المقام وخرج المأمون، أخذ الغلام يعابث القاضى، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضىَ يقول: " لولا أنتم لكنّا مؤمنين " فدخل عليهما منشدا قول أبى حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وكنّا نُرجّى أن نرى العدل ظاهرًا * فأعقبنا بعدَ الرجاء قُنُوطُ
متى تَصْلُح الدنيا ويَصْلُح أهلُها * وقاضى قضاة المسلمين يَلُوطُ

وقد قلنا : إن أخصّ أصدقائه به كان يجنح الى تصديق هذه الإشاعات، فقد قيل : إن صديقه أبا عبـد الله الحسين بن عبد الله بن سـعيد اشتهى بعد أن مات يحيى أن يراه فى المنام ليعلم ما فعـل الله به! فأوحت اليه الأحلام أن الله غفر له بعد أن وبخه على تخليطه، وأن يحيى حاجّ ربه بالحديث المشهور : "إنى لأستحى أن أعذّب ذا شيبة بالنار" فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه مَن يعتقد براءته ! .

تآليفـــــه :

يحدّثنا المؤرّخون أن يحيى بن أكثم ألّف كُتباً فى الفقه ، وأخرى فى الأصول، وله كتاب أورَده على العراقيين أصحاب أبى حنيفة سمّـاه : « كتاب التنبيه » . وهـذا يؤيد ما قاله الدارقطنىّ من أنه كان من أصحاب الشافعىّ .

***

(ز) إسحاق بن ابراهيم الموصلى :

قد يكون حظُّ المغنين وأهـل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرّخين فى العصور الإسـلامية أكثرَ من حظ غيرهم ، وقـد عُنِى المؤرّخون بتسـجيل حوادثهم وألحانهم وإيقاعاتهم، وما كان يقع بينهم من خلاف منشؤه المنافسةُ والحسد، أو التقرّب الى ذوى السلطان، وما كان يتفق لهم من مُفاكهات لطيفة، ونِكات طريفة . وهذه العناية ظاهرة من الكتب الكثيرة التى أُرصِدت لهذه الناحية من تاريخ الحَضارة الإسلامية، وقد عبث الدهر بجلّ هذه الكتب، ولم يبقَ منها إلا القليلُ ، وعلى رأس هذا القليل البـاقى، وهو الحجةُ فى هذا الموضوع « كتاب الأغانى لأبى الفرَج الأصفهانىّ» .

وقبـل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصـيل حياته، نقرّر أننا عاجزون كلّ العجز عن أن نجلُوَ الناحيـةَ الفنّية من شخصيته، فإن جلاءَ هذه الناحية وكشفَها لا يتّسق إلا لرجل أُوتِىَ حظًّا كبيرا من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدِّر مواهبَ أهل الفنّ وما وُفّقوا اليه من إجادة، ونرجو أن يُتاح لإسحاق مَن يتوافر له هذا الحظ ،فيجلُو لنا شخصيته الفنية، ومبلغ

المَدَى الذى قطعه فى سبيل الكمال الموسيقى ، كما أُتيح "لبتهوفن" وغير "بتهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى ، مَن أبرز شخصياتهم الفنية للناس،وأبان ما لعبقرياتهم من آيات خالدات فى الفنّ .

ولن يستطيع أحد مهما أُوتِىَ من مواهب ، وآتخذ من أسباب أن يجلُوَ شخصية إسحاق الفنية ، ما بَقِيتْ مصطلحات الموسيقى العربية مُغْلَقةً لم تفتح ، وما بَقِيت تعاليمُها ألغازا لم تُحلّ .

واذ كان هذا هو موقفنا من الناحية الفنية إزاء شخصية إسحاق ، فلنكن مؤرّخين ليس غيرُ . نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرّخون ، مع تحليل ما نُوفّق الى تحليله من أخلاقه وأعماله ، فنقول :

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن مَيْمون بن بَهْمَن بن نسك . ووالده إبراهيم وهو ماهان ، وسبب نسبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صديق له فعنونه : من إبراهيم بن ماهان ... فقال بعض إخوانه من فتْيان الكوفة : أما تستحى من هذا الاسم ؟ قال : هو اسم أبى قال : فغيِّره ؛ قال : فكيف أغيِّره ، فأخذ الفتى الكوفى الكتاب فمحا ماهان ، وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أُسرة إسحاق من فارس ، من بيت شريف فى العجم ، كان هَرَب جَدُّه ماهان من جَوْر بعض عُمّال بنى أمية لخَرَاج طُولب بأدائه ، فنزل الكوفة . وأمّ إبراهيم والد إسحاق من بنات الدَّهَاقين الذين هَرَبُوا كما هَرَب ماهان ، وتزوّجها ماهان بالكوفة ، فولَدت له إبراهيم ثم مات وسنُّ ابراهيم سنتان أو ثلاث فكَفَل إبراهيمَ آلُ خزيمة بن خازم ، ومن هذا صار وَلَاؤُه الى تميم .

وقد سأل الرشيد ابراهيم عن السبب بينه و بين تميم فقال له : رَبَّوْنا يا أميرَ المؤمنين ، فأحسنوا تربيتنا ، ونشأتُ فيهم وكان بيننا و بينهم رضاع فتولّونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله و بيته وكافلى أبيه :

اذا كانت الأشرافُ أصلى ومَنصِبى ∗ ودافــع ضيمى خازمٌ وآبنُ خازمِ
عَطَسْتُ بأنفٍ شـامخ وتناولتْ ∗ يَــدَاىَ الثُّرَيَّا قاعدًا غــيرَ قائمِ

وسبب قولهم الموصلىّ أنه لمـا اشـتدّ إبراهيم وأدرك صَحِب الفِتْيانَ وآشتهى الغِناء وطلبه، فاشتدّ أخوالُه عليه فى ذلك، وبلغوا منه، فهَرَب الى المَوْصل، وأقام بها سنةً، فلما رجع الى الكوفة قال له إخوانُه من الفِتْيان : مَرْحبا بالفتى الموصلىّ، فغلبتْ عليه .

ثم ما زال ابراهيم يأخذ بأسباب الغناء حتى حَذَقَه، وآتصـل بأحد عُمّال المهدىّ، ثم بلغ المهدىَّ أمرُه، فطلبه اليه، وبقى بعد ذلك متصلا بالخلفاء ورجالات الدولة حتى تُوُفِّىَ فى عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنــه إسحاق الذى عَقَدنا هــذا الفصل لتحليل شخصيته، وللكشف عن مواهبه وأخلاقه، فوُلِد سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنُه، وتتمّ منزلتُه إلا فى أيام الرشيد، ثم أخذ نجمُه يتألق فى سماء الخلافة العباسـية أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، ثم تُوُفِّىَ سنة ٢٣٥ هـ فى صـدر أيام المتوكل . وكان يَحُلّ من هؤلاء الخلفاء جميعا بموضع العطف والتَّجِلّة، وسـنذكر شيئا من صلته بكلّ خليفة، وما كان يُغْدِقه عليـه كلُّ خليفـة من عطف ومال .

نشـــأته :

كان حظّ إسحاق من وسائل التهـذيب والتثقيف خيرا من حظ والده إبراهيم، فإن والده نشأ يتيما فكَفَله غيرُ أبيــه حتى اذا شبّ وترعرع، وظهر ميـلُه الى نوع خاص من الفنون، لم يجد من القائمين بأمره ومَن لهم سلطانٌ عليـه مَن يقدّر استعداده الفِطرىّ، ونَزَعاتِه النفسية، حتى آضطر من إلحاح ضغط أخواله عليه، ومطالبتهم إياه أن يترك الغِنَاء، وألّا يأخذ فى شىء من أسـباب الموسيقى أن يَهِيم على وجهه فى الأرض، فى سبيل تحقيق ما تَميل اليه نفسه، وتُهيِّئه له آستعدادُه .

أما إسحاق فقد نشأ فى بيت أبيه، وشبّ وترعرع بعينه(١)، وقد وجد من أبيه الذى فهم الحياة ولذعته آلامها، من يهتمّ بتثقيفه، ويحترم نزعاته الفطرية، وميوله النفسية. و إسحاق يُعدّ ابن رجل أثير عند الخلفاء، مُقدّم لدى رجالات الدولة، وفى وفرة من الثراء، وحظّ عظيم من الترف، مما يصله به الخلفاء وغيرُ الخلفاء، فاستطاع إسحاق بجاه أبيه وماله أن يختلف الى جلّة العلماء، وكبار رجال الفنّ، وأن يرتاد خيرَ البيئات والأوساط التى لا يقلّ أثرها فى تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظّ الموسيقى والآداب أن تتهيأ الأسباب وتستوىَ الوسائلُ لرجلها الفذّ ونابغتها العظيم.

ويحدثنا إسحاق عن شىء من تربيته وتثقيفه، فيقول: «أقمتُ دهرا أُغلِّس كلّ يوم الى هشيم، فأسمع منه ثم أصير الى الكسائىّ أو الى الفرّاء فأقرأ عليه جزءا من القرآن، ثم آتى منصورَ زلزَل، فيضاربنى طريقتين أو ثلاثا، ثم آتى عاتكةَ بنت شهدة، فآخذ منها صوتا أو صوتين، ثم آتى الأصمعىّ وأبا عُبيدة، فأناشدهما وأحادثهما وأستفيد منهما، ثم أصير الى أبى، فأُعلمه بما صنعت وأخذت، وأتغدّى معه وأروح معه عشاء الى أمير المؤمنين».

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فترة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كان يختلف كلّ يوم الى رجال الحديث، ثم رجال القرآن والنحو، ثم أهل الفنّ الضاربين على الآلات والملحّنين، ثم يذهب بعد ذلك الى أهل الأدب والرّواية، فيناشدهم ويحادثهم، ويستفيد منهم؛ ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كلّه يخبره بما صنع وأخذ، حتى اذا جاء المَساء ذهب مع أبيه الى دار الخلافة، وهى — أيدك الله — خيرُ مُنتدًى لرجال العلم والأدب والسياسة فى الدولة.

هذه التربية المنظّمة، والبيئات الراقية، أخرجت من طفل ابراهيم الموصلىّ: ذلك الطفل الذكىّ النشيط، رجلا يصفه صاحبُ الأغانى بقوله: «موضعه من العلم، ومكانه

(١) أى تحت رعايته وعنايته.

من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدُّمه فى الشعر، ومنزلتُه فى سائر المحاسن، أشهرُ من أن يُدَلّ عليها بوصف، وسترى فى مَطَاوِى ما نورده عليك من أحاديثـه، ونوادره أنه ما عالج عِلْما من العلوم، أو فنا من الفنون، إلا بَرَع فيه وبرز» .

فأما الغِناءُ، فحَدّثنا أبو الفَرَج صاحب الأغانى : أنه كان أصغرَ علومه، وأدنى ما يُوسم به، وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يُحسنه، فإنه كان له فى سائر أدواته، نظراء وأكفاء، ولم يكن له فى هذا نظير لحَق بمَن مَضَى فيه، وسَبَق مَن قد بَقِى، وسهّل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا، وقدوتُهم ورأسُهم ومعلّمُهم، يَعرف ذلك منه الخاصّ والعام، ويَشهد له المُوافق والمُفارق، على أنه كان أكرَهَ النـاس للغناء، وأشـدَّهم بُغْضا له، لئلا يُدْعى عليه ويُسمّى به .

وهذه الجملة الأخيرة، وهى أنه كان من أكْرِهِ النـاس للغناء ... الخ، تدلّنا بوضوح على نفسية إسحاق ومَطامحه من جهة، وعلى ما كان للمغنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من جهة أخرى، كما تدلّنا على أن المغنين وأهلَ الموسيقى، كانت منزلتُهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرُّواة وأهـل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان عالىَ النفس، بعيدَ الهِمّة، يَكْرَه أن يتصل بفنّ يقعُد به دون ما هو خليق به من منزلة ومكانة، وماذا يصنع إسحاق وقد أُوتِىَ مَوْهبة لم يُؤْتَها أحدٌ غيرُه، وهى موهبةٌ تأبى إلا أن تُعلن نفسها، كما يُعلن الزهر نفسه بأَرَجه، والقُمْرِىّ بهَديله، وماذا يُجدِى عليه كُرْهُه للغناء وبغضُه له، وقد يطالبه به مَن لا يَرى سبيلا الى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق فى كراهيته للغناء صادقَ الشعور، صادقَ الحسّ، فإنه لم يَحُلْ بين المـأمون وبين أن يُوَلّيَـه أسمى المنـاصب إلا شهرته بالغناء، إذ يقول المـأمون : «لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس وشهرته عنـدهم بالغناء، لوليّتُه القضاءَ بحضرتى، فإنه أولى به وأعفّ وأصـدق وأكثر دينا وأمانةً من هؤلاء القضـاة» . وقد يكون من حق إسحاق أن يَكْرَه الغِناء، ويألَمَ لاتصاله به، إذ يَرى المناصب الساميةَ فى الدولة، يتبوّؤها قوم

هم دونه فيما وصلوا اليها به، وهم وصلوا اليها بالعلم، وقد كان هو عالما بالفقه والحديث وعلم الكلام، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس، وكان لايدع فُرصةً دون أن يُعلن سُخْطَه وما ناله من ظلم، فقد حدثنا ابن خلكان أن محمد بن عطيّة العَطَوى الشاعر قال: كنت فى مجلس القاضى يحيى بن أكثم، فوافى اسحاقُ بن ابراهيم الموصلىّ، وأخذ يناظر أهل الكلام، حتى انتصف منهم ثم تكلّم فى الفقه فأحسن، وقاس واحتجّ، وتكلّم فى الشعر واللغة ففاق مَن حضر، ثم أقبل على القاضى يحيى فقال: أعزّ الله القاضى، أفى شيء مما ناظرتُ فيه وحكيتُه نقصٌ أو مَطْعَنٌ، قال: لا، قال: فما بالى أقومُ بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأُنسب الى فنّ واحد، قد اقتصر الناسُ عليه، يعنى الغناء، قال العَطَوىّ: فالتفت الىّ القاضى يحيى، وقال لى: الجواب فى هذا عليك، وكان العَطَوىّ من أهل الجَدَل، فقال للقاضى يحيى: نعمْ — أعزّ الله القاضى — الجواب علىّ، ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، أنت كالفرّاء والأخفش فى النحو؟ فقال: لا، فقال: أنت فى اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعىّ وأبى عُبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت فى علم الكلام كأبى الهُذَيل العلّاف والنظّام البَلْخىّ؟ قال: لا، قال: فأنت فى الفقه كالقاضى؟ — وأشار الى القاضى يحيى — فقال: لا، قال: فأنت فى قول الشعر كأبى العَتاهِيَة وأبى نُوَاس؟ قال: لا، قال: فمن هاهنا نُسبتَ الى ما نُسبتَ اليه، لأنه لا نظيرَ لك فيه، وأنت فى غيره دون رؤساء أهله، فضحك وقام وانصرف، فقال القاضى يحيى للعَطَوىّ: لقد وفّيتَ الحُجّةَ حقّها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وإنه ممن يقلّ فى الزمان نظيرُه. اﻫ.

ومهما يكن من شىء فقد اشتهر إسحاق بالغناء دون غيره، مما كان يُحسنه من سائر العلوم، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه، وعلو نفسه، وبُعد همته، مَهِيبًا كريمًا، جمّ الأدب، عفيفَ اللسان. أما عن كرمه فيَروى لنا صاحبُ الأغانى، أنه كان يُجرى على أبى عبد الله الأعرابىّ فى كل سنة ثلاثمائة دينار، وأن ابن الأعرابىّ هذا وقف على

المدائنيَّ يوما، فقال له المدائني : الى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمْضِى الى رجل هو كما قال الشاعر :

تَرمِى بأشباحنا الى مَلِكٍ * نأخذُ من ماله ومن أدَبِه

قال : ومَن ذاك؟ قال : إسحاقُ بن إبراهيم ! .

وإنا نسوق اليك قصّةً أخرى وهى مع دلالتها على شَغَف إسحاق بالعلم، والحِرْص على استثباته، تدلّ أيضا على سخاء نفسه وكرمه .

قال اسحاق : جئت يوما الى أبى معاوية الضَّرير، ومعى مائةُ حديث، فوجدت حاجبه يومئذ رجلا ضَريرا، فقال لى : إن أبا معاوية قد ولّانى حِجَابته لينفعنى، فقلت له : معى مائةُ حديث، وقد جعلتُ لك مائةَ درهم اذا قرأتها، فاستأذنْ لى، فدخلتُ على أبى معاوية فلما عَرّفنى دعاه، فقال له : أخطأتَ، إنما جعلتُ لك ذلك على الضعفاء من أصحاب الحديث، فأمّا أبو محمد وأمثالُه فلا، ثم أقبل علىَّ يُرَغّبنى فى الإحسان اليه، ويذكر ضعفه، وعنايته به، فقلتُ له : احتكِمْ فى أمره، فقال : مائة دينار، فأمرتُ الغلام بإحضارها، وقرأتُ عليه ما أردتُ وانصرفت . وهذه القصة تدلّ على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهَيْثم : كنتُ يوما جالسا «بسُرَّ مَنْ رأى» عند إخوان لى، وكان طريق إسحاق فى مضيه الى دار الخليفة، ورجوعه علينا، فجاءنى الغلام يوما، وعندى أصدقائى، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ بالباب، فقلتُ : يدخلُ، أوفى الأرض مَن يُسْتأذن عليه لإسحاق، فذهب الغلامُ بإذنه، وبادرتُ الى تلقيه، فدخل وجلس مُنبسطًا آنسا، فعَرَضْنا عليه ماعندنا، فأجاب الى الشراب، فأحضرنا نبيذا مُشمسا، فشرب منه، ثم قال : أتحبون أن أغنّيكم؟ فقلنا : إى والله ! أطال الله بقاءك، إنا نُحبّ ذلك، قال : فلِمَ لا تسألونى ؟ قلنا : هِبْناك، قال : فلا تفعلوا، ثم دعا بعود، فأحضرناه فاندفع يُغنّى، فشربْنا وطَرِبْنا، فلما فرَغ قال : أحسنتُ أم لا ؟ فقلنا : بلى والله! جعلنا فداك، لقد أحسنتَ، قال : فما

منعكم أن تقولوا لى أحسنتَ؟ قلنا : الهَيبة والإجلال لك، قال : فلا تفعلوا هذا فيما تستأنفون، فإن المُغَنِّى يحبّ أن يقال له : أحسنت، ثم غَنَّى :

خليلىّ هُبّا نَصْطبِح بسَوَادِ ❊ ونُرْوِ قلوباً هامُهن صَوَادِى

وقُولا لساقينا زِيادٍ يُرِقُّها ❊ فقد هَدَّ بعضَ القوم سَقْىُ زِيادِ

فقلتُ : يا أبا محمد، فمن هو زياد؟ قال : غلامى الواقف على الباب، ادْعُه ياغلام، فدخل فإذا هو غلامٌ خِلَاسِىّ(١)، قيمتُه عشرون دينارا أو نحوها، فقال : أتسالوننى عنه، فأعرِّفكم إياه، وأُدْخِله اليكم، ويخْرُج كما دخل ! وقد سمعتم شعرى فيه وغنائى ! أشهدكم أنه حرٌّ لوجه الله تعالى، وقد زوّجتُه أختى فلانة، فأعينوه على أمره، قال: فلم يخرج حتى أوصلْنَا اليه عشرين ألف درهم . ولعل فى هذه القصة المتقدمة أيضا، مَقْنَعًا لك بما كان لإسحاق فى نفوس الناس من هَيْبة وكرامة .

منزلة إسحاق فى الغناء :

قدّمنا لك أننا نعترف بالعجز عن أن نجلُوَ الناحية الفنيّةَ من حياة إسحاق، وأن ذلك لايتسق إلا لرجل أُوتِىَ من المواهب الفنية حظا عظيما، وقدّمنا لك أن إسحاق كان يُحسن كثيرا من العلوم إحسانا، قلّ أن يتّسق لغيره، وأنه كان مع إجادته الغناءَ وتبريزه فيه، وسَبْقه أقرانَه، يَكْرَه أن ينتسب اليه أو يُسمَّى به، لأنه كان عالىَ النفس، بعيدَ مرامى الهمة، ويَرى أن انتسابه الى الغناء يقصر به عن بلوغ مرامى همته . والآن نقول : إنه كان مع هذا شديدَ الغَيْرة على الغناء، كثيرَ الذبّ عنه، وله العذر، فإن صاحب الفنّ أيا كان الفنّ، لا يجد الى الصبر سبيلا، اذا عَبِث بفنه العابثون أو تَهَجَّم عليه المتهجّمون .

واذا كنا نعترف بالعجز عن أن نجلُوَ الناحية الفنية لإسحاق، فإن ذلك لا يمنعنا من أن ننقل اليك شيئا مما رواه المؤرّخون، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء، ورجالات الدولة، وأصحاب الفنّ، لنبوغه فى فنه، وتبريزه فيه، ولتعلم — أيضا مما كان

(١) الخلاسىّ : الولد بين أبوين أسود وأبيض .

يُبديه من مُلاحظات — مبلغَ ما كان له من دِقّة حِسّ، وقوّة ذَوْق، وحِدّة شعور، وسلامة فِطْرة .

ويعدو بنا الكلام عن القَصْد، لو أطلقنا لأنفسنا العِنَان، فى إيراد كل ما نراه حسنا وظريفا من أحاديث إسحاق ومجالسه، وما كان يتفق له من مفاكهات ونوادر؛ لذلك نكتفى بإيراد بعض حوادثه، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشرهم، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقدمنا لك أن إسحاق ظهر فى عهد الرشيد، وتُوُفِّى فى صدر أيام المتوكّل، فلنذكر لك شيئا من تاريخه، ونوادره مع كلّ خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسىّ .

أما الرشيد فقد كان يُلَقّبه من إعجابه به، بأبى صَفْوان، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت، وقد بلغ من إعجابه به أن استأثر به لنفسه، ونهاه عن أن يُغنى أحدًا غيرَه، ويحدّثنا إسحاق عن هذا بقوله: نهانى الرشيد أن أُغنى أحدا غيره، ثم استوهبنى جعفر بن يحيى، وسأله أن يأذن له فى أن أُغنيه ففعل، واتفقنا يوما عند جعفر وعنده أخوه الفضل، والرشيد يومئذ عقيب عِلّة قد عُوفِى منها، وليس يشرَب، فقال لى الفضل: انصرف الليلةَ، حتى أَهَب لك مائة ألف درهم، فقلت له: إن الرشيد نهانى أن أُغَنّى إلا له ولأخيك، وليس يخفى عنه خبرى، وأنا مُتَّهم بالميل إليكم، ولستُ أتعرّض له ولا أعرّضك، فلما نكبهم الرشيد، وقال: إيهِ يا إسحاق تركتنى بالرَّقة، وجلستَ ببغداد تُغَنّى الفضلَ بن يحيى؛ فحلفت بحياته إنى ما جالستُه قطُّ إلا على الحديث والمذاكرة، وإنه ما سمعنى قطُّ إلا عند أخيه وحلّفته بتربة المهدى أن يسأل عن هذا فى دارهم من نسائهم، فسأل عنه فحُدّث بمثل ما ذكرتُه وعرف خبر المائة ألف الدرهم التى بذلها لى ورددتُها، فلما دخلت عليه ضحك، ثم قال: سألت عن أمرك فعرفته مثل ما عرّفتنى، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، عوضا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعى : دخلت أنا واسحاق بن ابراهيم الموصلى يوما على الرشيد، فرأيناه لَقِس النفس[1] فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبخل قلتُ لها اقصرى * فذلك شيء ما اليه سبيلُ
أرى الناسَ خُلّانَ الكرام ولا أرى * بخيلا له حتى الممات خليلُ
وإنى رأيتُ البخلَ يُزرى بأهله * فأكرمتُ نفسى أن يُقالَ بخيلُ
ومن خير حالات الفتى لو علمتِه * اذا نال خيرا أن يكون يُنيلُ
فعالِى فعالُ المُكثِرين تجمُّلاً * ومالى كما قد تعلمين قليلُ
وكيف أخاف الفقرَ أو أُحرَم الغنى * ورأىُ أمير المؤمنين جميلُ

قال فقال الرشيد : لا تخف إن شاء الله، ثم قال : لله درُّ أبياتٍ تأتينا بها، ما أشدَّ أصولَها، وأحسنَ فصولها، وأقلّ فضولَها، وأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له إسحاق : وَصْفُكَ والله يا أمير المؤمنين أحسنُ منه، فعلامَ آخذ الجائزة؟ فضحك الرشيد، وقال : اجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعى : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم منّى ! .

وكان من أشدّ منافسى إسحاق فى الغناءِ إبراهيمُ بن المهدى أخو الرشيد الذى كان يعتزّ عليه بجاهه، وبماله من حظّ فى الفن كبير، ومن أشدّ الملاحاة التى حدثت بينهما، ما كانت فى مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماؤه وخاصته، وفيهم ابراهيم بن المهدى، فقال الرشيد غنّ :

أعاذل قد نُهيتُ فما انتهيتُ * وقد طال العتاب فما ارعويتُ
أعاذل ما كَبِرتُ وفى مَلْهًى * ولو أدركت غايتك انتهيتُ
شربتُ مُدامةً وسُقيتُ أخرى * وراحَ المُنتشُون وما انتشيتُ

---

(١) لقست نفسه عن الشىء : خبثت وغثت .

فغنيته، فأقبل عليّ ابراهيم بن المهدي فقال لى : ما أصبتَ يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنه، وإن شئت فغنّه، فإن لم أَجِدْك أنك مخطئ فيه منذ ابتدائك الى انتهائك، فدمى حلال! ثم أقبلتُ على الرشيد فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتى، وصناعةُ أبى، وهى التى قرّبتْنا منك، وأوطأتْنا بساطَك، فاذا نازعنا أحد بلا علم، لم نجد بُدًّا من الإيضاح والذّبّ، فقال: لا لومَ عليك، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدى عليّ وقال لى: ويلَك يا إسحاق، أتجترئ عليّ وتقول ماقلت يابن الزانية! فداخلنى ما لم أَملِكْ نفسى معـه ، فقلت له : أنت تشتمنى، ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة، وأخو الخليفة، ولو لا ذلك لقلت لك : يابن الزانية، كما قلت لى يابن الزانية، أوَ ترانى لا أُحسِن أن أقول لك يابن الزانية، ولكن قولى لك ذلك ينصرف الى خالك، ولو لا ذلك لذكرت صناعته ومذهبه، قال: وكان بَيْطارا، ثم سكتَ، وعلمتُ أن ابراهيم سيشكونى الى الرشيد، وسوف يسأل مَن حضر عما جَرى، فيخبرونه فتلافيتُ ذلك بأن قلت : أنت تظن أن الخلافة لك، فلا تزال تهددنى بذلك، وتعادينى كما تُعادى سائر أولياء وغلمانِ أخيك حسدًا له ولولده على الأمر، وأنت تضعفُ عنه وعنهم وتستخفّ بأوليائهم تَشَـفِّيًا، وأرجو ألا يُخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده، وأن يقتُلك دونها، فان صارت اليك — والعياذ بالله تعالى — فحرامٌ عليّ العيش حينئذ! والموت أطيب من الحياة معك، فاصنع حينئذ مابدالك! فلما خرج الرشـيدُ وثب ابراهيمُ فجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، شتمنى وذكر أمى واستخفّ بى! فغضب الرشيد، وقال لى: ويلك ما تقول؟ قلتُ: لا أعلم، فَسَلْ مَن حضر، فاقبـل على مَسْرور وحُسين، فسألهما عن القصّة، فجعلا يُخبرانه ووجهه يتربّد الى أن انتهيا الى ذكر الخلافة، فسُرّى عنه ورجع لونه، وقال : لاذنبَ له، شتمته فعرّفك أنه لايقدر على جوابك، ارجع الى موضعك، وأمسك عن هذا! فلما انقضى المجلسُ وانصرف الناس، أمر بالّا أَبْرح، وخرج كلّ مَن حضر حتى لم يبقَ غيرى، فساء ظنّى وأوهمتنى نفسى، فأقبل عليّ

وقال : يا إسحاق أترانى لم أفهم قولك ومرادك ! وقد زيّنته ثلاثَ مرات ، أترانى لا أعرف وقائعك وإقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تَعُدْ ! حدّثنى عنك : لوضربك ابراهيمُ أكنتُ أضربه وهو أخى ياجاهل ! أتراه لو أمر غلمانَه فقتلوك أكنتُ أقتلُه بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قتلتنى بهذا الكلام وإن بلغه ليقتلنّى ، فما أشكّ فى أن بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال : علىّ بابراهيم ، فأُحضِر فقال لى : قم فانصرف فقلتَ لجماعة من الخدم — وكلهم كان لى مُحِبّا ، والىّ مائلا ، ولى مطيعا — : أخبرونى بما يجرى ، فأخبرونى من غد ، أنه لما دخل عليه وبّخه وجهّله وقال له : أتستخفّ بخادمى وصنيعتى ، وابن خادمى وصنيعتى ، وصنيعة أبى فى مجلسى ! وتُقْدِم علىّ وتستخفّ بمجلسى وحضرتى ! هاه هاه ! وتُقْدِم على هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للغناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أخَذَك به وطارحك إياه حتى تتوهم أنك تبلغ فيــه مبلغَ إسحاق الذى غُذّى به وعُلّمــه ، وهو من صناعته ؟ ثم تظن أنك تُخطّئه فيما لا تدريه ويدعوك الى إقامة الحجة عليــه ، فلا تَثْبُت لذلك ، وتعتصم بشتمه ، هذا مما يدلّ على السقوط وضعف العقل ، وســوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وغلبة لذتك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهارِك إياه ولم تُحكمه ، وإدعائك ما لا تعلمه حتى ينسبكَ الى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هــذا سوءُ أدبٍ ، وقلّة معرفة ، وعدم مبالاة لخطأ والردّ القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رســوله ، وإلّا فأنا برىء من المهدى إن أصابه أحدٌ بمكروه ، أو سقط عليه حجرٌ من السماء أو وقع من دابّته ، أو سقطت عليــه سقيفةٌ ، أو مات فجأةً ، لأقتلنّك به ، والله والله وأنت أعلم . قم الآن فاخرُج ولا تعرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلتُ عليــه وإبراهيم عنده ، فجعل ينظر اليه مرّة ، والىّ مرّة ، ويضحك ، ثم قال له : إنى لأعلم شبتك لإسحاق وميلَك اليه ، والى الأخذ عنه ، وإن هذا لا يجيئك من جهتــه كما تُريد إلّا بعد أن يَرْضَى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أحْسِنْ اليــه وأكرمه ، واَعْرِف حقه وصِــله ، فاذا فعلت ذلك ، وخالف ما تهواه ، عاقبتُه بيــد

مستطيلة ولسان منطلِق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبِّل رأسه، فقمت اليه، وقام الىّ واصطلحنا .

ولعل ما قدمناه لك يعطيك صورةً واضحة، عما كان لاسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حَدْبٍ عليه وبِرٍّ به .

أما مكانة إسحاق عنـد الأمين وبطانتـه، فانها لا تقل، أيدك الله، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى خيرا فى الدلالة على هـذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : اسـتدنانى الأمين يوما، وهو مُسْـتَلْقٍ على فراش، حتى صارت ركبتى على الفِراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابى، فعلتُ بفلان كذا ففعـل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدّد جماعة من خواصـه، فقلت له : أنت يا سيدى تتفضل علىّ وتُحسن رأيك فىّ! ظننتَ أنى ممن يُشاوَر فى مثـل هذا الحديث، تجاوزت بى حدّى ومقدارى، وهذا رأى يَجِلّ ولا يبلغه قدرى، فقال : ولِمَ ؟ أنت عندى عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المنزلة عند سيدى ! علّمتَنى ألّا أقول إلّا ما أعرف، ولا أطلبَ إلا ما أنال، فضحك وقال : بلغنى أنك عملت فى هـذه الأيام لحنًا فى شـعر الراعى، فلم أسمعه منك، فقلتُ : يا سـيدى ما سمعه أحد إلا جَوارِىّ، ولا حضرتُ عندك منذُ صنعتُه . فقال : غَنّه فقلت : الهيبةُ والصَّحْو يمنعانى من أن أؤديَه كما أريد، فلو آنس أميرُ المؤمنين عبـدَه بشىء يُطـربه ويُقَوِّى طبعـه كان أجود . قال : صـدقت، ثم أمر بالغـداء فتغدّينا، وأمر بالستائر فمُدّت، وغنّى مَنْ وراءها وشربنا أقداحا، فقـال : يا إسحاق، ما جاء أوان الصوت؟ فقلت : بلى يا سيدى، وغنّيتُ فى شعر الراعى :

ألم تسألْ بعـارمة الدّيارَا * عن الحىّ المُفارق أين سارا

بلى ساءلتُهـا فأبتْ جوابًا * وكيف تسائل الدِّمَنَ القِفارَا

فاستحسـنه وطرب عليـه، وقال : يا إسحاق، لا تطلب بعـد البُغْية وجود المُنْيـة، وما أشربُ بقيةِ يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخلع علىّ من ثيابه .

ومما حدث بين الأمين و إسحاق أن الأمين اصطبح ذات يوم ، وأمر بالتوجيه الى إسحاق ، فوُجّه اليـه عِدّةُ رُسُل كلهم لا يصادفه، حتى جاء أحدهم به ، فجاء مُتَشِبّا ومحمد مُغْضَب، فقال له : أين كنت؟ ويلك ! قال : أصبحتُ يا أمير المؤمنين نشيطا، فبكّرتُ الى بعض المتنزّهات، فاستطبتُ المَوْضـع فأقمت فيه ، وسقانى زياد فذكرتُ أبياتا للأخطل وهو يسقينى ، فدارَك فيها لحنٌ حسن، فصنعتُه وقد جئتُك به، فتبسّم وقال: هاته، فما تزال تأتى بما يُرضى عنك عند السُّخط، فغنّاه :

إذا ما زيادٌ علَّنى ثم علنى * ثلاث زجاجات لهنّ هـديرُ
خرجتُ أجرّ الذيلَ حتى كأنّنى * عليك أميرَ المؤمنين أمـيرُ

فقال: بل على أبيك قبّح الله فعلَك! فما زال إحسانُك فى غنائك يمحو إساءَتك فى فعلك، وأمَر له بألف دينار . وأصلُ قول الأخطل :

* اذا ما نـــديمى علّـــنى *

وزياد هذا غلام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعتقه وزوّجه من أخته بدافع من أريحيّته وأثر الشّراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدّثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهى موقفه من الغناء وسماعه ، وقد ألمعنا اليها حين عرضنا للكلام عن المنادمة فى عصره، ثم نسوق اليك بعـد هذا الحديث ماكان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق : أقام المأمونُ بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الأغانى ، ثم كان أوّل من تغنّى بحضرته أبو عيسى بن الرّشيد ، ثم واظب على السماع مُستترًا ، متشبها فى أوّل أمره بالرشـيد ، فأقام على ذلك أربع حِجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين . وكان حين أحبّ السماعَ سأل عنى ، فجُرحتُ بحضرته ، وقال الطاعن علىّ : ما يقول أميرُ المؤمنين فى رجل يتيه على الخلافة، وما أبقى من التّيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمونُ عن ذِكْرى ، وجفانى مَن كان يَصلنى لسوء رأيه فىّ ، فأضرّ ذلك بى ، حتى جاءنى علّويه يوما فقال لى :

أتأذنُ لى فى ذكرك عند المأمون؟ فإنّا قد دُعينا اليوم؛ فقلتُ : لا ولكن غنّه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك لمَن هـذا الشعر، فاذا سألك فتح لك ما تُريد ، وكان الجواب أسهلَ عليك من الابتداء؛ فقال : هاتِ؛ فألقيتُ عليه لحنى فى شعرى :

يا سَرْحَةَ المـاء قد سُدَّت مواردُه * أما اليـك طريقٌ غيرُ مســدود
لحـائم حام حتّى لا حَرَاكَ به * مُحَلّأٍ عن طريق المـاء مطرودِ

ومضى عَلُّويَه، فلما استقرّ به المجلس غنّاه، فما عدا المأمونُ أن يسمَع الغناء حتى قال : ويحك يا عَلُّويَه ! لمن هذا الشعر؟ قلتُ: ياسيدى لعبد من عبيدك جفوتَه وٱطّرحتَه بغير جُرْم، فقال : إسحاقَ تَعْنى ؟ فقلت : نعم، فقال : يحضر الساعةَ، فجاءنى رسوله ، فحضرت فلما دخلت ، قال : أدنُ فدنوتُ ، ورفع يديه مادَّهما إلىّ ، فأكببتُ عليه فاحتضننى بيديه ، وأظهر من بِرِّى ما لو أظهره صديقٌ مؤانسٌ لصديقه لسرَّه [(١)] .

ثم ما زالت تعظُم مكانته عنـد المأمون ، حتى سأله يوما أن يكون دخوله مع أهـل العـلم والأدب والرُّواة لا مع المغنين ، فاذا أراد الغِنـاء غنّاه ، فأجابه الى ذلك . ثم سأله بعـد مدّة طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له ، فدخل يوما مع يحيى بن أكثم متماسِكَيْن ، وعَلُّويَه ومخـارق فى حُجرة لهما جالسين ينتظران جلوسَ المأمون، فرأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدى المأمون، فكاد علُّويه أن يجنّ، وقال : ياقوم سمعتم بأعجبَ من هذا! يدخُل قاضى القضاة ويدُه فى يد مُغَنٍّ حتى يجلسـا بين يدَى الخليفة ! ثم مضت مدّة فسأل إسحاقُ المأمونَ فى لُبْس السواد يوم الجمعة والصلاة معه فى المقصورة ، فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم، وأمر له بهـا . وهذا الخبرُ يؤيِّد ما ذكرناه فى أوّل كلامنا على إسحاق من أنه كان يطمح الى أن يكون فى مرتبة غير مرتبة المغنين .

(١) أنظر كتاب بغـداد (ج ٦ ص ٣٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هـذه القصة فى فصل المنادمة بصيغة أخرى نقلا عن كتاب التاج .

وانظر الى دقة إحساس إسحاق وقوة ذوقه فى تبينه الخطأ فى وَتَرٍ واحد بين ثمانين وَتَرًا، وكان ذلك فى مجلس المأمون، قال اسحاق : دعانى المأمون يوما، وعنده ابراهيم بن المهدى، وفى مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عَشْرا عن اليمين وعَشْرا عن يساره، فلما دخلت، سمعتُ من الناحية اليُسْرَى خطأ فأنكرتُه، فقال المأمون : أسمعتَ خطأ؟ فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدى : هل تسمعُ خطأ؟ قال لا، فأعاد علىَّ السؤالَ فقلت : بلى يا أمير المؤمنين، فإنه لفى الجانب الأيسر، فأعاد إبراهيم سمعه الى الناحية اليُسْرَى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين مافى هذه الناحية خطأ! فقلتُ : ياأمير المؤمنين مُر الجوارىَ اللائى على اليمين يُمْسِكْنَ، فأمرهنّ فأمسكنَ، ثم قلتُ لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمّع ثم قال : ما هاهنا خطأ، فقلتُ : ياأمير المؤمنين، يُمسكْن وتضرب الثامنةُ، فأمسكن وضربت الثامنةُ، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال : نعم ياأمير المؤمنين هاهنا خطأ، فقال المأمون عند ذلك لابراهيم ابن المهدى : لا تُمارِ إسحاقَ بعدها، فان رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وَتَرًا وعشرين حلقا لجديرٌ ألّا تُمارِيَه! قال : صدقتَ يا أمير المؤمنين، وكان فى الأوتار كلِّها مَثْنَى فاسدُ التسوية، فطَرِب المأمون وقال : لله درُّك يا أبا محمد! فكنانى يومئذ.

وخبر آخر يدل على حِذْق إسحاق بفنه فى مجلس آخر للمأمون، قال اسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعَقِيد يُغَنّيه مُرتجلا وغيره يضرب عليه، فقال : يا إسحاق كيف تسمع مُغَنّينا هذا؟ فقلت : هل سأل أميرُ المؤمنين غيرى عن هذا؟ فقال : نعم، سألت عمى ابراهيم فقرّظه، واستحسنه، فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا فى أمرى، حتى نسبتْنى فِرقة الى التزيُّد فى علمى، قال : فلا يمنعك ذلك من قول الحق اذا لزمك، فقلت لعَقِيد : أُردد الصوت الذى غنّيتَه، فردّه وتحفّظ فيه وضرب عليه ضاربُه، فقلتُ لابراهيم بن المهدىّ : كيف رأيتَه؟ فقال : ما رأيتُ شيئا أُنكِرُه مما سمعته، فأقبلتُ على عَقِيد، وقلتُ له لما استوفاه : فى أىّ طريقة غنّيتَ؟ فقال : فى الرَّمَل، فقلت للضارب : فى أى طريقة ضربت؟ فقال : فى الهَزَج الثقيل، فقلت : ياأمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

فى صوت يُغَنّيه مُغَنّيه رَمَلًا ، و يضرب به ضارب به هَزَجًا ثقيلا ، وليس هو صحيحا فى إيقاعه الذى ضُرب عليه؟ قال وتفهّمه إبراهيم بن المهدىّ ، فقال: صَدَق يا أمير المؤمنين، والأمر فيه بيّن! فعَجِب المأمون من ذلك كيف خَفِىَ على كل مَن حضر .

أمّا منزلتُه عند الواثق ، فيقول ابن حَمْدون : سمعت الواثق يقول: ما غنّانى إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه قد زِيدَ فى ملكى ، ولا سمعته قطُّ يُغَنّى غِناء ابن سُرَيْج إلا ظننتُ ابن سُرَيْج قد نُشِر، وإنّى ليَحْضُرنى غيره إذا لم يكن حاضرا فيتقدّمه عنـدى بطيب الصوت، حتى إذا اجتمع عنـدى رأيت إسحـاق يَعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدمه ينقُص ؛ و إن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التى لم يَحظَ أحد بمثلها ، ولو أن العُمر والشباب والنشاط ممـا يُشتَرى لاشتريتهنّ له بشَطْر ملكى .

أما المتوكّل الذى تُوُفّى إسحاق فى أوّل عصره، فيحدّثنا ابن حَمْدون أنه سأل عن إسحاق، فعرف أنه كُفّ وأنه بمنزله ببغـداد ، فكتب فى إحضاره ، فلما دخل عليه رَفَعَـه حتّى أجلسه قُدّامَ السّرير، وأعطاه مِخَدّة، وقال: بلغنى أن المعتصم دفع إليك فى أوّل يوم جلستَ بين يديه مِخَدّة، وقال: إنه لايَستجلب ما عند حُرٍّ مثلُ إكرامه. ثم سأله: هل أكَلْتَ؟ فقال: نعم، فأمر أن يُسْقَى، فلما شَرِب أقداحا قال: هاتوا لأبى محمد عُودا، فجىء به فاندفع يُغنى بشـــعره :

ما عِلّة الشّيخ عيناه بأربعةٍ ✽ تَغرَوْرِقَانِ بدمع ثم تَنْسَكِبُ

قال ابن حَمْدون : فمـا بقى غلام من الغِلْمانِ الوُقُوف إلا وجدتُه يرقُص طَرَبًا، وهو لا يَعلم بمـا يفعل؛ فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل الى الرّقة ، وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطّير فيها ، فغنّاه إسحاق :

أأن هتفت وَرْقاءُ فى رَوْنَق الضُّحى ✽ على فَنَن غضّ النّبات من الرّند

بكيتَ كما يَبْـكى الوليـــدُ فلم تكن ✽ جليدا وأبديتَ الذى لم تكن تُبْدِى

فضحك المتوكّل، ثم قال: يا إسحاق، هذه أختُ فِعلَتِك بالواثق لمـا غنّيتَه بالصّالحية :

طَـرِبْتُ الى أُصَيْبِيَةٍ صِـغَارِ ✽ وذكّرنى الهوى قُرْبُ المَزَارِ

فكم أعطاك لما أذِن لك فى الانصراف؟ قال : مائة ألف دينار، فأمر له بمائة ألف دينار وأذِن له بالانصراف .

وإنّا لو ذهبنا نذكر لك من أخبار إسحاق ، وما كان له من نوادر فى مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفاء من رجالات الدَّوْلة لعَدَوْنا حدّ القصد، وإنما نُحيل مَن يريد التزيّد من أمر إسحاق على كتاب الأغانى. ونَختِم هذا الفصل من أخبار اسحاق بما قاله محمد بن عِمْران الجُرْجَانىّ، حين ذُكِر عنده . قال : كان والله إسحاق غُرّةً فى زمانه، وواحدا فى عصره، عِلْمًا وفهما، وأدبا ووقارا، وجَوْدَة رأى، وصحّة مودّة، وكان والله يُخرِس الناطق اذا نطق، ويُحيِّر السامع اذا تحدّث، لا يَمل جليسُه فى مجلسه، ولا تَمُجّ الآذان حديثه، ولا تَنْبو النفس عن مطاولته ، إن حدّثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غنّاك أطربك، وما كانت خَصْلة من الأدب ولا جِنْسٌ من العلم، يتكلّم فيه إسحاق فيُقْدِم أحد على مُساجلته أو مناوأته فيه !

قال إسحاق بن إبراهيم : رأيتُ فى منامى جَرِيرا جالسا يُنشد وأنا أسمع، فلما فرَغ أخذ كُبّةً من شَعرى فألقاها فى فىّ فابتلعتُها، فأوّل ذلك بعضُ من ذكرْتُه له أنه ورِثَنِى الشِّعْر. قال زيد بن محمد المهلبىّ : وكذلك كان، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه .

وقال أبو الفرج الأصفهانىّ : وكان إسحاق جيّد الشّعر، كان يقول ويَنسِبه للعرب، فمن ذلك قوله :

لَفظَ الخدورُ عليك حُورًا عِينا * أنْسَيْنَ ما جمع الكِنَاسُ قَطِينَا
فاذا بَسَمْنَ فَعنْ كمثل غَمامةٍ * أو أُقْحُوانِ الرّمل باتَ معِينا
وأصحّ ما رأتِ العيون محاجرا * ولهنّ أمرضُ ما رأيتَ عيونا
فكأنّما تلك الوجوهُ أهلّةٌ * أقْمرْنَ بين العَشْر والعِشْرينا
وكأنّهنّ اذا نَهضْنَ لحاجةٍ * ينهضْن بالعَقَداتِ من يَبْرِينا

وأشعاره فى هذا النّوع كثيرة. ولعلّ الذى كان يدفع أولئك الشّـعراء الى أن ينسبوا خير ما تجود به قرائحهـم الى العرب الجاهليّين أو أعراب الصحراء، رُوحُ ذلك العصر، وأنها كانت رُوحا تميـل الى القديم ، ولا سيّما اذا زُيّن هذا القـديم بإطار من خيال الرّواة والقصّاصين ويظهر أن ما كانوا يَظفَرون به رواةً للشّعر العربى أكثر مما كانوا يَظفَرون به شعراءَ مُجيدين ، وإلا فهل يُتصوّر أن يَنْسب المرء نتاجَ قريحته الى غيره ، ما لم يكن ثَمَنُ ذلك عظيما ؟ .

ومن شعر إسحاق ما اعتذر به الى الواثق حين عَتَبَ عليه فى تأخّره عنه، وهو قوله :

أشكُو الى الله بُعدى عن خَليفتِه * وما أُعالجُ من سُـقْمٍ ومن كِبَرِ
لا أستطيع رَحيلا إن هَمَمْتُ به * اليه يومًا ولا أقْوَى على السّـفرِ
أنوِى اليـه رَحِيـلا ثم يمنَعُنى * ما أحدَثَ الدهرُ والأيامُ فى بَصَرى

ومن شعره أيضا عند علوّ سنه :

سَلامٌ على سَيْرِ القِلاَصِ مع الرّكْبِ * ووَصْلِ الغـوَانِى والمُدامَة والشّربِ
سَـلامَ آمرئٍ لم يَبْقَ منـه بقيّة * سِوى نَظَرِ العينَيْنِ أو شهوةِ القَلْبِ

ومن جيّد شـعر إسحاق ما كان يستحسنه ابن الأعرابىّ ويعجب به أيّما إعجاب، وهو قوله :

هَـلْ الى أن تَنام عينى سبيلُ * إنّ عهدى بالنّوم عهدٌ طويل
غاب عنّى مَن لا أُسَمّى فعينى * كلّ يوم وَجْدًا عليـه تَسيلُ
إنّ ما قلّ منـك يكثرُ عِندى * وكَثِيرٌ ممّن تُحبُّ القليـلُ

وكان إسحاق اذا غنّى هـذه الأبياتَ تَفِيضُ عيناهُ . ولـمّا سُـئِلَ عن بُكائِه أجاب : تَعَشّقْتُ جارية فقلت لهـا هذه الأبيات، ثُمّ مَلَكْتُها، فكنت مَشْغُوفا بهـا، حتى كَبِرْتُ واعتلّت عينى، فإذا غنّيت هـذا الشـعر ذكرت أيّامى المتقـدّمة، وأنا أبكى على دهرى الذى كنتُ فيه .

وقال إسحاق: أنشدت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة، فجعل يعجب بها ويردّدها، فقلت له: إنها بنتُ ليلتها، فقال: لا جَرَمَ أن أثرَ التوليد فيها ظاهر، فقال إسحاق: ولا جرمَ أن أثرَ الحسد فيك ظاهر! ولعل هذا هو سبب الجَفْوة التى كانت بين إسحاق والأصمعيّ، فإن ابن منظور يَرْوِى لنا فى مختصره: أن إسحاق كان يأخذ عن الأصمعيّ ويذكر عنه الروايات، ثم فسد ما بينهما، فهجاه إسحاق وثَلَبَهُ، وذكر عند الرشيد أنه قليل الشكر، بخيل، ساقط النفس، لا تزكو الصنيعة عنده، وذكر له أبا عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المُثَنّى بالثقة والصدق والسماحة، واشتماله على جميع علوم العرب، وفعل مثلَ ذلك عند الفضل بن الرّبيع، ولم يزل بهما حتى وضع منزلة الأصمعيّ عندهما، ثم أنفذا الى أبى عُبَيْدة مالا جليلا واستقدماه، فكان إسحاق سبب ذلك.

وكان إسحاق قليل الهَجْوِ، فإذا هجا رأيت فى هَجْوِه عفّةَ اللسان، وجمال التعريض. ونريد أن نذكر لك من هذا الباب قوله فى أحمد بن هِشام، وكان اسحاق يألف أحمد هذا وأخاه عليًا وسائر أهله إلفًا شديدًا، فوقعت بينهم نَبْوةٌ ووحشة فهجاهم. وهذا مما قاله فى أحمد:

وصافية تُعْشِى العُيونَ رقيقة ٭ رهينة عام فى الدِّنان وعامِ
أدرْنا بها الكأس الروية مَوْهِنًا ٭ من الليل حتى انجابَ كلُّ ظلامِ
فما ذرّ قَرْنُ الشمس حتى كأننا ٭ من العِيّ نحكى أحمد بن هِشامِ

ويقال ان أحمد سأله ما ذنبى؟ فقال: لأنك قعدتَ على طريق القافية ...!

وكان إسحاق يَسْأَلُ الله ألا يَبْتَلِيَه بالقُولَنج، لِمَا رأى من صُعُوبته على أبيه، فرأى فى منامه كأنّ قائلا يقول: قد أُجِيبَتْ دعوتُك، ولستَ تَمُوتُ بالقُولَنج، ولكنّك تموت بضدّه، ثم أصابه ذَرَبٌ فى شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدّق فى كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم، ثم ضَعُفَ عن الصوم فلم يطِقه ومات فى الشهر.

ولمّا نُعِيَ الى المتوكل غَمّهُ وحَزِنَ عليه، وقال: ذهب صدْرٌ عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته!

مؤلفـاته :

علمتَ مما أوردناه لك فى الكلام على إسحاق أنه كان يُحسن كل ما كان عالجه من العلوم إحسانا قلّ أن يستوى لغيره، ولكنه قَصَر تأليفَه على ما قَصَرتْه عليه وظيفتُه، وعمله، فألّف فى الأغانى، والإيقَاع والنَّغم، وآداب الشّراب، والندماء، والمُنَادَمَات، وأخبار الشعراء، وأهـل الفنّ من المغنـّين والمُغنيَات . فمَن مؤلّفاته : كتاب الأغانى الكبير، وكتاب اللحظ والإشارات ، وكتاب الرّقص والزّفْن ، وكتاب النّغم والإيقاع ، وكتاب النّدماء والمنادمات. وله مؤلفات عمّن سبقه من أهل الفن، رجالا ونساء، أمثال : مَعْبَد ، وابن مِسْجَح، وعَزّة المَيْلاء، وغيرهم . وله أيضا كتاب الهُذَلِيّين، وكتاب تفضيل الشعر، وكتاب أخبار ذى الرُّمة، وكتاب جواهر الكلام . وله كتاب مُنادمة الإخوان، وتسامرُ الخلّان ، وكتاب القِيَـان، وغير ذلك مما ينطق بعلو كعبه فى شتّى الفنون، ويشهد بأنه دائرة معارف عامّة .

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨/٥٦٤/٢٣٥٠)